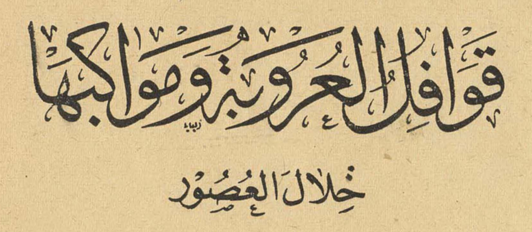
محمد جميل بيهم

رئيس المجمع العلمي اللبناني
رئيس اخوان الثقافة
عضو شرف في المجمع العالمي للتاريخ بباريس



قوافل العروبة ومواكبها

خلال العصور

الجزء الثاني

مطابع دار الكشاف - بيروت

الطبعة الاولى
١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠

محمد جميل بيهم

رئيس المجمع العلمي اللبناني

رئيس اخوان الثقافة

عضو شرف في المجمع العالمي للتاريخ باريس



الجزء الثاني

مطابع دار الكشاف - بيروت

الطبعة الاولى

١٣٦٩ هـ - ١٩٥٠

المقدمة

اشرنا في مقدمة الجزء الأول من هـذا الكتاب الى ان القصد منه وضع سفر يجمع بين تواريخ الشعوب العربية في ماضيها وحاضرها ، وفي مشرقها ومغربها ، يصح ان يكون ، من حيث الشمول ، تاريخ أمة ، وذلك سداً لهذا الفراغ في المكتبة العربية .

وقـد تناول الجزء الأول تاريخنا القومي منذ العهد القديم حتى مطلع نهضتنا الحديثة ، فتضمن حضارة العرب في الاسلام ، وانحطاطهم ، من بعـد ، ولا سيما خلال عصر العثمانيين ، وابان عهدي الحمايات والاستعمارات .

ويسرنا ان نقدم الآن الجزء الثاني من هذا الكتاب ، نستهله بالكلام على عصر اليقظة ، وتطور الوعي القومي ، ثم نختتمه بفصل عنوانه « الولايات العربية المتحدة في سبيل التحقيق » . وهو ، بين هذا وذاك ، يتناول الكلام على نضال العرب في المشرق والمغرب في سبيـل الحرية والاستقلال ، كما يتناول دراسة عهدي الانتدابات والاستقلالات ، وتبيان تطورات قضية فلسطين حتى الساعة .

هذا وقد زخرت لدينا ، اثناء التأليف ، مواد البحث في موضوع الأحداث السياسية التي وقعت خلال عهد الاستقلال، ولا سيا في سوريا ولبنان ، على ما فيها

من حسنات وسيئات . زخرت هذه المواد الى حد حملنا عـــلى ان نختار ارجاء التبسط في موضوعها ، الى جزء خاص نفرده لها ، ولعله يكون الجزء الثالث من هذا الكتاب .

ولا يسعنا في الختام الا توجيـــه الشكر للحكومات العربيات التي استقبلت بالتقـدير الجزء الأول ، آملين ان يكون الجزء الثاني مرموقاً ايضاً بانظارها ، ومقبولا ، كالذي سبقه ، في اوساط العالم العربي ، هذا العالم العزيز الذي اوقفنا النفس ، قبل القلم ، على خدمته .

على انا ، مع ذلك ، لانتبرأ من القصور ، بل نتقبل بالسرور كل ملاحظة يوجهها اهل الفضل في نقد هذا الكتاب، ونرجوهم ان يتحفونا بارسال ما يكتبون ، نقداً او تقريظاً ، قصد الاستفادة من ملحوظاتهم ، في الطبعات التالية .

المؤلف



الفصل الاول
عصر اليقظة

القضية العربية خلال سلطنة آل عثمان

لما زحف السلطان سليم العثماني على المماليك المعروفين بالجراكسة ، حكام مصر والشام ، وذلك في مطلع القرن السادس عشر ، انحـــاز اهل هذين القطرين الى صفوفه ، على أمل ان يكون حالهم في العهد الجديد خيراً مما سبقه ، او على أمل ان يبرّ السلطان بما وعد ، فيمنحهم الاستقلال الذي ما زالت نفوسهم تتوق اليه .

بيد ان وعود الفاتحين ما كانت في يوم من الايام سوى برق خلب : وما ان نكث العثمانيون بعهودهم ، حتى رأينا المستبشرين بالفتح العثماني في سوريا ووادي النيل ، وكذلك في العراق ، يخرجون على السلاطين ، وراحوا جميعاً يناضلون في سبيل الحرية والاستقلال .

وقد حفل القرن الثامن عشر ، والذي تلاه بثورات عدة ، في البلدان العربية كافة قصد التحرر من ربقة الحكم العثماني. حتى اذا دخل القرن العشرون اصبحت هذه الجهود الاستقلالية قضية امة تساهم فيها الاقطار العربية باسرها : وقد اعتمدنا في تدوين موجز هذه الحركات الاستقلالية على الوجه التالي :

١ - خروج العرب على العثمانيين للاستقلال .

٢ - القضية العربية في مظهرها الحديث .

ومن المفيد الاشارة هنا الى ان تلك الجهود الاستقلالية التي كان يبذلها بعض الامصار العربية في العهد الأول لم تكن نتيجة وعي قومي خالص ، بل كان الحافز اليهـــا ما في الاستقلال نفسه من مغريات ، وما في الاستعباد من ضغط روحي ومس بالكرامة . هذا فضلاً عن ان قسما من تلك الثورات ضد العثمانيين ، كانت من عمل الدول الاجنبية ، أو بايعازها .

١ - خروج العرب على العثمانيين للاستقلال .

انقضى عهد الفتح العثماني العادل ، وخلفه عهد الانحطاط الأغبر ، وما فيه من ظلم عمال الدولة واجنادها ، فتبدلت ، من جراء ذلك ، العواطف بين الحاكم والمحكوم . وفضلاً عن ذلك فان فشل السلطنة في اكثر الحروب التي اتصلت بينها وبين اوروبا ، وذلك في عهد انحطاطها ، كان يغري الطامحين للاستقلال ؛ فتسابقوا الى الخروج عليها منذ عهد السلطان احمد الاول (١٦٠٣ هـ - ١٦١٧ م) ؛ وبينهم العربي والكردي ، كما بينهم التركي . وهذه ابرز المحاولات الاستقلالية في الامصار العربية .

(في الشام) ما زالت بلاد الشام منذ غرة حكم السلطان سليمان القانوني مسرحاً لثورات ضد الحكم العثماني نذكر منها الثورة التي نشبت سنة ١٥٢٠ م خلال عهد هذا العاهل العظيم ، وثورتي نابلس (١٨٢٩) ودمشق (١٨٣١) . ولكن هذه الثورات لم تكن في الواقع ، ذات طابع قومي .

ولا يتسع المجال لايراد ذكر كل هذه المحاولات التحررية ، فنقتصر على ما كان منها في عهدي الأمير فخر الدين المعني الثاني ، والشيخ ظاهر العمر .

كانت الحالة الاجتماعية في لبنان وسائر ساحل الشام تساعد على الوقوف موقف الدفاع ؛ ليس ذلك من جراء حالة البلاد الطبيعية فحسب ؛ بل لأن هذا الساحل كان مأهولاً بعشائر اقيمت هناك للمرابطة في وجه الأعداء . وكانت هذه العشائر تمارس القتال فيما بينها ؛ وهي وان تجزأت الى قيسي ويمني ، الا أنها تصبح غالباً كتلة واحدة في وجه العدو الخارجي .

وكان آل معن هم اصحاب مقاطعة الشوف في لبنان . وفي مطلع القرن السابع عشر كان الأمير فخر الدين المعني الثاني أميراً على لواء صفد التابع لايالة دمشق . وكان الباب العالي راضياً عنه لايتائه مرتبات الدولة في اوقاتها ، كما ان اصحاب الأمر والنهي في استامبول كانوا يعطفون عليه ، لما يبذله لهم من الهدايا والعطايا . لذلك فقد استطاع هذا الأمير ان يؤمن لولده علي « سنجقية » صيدا وبيروت وأغزير (غزير) في لبنان .

وراح الأمير ، في اعتماده على رضاء الدولة ، وخلال انشغالها بالحروب المتواصلة مع النمسا وحلفائها ، يؤمن النفس بالاستقلال ، خصوصاً من جراء الثورات التي شبت في اطراف السلطنة بعد فشلها في تلك الحروب . وقد باشر برنامجه هذا

بالتوسع في الاقطاعات المجاورة ، موهماً الباب العالي بأنه يستخضعها قصد توطيد سلطة الدولة عليها : فألحق بامارته قسماً من اقطاع آل سيفا اصحاب ايالة طرابلس ، ثم استولى على اراضي آل حرفوش وبيت قريش في البقاع ، كما بسط حكمه ، في الجنوب ، على اقليم بانياس وعجلون . هذا فضلاً عن تجنيده الجنود ، وتحصينه الحدود ، وتصرفه تصرف المستقل المطلق ، ليس في نطاق الشؤون الداخلية فحسب ، بل في الامور الخارجية . من ذلك انه عقد معاهدة مع آل المديشيس اصحاب توسكانا بايطاليا لم تقف عند الحدود الاقتصادية فقط ، بل كانت هجومية دفاعية .

وقد كبر على الباب العالي هذا التحدّي حتى لم يبق بوسعه التغاضي والاستمهال مراعاة لحالة السلطنة الدولية ، فنصب حافظ باشا الحافظ متولياً على ايالة دمشق ، وكانت بينه وبين المعني عداوة قديمة ، وأمره ان يحمل على الأمير . وكانت حملات لم يستطع الأمير الصمود في وجهها ، فغادر البلاد الى توسكانا حليفته .

وقد مكث الأمير فخر الدين في ايطاليا خمس سنين تقريباً ، كان يراقب خلالها التنظيم الحديث ، ويشاهد انبثاق الوعي القومي وتطوّره ، وكان يسترعي نظره هناك اهتمامهم بالكتب ، ومنها العربية ، والعناية بطبعها ، ووجود بعض الجالية العربية ، وبينهم امراء اجتمع اليهم في صقلية . وكان من الطبيعي ان تترك هذه المشاهد في نفسه ، اثراً بالغاً من حيث التجدد والاصلاح ، وان تؤيد مبادئه ، في التحرر والاستقلال .

والواقع انه ما ان تسنى له الرجوع الى وطنه ، والاستقرار فيه ، حتى وكل الى « كتخداه » بالاستانة الحاج درويش أمر الحصول على فرمان من السلطان يمنحه الولاية على « عربستان » ويقول الخالدي (١) : « فأتته البشرى والفرمان السلطاني سنة ١٦٢٤ م على ان يكون متولياً على ديرة عرب بستان من حد حلب حتى حد القدس ، وان يأخذ اسم جده المغفور له الامير فخر الدين « سلطان البر » على المقاطعات المذكورة . »

وما ان تم للأمير هذا ، حتى اخذ يعد العدة للاستقلال . وعاد لاقامة المعاقل والحصون بالاضافة الى تجنيد الاجناد. ولكن الباب العالي ظل ، مع ذلك ، يصانعه تحت تأثير المشاغل الدولية ، حتى اذا استجمعت الدولة قواها ، في عهد السلطان مراد

(١) الشيخ احمد بن محمد الخالدي في كتاب نشرته له مديرية المعارف بلبنان .

الرابع حملت عليه في البر والبحر واعتقلته ، ثم قتلته في عاصمتها سنة ١٦٣٥ م .

وقد ورث مطامعه الاستقلالية ، بعد جيل من ذلك ، عربي آخر في فلسطين ، واعني به الشيخ ظاهر العمر من مشائخ الزيادنة : خلف هذا المقدام والده على بلاد الشاغور ، ثم اخذ بالتوسع ، وبعد انتصاره على جيوش ايالتي صيدا ودمشق ، فتح عكا (١٧٤٩ م) واتخذها مقراً لامارته . ولما نشبت الحرب بين السطان مصطفى الثالث والقيصرة كاترينة الثانية ، خلا الجو للأسطول الروسي للسيطرة على البحر المتوسط ، خصوصاً بعد احراقه الاسطول العثماني ؛ فاستعانت روسيا بأمير اسطولها على اثارة كل من علي بك متولي مصر ، والشيخ ظاهر العمر صاحب عكا ؛ وأمدت هذا بالعتاد ، وارسلت اليه صناعاً للمدافع نقشوا عليها اسمه ؛ هذا فضلاً عن انها جعلت اسطولها رهن اشارته . وبذلك استطاع الشيخ ظاهر ان يهزم حملتين كبيرتين ساقتهما الدولة عليه ، وان يصبح السيد المطاع في الساحل السوري من حدود مصر حتى طرابلس ، كما اصبح مرجعاً لاصحاب الاقطاعات ؛ مما حمل الباب العالي على الاعتراف به سنة ١٧٧٤ م ، واقراره على ما ملك . ولكن ما ان تم الصلح بين تركيا وروسيا بعد ذلك ، وارتفع الاسطول الروسي عن البحر المتوسط ، حتى امرت احمد باشا الجزار متسلم صيدا ان يزحف على الشيخ ظاهر ، وامدته باسطولها ؛ فلم يسع صاحب عكا الا التسليم (١٧٨٠ م) ، وكان نصيبه القتل .

وبدأ منذ ذلك عهد الجزار فى بلاد الشام . فكان هذا المتولي للعثمانيين كالحجاج الثقفي بالنسبة للأمويين . وقد اعاد اليهم السلطة والهيبة في هذه الديار . غير ان الجزار الذي جمع بين ايالتي عكا ودمشق ، عجز مع ذلك عن اطفاء شعلة الحرية في حوران : فان حكام بني حمدان صمدوا في وجهه ، كما صمدوا في وجه الوهابيين والمصريين من بعد ، في الدفاع عن حريتهم. ثم جرى مجراهم خلفاؤهم آل الاطرش واقفين موقف الأبطال في مواقع مشهورة . وهم وان عجزوا عن دفع حملة ممدوح باشا سنة ١٧٩٧ م ، ثم حملة سامي باشا سنة ١٨٠٨ م الا أنهم تركوا آثاراً خالدة في التاريخ في صعيد الدفاع عن الكرامة والاستقلال .

. . . . .

(في العراق) لم يتمتع آل عثمان في العراق بالاستقرار الذي اتيح لهم في بلاد الشام ، وذلك لقربه من ايران ؛ على ما بين الفرس وعراقيي الطائفة

الشيعية من العلاقات الوثيقة ، هذا فضلاً عن اتساع مساحته وبعده عن العاصمة ، وانتشار البداوة في تسعة اعشار نواحيه .

ومنذ بداية القرن الثامن عشر حتى سنة ١٨٣٠ م كانت تستأثر بحكم العراق حكومة المماليك متمتعة بشبه استقلال . ولكن هذه الحكومة ما استطاعت ، مع ذلك ، اخضاع بلاد الرافدين على ما تريد : فقد كان آل مهنا في الجانب الجنوبي، الممتد من النجف حتى الفلوجه كملوك مستقلين ، بينما كان آل ابي ريشه بعانه يبسطون سلطانهم على منطقة تمتد من هيت الى بيره جك . واستمروا حكام تلك البلاد ، حتى انتزعت عشيرة شمر منهم السيطرة لنفسها .

واما في المنتفك ، وسائر الناحية الجنوبية .فقد استقل آل شبيب مدة قرنين ، وظلوا يتنازعون مع آل عثمان على البصرة ، ودخلت هذه المدينة في حكمهم اكثر من مرة . على ان آل شبيب وان اخلدوا للسكينة في عهد حكومة المماليك بالعراق ، إلا انهم استأنفوا الجهاد للاستقلال اثر ظهور الشيخ سعدون ، مؤسس اسرة السعدون المشهورة .وقد تمكن « كهية » بغداد من القاء القبض عليه بالحيلة ، والقاه في غيابة السجن متهما اياه « بأنه كان يرمي الى استعادة الحكم للعرب ».

وقد استطال نفوذ آل السعدون وسائر العشائر العربية خلال القرن الثامن عشر من جراء الوهن الذي تسرب الى حكومة المماليك . وسجل هذا القرن ايضاً ثورة الحاج سليمان الشاوي (١٧٨٦م) ، تلك الثورة على الوالي التي اتخذت طابعاً قوميا ، وذلك بانضمام الشيخ تويني صاحب المنتفك ، وشيخ الخزاعل الى الحاج سليمان . غير ان النصر في نهاية الأمر كان حليف الوالي .

واما في الموصل فقد راعت تركيا شعور الأهلين ، ونصبت على هذه الايالة ، منذ القرن السابع عشر ، اثنين أو اكثر من اعيان البلد في الولاية . ثم صارت الولاية خلال القرن الثامن عشر للأسرة الجليلية مدة قرن كامل .

هذا وقد اشار سدّيو الى ان نابليون الأول أوفد، اثر انتخابه امبراطوراً على فرنسا سنة ١٨٠٤، السيد لسقاريدس الى جزيرة العرب والعراق وسورية ، بقصد الاتفاق مع شيوخها لتسهيل مرور جيش كان يعده نابليون لاكتساح الهند . ويستفاد من التقارير التي وجهها هذا المندوب الى الامبراطور ان البدو عموماً، ما عدا عنزه، كانوا يكرهون تركيا ، ويتوقون للتحرر من كل سلطة لها . اه

غير ان الظروف ساعدت من ثم تركيا على تمكين سلطتها في البلاد العربية ؛

وكان ذلك من جراء قيام السلطان محمود الثاني بالاصلاحات ، بعـــد قضائه على الانكشارية ، وأهمها ربط الولايات بالعاصمة .

ومنذ ذلك لجأت السلطنة الى السياسة في الحكم ،فاستعملت ،ولاسيما في العراق ، طريقـة التفريق بين القبائل وتحضير بعضها ، بالاضافـــة الى محاولة التتريك في الحواضر . ثم استعملت عهد الحميد الثاني سياسة الاتحاد الاسلامي،فتوفر ، لها بهـذه الاساليب المتعددة، صرف العرب عن مناهضتها ، وعن القومية .

. . . . .

(في مصر) حفلت بلاد مصر بالثورات والفتن مذ دخلت في حوزة آل عثمان، ولكن هذه الثورات على الدولة لم تكن ذات طابع قومي . وكان اهمها خروج علي بك الكبير على السلطان باغراء القيصرة كاترينة الثانية . كان علي بك قائماً على مشيخة البلد ، وبعد ان استتب مر في وادي النيل ، وذلك بالتغلب على عربان الصعيد، استطاع ان يستولي على جزيرة العرب، ثم تحول بالاتفاق مع حليفه الشيخ ظاهر العمر صاحب عكا ، الى بلاد الشام ، ودخل جيشه دمشق . ولكن تركيا استعانت عليه بالسياسة ، فاغرت به محمد بك ابا الذهب ، قائد الحملة التي وجهها لفتح الشام ، فانقلب هذا عليه وكرّ راجعاً، وقضى على احلامه .

واما الحدث الذي كان ذا طابع قومي فهو خروج محمـد علي بك، جدّ الاسرة المالكة في وادي النيل ، على السلطان. حقاً ان محمد علي بك لم يكن عربياً ، الا انه شهد بنفسه الوعي القومي في العالم ، ورأى كيف ان انكلترا وفرنسا مدتا يد المساعدة لليونان ، ضد تركيا بحجة العطف على المبدإ القومي ، فاختار ان يجعـل لمطامعه الواسعة شعاراً قومياً ، وان يكون طابعه عربياً ، مراعاة للوسط الذي قامت فيه دولته . وكأن السلطنة كانت على علم بمطامعـــه ، فاخذت تشاغله في حروب الوهابيين ، ثم في المساهمـــة معها في اخماد ثورة اليونان . وكان محمد علي يجيبها بالسمع والطاعة ، وهو يتحـيّن الفرص ، حتى اذا سنحت اندفع زاحفاً على سورية ، واجتازها الى الاناضول منتصراً ، وفكرة الامبراطورية العربية تتمثل امامه . ويؤثر عن ولده وقائد حملته ابراهيم باشا ، انـــه اعرب للبارون لبوالكونت الافرنسي ، وهو يسأله بالقرب مـن مدينة طرسوس بولاية اطنه بتركيا ، عن سبب عزمه على دخول الآستانة بقوله : « اريد ان ادخلها للاصلاح لا للهدم لكي اقيم حكومة عربية تضطلع بحكم الامبراطورية » .

ولكن التوازن السياسي العالمي ، فعل في التضييق على مرامي محمد علي ما لم تستطع فعله جيوش آل عثمان . فتراجعت جيوشه الفاتحة الى مصر وهي لا تحمل من ثمرات النصر إلاّ ما كان من اعتراف السلطان عبد المجيد لمحمد علي بك بالولاية عليها تحت رعاية السلطنة ، ولابنائه من بعده (١٨٤١) .

ولكن محمد علي استفاد ، رغم ذلك ، من الامثولة اذ ايقن ان عطف انكلترا وفرنسا على اليونان ، ومساعدتهما لها على التحرر من العثمانيين ، لم يكن مصدره ، في الواقع ، تشجيع المبدأ القومي ؛ وانما كان الحافز الحقيقي اليه ، تحرير النصارى من حكم آل عثمان . ومثله كل عطف بدا من جانب روسيا او غيرها لمساعدة دول شرق اوروبا في بلوغ استقلالها .

هذا وقد وقعت في مصر والسودان حادثتان أخريتان كانت لهما بعض الصلة بالقومية واعني بهما :

١ - حادثة احمد عرابي باشا زعيم الحزب الوطني في عهد الخديوي توفيق باشا . والغاية منها التحرر من نفوذ الشراكسة . حتى اذا اتيح لعرابي باشا تقلد نظارة « الجهادية » تعرض لطلب الحياة الدستورية ، ثم لطلب تنازل الخديوي ؛ وكانت ازمة تردد تجاهها الباب العالي ، فانتهزت بريطانيا العظمى فرصة هذا التردد ، واتخذت منه ذريعة لاحتلال مصر .

٢ - الثورة المهدية في السودان في عهد الاحتلال ، وكان مردها الى حوافز دينية ، وان كانت لا تخلو من العواطف القومية .

. . . . .

(جزيرة العرب) على ان تركيا وان استطاعت بسط حكمها على الامصار العربية خارج الجزيرة العربية ، الا انها لم تستطع ممارسة هذا الحكم على حقيقته في جزيرة العرب . وكانت كلما حاولت تثبيت اقدامها في اليمن ، تصطدم بالثورات ، حتى كأنها حلقة مفرغة لا يدرك لها اول ولا آخر . وقد اضطرت للجلاء عن اليمن سنة ١٦٣٠ م وخسرت بالتالي النفوذ الذي كان لها على الحجاز . وكان اشراف مكة يمدّون سراً ائمة صنعاء الزيديين بالمساعدات خلال خروجهم على السلطنة ، وذلك بدافع من العواطف القومية .

على ان آل عثمان كانوا شديدي الحرص على الحجاز ، لمكانته المقدسة عند المسلمين ، فكانت دولتهم تغدق على اهله الاحسان ، وتعنى كل العناية بعمارة الحرمين ؛

ومع ذلك فقد كان مندوبها يقيم في جدة ، تاركاً النفوذ الحقيقي لاشراف مكة ؛ وما فتيء هؤلاء يثيرون المصاعب في وجه الدولة ، الى ان اعلن شريف مكة الثورة على السلطان أحمد الثاني . وكانت ثورة ناجحة ، حملت السلطان مصطفى الثاني على الاعتراف لشريف مكة بالاستقلال سنة ١٦٩٥ م . ثم جاءت ظروف مؤاتية للسلطنة لاسترجاع سلطتها على الحجاز ، ولكنها عجزت عن استرجاعها في اليمن . وظلت تسوق الحملة عليها وراء الحملة ، دون جدوى ، واضطرت الدولة ان تعترف لليمن بالاستقلال في مطلع القرن العشرين . وذلك بفضل امامها جلالة المتوكل على الله يحيى حميد الدين .

واما في الجانب الغربي من الجزيرة ، فقد تسنى للامارات العربية ان تتمتع باستقلالها منذ القرن السادس عشر . وقد صدرت عن نجد اعظم حركة استقلالية في بلاد العرب : استولى الوهابيون على الحجاز وقسم من جنوب العراق ، بقيادة محمد بن سعود وسعود الكبير ، وبلغت طلائعهم مشارف الشام . غير ان دولتهم وان لم تحي حياة طويلة ، الا انها ظلت مثابرة على تحقيق امانيها الاسلامية الاصلاحية ، والعربية القومية ، وذلك بقيام دولتهم الثانية . ويعتبر جلالة الملك عبد العزيز عاهل المملكة العربية السعودية فخر هذه السلالة ، خصوصاً وانه اعرب عن وعيه القومي منذ خروجه على آل عثمان ؛ فقد حاول في اوائل الحرب العظمى الأولى ، ان يجمع امراء عرب الجزيرة للتفاهم على قضيتهم المشتركة ، ولكنهم لم يستجيبوا له ، فمضى معتمداً على نفسه ، وادرك بذلك استقلالاً رافقه الحظ والثروة .

ومن المفيد الاشارة هنا الى ان حكومات الآستانة كانت تستعين بالاقطار العربية المجاورة لجزيرة العرب ، كما تستعين ببعض امراء الجزيره نفسها ، للقضاء على كل محاولة قومية تقوم في تلك البلاد : فكما ساقت مصر لقتال الدولة السعودية الاولى في عهد محمد علي ، واستعانت باشراف مكة ، فقد اقامت ، الى حين ، امارة آل الرشيد في حائل الواقعة في الجهة الغربية من جزيرة العرب ، ترساً صلباً في وجه الدولة السعودية الثانية .

وهي الى ذلك كانت تسوق المجندين من ابناء البلاد العربية للقتال في اليمن السعيدة فيلقون هناك حتفهم ، حتى كان الناس في بر الشام يطلقون على اليمن « مقبرة العرب » . وفي الواقع فان من مفاخر اليمن انها البلد العربي الأول الذي حملت الباب العالي على الاعتراف باستقلاله .

٢ - القضية العربية في مظهرها الحديث .

انبعثت عن الثورة الفرنسية فكرة القومية وشرعت تنتشر في العالم المتمدن ؛ ولما دوت مدافع الاسطول الأوروبي في ثغر ناورين اليوناني سنة ١٨٢٧ م واغرقت الأسطولين العثماني والمصري ، كانت هذه الطلقات تزف الى العالم بشرى انتصار المبدأ القومي . فانتعشت منذ ذلك الحين آمال الاقاليم البلقانية ، التي كانت خاضعة ايضاً للامبراطورية العثمانية ، خصوصاً بعد ان نالت اليونان استقلالها . فاخذت تثور على السلطان معتمدة على عواهل اوروبا ، ولا سيما على القياصرة . والواقع ان حروب قياصرة روسيا ضد تركيا لم تكن صبغتها تختلف عن صبغة الحروب الصليبية . على ان الوعي القومي لم يلبث ان تسرب الى آسيا ايضاً فثار الارمن بفعل الدعاوات الروسية ، ثم بلغ الاوساط العربية . اما اسباب تسرب هذا الوعي القومي الى الامصار العربية فكثيرة ، نلخص اهمها بما يأتي :

(١) رافق عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٦ - ١٨٦١ م) اصلاحات مدنية كان القصد منها الامتثال لاوروبا استرضاء لها ، وقد افسحت هذه الاصلاحات المجال للبلاد بان تتمتع بشيء من الحرية .

(٢) كانت حملة محمد علي باشا على سورية ذات طابع قومي عربي ، وهي وان قفلت عائدة الى مصر ، الا انها تركت آثاراً فعالة في بلاد الشام من حيث تنشيط الوعي القومي ، ولا سيما بعد ان بدا للعرب ان الهيكل العثماني ، ليس من القوة على ما كان يرسخ في اذهانهم .

(٣) ان فتنة ١٨٦٠ م في بلاد الشام ، وخصوصاً في دمشق ولبنان ، جعلت هذه البلاد من بعد مقراً لمؤتمر دولي، عرضت فيه الاقتراحات السياسية والمناورات الدولية . وكان اعيان البلاد على اتصال بالسفراء الاجانب ، مما جعلهم يتأثرون قومياً بهذا الاتصال . وكانت حركة يوسف بك كرم في عهد المتصرفين، عبارة عن رد فعل لاقتراح فرنسا في المؤتمر الدولي الذي يتلخص بأن يكون الحاكم على لبنان وطنياً ، ذلك الاقتراح الذي لم يقدر له النجاح .

(٤) وجاء عهد اسماعيل باشا خديوي مصر (١٨٥٣ - ١٨٧٦ م) موافقاً لعهد السلطان عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦م) من حيث تنشيط العلم والعلماء ، والادب والادباء . وكان المرسلون في لبنان ، وخصوصاً الانكلوسكسون واللاتين ، يتنافسون في اعمال المعارف والمعاهد والمطبوعات والجمعيات ؛ وهي كلها اعمال

من شأنها أن تنقل مدنية الغرب ،بما فيها من مبادىء وافكار ، الى البلاد العربية. هـذا فضلاً عن الوعي القومي الذي كان في جملة ما تنشطه هذه الارساليات بين الطلبة . وهكذا أصبح هذا الوعي منتشرا ليس بين الخاصة فحسب ، بل يشمل ايضاً تلاميذ المعاهد الأجنبية. وقد نوه تقرير اللجنة الملكية لفلسطين (١٩٣٧) بما كان للكلية السورية الانجيلية ببيروت ، من الفضـــل في اثارة اذهان الشبيبة السورية في ناحية الحكم الذاتي ، والتمسك بالجنسية .

(٥) ولاية مدحت باشا على سوريا (١٨٧٩ — ١٨٨٠) ؛ وهو الذي كان يرمي الى الاستقلال فيهـا بالاتفاق مع المشير احمد ايوب باشا ، على ان يكون كخديوي مصر. وكان يعتمدعلى فرنسا في تحقيق أمنيته ،فاطلق الحرية ، وقرب ابناء الاسر ، ونصبهم في الوظائف الكبرى ، وعمل على توحيد قلوب الطوائف . وهو وان لم يكن يرمي ، في ذلك ، الى تنشيط الفكرة القومية العربية ؛ الا أن مساعيه هذه أفضت بالتالي الى نشاط قومي في بلاد الشام .

(٦) الدعايات الاجنبية بواسطة قناصل الدول الذين كانوا على اتصال وثيق ببعض اهل البلاد .

وجميع هذه العوامل ،منفردة ومتحدة ، بالاضافة الى اتصال العرب بالاجانب بواسطة احتلالهم لكثير من الامصار العربية في المشرق والمغرب ، جعلت البلاد العربية تتمتع بفترات من الزمن كان يبدو فيها الوعي القومي نامياً يوماً بعد يوم. وخصوصاً بلاد الشام ، فقد كانت تتردد فيها على الألسنة ، وبالصحف بحوث كثيرة تحوم حول العرب والعروبة ، مذكرة بما كان لهم من مجد زاهر . ومن هـــذا القبيل مانظمه الحاج حسين بيهم في ذلك الحين ، حيث قال :

يا بـني العرب سعدكم قد علا
في سوى التعب لن تنالوا العلا
فانبذوا الغرضا بينكم بالرضا
ان في الاتحاد راحـة للعباد
سيما في بـلاد نجمهـا افلا

ويلاحظ في هذه الدعوات الى العروبة انهم كانوا ، مـــع رغبتهم الملحة في المطالبة بتحرير قومهم ، يراعون الظروف السياسية ، فيبقون ضمن نطاق ذكرى الامجاد والدعوة للاتحاد .

وكان يتعهد هذه الدعوة الى العروبة في بلاد الشام ، فئتان : فئة اعيان البلاد وفئة نخبة الطلبة . وقد روى لي كبير اسرتنا السيد راشد بيهم عن عمه الحاج محيي الدين بيهم انه لما خف الشريف عبد المطلب للقيام بحركة قومية عربية في عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ – ١٨٦١) لم ير بداً من الاتصال بالامير عبد القادر الجزائري المقيم في دمشق ، والامير محمد ارسلان والحاج حسين بيهم في بيروت . ولكن حكومة الآستانة تداركت الامر قبل وقوعه فبادرت الى طلب الشريف لزيارة السلطان في العاصمة . وهكذا استطاعت ان تعتقله مدة في بورصة ، ثم جعلت استامبول مقراً لاقامته . اما رفقاؤه فقد انشأوا الجمعية العلمية السورية سنة ١٨٦٨ في بيروت وَرَئِسها اولاً الامير محمد ارسلان ، ثم اعجب فؤاد باشا[١] بذكائه ، او لعله أوجس خيفة من بقائه في سورية ، فصحبه معه الى الآستانة وسعى لتعيينه عضواً في مجلس الشورى . وقد خلفه على رئاسة الجمعية الحاج حسين بيهم ، وتولى امانة السر الاستاذ سليم البستاني .

وكانت تتلى في اجتماعات هذه الجمعية ، قصائد ومقطوعات شعرية مليئة بذكريات العرب وامجادهم . وفي أولى اجتماعاتها دوى اول صوت للحركة القومية عندما وقف الشيخ ابراهيم اليازجي والقى قصيدته القومية التي هز بها شعور المجتمعين ، والتي كان مطلعها :

تنبهوا واستفيقوا ايها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

وانتشرت هذه القصيدة من بعد انتشاراً هائلاً في اطراف البلاد ، اذ جاءت تضرب على الوتر الحساس . غير ان عهد مدحت باشا ، قد سمح لناظمها من بعد ان يكون اكثر حرية في القول حينما نظم قصيدة اخرى استهلها بقوله :

دع مجلس الغيد الاوانس وهوى لواحظها النواعس

وقد تطرق فيها خلال دعوته للاتحاد القومي الى « العمائم والقلانس » محرضاً العرب على السعي للاستقلال ، ومنوهاً بما تم من ذلك للجبل الاسود .

واما فئة الطلبة فيروي عنها جورج انطونيوس . انه اطلع على دستور جمعية الفها سنة ١٨٧٥ خمسة طلاب من الكلية السورية الانجيلية في بيروت وهي الجامعة الاميركية اليوم – كان هدفها استقلال سورية ، ومن ضمنها لبنان . ثم ازداد عدد اعضائها ، واسسوا لها فروعاً عدة في دمشق وطرابلس وصيدا . وقد

(١) وهو مندوب السلطنة في بلاد الشام اثر ثورة ١٨٦٠ م .

نقـــل ملخص المناشير التي كانت تذيعها الجمعية . ومنها يبدو ان غاية الجمعية « اللامركزية » ضمن نطاق السلطنة العثمانية . ولعله كان لهذه الجمعية صلة بمصطفى فاضل باشا المصري الذي نقم وقتئذ على السلطان عبد العزيز (١٨٦١ - ١٨٧٦م) من جراء حصره ارث الاريكة الخديوية في ذرية اسماعيل باشا . والف هذا الأمير بثروته الطائلة حزب العثمانيين الجدد ، وهو اول حزب من نوعه ، وكانت له جريدة « حريت » تصدر عن عاصمة بريطانيا مندّدة بالاستبداد ، وداعية الى الحرية . ولا يستبعد ان تكون هذه الجريدة قد وصلت الى ايدي طلاب الكلية الاميركية ، وتأثروا بدعاياتها .

غير ان هذه الفترة من الزمن التي سنحت للبلاد العربية عامة ، ولمدينة بيروت خاصة ، لم تلبث ان اصطدمت فجأة بالعهد الحميدي ، فكمت الافواه ، وكسرت الاقلام ، وحلت الجمعيات ؛ والى ذلك فقد تحول الاتجاه العربي ، الا قليلاً منه ، الى الاتحاد الاسلامي ، فكانت رجعية الى الوراء ، بالنسبة لعصر القوميات ، تبرهن عن ذكاء هذا السلطان ودهائه .

٣ ـ الاتحاد الاسلامي خلال عصر القوميات .

تبوأ السلطان عبد الحميد الثاني العرش سنة ١٨٧٦ م والسلطنة على شفا جرف هار : الخزينة فارغة ، والمطامع الدولية تثير ثائرة العناصر البلقانية ضد الترك ، وغير البلقانية ، باسم القوميات ؛ والدول تلح ، في نفس الوقت ، لاجراء الاصلاحات. وهي لاتبغي هذه الاصلاحات في ذاتها ، وانما تبغي من ورائها التدخل في شؤون السلطنة تحت ستار حماية الاقليات ، وصولاً لأمانيها التي مدارها تقسيم البلاد فيما بينها . ولم يكن يمنعها عن ذلك سوى التوازن السياسي . ولذلك اضطر السلطان ان يقتفي سنة اسلافه في مصانعة هذه الدول : فاعلن الدستور ، ولكنه لم يلبث ان فوجىء باعلان روسيا الحرب عليه ، وبمناورات افضت الى اقتطاع الامصار واحد بعـد واحد من جسم الدولة . وهذا ما جعل السلطان عبد الحميد مقتنعاً بان لا اصلاح يفيد ازاء الدول الطامعة ؛ وانما القول الفصل للقوة . ولكن من اين له ان يدرك القوة وقد خسر الحرب مع روسيا ، هذا فضلاً عن ان الخطر كان يستفحل من جراء تشبع العرب بالروح القومية ؟ وهو كذلك اذ فتقت له الحيلة،فبدا له ان يتجه مع العرب اتجاهاً جديداً من شأنه ان يظهر السلطنة بمظهر القوة حيال الاجانب ، ويخدر اعصاب العرب في نفس الوقت ، ويحولهم عن مبـــدئهم

القومي . ونعني بذلك الاتجاه شطر مشروع الاتحاد الاسلامي .

وكانت باكورة اعماله في هذا المشروع ، دعوة خير الدين باشا التونسي الى الآستانة، حيث نصبه صدرا اعظم سنة ١٨٧٨ ؛ ثم تقريبه لجمال الدين الافغاني مدة من الزمن . على ان هذا المشروع قد يكون من مقترحات احدهما . وطفق السلطان بعد ذلك ، يصطفي من العلماء والاشراف وابناء الاسر العربية ، من مسلمين ومسيحيين ، حاشية له ورجالاً لدولته . وحسبنا التنويه هنا بالشيخ ابي الهدى الرفاعي من حلب ، والشيخ محمد ظافر من الجزائر ، والسيد فضل باشا من مليبار ، عدا الاشراف كالحسين وعلي حيدر وعبد الاله باشا وصادق باشا . اما رجال الدولة ، فكان على رأسهم عزت باشا العابد ونجيب بك وسليم بك ملحمة . والى جانبهم بعض امراء الجيش ، مثل محمد باشا ومحيي الدين باشا ولدي الامير عبد القادر الجزائري ، وبعض اساتذة المدرسة الحربية ، كالمشير شفيق باشا والفريق وهيب باشا ، وهما من قرية المتين في لبنان .

وقد اجرى المرتبات الوافرة على هؤلاء، وعلى غيرهم من مواطنيهم المتخلفين من العلماء والزعماء . وقد كانوا يتناولون هذه المرتبات تحت اسم « دعوەجي » اي الدعاة للسلطان ؛ كما انه اعرب عن ثقته بالعرب بانشاء فرقة حرس منهم خاصة بجلالته ، البسها العمائم الخضراء ، وقد لقب العرب « بقوم نجيب » .

وتأييداً لمشروعه تقبل فكرة عزت باشا العابد ، وحققها بوصل بلاد الشام بالحجاز بواسطة خط حديدي سهل على الحجاج مهمة الاسفار المضنية ، كما وطد سلطته على تلك البلاد المقدسة ، فاكتسب بذلك عطف المسلمين . وانشأ في دار السلطنة « مدرسة العشائر » لتربية ابناء القبائل ، ولا سيما اولاد الزعماء تربية اسلامية حميدية .

هذا فضلاً عن ان كليات الآستانة ، اصبحت تجمع بين التركي والارناؤوطي والجركسي ، وبين الشامي والعراقي والمصري ، فضلاً عن ابن جزيرة العرب . ولم يكن يخطر لطلابها الا انهم مسلمون ، وان هذه الامبرطورية العثمانية انما هي لهم جميعاً على السواء . وقد استعان السلطان عبد الحميد ايضاً ، على تحقيق سياسته هذه، بنشر التعليم المجاني في اطراف السلطنة ، وبجعل اللغة التركية لغة التعليم . وكان يطلق عليها اللسان العثماني، لكي يتوهم الطلاب العرب انها لغتهم على اعتبارهم عثمانيين .

وبهذه المناورة ادرك السلطان بغيته ، واخذ يهز عصا الخلافة ، مدة تزيد على الثلاثين سنة ، فيدرأ بها عن الدولة مطامع الطامعين . فضلاً عن اعتماده على سياسة التفريق بين الدول ، واستغلال المنافسة بينها على ما لها من مصالح في السلطنة .

وادرك السلطان ايضاً امنيته من العرب ، وليس ذلك بتقريبهم منه فحسب ، بل ببذر بذور الشقاق بين المسلم منهم والمسيحي ، وخاصة في بيروت قاعدة الحركة القومية وقتئذ ، فالهاهم ، بكل ذلك وبالاحسان اليهم ، عن فكرتهم القومية .

٤ ـ الحركة القومية ابان الاتحاد الاسلامي .

استطاع السلطان عبد الحميد ان يحافظ ، بمشروع الاتحاد الاسلامي وبسياسة التفرقة بين الرعية ، على كيان السلطنة بعد ان كاد يوشك ان ينهار ، ويصبح في متناول الطامعين . وهو ، الى ذلك ، قد ادرك امنيته من العرب ليس بتقريبهم منه فحسب ، وانما باثارة الخوف في قلوبهم من الخطر الاجنبي بالاضافة الى الرعب من الجاسوسية . وهكذا استطاع ان يصرفهم عن القومية والعروبة حتى لم يسمع لهم صوت يطالب بالحقوق من بعد ، الا وهو يطالب بها ضمن نطاق السلطنة العثمانية . اما ما عدا ذلك ، فقد كانت دعايات شخصية انما يتوخى اصحابها منها اما الرجوع لوظيفة ، او الحصول على « حق سكوت » من جانب المابين الذي كان يحرص على ان لايصدر صوت الا بالثناء على السلطان والدعاء له . هـذا ويلاحظ انه قد انبثق عن الوضع الذي خلقته السياسة الحميدية في الحقل القومي ظاهرتان : ظاهرة مدارها نشاط القضية الارمنية ، وغايتها الاستقلال . وظاهرة اخرى تقوم على حركة عربية صحفية نشأت في اوروبا ، وكانت على الغالب غير مخلصة . وهـذا ما نتناوله في البحث التالي :

١ ـ **الظاهرة الاولى** : اعترف مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ م بالقضيـة الأرمنية ، فزادها نشاطاً على نشاط ، وكانت روسيا تغذيها ، كما تثيرها انكلترا احيانا . ولذلك اتخذ السلطان عبد الحميد الحزم والعنف في معالجتها . عـلى ان الارمن لم يهنوا ، بالرغم من المذابح والضحايا ، بل ظلوا يوالون الاجتماعات ، ويدبرون المؤامرات ؛ وهم يحرصون في نفس الوقت ، على اكتساب احرار الترك الى صفوفهم ، للثأر من عدوهم المتربع فوق سرير الملك ، فضلاً عن انهم كانوا يحاولون جهدهم تقريب شباب العرب المقيمين في اوروبا . ويروي السيد روحي الخالدي (في الهلال ١٧

ص ١٦٤) ان العرب اشتركوا بمؤتمر فينا الذي عقــده الارمن ، ودعوا اليه العناصر العثمانية . وقد قرر هذا المؤتمر (١٨٩٠م) قلب الحكومة العثمانية ، وتأسيس حكومة دستورية .

هذا وفي الخطاب الذي القاه ندره بك المطران في المؤتمر العربي الاول بباريس سنة ١٩١٣ ازاح الستار عن وجهـــات نظر كل من الارمن والترك والعرب في القومية اذ قال :

« في سنة ١٨٩٦ عقد احرار الاتراك مؤتمراً في باريس دعوا اليه جميع العناصر العثمانية ، وكانت غايته القصوى مصالحة الاتراك والارمن . ولما قنط الارمن من عناد الاتراك ، وخرجوا من المؤتمر حانقين ، وقف زعيم الترك وقتئذ ، وهو مراد بك الداغستاني المشهور ، وسأل العرب اذا كان ما بلغه عنهم صحيحاً ، الا وهو انهم يسعون في تأسيس دولة عربية . وكان زعيم العرب وشيخ احرارها المرحوم خليل غانم فأومأ الى هذا العاجز ان يتكلم عن العرب فقلت : « ان العرب ايهـــا الاخوان الترك المحترمون لايجهلون حسنات ارتباطهم ، بالدولة العثمانية ، وضرورة حرصهم عليها ، اذا ارادوا ان يصونوا انفسهم من شرور اقل ما فيها الاسر والاستعباد »

وانتهى ندره بك الى القول ، بعد نفي التهمة ، ان « ليس لمفكري العرب واشرافها غرض غير ما يريدونه لامتهم من الحيـــاة التي يتمتع بها القسم الراقي من البشر ، وذلك ضمن دائرة المصلحة العثمانية . »

والخلاصة انه بينما كان الأرمن يستهدفون الاستقلال التام ، وكان احرار الترك يتوخون اقامة حكم دستوري على انقاض العهـــد الحميدي كان العرب طلاب حقوق واصلاح ضمن نطاق السلطنة العثمانية .

٢ ــ *الظاهرة الثانية* : وبقي صوت العروبة يتصاعد حيناً بعد حين ، ومداره على الاكثر الخلافة ، وانها للعرب دون آل عثمان . ومن المؤسف ان هذا الصوت لم يكن يصدر في اوروبا عن قوميين مخلصين استندوا الى منظمات ، كما فعـــل الارمن ؛ بل كان مصدره اما موتورين ، أو وصوليين استغلوا هذه الحركة في سبيل بلوغ منافعهم الخاصة ؛ أو مأجورين من الاجانب كانوا يرفعون عقيرتهم وفقاً للوحي الذي يوحى اليهم : فقد اصدر ابراهيم بك المويلحي جريدة الخلافة في نابولي (١٨٧٩) ، وهو يتوخى منها الانتقام للخديوي اسماعيل باشا ، بمناسبة خلعه عن عرش مصر . ونشر الدكتور لويس صابونجي في لندن جريدة اخرى تحمل اسم الخلافة (١٨٨١ م) ، ومجلة « الاتحاد العربي » وكان يعتمد فيهما على اموال بريطانية . واصـــدر الاستاذ خليل غانم ، في نفس العام ، بباريس جريدة البصير ، وكانت تغذيها الاموال الفرنسية .

وعلى هذا النحو ظهرت في اوروبا صحف كثيرة عربية قصد التهويل، ولكنها كانت لاتلبث ان تعطل ، اما لادراك ناشريها بغيتهم من المابين ، او لاسباب اخرى . وقد حاول الاستاذ نجيب عازوري اللبناني اثارة القضية العربية في باريس في مطلع القرن العشرين . فالف جمعية «عصبة الوطن العربي » Ligue de la nation arabe ، سنة ١٩٠٤ ، واصدر كتاباً بالفرنسية اسماه « يقظة الامة العربية » Le réveil de la nation arabe ، ثم اصدر سنة ١٩٠٧ جريدة شهرية اطلق عليها « الاستقلال. العربي» . وكانت جمعيته ترسل نداءات ثورية ضد الترك داعية لتحرير سورية والعراق ، طافحة بنقد السلطان عبد الحميد .

ويسوءنا القول بان الظنون كانت تحوم أيضاً حول نشاط المشار اليه : ذلك انه هبط باريس غاضباً من جراء عزله من الوظيفة التي كان يشغلها في فلسطين ، فاخذ بمنشوراته يواعد الترك بالعرب . ومن يقرأ كتابه المذكور يرَ بين سطوره ما كان يضمر من رغبة في الانتقام والتهويل .

على ان الناقمين على « عبد الحميد » ، كان بعضهم لايشك في اخلاصهم ، وقد وجدوا لهم ملجأ آخر في غير اوروبا ، فأموا مصر وكتبوا ونشروا . ومن اشهر هؤلاء عبد الحميد الكواكبي الذي غادر حلب الى القاهرة سنة ١٨٩٧ فراراً من حكومة عبد الحميد وجواسيسه ، واصدر فيها كتابين « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » و « ام القرى » . وبالرغم من ان مادتها الاصلاحية اسلامية الطابع ، الا انها تعتبر غير مجردة من وعي قومي كان يحتاج للتبلور .

٥ — القومية العربية بعد الدستور العثماني .

لم يكن اغتباط العرب بالعهد الدستوري باقل من اغتباط الترك به . ولكن امبرطورية ، كالسلطنة العثمانية ، كانت تتألف من عناصر مختلفة يكاد عددها يوازي عدد الترك ، لا تجمع بينها الا سياسة القوة والضغط ، ان امبرطورية كهذه هي سريعة التفسخ ؛ لا سيما اذا افسح المجال فجأة لرغبات كل عنصر من عناصرها . ومما كان يساعد على انحلالها ، ان الدول الاجنبية كانت تتربص بها الدوائر ، وتعمل على توجيه هذه العناصر وجهات مختلفة تتفق مع مطامعها الذاتية واهدافها . ولما قامت « حكومة الاتحاد والترقي » تحت ستار المحافظة على الدستور ، وحاولت جعل اللغة التركية اللغة الرسمية ، كما حاولت تطهير جهاز القوتين المدنية

والعسكرية من خصومها السياسيين ، وجلهم كانوا من عناصر غير تركية ، ذرّ قرنُ الخلاف بين العناصر غير التركية من جهة وبين الاتراك من جهة ثانية ، لان العرب وسائر العناصر غير التركية شرعوا يتهمون الاتحاديين بانحيازهم الى سياسة التتريك متسائلين : هل تكون الدولة دستورية وهي قد اعلنت الحكم العرفي ، وساقت اليه الابرياء بتهمة انهم ضد الدستور ؟

وهكذا تطورت العلاقات بين العرب والترك منذ ذلك الحين تطوراً جدياً . على ان المرحلة الاولى للجهاد العربي كانت لا تتعدى المطالبة بالمساواة ، ثم انتقلت للمطالبة باللامركزية ، وانتهت الى النضال القومي في سبيل الاستقلال .

والواقع ان محاولة الاتحاديين جعل الدولة ذات طابع طوراني يحيي مجد جنكيزخان وتيمورلنك واضرابهما ، هي التي حملت العرب على الاعتقاد بانهم غرباء عنها ، وهي التي كانت حافزاً لهم للسعي وراء الاستقلال .

١ — **مطالبة العرب بالمساواة** : انتقل الجدل بين الترك والعرب من ميدان الصحافة الى ميدان الندوة النيابية ، وكان يزداد حدة شهراً بعد شهر ؛ فحل المنتدى العربي في الآستانة ، محل جمعية الاخاء العربي التي اغلقها الاتحاديون بعد حادثة ٣١ آذار ١٩٠٩ ، واخذ المنتدى على عاتقه المطالبة بحقوق العرب . ثم قامت في اواخر ذلك العام الجمعية القحطانية ، وكان في عداد مؤسسيها بعض دهاة العرب من وزراء وقواد . وكانت جمعية سرية يستعين اعضاؤها للتعارف بالرموز . وسرعان ما تنادى طلاب العرب في اوروبا لتأليف جمعية « الفتاة » في باريس ، وجرى مجراهم طلاب العرب في المدارس العليا بالآستانة ، فتكتلوا وانشأوا سنة ١٩١٢ م جمعية « العلم الاخضر » .

وكانت هذه الجمعيات لا تخرج عن كونها تتوخى تطبيق احكام الدستور الذي يضمن المساواة العامة في الحقوق والواجبات ، وان كان الجدل وقتئذٍ ، وخصوصاً الصحفي منه حفل بموضوعات تتعدى احياناً حد اللياقة .

على ان هذا التكتل القومي لم يقتصر على العرب فحسب ، بل شمل العناصر الاخرى التي كانت تتألف منها الامبرطورية العثمانية : فالفت هي ايضاً الاندية والجمعيات ، وانتهى الامر بنوابها للاجتماع مع العرب ، ضمن نطاق « الحزب الائتلافي » الذي كان يعتنق مبدأ « اللامركزية » لواضعه الداماد صلاح الدين ، وانضم اليهم بعض الترك من خصوم جمعية الاتحاد والترقي صاحبة السلطة .

٢ – **مطالبة العرب باللامركزية** : ازداد الاتحاديون تمسكاً بالسياسة الطورانية من جراء الخصومة التى وقعت بينهم وبين العناصر العثمانيـــة الاخرى ؛ ونظم شعراؤهم القصائد في هذا الموضوع ، فتحولت الدولة من « عثمانية » ، كما ارادوها ان تكون عند توليهم السلطنة ، الى تركية ، اي للتركي فيها المقام الاول . وكان ذلك ما يذكي ويزيد الخلاف . غير ان الكوارث الخارجيـة التي توالت على الدولة من احتلال ايطاليا لليبيا ، وثورة البانيا ، وحرب البلقان ١٩١٢ ، قـد فتت في عضد الاتحاديين ، فتسلم « الحزب الائتلافي » مقاليد الاحكام ، وعهد الى كامل باشا ، من رجالات السلطان عبدالحميد المخلوع ، تأليف الوزارة .

وكان انتصار الدول البلقانية على تركيا قد اثار المسألة الشرقية من رقادها ، كما اثار المطامع الدولية . فراجت اشاعات مختلفة ، في الولايات العربيـة ، عن نية فرنسا في احتلال سورية ، ساحلها وداخلها ،خصوصاً على اثر تصريحات مسيو بوانكاره وزير خارجيتها ، تلك التصريحات التي نوه فيها بما لفرنسا في هذه البلاد من مصالح تريد ان تجعلها محترمة ، وبانها على اتفاق في وجهة النظر هذه مع بريطانيا العظمى . وهـذه الاشاعات كانت حافزاً للجالية السورية اللبنانية المقيمة في مصر ، لان تؤلف حزب اللامركزية العثمانية . وكان اهل بيروت اول من استجاب لدعوة هـذا الحزب ، وابلغوا والي الولاية مطالبهم في تحقيق الاصلاحات العاجلة . هذا وكان مسيو بوانكاره قد اعلن رغبة فرنسا ايضاً في اجراء الاصلاحات بولايات آسيا العثمانية ، فلم يسع كامل باشا الذي كان يجري على سنة عبد الحميد في المصانعة بالسياسة الداخلية والخارجية ، الا ان يكتب الى والي بيروت « باجراء المذاكرات في مجلس الولاية العمومي فيما يتعلق بالاصلاحات المطلوبـة وتنظيم اللوائح القانونية » .

وبذلك دخلت المفاوضات في شكل رسمي ، مما نشط الاصلاحيـــين لتأليف الفروع لحزبهم في البـلاد العربية ، على قاعدة تأييد الحزب الائتلافي . على ان وجهات نظر البيروتيين كانت مختلفة خصوصاً لوجود فئة ذات وزن كانت حريصة على التخلص من الحكم العثماني ، وتعمل بالاتفاق مع فرنسا في جمعية سرية ، كان قنصل فرنسا احد اعضائها ، لضم مدن الساحل الى لبنان ، وللسعي لاستقلاله تحت حماية فرنسا . وكان المسلمون من جهـــة اخرى ، مع حرصهم على اللامركزية ، وتأمين حقوق العرب في السلطنة ، يضنّون بالدولة العثمانية ، ولا يرضون عنهـــا

بديلاً من الدول الاجنبية . ولما كان لا بد من تقارب وجهات النظر بين طلاب الاصلاح من انصار فرنسا وانصار اللامركزية فقد جاءت اللائحة الاصلاحية التي وضعها تسعون مندوباً منهم في دار بلدية بيروت يوم ٣١ كانون الثاني ١٩١٣ تجمع بين شروط اللامركزية وبين وجود مستشارين اجانب في جهاز حكومة الولاية بالاضافة الى مفتش اجنبي لكل لواء .

ولكن الاتحاديين سرعان ما استردوا الحكم بقوة الجيش واسقطوا الحكومة الائتلافية ، وكانت باكورة اعمالهم تبديل والي بيروت بآخر ، فجاء هذا يعلن الحكم العرفي وحل لجنة الاصلاح ؛ كما انهم وجهوا قائداً جديداً للبصرة ، وعهدوا اليه قتل طالب باشا النقيب ، رئيس لجنة الاصلاح فيها . ولكن هذا الزعيم عمل على اغتيال القائد عند وصوله .

هذا وقد لجأ الاتحاديون من ثم الى سياسة العنف : فاقصوا الضباط العرب عن الولايات العربية ، وتدخلوا في انتخابات المجلس النيابي ، فلم يمكنوا العرب من اخراج اكثر من خمسين نائباً لتمثيلهم في الندوة ، بينما كان لهم في الانتخابات السابقة سبعون . وكان لهذه السياسة اسوأ الاثر في نفوس العرب ، كما كانت حافزاً لنشاطهم في سبيل الاستقلال التام .

٣ — **انتقال الاماني من اللامركزية الى الاستقلال** : كانت مصر حافلة بالجالية السورية — اللبنانية ذات النفوذ ، وخصوصاً في عالم الصحافة . وكانت هذه الجالية حرباً على الاستبداد خلال العهد الحميدي ، ثم تحولت بعد الدستور الى محاربة السياسة الطورانية ، التي عول عليها الاتحاديون القابضون على ناصية الحكم ، والى المناضلة عن حقوق العرب . على انه كان بين هذه الجالية فريق من اللبنانيين يتكتلون حول حزب الاتحاد اللبناني او غيره ، ويحصرون سعيهم في سبيل استقلال لبنان ، وتوسيع تخومه ، وذلك تحت حماية فرنسا .

وكان الشيخ رشيد رضا ، قد زار الآستانة خلال احتدام النقاش بين « عرب وترك » ، وعاد الى القاهرة معتقداً بعدم امكان التفاهم بين هذين العنصرين ، واسس جمعية الجامعة العربية ، التي كان هدفها جمع كلمة العرب ، وانشاء حلف عربي فيما بينهم .

وكان الشيخ علي يوسف عضواً في هذه الجمعية وجريدته « المؤيد » ظهيرة لها . غير ان حزب اللامركزية العثماني ، الذي تألف بمصر على اثر المخاوف التي احاقت

بقلوب السوريين على مصير بلادهم بعد انكسار السلطنة في حرب البلقان سنة ١٩١٢ ، ذلك الحزب الذي انضوى تحت رايته رجالات العرب السوريون في مصر من مسيحيين ومسلمين ، ظل قابضاً على ناصية الزعامة في الحركة العربية .

وكما اندمجت فيه الجمعية الثورية بمصر والجمعية اللبنانية بالقاهرة فقد تسلم ايضاً زمام القيادة من يد الجمعية الاصلاحية في بيروت على اثر استعمال الاتحاديين سياسة الضغط مع اعضائها . وهكذا اصبح هذا الحزب مرجعاً للعرب ، خصوصاً بعد ان انضم اليه المنتدى العربي في استانبول .

وكان فريق من الطلاب السوريين في اوروبا ، قد انشأوا جمعية سرية غايتها الاستقلال التام ، وشعارها « الامة العربية في مصاف الامم » . وقد كبر عليهم موقف الاتحاديين من الجمعية الاصلاحية في بيروت ، فتنادوا الى عقد مؤتمر عربي بباريس ، وعهدوا الى لجنة تمهيدية الاتصال برجالات العرب ، ودعوتهم الى هذا المؤتمر على ان يكون حزب اللامركزية بمصر هو القيم عليه .

وقد عقد المؤتمر جلساته من ١٨ الى ٢٣ حزيران ١٩١٣ ، فأيد لائحة بيروت الاصلاحية، ولم يبد منه اي ميل للانفصال عن السلطنة ؛ بل تعمد كل من عبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر ، واحمد مختار بيهم احد ممثلي بيروت فيه ، ان يصرحا بتمسكهما بعثمانيتهما ، وذلك امام مسيو بيشون وزير خارجية فرنسا وقتئذ : فقد قابلاه شاكرَين للامة الافرنسية ترحيبها بعقد المؤتمر في بلادها ، وصرحا بما سبقت الاشارة اليه ، قصد نفي الشائعات التي شاعت حول غاية المؤتمر ، والتي كانت تتهمه بانه انما عقد لخدمة السياسة الفرنسية .

ولعل وجود بعض عمال الفرنسيين ضمن المؤتمرين هو الذي كان يحول دون اعلان زملائهم العرب عن رغبتهم في الاستقلال التام ، والمضي الى اهدافهم البعيدة .

اما موقف حكومة الآستانة من المؤتمر فقد كان جدّ مرن : فانها أوفدت الى باريس احمد شكري بك ، الذي كان يبدي موافقته على كل ما يصر عليه المؤتمرون ، ثم انها اقرت اللائحة التي وضعها المؤتمرون بالاتفاق مع موفدها الخاص . ولكنها ، في الواقع ، انما كانت تريد تخدير اعصاب العرب بالوعود . وبعد ان استعانت بالتسويف والتفريق مدة ، رأيناها ترفع القناع عن وجهها فتولي على بغداد جاويد باشا الرجل الذي عرف بقسوته في البانيا ، وتنصب في بيروت بكر سامي بك المعروف بحزمه ، وتمضي منذ مطلع عام ١٩١٤ بتنفيذ برنامج جديد يقوم على :

١ ـ اقصاء ضباط العرب عن الآستانة والبلاد العربية الى الولايات التركية .
٢ ـ الاسراع بتطبيق سياسة التتريك بصورة حازمة .
٣ قتل الحركة الاصلاحية ، وحل الاحزاب العربية .

على انها لم تتورع في نفس الوقت عن اسدال الستار على تصرفاتها هذه بانجاز بعض ما وعدت به ، من مثل تعيين بعض الوجهاء العرب في مجلس الاعيان، وارضاء غيرهم بمنحهم بعض الامتيازات . وكان العرب بدورهم قد قابلوا ذلك التسويف في الوعود التي وعدوا بها من قبل حكومة الاتحاديين في مؤتمر باريس بنشاط جديد موجه نحو وجهة جديدة . فالمنتدى العربي الذي كان وسيطاً بين المؤتمرين وبين الحكومة ، اخذ يتحسس فكرة الاستقلال التام ؛ وقد تفرع عن الجمعية القحطانية ، في الآستانة ، جمعية اخرى هي جمعية العهد سنة ١٩١٣ ، انشأها القائد عزيز بك المصري مع نخبة من ضباط العرب ، وكان هدفها ان تكون صلة البلاد العربية بالسلطنة ، مثل صلة المجر بالنمسا ، كما انشأ حقي بك العظم في مصر سنة ١٩١٣ الجمعية القحطانية ، وكانت هذه الجمعية تعارض اللامركزية وتدعو الى الاستقلال . هذا فضلاً عن نشاط الجمعيات اللبنانية في مصر وامريكا التي كانت تتوخى استقلال لبنان التام منفصلاً عن سورية .

وكان من نتيجة البرنامج الجديد ، الذي اقره ونفذه الاتحاديون في مطلع عام ١٩١٤، ان قبضوا على عزيز علي بك المصري في الآستانة، وحكموا عليه بالاعدام، ولم يخلوا سبيله الا تحت ضغط الرأي العام؛ وربما كان لانكلترا يد في اصدار العفو عنه.

٤ - **سعي العرب للاستقلال التام** : انقلب الاتحاديون فجأة ، على اثر دخولهم في الحرب العظمى (٢ تشرين الثاني ١٩١٤) ، من كونهم انصار الفكرة الطورانية الى دعاة للاتحاد الاسلامي ؛ وشرعوا يلوّحون بالخلافة والجهاد المقدس: وهذا نموذج عن هذا التطور الكاذب ننقله عن جريدة الشرق في عددها الصادر يوم ٢٨ كانون الثاني ١٩١٧ ؛ وهي الجريدة التي كانت تصدر بدمشق وتعتبر لسان حال الحكومة . فقد نشرت مقالاً افتتاحياً في العدد المذكور تحت عنوان « عمراننا واستقلالنا »توجته بعبارة لاحمد جمال باشا قائد الجيش الرابع في ديار الشام وهي : « كما ان عمران البلاد لا يكون بالسعي والاهتمام واستحضار الحصى والتراب فقط كذلك عمران الامم لا يكون الا بالاستقلال ، ولا نقصد من التعبير بالامة الا الامة الاسلامية .

«ليس في نظر الاسلام فرق بين تركي وكردي وعربي ؛ فاذا ما قدر وقضي على استقلال الشرق الذي هو للمسلمين ، لا تعد البلاد معمورة ، ولو وصل الترامواي الكهربائي مثلاً الى كل قرية من قراها . فالعمران المادي لا قيمة له اصلاً . والذين يشاهدون هذا العمران ، وهم محرومون من الاستقلال ، انما هم بمثابة العبيد ؛ مع ان الاسلام جاء لا ليكون عبداً بل سيداً . ولا ليكون محكوماً بل حاكماً » . اه

ومع ان العرب كانوا يدركون نوايا الترك ، ولا يفوتهم ان وراء جلد الحمل الذي اسدله جمال باشا السفاح على نفسه نمر مخيف ، فقد كان الخطر الاجنبي يحملهم على تناسي الماضي ، وعلى التضامن مع الدولة ضد خصومها؛ خصوصاً وان جمال باشا كان قد شرع في دمشق يتحبب الى العرب ، ويثير حماسهم القومي ؛ وكان الى ذلك يراسل زعماء الامصار العربية ، ويدعوهم الى الجهاد . حتى اذا ايقن بانه استوثق من ازمّة البلاد العربية ، واطمأن الى نتيجة الحرب ، انقلب على العرب يسوق رجالاتهم الى ديوان المجلس العرفي العسكري ، ويستصدر بحق الكثيرين منهم احكاماً بالاعدام ، ويعلقهم على اعواد المشانق ، قوافل وجماعات ، وينفي بعض الاسر السورية الى الاناضول ، ويسهل تعميم المجاعة في لبنان الى حد اودى بربع اهله تقريباً ، ويرسل الوحدات العربية الى خطوط النار .

كل ذلك كان من شأنه ان يلقي العداوة بين العرب والترك ، ويجعل بني قومنا ينقلبون على تركيا في كل مكان : فالجمعية « العربية الفتاة » ، التي كانت تألفت في باريس ثم انتقلت الى بيروت سنة ١٩١٢ بعودة الطلاب اعضائها الى بلادهم ، خفت الى العمل ، وجعلت مركزها في دمشق . وقد دخل فيها الامير فيصل بن الحسين مع غيره من رجالات العرب مثل علي رضا باشا الركابي ، وياسين باشا الهاشمي ، وهما من كبار قادة الجيش . هذا فضلاً عما اصاب الاحزاب العربية الاخرى في مصر والمهجر من التطور في وجهتها واهدافها . فتسابقت كلها للعمل على الاستقلال ، كما تسابق بعض اخواننا من المهاجرين العرب للتجنيد ابان الحرب العالمية الأولى في صفوف الحلفاء ضد تركيا والمانيا . وكانت بريطانيا العظمى ، قد اخذت على عاتقها بالاتفاق مع حلفائها الاتصال ، منذ بداية الحرب ، بالشريف حسين ، شريف مكة قصد ملاشاة نفوذ عصا الخلافة التي كان الاتحاديون يتوكأون عليها ويهزونها اثارة للعالم الاسلامي . ولكن الشريف حسين ابى ، في بادىء الأمر ، ان يتفق مع الاجنبي ضد السلطنة التي اخلص لها زمنا . ثم اخذ يتردد ، ولما رفض

انور باشا قبول شفاعته بالقافلة الثانية من ابناء العرب المصلوبين في بيروت ودمشق، ورفض جمال باشا ايضاً وساطة ابنه الامير فيصل بشأن الابقاء عليهم، واكتشف صدفـة سر مؤامرة موجهة ضده وضد اسرته ، كان الاتحاديون قد كلفوا بتنفيذها وهيب باشا الالباني قائد الحجاز ، ازاء كل ذلك اضطر الشريف حسين للقبول بما وصلت اليه المفاوضات التي كانت دائرة بينه وبين سير مكماهون ممثل بريطانيا العظمى في مصر . فخرجت القضية العربية بذلك من حيز الاماني القومية الى حيز السياسة العالمية .

٥ ـ **الثورة العربية الكبرى** : وهـذا ملخص شروط الاتفاق بين الشريف حسين ومكماهون، نقلاً عن مذكرة الملك فيصل الاول التي وجهها لجلالة ملك انكلترا عقب اضطراره لمغادرة سورية :

١ ـ تأسيس مملكة عربية تشمل حلب وحماه وحمص ودمشق ، على ان تقوم بعد الحرب في العراق ادارة خاصة يتفق عليها بين الفريقين .
٢ ـ يترك لبنان وبيروت لفرنسا على ان يستأنف البحث بشأنهما بعد الحرب، مع الاعتراف بان ليست ثمة رغبة في ترك حكومة داخلية دون منفذ بحري .
٣ ـ تتعهد بريطانيا العظمى بتأييد المملكة العربية واسداء المشورة اليها ، على ان تستخدم هذه المملكة مستشاريها من الانكليز .

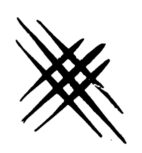
وعلى هذه الاسس اعلن الشريف حسين الثورة العربية على تركيا في حزيران سنة ١٩١٦ ، كما اعلن ملكيته ، وبث الدعاة الى الامصار العربية يدعوهم للانضمام اليه ،فتهافت ابناؤها على الاستجابة لدعوته من كل قطر ، وانتهت الحرب بانتصار الحلفاء وجلاء الترك عن الامصار العربية ، وباحتلال جيشين من جيوش الحلفاء ، واحدهما العراق، وكان يحمل اسم الحملة العراقية ، وثانيهما بلاد الشام ، وكان يحمل اسم الحملة المصرية . ودخل الامير فيصل بن الحسين دمشق باسم والده ملك الحجاز، في طليعة الجيش الثاني يوم ١ تشرين الاول ١٩١٨ .

٦ ـ **العرب في صفوف الحلفاء** : وقد شجع الشريف حسين غيره من امراء العرب على الثورة ضد الترك ، وبهذا الاتفاق اصبحت جزيرة العرب ، خلا اليمن التي لزمت الحياد ، تمشي في صفوف الحلفـاء ، وتتوخى تحقيق اماني الاستقلال . ومن المؤسف ان البريطانيين لم يكونوا في الواقع مخلصين في الوعود التي

قطعوهـــا للعرب ؛ ذلك انهم ما كادوا يطمئنون الى نجاحهم في استهواء العرب للقتال في صفوفهم ، حتى اخذوا يضيقون الخناق على الثورة عربية ، ويحاولون حصرها في الحجاز .

وكانوا الى ذلك قد تقاسموا فيما بينهم وبين الفرنسيين العراق والشام ، واعطوا الصهيونيين ذلك الوعد المشؤوم ، وعد بلفور ، الذي جعـل من فلسطين ، دار السلام ، ميدان خصام ومشكلة عالمية .

على انه لولا اصرار قادة الثورة وتهديدهم ، لما كان الانكليز سمحوا ايضاً لجيش الثورة العربي آخر الامر ، وهو الجيش الذي كان يقوده الامير فيصل بن الحسين ، بدخول سورية بالرغم من احتجاج الفرنسيين ، وسعيهم القوي لابقاء هذا الجيش بعيداً عن سورية داخل نطاق الصحراء .



الفصل الثاني

القضية العربية في المشرق

عصر النضال للاستقلال في المشرق منذ الحرب العالمية الأولى

- في أرجوحة السياسة -

اجتازت القضية العربية قبل حرب (١٩١٤ - ١٩١٨) مراحل ثلاث: مرحلة اليقظة والوعي القومي خلال حكم السلطانين عبدالمجيد وعبدالعزيز، ومرحلة الفترة خلال سلطنة عبد الحميد، ومرحلة المطالبة والعمل ابان سيطرة جمعية الاتحاد والترقي. وكانت في هذه المراحل الثلاث، لا تخرج عن حد النظريات والاماني. واذا تعدت ذلك فالى نطاق التشاور والتفكير بصورة سرية. ولكن الحرب العامة ادخلت القضية العربية علانية في حيز السياسة العالمية، وذلك بما أتيح للعرب من وعود وعهود خاصة وعامة، وبمساهمتهم فعلاً في الحرب، وبالمفاوضات التي جرت من بعد.

١ - كان قادة الجمعيات العربية الثورية في دمشق «الفتاة» و«العهد» وغيرهما، يشفقون خلال، الحرب العالمية الأولى، على السلطنة ان تنهار، ويحسنون الظن بالاتراك حاسبين انهم سيقدرون المساعدة العربية في ساعة المحنة، كما كانوا لا يطمئنون للدول الاوروبية، ولا الى وعودها. وقد تجلى هذا الشعور في قرار اصدرته جمعية الفتاة اثناء اجتماعها في دار شكري باشا الأيوبي في شهر مارس ١٩١٥، حيث اجمعت الكلمة، على وجوب مساعدة الدولة. وقد تأثر الامير فيصل بن الحسين بهذا الشعور بفعل وجوده في دمشق بين رجالات العرب العاملين. واما الشريف حسين واولاده الآخرون، وخصوصاً الأمير عبد الله، فقد كانوا في الحجاز في وسط آخر، ويتأثرون دوماً برسل الانكليز ووعودهم، ويتجهون شطر الاعتقاد بان الفرصة سانحة للاستقلال، لا سيما بعد ان ضاعف الانكليز نشاطهم في صعيد استهواء العرب، وذلك عقب فشل الحملة البريطانية على الدردنيل. وقد

عهدوا يومئذ بهذه المهمة الى المستر لورنس الذي جاء الى جدة .

ولكن لما اقدم جمال باشا على صلب القافلة الثانية من رجالات العرب ، في ٦ مايس ١٩١٦ ، ولم يراع استعطاف الامير فيصل وشفاعته بهم ، ثم لم يحفل هو ، ولا حكومة الآستانة ، بتوسط والده ، صاح فيصل بمرارة « لقد اصبح الموت حلواً أيها العرب » ، واقتنع بان والده على حق في عدم الاطمئنان للترك ، فغادر دمشق بعد ايام بحيلة دبرها ، وقاد الثورة العربية الكبرى بالتعاون مع اخوانه الشجعان .

غير ان الشريف حسيناً بدأ بدوره يتراجع الى رأي ابنه الامير فيصل في الدول الاوروبية ، وذلك قبل انقضاء الشهر الاول على انضمامه اليهم : فقد انكر الانكليز والفرنسيون عليه ان يطلق على نفسه ملك العرب ، وصرحوا لجلالته بانهم لا يعترفون له بالملك الا على الحجاز ؛ ثم كانوا ، كلما اطمأنوا الى مصير الحرب ، يغضون الطرف عنه ، حتى احرجوه فانتهى الامر به لتوجيه بلاغه الشهير يوم ٣٠ آب ١٩١٨ الذي اعلن فيه استعداده للانسحاب ، وتخليه عن العمل ، لانهم لم يفوا للعرب بما عاهدوهم عليه .

٢ — بينما كانت المفاوضات تدور بين شريف مكة والسر هنري مكماهون مدة ثمانية عشر شهراً ، كانت تتناثر في جو السياسة تصريحات من لندن وباريس وواشنطن كلها اغراء للعرب ووعود بما يضمره الحلفاء لهم من النوايا الطيبة ، نذكر منها تصريحات المسيو بريان رئيس الوزارة الفرنسية بتاريخ ٣ تشرين الثاني ١٩١٥ . هذا فضلاً عن تصريحات المسيو ريبو رئيس وزارة فرنسا يوم ٢٢ مايس ١٩١٧ امام مجلس النواب ، وبيان مجلس النواب الفرنسي في ٤ — ٥ حزيران ١٩١٧ ، وبيان مجلس الشيوخ الفرنسي في ٦ من الشهر المذكور . فهذه العهود والوعود والمبادىء شجعت العرب على الثورة ، وجعلتهم يعلقون الآمال الكبار على انتصار الحلفاء ، خصوصاً بعد ان وضع الرئيس ويلسون عام ١٩١٦ للسلم العالمي اربعة عشر مبدأ اساسياً ، وفي جملتها مبدأ اقرته الدول دون ما قيد او شرط ، وفيه : « ان الاجزاء التركية من السلطنة العثمانية الحالية يجب ان تضمن لها سيادتها التامة . واما الشعوب الاخرى الخاضعة الآن للحكم التركي فينبغي ان يضمن لها العيش بامان واطمئنان ، وان تتاح لها فرصة الرقي في مدارج الحكم الذاتي دون ما تدخل او ازعاج . »

٣ – وبينما كانت تدور المفاوضات بين الشريف والسير مكماهون ، وتنثر حولها هذه الوعود ، كانت مفاوضات اخرى لا تتفق معها تدور ايضاً بين بريطانيا وفرنسا وروسيا افضت الى معاهدة عقدت فيما بين الدول الثلاث في ٤ آذار ١٩١٦ تنص على اقتسام تركيا . واطلعت عليها ايطاليا بعد انضمامها للحلفاء .

وفضلاً عن ذلك فبينما كان جواب السر مكماهون المؤرخ في ١٠ مارس١٩١٦ الموجه الى الشريف يعلن ان حكومة جلالة الملك صادقت على جميع مطاليبه ، اذا بما هدة سرية تعقد في الشهر نفسه بين انكلترا وفرنسا ، تعرف باتفاقية « سيكس - بيكو »،وفيها تتفق الدولتان اللتان كانتا تعدان بانشاء دول عربية ، او اتحاد دول عربية ، على تقسيم هذه البلاد الى مناطق نفوذ انكليزية وفرنسية ، وعلى ايجاد « ادارة دولية » في فلسطين ...

وما كان اعظم دهشة الملك حسين والعرب حينما نشرت الحكومة الروسية الثورية في شهر تشرين الثاني ١٩١٧ جميع المعاهدات السرية القيصرية ؛ وفي جملتها معاهدة سيكس - بيكو . وقد سارع الملك حسين وقتئذ في الكتابة الى السر مكماهون يستوضحه حقيقة الخبر ؛ فاكد له ممثل حكومة بريطانيا في مصر « ان الانكليز لا يزالون على عهدهم ، وانهم مصممون على اعلان الحرية والوحدة العربية ؛ وان هذه الاشاعات إن هي الا اكاذيب الترك ليخلقوا الشك والريبة بين القوى المتحالفة والعرب الذين يجاهدون بشرف في سبيل استرجاع حريتهم القديمة » !!!

ويظهر ان الحيلة انطلت على الملك حسين ؛ غير ان قادة الحركة العربية الذين اتيح لهم الاطلاع على هذه المعاهدة ظلوا يرتابون بتصريحات الدول الاجنبية ، فوضع سبعة منهم في مصر مذكرة وجهوها للحكومة الانكليزية يستجلون فيها بعض الشبهات ؛ فكان الجواب عليها من وزارة الخارجية ما يفيد: « ان حكومة جلالته ترمي فيما يختص بالبلاد العربية المحتلة الآن من قبل الجيوش المتحالفة ان تقوم الحكومة المستقبلة فيها على اساس اختيار الشعب ، واما بشأن اولئك الذين لا يزالون تحت الحكم التركي فحكومة جلالته ترغب في ان تنال الشعوب المظلومة حريتها واستقلالها ، وان حكومة جلالته ستتابع عملها في سبيل تحقيق ذلك الغرض » .

وزيادة في التطمين نشرت الدولتان انكلترا وفرنسا تصريحاً رسمياً مشتركا يوم ٧ تشرين الثاني عام١٩١٨ في كل من فلسطين وسوريا والعراق، يتضمن الاشارة الى ان هدفهما من دخول الحرب في الشرق هو تحرير الشعوب من ربقة الترك . وقد جاء فيه ما يلي : « وتحقيقاً لهذه المقاصد ستقوم فرنسا ، وبريطانيا العظمى فوراً ، بتشجيع ومساعدة انشاء حكومات وادارات وطنية ، في سوريا والعراق

اللتين تمّ تحريرهما بواسطة الحلفاء ، وفي البلاد الاخرى التي تسعيان لتحريرها، وان تعترفا بهذه الحكومات الوطنية حين تأليفها . وهما لاتنويان قط ان تفرضا على سكان هذه الامصار اي شكل من المؤسسات الحكومية . بل جل غايتهما ضمان حسن سير الحكومات والادارات التي يختارها السكان انفسهم ، وذلك بما تقدمانه لها من المعاضدة والمساعدة الوافية . »

وكان لهذا التصريح اثر عظيم جداً ، خصوصاً وانه صدر عن الدولتين عقب ادراكهما النصر ، وبعيد عقد الهدنة بينهما وبين تركيا ، اي انه نشر في وقت لا مجال فيه للريبة .

٤ – اسست فكرة الجمهورية الصهيونية عام ١٨٩٧ ، وكان غرض مؤسسها تيودور هرزل توحيد جميع اليهود، الذين ارادوا ان يعبروا عن قوميتهم بجامعة ذات طابع ديني ؛ ولم يكن الصهيونيون،في البدء، يقصدون بهذا الوطن فلسطين. فقد قبل هرزل بتأسيس هذه الدولة في نيوجاندا ، ولكن المؤتمر الصهيوني الذي عقد وقتئذ لمعالجة اقتراح الحكومة الانكليزية التي وهبت نيوجاندا لهم ، رفض هذا الاقتراح ، على اساس ان فلسطين هي البلد الوحيد الذي يمكن للدولة اليهودية ان تقوم به .

وقد قيل ان المانيا كانت خلال حرب (١٩١٤ – ١٩١٨) تعد العدة لكسب عطف يهود العالم ، على اعتبار ان برلين كانت قاعدة اليهودية . ومما لا ريب فيه ان اليهود رأوا في تلك الحرب فرصة لتحقيق آمالهم ، ولما اراد الانكليز اكتساب مساعدتهم كان وعد بلفور ثمناً لهذه المساعدة .

لقد شعر اليهود سنة ١٩١٧ بان الجيوش الانكليزية على وشك احتلال فلسطين، فدخلوا في مفاوضة رسمية مع حكومة جلالة الملك التي كانت تترقب فوائد من مساعدة الصهيونيين . وقد اشار تقرير لجنة بيل الملكية الموضوع عام ١٩٣٧ م الى هذه الفوائد المرتقبة حيث قال : « ذكر لنا المستر لويد جورج ، الذي كان رئيساً للوزارة في ذلك الحين (١٩١٧ م) ، في سياق الشهادة التي ادلى بها امامنا ، انه ، بالرغم من ان القضية الصهيونية كانت تلقى معاضدة واسعة في بريطانيا وامريكا قبل شهر تشرين الثاني (١٩١٧) ، فقد كان اعلان تصريح بلفور في ذلك الحين امراً اقتضته موجبات الدعاية » ... « وشرح لنا الموقف الحرج الذي كان يحيق بدول الحلفاء والدول المشتركة معها في ذلك الوقت » .

ماذا لهذا وعد بلفور : انه كان تقريراً صادراً عن الحكومة البريطانية في تشرين الثاني (١٩١٧) جاء فيه : « ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية ، على ان يفهم جلياً انه لن يؤتى بعمل من شأنه ان يضير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين ، ولا الحقوق او الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الاخرى . »

وهذا التصريح ظل مكتوماً ايضاً عن العرب ، واستمر الحلفاء حتى بعد الحرب العالمية الاولى يزعمون انهم لا ينوون قط ان يفرضوا على سكان الامصار العربية أي شكل من اشكال الحكومات التي لا يختارونها ؛ ولا أدل على ذلك من تصريح كل من بريطانيا العظمى وفرنسا (٧-١١-١٩١٨) الذي اوردناه من قبل.

. . . . .

اصطدام القضية العربية باتفاقات معارضة

اكتسح الحلفاء سوريا وكان الامير فيصل بن الحسين ، قائد القوة العربية ، يطارد الجيش التركي في جانب الاردن الشرقي ، بينما كانت الحملة الانكليزية المعروفة بالمصرية تتقدم من جانبه الغربي . وكان الامير وصحبه في ثورتهم يطيرون مع امانيهم السامية ، وكلما تقدموا في بلاد قومهم خطوة ، كانوا يحسبونها مرحلة كبرى اجتازوها الى المثل الاعلى ؛ وهم الى ذلك مشبعون بتفاؤل لم تكن دعائمه قائمة على الخيال ، وانما تستند الى ما كان لهم في حرب الترك من الاثر المجدي . وفي الواقع فان ثورة ملك الحجاز جعلت سوريا وغيرها من البلاد العربية ، بركاناً لا تصلح من بعد للجيش التركي ان يتخذها كموقف دفاع . وقد دخل الامير فيصل دمشق في ١ تشرين الاول ١٩١٨ متعقباً الجيش التركي الذي كان يستمر في الانسحاب الى الشمال . فكان فرح العرب شاملاً وشديداً حتى كاد يبلغ حد الجنون . ولا ادري ايها كان نصيبه من هذا الفرح اشدّ : الجيش العربي الفاتح وفيه السوري والعراقي والحجازي ، ذلك الجيش الذي قضى في البوادي الاشهر الطوال يجاهد لتحرير وطنه ، ام الشعب الذي كان يتململ تحت ضغط الترك ، ويترقب بفارغ الصبر انتصار العرب وحلفائهم ؟

هذا .ولقد كانت باكورة اعمال حكومة الامير فيصل ،انتدابها السيد شكري

الايوبي لمنصب حاكم عام على بيروت وجبل لبنان ، فغادر دمشق الى بيروت ، ورفع العلم العربي على دار حكومتها ؛ كما انها انتدبت عمالاً لها ليتولوا الادارة في منطقتي انطاكية واسكندرونة .

وكان الامير فيصل ، الذي آمن في جملة من آمن بتصريح حلفائه عن عدم صحة وجود اتفاقات سرية ، قد فسّر التحفظات التي وردت في كتاب السير مكماهون (٢٤ تشرين الاول ١٩١٥) الى جلالة والده المختصة بالساحل السوري ، وذلك حيث اشارت الى وجود مصالح افرنسية ،بان المقصود من هذه التحفظات هو جبل لبنان . اضف الى ذلك ان الملك حسيناً لم يقبل بتلك التحفظات ، بل قابلها عند دخوله الحرب بمثلها .

فكان احتلال حكومة الامير فيصل للساحل ، فضلاً عن كونه مستنداً الى اجتهاد في تفسير الاتفاق ، يقصد منه ايضاً وضع الحلفاء تجاه امر واقع . ولكن هذا الاحتلال كان بدء الاصطدام بين حكومة الامير وبين فرنسا . وكان الجيش الانكليزي قد وصل بيروت بعد اربعة ايام من اعلان الحكم العربي فيها ، فدارت مفاوضات سياسية انتهت بانسحاب شكري باشا الايوبي من بيروت وتولية الكولونيل بياباب الحكم ، على ان يبقى جميل بك الالشي ، الذي كان يرافق شكري باشا ، معتمداً لحكومة فيصل ببيروت . وعلى اثر ذلك اذاع قائد الحملة المصرية العام منشوراً (٢٢ تشرين الاول ١٩١٨) يتضمن اسلوب ادارة بلاد العدو المحتلة مستوحى من اتفاق سايكس - بيكو ؛ فقسمت سوريا بمقتضاه الى ثلاث مناطق :

أ - المنطقة الجنوبية (فلسطين) ، وتتولى السلطات الانكليزية ادارتها مباشرة .

ب - المنطقة الشرقية (سوريا الداخلية من معان الى تركيا) يباشر ادارتها الامير فيصل .

ج - المنطقة الغربية (الساحل من فلسطين الى ولاية اطنه) (سيليسيا) يباشر ادارتها الكولونيل بياباب باسم فرنسا . واما العراق فقد عهد بادارة شؤونه الى مكتب الهند المرتبط بالحكومة الهندية. على ان حكومة فيصل ، التي اضطرت للتساهل في الانسحاب من بيروت ولبنان،جربت ان تحتفظ بمنطقة الاسكندرونة، استناداً الى اعتراف انكلترا لجلالة الملك حسين قبل الثورة . « بانه ليست هناك

رغبة في ترك مملكة داخلية دون منفذ بحري » .

وقد أدى هذا الأمر الى اصطدام فرنسا ثانيـة بحكومة دمشق حينما ذهب الجيش الفرنسي لاحتلال تلك المنطقة ، وابى عمال الامير فيصل ان يتخلوا عنها ؛ ثم استمروا على الرفض الى ان وردت اليهم اوامر قطعية من القيادة العليـا في اواخر عام ١٩١٨ .

وسنتكلم فيما يلي على تطور القضية خلال الاحتلال العسكري ، فنفرد لكل منطقة باباً خاصاً وفقاً للتقسيمات السياسية التي اشرنا اليها .

أ ـ المنطقة الجنوبية (فلسطين) ١٩١٨ - ١٩٢٠ م :

ان القاعدة المتبعة عادة في ادارة البلاد الـتي تحتلها الجيوش هي المحافظة على الحالة الراهنة ، وتجنب إحداث اي تغيير جوهري. وقد كانت الادارة في فلسطين خلال « ادارة بلاد العدو المحتلة » عبارة عن هيئة عسكرية يرأسها مدير عام يرجع الى القائد الاعلى (الجنرال اللنبي) ، وتحكم حكماً مباشراً .

وقد ادركت هذه الادارة سريعاً ، ضرورة احداث نظـام للقروض بسخاء استجلاباً لعواطف الشعب ، وتحسيناً للزراعة التي انهكتها الحرب ، فعقدت اتفاقاً (١٩١٩ م) مع شركة انكليزية ، تعهدت بمقتضاه اقراض المزارعين نصف مليون جنيه . وجربت الادارة ايضاً اكتساب ثقـة الهيئة الدينية الاسلامية ، فكانت تحل مطالبها ، في الشؤون الطائفية ، محلها من الاعتبار، فاقامت تشكيلات القضاء الشرعي ، والاوقاف ، وفقاً لاختيارها . واما اليهود فكان لهم نظـام قضائي مستقل ، يسير على قاعدة التحكيم . على ان عرب فلسطين ، وان اطمأنوا وقتئذ الى النظام الاقتصادي ، الا انهم كانوا يتلاقون مع سائر العرب في المثـل الاعلى القومي ويشتركون معهم في الشكوى من حلفاء اخلوا بالعهود والوعود . واما القضية اليهودية فانها لم تسترع انتباههم جدياً ، الا حينما وصلت الى فلسطين لجنة خولتها الحكومة البريطانية حق الاستقصاء ، عن امكان تأسيس وطن قومي. فاذا باليهود يتقدمون الى هذه اللجنة بمطاليب مفرطة جعلت العرب يشعرون بان الغدر احاق بهم ، وبان ثمة مؤامرة بين انكلترا والصهيونيين على اخراج وطنهم من حوزة ايديهم؛ فكانت ثورة عيد الفصح سنة ١٩٢٠ التي وقعت في بيت المقدس، وشهدت الادارة العسكرية خلال الاشهر الثلاثة الاخيرة من جرائهـا نشوب الاضطرابات الاولى التي كانت مقدمة لما بعدها .

ب ـ المنطقة الشرقية (حكومة الامير فيصل) ١٩١٨ - ١٩٢٠ :

لما هبط الامير فيصل دمشق دخلها دخول المطمئن الواثق من حلفائه ، المغتبط اغتباط نبيل استرد حرية امته ؛ كما ان فرنسا ، عندما احتلت الساحل السوري ، احتلته احتلال الفاتح الذي ظفر ببغيته . وقد طلب الكابتن كولوندر الافرنسي، الملحق بالحملة المصرية ،الى القائد العام بولز الانكليزي(٢٩ ايلول ١٩١٨) ان يسمح للقطعات الفرنسية بالتقدم لاحتلال دمشق فلم تجب القيادة طلبه ، بل تركت للامير فيصل ان يدخلها دخول المحررين .

وبينما كان الامير يعتبر نفسه نائباً عن ملك العرب والحجاز ، ويريد التصرف في ولايته تصرف الحر ،كانت انكلترا وفرنسا تستندان في التعامل معـه ، الى اعتباره قائد الجيش العربي الملحق بالحملة المصرية . ولمناسبة الاصطدام الذي حدث من جراء ذلك بينه وبين فرنسا من جهة ، وبين الحليفتين من جهـــة اخرى ، توجهت الانتقادات المرة الى انكلترا ، على اعتبار ان الاتفاقين اللذين عقدتهما تباعاً مع كل من العرب والفرنسيين ، هما مصدر هذا الشقاق . فشاءت انقاذ نفسها من هذه التبعة وذلك بايجاد وسيلة للتوفيق بينهما ، تؤمن لها ، في نفس الوقت ،استثمار الموقف، خصوصاً في زيوت الموصل ؛ وكانت هذه من نصيب فرنسا بمقتضى اتفاق (سايكس — بيكو) .

ولذلك كان موقف انكلترا، الحيادي في الظاهر،عبارة عن موقف حائر ومساوم. وفضلاً عن انـه القى مؤتمر باريس ، المجتمع للتوقيع على شروط السلام ، في هوة من المشاكل بعيدة الغور ، فقـــد جعل المشادة التي وقعت بين حكومتي فيصل وفرنسا صعبة الحل ، وساقها لانــ تمر في مرحلتين مختلفتين : اولاهما من تشرين الاول ١٩١٨ الى تشرين الاول ١٩١٩، وهي التي تمثل مرحلة التنافس بين انكلترا وفرنسا، والثانية من ١٥ أيلول ١٩١٩ الى ٢٥ تموز ١٩٢٠ ، وهي التي تمثل مرحلة الاتفاق بين الدولتين . وعلى هذا التقسيم سنعتمد عند الكلام على حكومة فيصل .

مرحلة التنافس بين انكلترا وفرنسا : بعد اربعة أيام من دخول الامير فيصل دمشق ، اذاع بلاغـــاً رسمياً استهله بالشكر للسوريين ، واعلن فيـه ما يأتي : « تشكلت في سورية حكومة دستورية عربية ،مستقلة استقلالاً مطلقاً لا شائبة فيه ، باسم مولانا السلطان حسين ، شاملة جميع البلاد السورية » وتضمن هـــذا البلاغ

نبأ تنصيب رضا باشا الركابي رئيساً للحكومة ؛ وختم بطلب المحافظة على السكينة والتزام الطاعة ، وبان الحكومة لا تميز بين الطوائف ، وانما هدفها اعلاء شأن العرب .

وقد اناط الامير ، برئيس الحكومة ادارة الشؤون الداخلية ، ملقباً اياه بالحاكم العسكري العام ، كما انصرف سموه الى معالجة الشؤون الخارجية . ولم يكن من الغريب ولا من المرتجل ، ان تقوم في سورية حكومة متزنة تحسن الادارة ، وفي سورية نخبة من الرجال الذين تخرجوا في مدارس استامبول العليا، وبعضهم يحمل شهادات عالية من الجامعات الاوروبية ، وقد مارس اكثرهم الحكم في العهد العثماني ، وبلغوا فيه اسمى المناصب ، سواء في الادارة او الجيش .

وفي ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٨ استقل الامير فيصل الطراد البريطاني غلوستر قاصداً الى فرنسا ، لينوب عن جلالة والده في مؤتمر السلام . غير ان هذا السفر لم يقع عند فرنسا موقع الارتياح ؛ فاعربت له عن عجبها لسفره ، وعن استحالة اعتباره قائماً بمهمة رسمية لم تبلغ شيئاً عنها ؛ وعارضت فعلا في قبوله بالمؤتمر اثر وصوله الى باريس عائداً من لندن (٦ / ١ / ١٩١٩) .

ثم لم يتحول المسيو كليمانصو عن موقفه المعارض للأمير فيصل، الا مراعاة لتوسط اللورد كورزن Gurzon . وقد مثل الحكومة العربية يوم افتتاح مؤتمر السلام في ١٨ / ١ / ١٩١٩ اثنان ، هما الامير فيصل ورستم بك حيدر . ولما استعرضت فيه الشؤون العربية (٦ / ٢ / ١٩١٩) بسط الامير القضية العربية ، وطلب المصادقة على تأليف ولايات عربية متحدة يكون لدولة الحجاز عليها شيء من السيادة ، معترفاً بامتيازات جبل لبنان ، وحق فرنسا في بسط حمايتها عليه ؛ كما وافق على وجود اسلوب خاص للحكم في فلسطين ، وعلى ميزة انكلترا في العراق . ولكنه رفض المساعدة الاجنبية في المناطق العربية المستقلة ، وعلق هذه المساعدات على قرار تتخذه الادارات العربية عند الحاجة . وهو ، في كل ذلك، يستند الى العهود التي قطعت لجلالة والده . وقد كان يترجم كلامه الكولونيل لورنس . ويظاهره السيد هواردبلس رئيس الجامعة الاميركية في بيروت .

وازاء تضارب المصالح الدولية ، وما تبع ذلك من مظاهر تدل على اختلاف المبادىء السياسية بين الجماعات في لبنان ، دارت في مؤتمر السلام مناقشات حادة، انتهت الى الاتفاق على ما يأتي :

ا ـ اجراء تحقيقات في سورية عملاً بارادة مستر ويلسن ، للوقوف على حقيقة رغائب اهلها .

ب ـ اتخاذ نظام الانتداب كدستور لعمل يراد به التوفيق بين مصالح انكلترا وفرنسا ، وبينهما وبين ضمان استقلال العرب ، وذلك على قاعدة استفتاء السكان في اختيار الوصي .

ج ـ انتداب انكلترا لادارة فلسطين ، وتنازل فرنسا عن الموصل .

غير ان انكلترا وفرنسا لم تلبثا ان ترددتا في تحقيق اقتراح الرئيس ويلسن ، بينما كان الرئيس يصر على تحقيق ما تقرر ، فأدى هذا الاختلاف في الرأي الى الاقتصار على تأليف لجنة للاستفتاء اميركية فقط يعهد اليها الوقوف على ارادة الشعب في سورية ، دون ان يكون فيها انكليزي ولا فرنسي .

وهكذا خرجت مبادىء ويلسن من هذا المؤتمر مكللة بالنصر ، ولم يسع فرنسا من بعد ، الا ان تتحول الى سياسة الاسترضاء قبل حلول موعد الاستفتاء . فكانت مفاوضات بينها وبين فيصل اريد بها تقريب وجهتي نظرهما ، فاعترفت له بحق الولاية على سورية ، ووعدته بالسعي لحمل المعارضين في لبنان على قبول الوحدة السورية ، وذلك لقاء فصل قضية سورية عن الحجاز واعترافه مع جلالة والده باستقلال سورية عن الحجاز .

وعاد الامير فيصل الى سورية (مايس ١٩١٩) ، فاشتركت في استقباله السلطتان الفرنسية والانكليزية ، وكان استقباله في بيروت استقبال الملوك ، كما كان يوم دخوله دمشق يوماً مشهوداً . وبعد ان استقرّ به المقام واستأنف المفاوضة مع المسيو جورج پيكو ، احد اقطاب السياسة الفرنسية بدمشق ، اذا بالتردد يظهر عند الفريقين : ففرنسا تستكبر النزول عند اماني العرب ، وتعتبر تحقيق هذه الاماني انكساراً لها بعد الانتصار . وحكومة فيصل لاتجرؤ على البت في شأن مع فرنسا يجعلها تصطدم مع تلك الاماني .

وفي الواقع فان حكومة فيصل قد حملها التيار الشعبي على النزول عند ارادته ، وعلى النطق بلسانه . وكانت اماني السوريين ترمي الى ضم فلسطين وكليكيا والموصل الى سورية ، مع الاحتفاظ بالساحل . وهي امانٍ لاتتعارض مع فرنسا فحسب ، بل تتعداها الى انكلترا . فكان اذن من الطبيعي ان يؤدي الامر الى الفشل في المفاوضات ، وان يتحول الفريقان الى الاستعداد لخوض معركة

الاستفتاء ، قبل وصول اللجنة الاميركية : فاذا بفرنسا تعتمد على الاموال لشراء القلوب المريضة ، ولا سيما في الساحل؛ واذا بحكومة دمشق تحاول ان تجابه اللجنة برأي عام شامل ، فتدعو الى مؤتمر يعقد في دمشق ، ويشهده ممثلون عن لبنان وفلسطين ، ومنطقتي اللاذقية واسكندرونة . ويفتتح الامير فيصل المؤتمر (١٧ حزيران ١٩١٩) ،بخطاب اشار فيه الى ان الغاية من الاجتماع، انما هي تمثيل سورية امام لجنة الاستفتاء ، ووضع قانون اساسي لها .

وكانت لجنة الاستفتاء (كينج — كرين) ، وعلى رأسها تشارلس كرين ، قد وصلت يافا قبل ايام قلائل ، واعرب لها عرب فلسطين عن ان امانيهم، انما هي الاماني التي ستعرب عنها دمشق العاصمة . ثم لما بلغت اللجنة دمشق ، فاجأها المؤتمر بتقرير بسط فيه قراراته ، وخلاصتها ان المؤتمر يلح في امر تحقيق استقلال سورية بحدودها الطبيعية ، دون حماية ولا وصاية ؛ وهو الى ذلك يعترض على المادة ٢٢، الواردة في عهدة جمعية الامم ، التي تجعل سورية في عداد الامم التي تحتاج الى انتداب. ولكنه يستدرك مع ذلك فيعلن انه اذا كان مؤتمر السلام يصر على فرض الانتداب، فان المؤتمر السوري،يعتبر الانتداب مساعدة فنية واقتصادية، ويطلب هذه المساعدة من الولايات المتحدة ، واذا لم تقبل فمن انكلترا ، ويرفض مساعدة فرنسا . ولم يغفل التقرير ذكر فلسطين والعراق : فقد تعرض الى وعد بلفور واشبعه احتجاجاً ، وتحول الى العراق يطالب باستقلاله الناجز ؛ كما انه دوّن الاحتجاج العنيف على تجزئة سورية .

وقد جابت هذه اللجنة البلاد السورية ، فلم تسمع الا صدى قرار المؤتمر . واما في لبنان ، فقد اختارت اكثرية الطوائف المسيحية ، الانتداب الفرنسي ، بينما ان الجماعات الاسلامية قد اعربت للجنة الاستفتاء،عن امانٍ لاتختلف عما جاء في تقرير المؤتمر السوري . هذا وكان قد تألف في اواخر عام ١٩١٨ حزب سياسي في بيروت اطلق عليه اسم « حزب الاتحاد السوري » هدفه الوحدة السورية الشاملة من جبال طوروس الى بادية سينا ، بما فيه لبنان؛ وكان قوام هذا الحزب الخوري يوسف اسطفان ، وخليل بك الخوري ، والامير حارث شهاب، ونصيف بك الريس ، ومتري بك طراد ، وعزيز بك مالك ، وجورج باز (نصير المرأة)، والدكتور فريد كساب ، والدكتور اسعد العفيش ؛ وقد اشترك في هذا الحزب بعض وجهاء المسلمين ، فلما جاءت لجنة الاستفتاء ، اعرب لها الحزب عن امانيه

في الوحده السورية، على طريقة الفدراسيون ؛ كما ان طائفة الروم الارثوذكس في بيروت قدمت مثل هذا الطلب . واما تأثير اللجنة في الموقف بسورية فقد اشار اليه ج دي لودر حيث قال :

«على ان وصول اللجنة الاميركية لم يغير ،في الواقع ، الموقف كما كانوا يتوقعون : بل على عكس ذلك ، جعل الهياج والتحريض ينقلب الى تعديات وثورات فعلية ، اشترك فيها الفريقان السوري والفرنسي ، قصد الضغط على افكار اللجنة . وقد بقيت اللجنة اربعة شهور تدرس الحالة العامة ؛ وتشاهد المكائد والدسائس العديدة عن كثب . ولكن مساعي الفريقين لاكتساب صوت الشعب لم تأت باية جدوى في النتيجة : لان اللجنة لم تجد في باريس قبولا لتقريرها الضافي ، من قبل الحليفتين انكلترا وفرنسا ؛ كما ان هذا التقرير ، القي في سلة المهملات بواشنطن عندما اودع في وزارةالخارجية الاميركية . »

مرحلة الاتفاق بين الحليفتين: أجل ان عمل لجنة الاستفتاء لم يثمر في النتيجة ، الثمرة التي جاءت من اجلها ، ولكن هذا العمل قد ترك ، مع ذلك ، في كل من باريس ودمشق عبراً ودروساً بدلت موقف كل منها : فالعرب ، الذين كانوا يعقدون الآمال الجسام على اللجنة ، قد ازدادوا حماساً في المطالبة بالوحدة السورية والاستقلال ، على ان تشمل هذه الوحدة فلسطين ، ويتمتع العراق باستقلاله ؛ اما الفرنسيون،الذين كانوا قد قطعوا الامل من امكان اكتساب عواطف السوريين ، فقد عمدوا الى العمل الحاسم مختارين التعاون مع انكلترا مهما كلفهم هذا التعاون من تضحية .

وصادف ان الحركة الوطنية بمصر ، كانت قد تفاقمت وقتئذ ، وان انكلترا ، اصبحت متأهبة للتعاون مع الفرنسيين ، بعد ان تخلوا لها عن الموصل وزيوتها ، فلم يتردد الانكليز ، من ثم ، في ابلاغ الامير فيصل رفضهم قبول الانتداب على سورية ، وتأييدهم للوطن القومي اليهودي بفلسطين . هذا فضلاً عن انهم اقدموا على توقيع معاهدة عسكرية مع فرنسا ، في (١٥ ايلول ١٩١٩) تقضي بتسليم كيليكيا ، والمنطقة السورية الغربية (لبنان) من بلاد العدو المحتلة الى الادارة الفرنسية .على ان هذه المعاهدة،وان كانت تنص على استبقاء المنطقة الشرقية من سورية بادارة الحكومة الفيصلية ، الا انها تعترف لفرنسا فيها بحق المساعدة ، استناداً الى اتفاق سايكس — بيكو . واما فلسطين والعراق فقد احتفظت بريطانيا بها لنفسها . ونصت المعاهدة على دخولها تحت الانتداب الانكليزي .

وبمقتضى هذا الاتفاق ، لم يعد للورد اللنبي ان يظل مستأثراً بالسلطة العليا في

المناطق الثلاث من بلاد العدو المحتلة ، بل قام الى جانبه الجنرال غورو قائداً عاماً ، ومندوباً سامياً على سورية ، ساحلها وداخلها . وقد وصل بيروت في ١٨ تشرين الثاني ١٩١٩ .

هذا وكانت الحليفتان تبغيان ابعاد الامير فيصل عن عاصمته ، عند اعلان هذا الاتفاق العسكري ، واثناء جلاء الجيوش الانكليزية عن المناطق التي اخذت الجيوش الفرنسية تحتلها . فكان مستر لويد جورج قد ابرق قبل ذلك بايام للامير فيصل يستقدمه الى لندن عاجلاً ؛ وما ان وصل باريس حتى فوجىء باعلان هذا الاتفاق . فسارع الى لندن ، ولكن المستر لويد جورج واللورد كرزن حاولا ان يخففا من ثورة اعصابه ، بالاستقبال الفخم الذي اعداه له ، وبالمجاملات . ثم اشارا عليه بان يقفل عائداً الى باريس ، لوضع اسس التفاهم مع فرنسا . ولم ير سمو الامير مناصاً من قبول النصح ؛ ولا سيا بعد انسحاب الولايات المتحدة من مؤتمر السلام ، من جراء خيبة أمل الرئيس ويلسن .

وبينما كان الامير فيصل يوالي اجتماعاته برجال الحكم في باريس ، ويتصل اتصالاً وثيقاً بالمسيو كليمنصو ، الذي كان قد اتخذ مقام الوساطة والحكم بين الامير والمراجع الفرنسية ، كانت سورية تقابل الاحتلال الفرنسي بفتن محلية ، ترمي الى التأثير على مفاوضات باريس ، مع الاحتجاج على الاحتلال الاجنبي .هذا فضلاً عن سلسلة احتجاجات وتدابير تولت امرها حكومة دمشق مباشرة: فحينما تبلغ الامير زيد نبأ ذلك الاتفاق العسكري ، رفع الى اخيه بباريس استقالته من الحكم بالنيابة ، احتجاجاً . فعهد اليه الامير فيصل بالسلطة العسكرية الموقتة . ورأى الامير زيد أن يدعو المؤتمر السوري لتقرير الموقف،فعقد جلسة في (٢٤ تشرين الثاني١٩١٩)،وهي ثاني جلساته،وقد قرر فيها رفع كتاب الى الامير المشار اليه ، يبسط فيه أمنيته في الاستقلال التام ، بحدود القطر السوري التي حددها المؤتمر للجنة الاستفتاء ، وانشاء حكومة دستورية ملكية . وقد رافق هذه الحوادث اتجاه افكار الحكومة والمؤتمر الى التجنيد الاجباري . وتمهيداً لذلك تألفت لجنة من اعضاء المؤتمر للدفاع الوطني ،روعي فيها تمثيل المناطق؛ وقد كنت عضواً فيها، بوصفي عضواً في المؤتمر عن بيروت .

وصادف ان قامت ثورة تركية في كيليكيا ضد فرنسا، يعززها مصطفى كمال، واستفحل امرها وقتئذ حتى ادت الى القضاء على بعض الحاميات الفرنسية ،

فتضافرت هذه المواقف الوطنية في سورية وتركيا ، في اثناء المفاوضة بين فيصل وكليمنصو ، على تعديل موقف فرنسا ، وجعلها تلتزم خطة المصانعة مراعاة لضعفها العسكري في الشرق ؛ كما أن الامير فيصلاً شعر، بعد ان خسر انكلترا والولايات المتحدة ، بانه لم يعد يستند الا الى ارادة شعب اعزل ، لم يسعه الا التساهل . وهكذا انتهت المفاوضة بينهما (٦/١/١٩٢٠) على وضع مشروع معاهدة ، ينص على اعتراف الكي دورسه بحكومة دمشق على ان تعترف هذه الحكومة لفرنسا بحق المعونة والحماية . وتمّ التفاهم ايضاً بين الفريقين على كتمان مشروع هذا الاتفاق ريثما يذهب الامير الى سورية ، ثم يعود الى باريس مزوداً بموافقة الامة ، فيوقعه الفريقان نهائياً ، ومن ثم يعرض على مؤتمر الصلح . ولما بلغ الامير فيصل سورية ، بعد غياب اربعة اشهر ، شعر بثقل العبء الذي حمله من باريس ، ووجد نفسه امام شعب متحمس للاستقلال، الى حد لاسبيل بعده لمجابهته بهذا الاتفاق؛ ولذلك حاول سموه ان يشير الى الاتفاق بالتلميح والكنايات؛ ثم ما لبث ان استسلم لتيار الرأي العام ، فاعلن تأجيل سفره الى اوروبا ، وتلمس المعذرة لتأخره عن السفر ، باستبدال وزارة كليمنصو بوزارة مايران .

وفي ٣ آذار ١٩٢٠ دعا الامير المؤتمر السوري للاجتماع ، وافتتحه بخطاب استعرض فيه القضية العربية ، وختمه بقوله : « فدولتنا الجديدة ، التي قام اساسها على وطنية ابنائها الكرام ، هي في حاجة اليوم الى تعزيز شكلها اولاً ، ووضع دستور لها .» واذا بالمؤتمر يجتمع بعد اربعة ايام من ذلك ويسارع الى اعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية ، والى مبايعة الامير فيصل ملكاً عليها . وجرت حفلة المبايعة في اليوم التالي لهذا القرار ، وحضرها مندوبا انكلترا وفرنسا وقناصل الدول الاخرى؛ بينما ان لندن وباريس اعلنتا انهما لاتعترفان بما حدث في دمشق . ثم حاول الجنرال غورو ، ان يمنع خطباء المساجد ببيروت وغيرها من الدعوة للملك فيصل في خطبة يوم الجمعة؛ كما حاول عبثاً ان يقنع المعتمد العربي في بيروت بانزال العلم السوري عن دار الاعتماد. ولم تكن الظروف تسمح له باستعمال القوة، اذ كان جاداً في سوق الجيش والعتاد الى كيليكيا الثائرة .

ولما عقد مؤتمر سان ريمو (نيسان ١٩٢٠) ، قرر انتداب فرنسا على سورية ولبنان وكيليكيا ، فبادر مسيو ميلران ، رئيس الوزارة الفرنسية الى توجيه بلاغ مؤرخ في اول مايس للملك فيصل ،يعلن فيه وضع سورية تحت الانتداب الفرنسي.

فرد عليه المليك السوري ببرقية كلها رفض واحتجاج، كانت من بعد، مصدر المشادة الفعلية بين الفريقين . وقد عصفت منـذ ذلك الحين ريح ثورة في اطراف سورية الجنوبية والشمالية اضطرت فرنسا لعقـد هدنة مع مصطفى كمال، لم تكن شروطها متلائمة مع كرامتها وذلك قصد مجابهة حكومة دمشق. وكانت هذه المعاهدة غير متلائمة ايضاً مع حقوق سورية، لان الحدود تعـدلت بمقتضاهـا تعديلاً ادى الى ضياع قسم من جانب سورية الشمالي .

واراد الملك فيصل ان يترك وزارة الدفاع تجدّ في تنظيم الجيش وتوفير المال بينما هو يقصد الى لندن ومؤتمر الصلح بباريس لمعالجة الموقف ، فاوفـد اللواء نوري باشا السعيد الى بيروت، للاتفاق مع الجنرال غورو على برنامج الرحلة؛ غير ان الجنرال فاجاه بانذار شفهي، كلفه ان يحمله الى دمشق، يوجب على حكومتها ان ترضى بالانتداب، وان تعيد الجيش الى ما كان عليه في شهر شباط، وان توافق على التعامل بورق النقد السوري الذي وضعته فرنسا، وعلى احتلال فرنسا الخطوط الحديدية، بالاضافة لمدينة حماه .

وعلّق الجنرال الترخيص بسفر الملك فيصل الى اوروبا، على قبول جلالته بهذه المطالب .

وكانت مفاجأة غير مرتقبة صدمت حكومة دمشق، ولم يسعها الا الرفض . وكان هذا الرفض بمثابة اعلان المشادة فعلياً بين الفريقين، فزحف الجيش الفرنسي على دمشق؛ وبالرغم من احتجاجات حكومتها، ظل الجيش مسابراً على التقدم؛ وبعد معركة ميسلون، ولى وجهه شطر دمشق، فدخلها في ٢٥ تموز ١٩٢٠ . وسرعان ما اذاع الجنرال غوابيه، قائد الحملة الفرنسة، بلاغاً جرد فيه الملك فيصلاً من سلطة الحكم؛ وحل الجيش السوري، ووضع غرامة حربية على حكومة سورية، وامر بنزع سلاح الاهلين، وبالقبض على كبار المعارضين .

وفي ٢٨ تموز غادر الملك فيصل دمشق الى درعا في طريقـه الى اوروبا، فختمت بذلك حياة دولة علق العرب عليها الآمال، واملوا انها ستحيي ذكرى الامويين بالشام .

ج — المنطقة الغربية (لبنان) ١٩١٨ - ١٩٢٠

وفي نهاية الامر ، وبعـد مفاوضات متوالية ، ابلغ الملك حسين الجانب الانكليزي (١ كانون الثاني ١٩١٦) انه يقبل بارجاء مطالبه بشأن لبنان الى ان

يعقد مؤتمر السلام، رغبة منه في اجتناب تعكير صفاء الاتحاد الفرنسي الانكليزي، كما روت ذلك جريدة التان الفرنسية في ١٨ ايلول ١٩١٦. وأما الأمير فيصل فانه بالرغم مما لقيـــه من قبل حليفتيه فرنسا وانكلترا من معارضة بشأن لبنان، لم يخامره اليأس قط، بـل استمر يواصل السعي ليكون الساحل غير مبتور عن الداخل.

واما فرنسا، التي كانت تجابه القضية العربية بحذر، وتحرص على ان تكون القضية السوريه منفصلة عنهـا ليتأتي لها بسط سلطتها على سورية بطريقة اسهل، فلم تعارض، اول الأمر، مشروع اتحاد الساحل والداخل بشرط ان تكون سورية لموحدة منفصلة عن الكيان العربي.

هذا، وفيما كان الامير فيصل يمثل جلالة والده ملك الحجاز في مؤتمر السلام، ويتكلم باسم الامصار العربية، وفي جملتها لبنان، اذا ببعض الجمعيات اللبنانية، وفي طليعتهـا الجمعية السورية بباريس التي يرأسها السيد شكري غانم، تعارض في ادماج سورية، ومنها لبنان، بالدولة العربية الكبرى. وتطالب بالوحدة السورية تحت اشراف فرنسا. واما مجلس ادارة جبل لبنـان، الذي كان لا يزال مستقلا عن اتجاه باريس في سياستها السورية العربيـــة، فانه طلب بلسان الوفد الذي مثله بباريس، وكان يرأسه داود بك عمون، استقلال لبنان عن سورية تحت الانتداب الفرنسي.

وكانت المفاوضات التي جرت بين فرنسا والامير فيصل، عقب مشروع الاستفتاء االذي قامت به لجنة كينج – كرين قد استقرت على الاعتراف للامير بحق الولاية على سورية، مستقلة عن الحجاز، على ان تسعى فرنسا لحمل اللبنانيين المعارضين على قبول الوحدة السورية، والانضمام لحكومته. وقـد نزل الامير فيصل عند طلب باريس بالتخلي عن تمثيل والده في القضية العربية للانصراف الى الشؤون السورية.

غير ان الحوادث التي تلت هـذا الاتفاق حولت اللبنانيين عن الوحـــدة السورية الى المطالبة بلبنان الكبير المستقل. وكان من جملة اسباب هذا التحول، مسايرتهم لفرنسا التي ارادت ان تستخلص لنفسها الساحل الامين، بعد ما تقرر لديها انه من المستحيل، اقناع السوريين بقبول الانتداب. على انه رغم الثورات التي توالت خلال مفاوضات (فيصل – كليمنصو) في اطراف لبنان، وكان القصد منها علان الاحتجاج على الحكم الفرنسي، والتمسك بالوحـدة السورية، فان الامير

فيصلا لم يسمعه ، بعد ان اعلنت انكلترا رغبتها في مساعدة فرنسا ، الا الاعتراف لهذه بالحماية ، والمصادقة على استقلال لبنان (اتفاق ٦ / ١ / ١٩٢٠) على ان تكون بيروت واسكندرونة مدينتين حرتين .

ولكن مشروع اتفاق (فيصل – كليمنصو)قد مني بالفشل ، كما بينا ،وعادت حكومة فيصل بعد فشله الى المطالبة بالوحدة السورية،كمامضى الفرنسيون في تثبيت سلطتهم على لبنان .

ومنذ ان تولوا الحكم فيه (١٩١٨) اعادوا نظام جبل لبنان القديم ، الذي عطلته تركيا خلال الحرب ، واعادوا موظفيه على ما كانوا عليه سنة ١٩١٤ . وجعلوا على رأسهم حاكماً فرنسياً ؛ كما انهم جعلوا لولاية بيروت ادارة خاصة تحت اشرافهم . وكان الحكم ، في الجبل وفي الولاية، كما عسكرياً مباشراً ، تولاه اناس مارسوا السلطة في المستعمرات ، فاساؤوا الى سمعة فرنسا ، وكادوا يجعلون انصارها ينفضون من حولها . وقد تجلى استياء اللبنانيين من هذا الحكم ، بالقرار الذي أصدره مجلس ادارة لبنان ، وفاجأ به الجنرال غورو عند عودته من باريس لبيروت ، وهو مليء بالانتقادات الموجهة لنظام الحكم .

ثم لما نودي بالامير فيصل ملكاً على سورية (مارس ١٩٢٠) ،وكان يشترك في مؤتمر البيعة بعض ممثلي الوحدة السورية بلبنان ، تركت هذه المفاجأة الجريئة ، بين اوساط اللبنانيين اثراً عظيما ،كان من نتائجه ان اكتسبت دعاية هذا العاهل ، كثرة اعضاء مجلس ادارة لبنان ؛ فاصدروا في ١٠ تموز ١٩٢٠ قراراً يتضمن الاتحاد بين لبنان المستقل وبين سورية في الشؤون الاقتصادية . وقد ذعرت السلطة الفرنسية لهذه المفاجأة ، والقت القبض على هؤلاء الاعضاء ،وهم في طريقهم الى دمشق ، وحكمت عليهم بالنفي بتهمة الخيانة العظمى . ثم اصدرت امراً بحل هذا المجلس واستبداله بآخر ، اختص المفوض السامي نفسه بتعيين اشخاصه . واطلق عليه اسم « اللجنة الادارية »

وكان مؤتمر سان ريمو قد عهد الى فرنسا ، بالانتداب على سورية ولبنان (نيسان ١٩٢٠) فتتابع ،منذذلك، وصول الجنود التي طلبها الجنرال غورو خلال الضجة الصاخبة التي خلفت هذه الاحداث بلبنان . وبعد ان احتل الجنرال دمشق ، واقام على انقاض دولة فيصل حكومة محلية تحت الانتداب ، تحول الى لبنان ، فاعلن في مهرجان كبير استقلاله ، واتساع حدوده (١ ايلول ١٩٢٠) ، على ان

تكون بيروت العاصمة مع مدينة طرابلس ذاتي استقلال بلدي واسع المدى .

نضال العراق في عهد الاحتلال العسكري

لم يكن في العراق ما كان بفلسطين من وعد بلفور ، ولا ما كان بسورية من نضال بين الحكومة الهاشمية وبين فرنسا ، بل بسط الانكليز سلطتهم عليه خالصة منذ وطئوا ارض البصرة سنة ١٩١٤ الى ان دخلوا الموصل ١٩١٨ . وعهدوا بادارته الى الحكومة الهندية ، وجعلوا نقود الهند اساساً للتعامل. غير ان صعوبات كأداء اعترضت جيش الاحتلال ، كان مصدرها نقصاً كبيراً في كفاءة الموظفين الذين جيء بمعظمهم من الهند ، هذا فضلاً عما في ادارة هذا القطر من صعوبة من جراء تحكم التقاليد العشائرية، في نفوس اهليه ، ولما يتأصل في هذه النفوس الابية من الحرص على الاستقلال. هذا وقد ظهرت امارات النعرة الوطنية ، بصورة عامة ، منذ نشرت الجرائد بتاريخ (١١ / ٨ / ١٩١٨م) مبادىء الرئيس ويلسون الاربعة عشر التي ابلغت يوم ٨ / ١٢ / ١٩١٨ الى مجلس الشيوخ العراقي . وشبت هذه النعرة وقويت على اثر التصريح البريطاني الفرنسي في (٨ / ٩/ ١٩١٨ م) الذي اوردنا نصه . وكانت سورية قد تمتعت بحكومة مستقلة ، ثم بايعت فيصل ابن الحسين ملكاً عليها . فأثار استقلالها ثائرة القومية في العراق ، بينما اضحت دمشق حقلاً خصباً للاعمال الاستقلالية العراقية، تغذيها الحكومة بصورة علنية . وكانت لا تبرح هذه الحكومة تطالب،في كل مناسبة، باستقلال العراق.

وقد تفاقم السخط على انكلترا في العراق ، حينما اعلنت قبولها بالانتداب. ثم لما لجأت الى سياسة العنف اضاعت الثقة التي تمتعت بها في غرة الاحتلال، وقام مقامها نفرة شاملة ، ادت الى اتحاد العراقيين ، والى اعلان ثورة ١٩٢١ التي انتهى بها عهد الاحتلال العسكري .

نضال مصر في عهد الاحتلال

هب العرب خلال الحكم العثماني للمطالبة بحقوقهم ، وأدى الاصطدام بينهم وبين الترك الى السعي للاستقلال . وقد ساهم بعض المصريين في هذا الواجب : فكان عزيز علي بك المصري، وخليل بك حماده ، في جملة المؤسسين للحركة العربية الاستقلالية باستامبول . ثم لما تحول مركز الحركة الى مصر ، من جراء ضغط

الاتحاديين على احرار العرب ، الفى هؤلاء في وادي النيل اهلاً وسهلاً . وكان في طليعة انصارهم الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد . وقد اشرنا من قبل الى ان عزيز علي بك المشار اليه الف بالقاهرة (الجمعية الثوروية) فكانت هناك اولى الجمعيات التي ناصبت الترك العداء في سبيل العروبة .

ولكن المصريين كانوا على وجه عام اشد ميلاً للجامعة الاسلامية منهم للقومية العربية . وقد تجلى هـذا الميل فيهم ، حينما اتصل بهم خبر الاتفاق الذي جرى بين الملك حسين وانكلترا ، فكانوا احزاباً للترك عليه ، مدفوعين الى ذلك بالعاطفة الدينية .

ولما انتهت الحرب العالمية الاولى ، وكانت من مخلفاتها تلك النزعـة القومية الاستقلالية التي غمرت عالم الامم المستضعفة ، كانت مصر في طليعة الاقطار العربية التي تحسست بهذا الشعور ، وعملت على تأييد مراميه . ولكنها جرت على غـير مجرى الامصار العربيـة الاخرى التي كانت تنادي بالعروبة ، وبالتعاون العربي وتستهدف بمثلها الأعلى : الوحدة .

أجل جرت مصر في بعثها القومي ، على اساس مصري محض ترده الى الفرعونية . وهي مع ذلك ، تحافظ على الطابع الاسلامي . وربمـا كان مصدر اعتمادها على هذه النزعة غير العربية ، يرجع الى ان الأسر المتمصرة الأريستوقراطية ، صاحبة الكلمة النافذة في قواعد مصر ، هي سلالة جوال غريبة لاتمت للعروبة بصلة النسب. وهي ترى من الخير لها ان يكون طابع البعث القومي هناك : مصرياً اسلامياً يتفق مع صبغتها الخاصة ، وذلك خشية ان تجعلهم العروبة ، اذا غمرت مصر ، في منزلة الغرباء . وقد زين لهم الاعتماد على الفرعونية ، والدعاية ضد العروبة ، نفر من كتاب مصر الاقباط ، وبعض اعيانهم ، فأفضى هذا التعاون في المبدإ الى طبع الحركة الاستقلالية بمصر ، قبل الحرب العالمية الاولى وبعدها ، بطابع اقليمي ، خلافاً لسائر الامصار العربية .

وقد بسطنا في الجزء الاول من هذا الكتاب ، مراحل نضال وادي النيل في سبيل الاستقلال في عهد الاحتلال (صفحات ٢٠٤ الى ٢٠٧) . ولا نرى حاجة لاستئناف هذا الموضوع هنا ، ولكن من المفيد الاشارة الى ان العراك بين مبدأي العروبة والفرعونيـة ، ذلك العراك الذي استفحل شأنه فيما بين الحربين العالميتين ، انتهى اخيراً بانتصار العروبـــة . وكان انتصاراً عظيما حينما تزعمت

القاهرة الحركة الدولية العربية،لوضع اسس الجامعة ، وحملت من بعد ، لواءها .

نضال السلطنات والمحميات

كان للنضال القومي في العراق وسوريا أشد الأثر على سائر الأمصار العربية ، ولا سيما في سواحل جزيرة العرب ، يضاف الى ذلك ان اهل السلطنات والمحميات في جنوبي الجزيرة ،كانوا ، لاتصالاتهم المكينة بالهند ، يتتبعون حركاتها الاستقلالية ، ويتأثرون بثوراتها المتوالية ، سلمية كانت أم مسلحة . فاذا بالوعي القومي ينساب الى صفوفهم ، واذا به يتحول الى بعث ؛ ولكنه مع ذلك يراعي الظروف ، فيبدأ بطلب الحرية والدستور على أمل ان يبلغ الاستقلال .

هذا ومما لا ريب فيه انه كان للعراق خاصة اشد الأثر في هذه اليقظة ، كما صار للاتصال المباشر بالاميركان والاوروبيين ، من جراء اعمال البترول ، فضل كبير في بعث النهضة . ففي شباط ١٩٣٨ عقد اتفاق بين امارة الكويت وبين العراق ، مداره توحيد مناهج التعليم بين البلدين في اللغة العربية . وقد افضى هذا الاتفاق الى اعتماد الامارة ، على اساتذة الرافدين ، عقبه اتصالات بين الهيئة المعلمة ، وبين طبقة المتعلمين لم تقتصر نتائجها على التقريب بين القطرين الشقيقين فحسب ، بل عملت ايضاً على التوحيد بينهما في الرغبات الاستقلالية ، ومكافحة الاستعمار .وكان من مظاهرها الواقعيه ، اتخاذ مجلس شورى الكويت ، قرارا في شهر اذار ١٩٣٩ يقضي بضم الامارة الى المملكة العراقية .

ولكن كما تقف الدولتان المصرية والعربية السعودية الآن في وجه تحقيق الاتحاد بين سوريا والعراق ، فان المملكة العربية السعودية ، عارضت وقتئذ بشدة ، مشروع انضمام الكويت الى العراق ، فذهب ادراج الرياح .

على ان هذه اليقظة في الكويت ، لم تقف مع ذلك ، عند تخوم بلادها ، بل سرعان ما تسربت الى جاراتها . وفي مطلع سنة ١٩٣٩ ، شهدت البحرين مظاهرة شديدة ضد الاستعمار . وقد عبرت هذه المظاهرة عن مطالب الاهلين المتذمرين، الذين كانوا يريدون تأسيس مجلس تشريعي ، على غرار المجلس الذي أقيم في الكويت . وكانوا يصرون على عزل المستشار الانكليزي ، وناظر المعارف،وان يستبدل الثاني بناظر عراقي ، هذا فضلاً عن طلبهم اجتناب توظيف الاجانب ، في اعمال شركة النفط ، ليتركوا المجال الى ابناء العرب انفسهم . ولكن السلطة الانكليزية

أخمدت هذه المظاهرة بالقوة ، وان لم تستطع اخماد جذوتها المستعرة في النفوس .

وكانت امارة دُبي مسرحاً لحركة أوسع ربيع عام (١٩٣٩ م) ، وذلك حينما ارغم الشعب أميرها على قبول الاصلاحات التي يطالب بها ، وعلى رأسها قيام مجلس تشريعي اسوة بأمارة الكويت . وما ان نكل هذا الامير بما وعد ، حتى انقض عليه الشعب وقتله ، وبايع ابن عم له بالامارة كان على رأس الثورة .

على أن مسعى السلطان سعيد بن تيمور ، سلطان مسقط وعمان بصدد التحرر على قدر المستطاع ، كان يرجع الى سنة سابقة : فهو ما زال يراجع ممثل لندن في الخليج الفارسي ، ويتصل بحكومة الهند لتعديل المعاهدة بينه وبين بريطانيا العظمى ، تعديلا يتفق مع شيء من الحرية . ولما زار لندن سنة ١٩٣٨ عاد لاستئناف المراجعة بهذا الشأن . غير ان الدوننج ستريت ، وان استمر يستمهل السلطان عند كل طلب ، الا انه اضطر ، في نهاية الأمر ، للمسايرة ، وذلك عند انتهاء اجل المعاهدة في منتصف شباط ١٩٣٩ ، ؛ لأن الحرب كانت على الابواب . وقد وفق السلطان سعيد الى تعديل المعاهدة ، بشكل اتاح له حرية التصرف في الشؤون المالية وجباياتها ، من الاجانب والشعب على السواء .

ولا ادري اذا كنت استطيع اعتبار تلك الثورات التي وقعت عام ١٩٣٨ ضد حكومة عدن ، في عداد مظاهر الوعي القومي : فان ثلاث عشرة قبيلة من القبائل الخاضعة للانكليز ، ثارت عامئذ ضدهم ، ورفعت السلاح في وجه حاميتهم ؛ ولكنها لم تستطع في آخر الامر ، ان تصمد في وجه الطائرات التي استساغت كل قسوة ، في معاقبة الثائرين .

غير ان بريطانيا العظمى ، وقد أعجزها التأثير على الضمائر ، لم تلبث ان القت السلاح جانباً ، مذ بدا خطر الحرب ظاهرا ، وتحولت بدهائها لاستعمال السياسة .

— ماذا يريد اهل المحميات والسلطنات ؟

— إنهم يتطلعون ، شأن سائر العناصر العربية ، الى الحرية والاستقلال ؛ وتتوق نفوسهم الى التعاون متحدين في طريق الوحدة .

— الامر سهل ، قالت : لندن ، فلنعالج تهدئة الخواطر بينهم ؛ بوعود تتفق مع أمانيهم . فاذا بالصحف تتحدث عن « انشاء اتحاد عربي ، على اساس مشروع بريطاني ، يضم الأمارات العربية الواقعة حول الخليج الفارسي ؛ مع احترام الاستقلال الذاتي

والاداري لكل امارة ؛ على ان يرتبط هذا الاتحاد بمحالفة مع بريطانيا العظمى . »

ثم تردد الخبر بعد بضعة اشهر بصيغة اخرى ، تجعل جزائر البحرين قاعدة لهـذا الاتحاد ؛ وتنبيء باحتمال عقد مؤتمر لهذه الغاية، وذلك في اوائل تموزعام (١٩٣٩م). والواقع انها كانت شائعات أريد منها تحويل اهالي تلك البلاد عن الاستمرار في المشاغبات ضد لندن ، الى عقد آمالهم عليها بعد الانتهاء من الحرب .

ولا ادري ايضاً اذا كانت بريطانيا العظمى ،قد نهجت ، ابان الحرب العالمية الثانية في حضرموت ، وغير حضرموت ، نهج جمال باشا قائد الفيلق التركي الرابع بلبنان خلال الحرب العالميـة الاولى . فقد كانت تركيا لا تطمئن وقتئذ للبنان ، من جراء علاقات احدى طوائفه الكبرى بفرنسا ، وبسبب الحركة الاصلاحية التحررية التي قامت ، قبل تلك الحرب في بيروت ، فعمد هـذا القائد الى تجويع لبنان ، تجويعاً جعل قسماً كبيرا من اهله يموتون جوعاً . وكان قصده من ذلك تحويل اللبنانيين عن السياسة ، الى الركض وراء رغيف الخبز . وهكذا فقـد رافقت الحرب العالمية الثانية مجاعة قاسية في حضرموت ، قضت على خمسين الف نسمة من سكانهـا الذين لا يزيد عددهم على مايتي وخمسين الف ساكن . وقد زاد في شدة هـــذه المجاعة ، انقطاع المساعدات المالية عنهم ، التي كانت تأتيهم من قبل المهاجرين النازلين منهم في اندونوسيا ؛ شأن اللبنانيين حينما انحجزت عنهم بسبب الحرب الاولى ، مساعدات ابنائهم المهاجرين .

على ان بريطانيـا وان كانت تظن ان اشباع جيوب اصحاب الامر والنهي هناك كفيل لها بصيانة سلطانها ، فان ظنها هـذا لن يبقى محمود العاقبة . خصوصاً بعد ان اطل على عالم العرب ، رأسا واشنطن وموسكو .



الفصل الثالث

عصر الكفاح للاستقلال في المغرب العربي (١)

منذ الحرب العالمية الاولى

إن العالم العربي كالجسد الواحد اذا أصيب بعضه تأثر كله. ولذا فان الاتفاق، الذي عقد خلال الحرب العالمية الاولى بين بريطانيا العظمى والشريف حسين، وما تلاه وقتئذ من عهود ووعود، كان لها تأثير عظيم على نشاط الوعي القومي في شمالي افريقيا. وذلك لان اهالي طرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش، وهم عرب في لغتهم وحضارتهم، قد اعتبروا تلك الوعود والعهود موجهة في جملتها اليهم ايضاً.

وفضلاً عن هذا، فقد كان ٩٤،٣٠٠ جزائري و٦٠،٠٠٠ تونسي و ٣٧،١٥٠ مراكشياً يسفكون دماءهم جنوداً في سبيل فرنسا خلال الحرب العالمية الاولى، وكان ٧٨،٥٠٠ جزائري آخرين و٢٨،٩٥٠ تونسياً و ٣٥،٥٠٠ مراكشي يعملون في مصانعها، ليل نهار، لاعداد العتاد الحربي وغيره؛ كل ذلك قصد المساهمة في انتصار الحلفاء، ذلك الانتصار الذي كانت الوعود المعسولة خلال الحرب تحملهم على ان يعقدوا كبار الامال عليه.

ولما انتهت الحرب العالمية الاولى؛ وقوبل اهل المغربين بنكول تلك الوعود، حفزهم ذلك النكول الى مضاعفة النشاط في سبيل بلوغ الاستقلال. أجل وبينما كان كل قطر يجاهد منفرداً في هذا السبيل، كان هناك هدف واحد، يتهادى امام اعينهم جميعاً، الا وهو الاتحاد العربي الا فريقي، لادراك مثلهم الاعلى في الوحدة العربية الكبرى.

(١) في الجزء الأول من هذا الكتاب وفي الفصل الحادي عشر منه بحثنا موضوع الاستعمار والحماية في المغرب، ونحن هنا نستوفي هذا البحث منذ الحرب العالمية الثانية حتى اليوم.

واما المستعمرون فكانوا لا يعرفون الرحمة في كبت هذه العواطف القومية، وشل نشاط الوعي القومي. وكانوا يستعينون عليهم بالتفريق، خاصة بين العرب والبربر، هذا بالاضافة لما أثاروه من الفتن بين الطوائف والاديان. ولكنهم ما ان صاروا قاب قوسين او ادنى، من الحرب العالمية الثانية، حتى كروا راجعين الى سياسة المصانعة والتلويح بالوعود؛ وراحوا يجندون اهل البلاد في وحدات الجيوش والمعامل، ويسوقونهم، كما فعلوا في الحرب العالمية الاولى، الى صفوف النيران في مختلف الجبهات.

ومع ذلك فقد كانوا، كلما آنسوا بارقة امل في نصر قريب، ينقلبون على اعقابهم، وينكثون بوعودهم. على ان موقف اهل شمالي افريقيا انفسهم، كان في هذه المرة غيره بالامس: ذلك ان احداثاً كثيرة عرضت خلال هذه الحرب، وكانت حافزاً لهم على اخراج نضالهم الى شكل عملي: ولقد كان لفقد فرنسا نفوذها خلال هذه الحرب، من جراء اندحارها بسرعة خاطفة، امام قوى الالمان الجبارة، وقيام الجامعة العربية في القاهرة، واستقلال كل من سورية ولبنان، اثره الفعّال في ازدياد نشاط اهل المغربين في نضالهم وكفاحهم، ومشجعاً لأمانيهم وآمالهم. هذا فضلاً عن ان الولايات المتحدة كانت قد خرجت عن عزلتها، وظهرت بمظهر المؤيد لمبادىء الاستقلال في البحر المتوسط.

وفي الوقت نفسه كان بعض المغاربة قد خرجوا من بلادهم، فراراً من الضغط والتعذيب، والتجأوا الى جوار الجامعة العربية، واستأنفوا النضال هناك، بعد توحيد صفوفهم، باسم «جبهة الدفاع عن افريقيا الشمالية». وقد عقدوا مؤتمراً اسموه مؤتمر المغرب العربي، في ربيع ١٩٤٧، استهلت مقرراته باعلان رفض الحماية على تونس ومراكش، وعدم الاعتراف باي حق لفرنسا في الجزائر، والمطالبة بجلاء الجيوش الاجنبية. وختمت هذه المقررات بمادة تنص على توحيد جبهة الاقطار الثلاثة؛ وان يكون لكل من رابطة الدفاع عن مراكش؛ والوفد المراكشي (الريفي) الموجود في لجان الجامعة، ومكتبي حزب الشعب الجزائري، والحزب الحر الدستوري التونسي، مكتب مشترك في القاهرة يسمى «مكتب تحرير المغرب العربي.» ثم لما لجأ الامير عبد الكريم الخطابي الى مصر، اجمعت كلمة الاحزاب المغربية على انتخابه رئيساً للجنة «تحرير المغرب العربي» التي اتخذت ميثاقاً لها «لا مفاوضة الا بعد الاستقلال». هذا الى ان اهل شمالي افريقيا، ولوا وجوههم وقلوبهم شطر

القاهرة ؛ واصبحوا يعقدون واسع الآمال على الجامعة العربية لأنهم كانوا يعتبرونها بمثابة مركز الانقاذ لهم من الاستعمار الممقوت . وقد بدا تعلقهم بالجامعة عام ١٩٤٧ خاصة وذلك خلال المهرجانات التي اقيمت في جميع البلاد بمناسبة ذكرى تأسيسها. ونحن لا نبالغ اذا قلنا بان الجامعة العربية اصبحت كذلك رمزاً للاستقلال في نظر العناصر السوداء في افريقيا ، التي شملها البعث القومي ايضاً.

هـــذا وبينما كان المغرب العربي يواصل نضاله متحداً خارج البلاد في سبيل استقلاله ، كانت الاحزاب التي ذكرناها تجدّ ايضاً ، هي الاخرى ، في نضالهــا في الداخل ، متحملة في سبيل امانيها كل عسف واضطهاد .

تونس في نضالها

ظلت تونس ، وهي التي مثلت دوراً كبيراً في تاريخ الاسلام ، ترقب بعين يقظة ، بعد دخولها تحت الحماية الفرنسية ، كل تطور في العالم الاسلامي ، وتستمع باذن صاغية الى انباء الشرق العربي . وهي لاتفتأ تحن الى استقلالها ، يحدوها الى ذلك هيكل دولي قائم في بلادها ، وذكريات تاريخ مجيد لاتبرح معاهدها الثقافية القديمة الموجودة تتحدث عنه ، وتردد صدى أمجاده .

وقد استهــل القرن العشرون باحداث في الشرق الادنى افضت الى خروج اماني التونسيين من حيز الرغبات الى حيز العمل : فالحركة الوطنية التي بدأت بمحاولات فردية برياسة محمد السنوسي والبشير صفر اصبحت ، من بعد، وليدة هيئة منظمة بزعامة علي باش حنبه؛ولها جريدة التونسي التي صدرت سنة ١٩٠٤ ،وكانت تنطق بلسانها . ثم كان الانقلاب العثماني وما اسفر عنه من غلبة الاحرار العثمانيين على السلطان عبد الحميد الثاني ،واعلانهم الدستور سنة ١٩٠٨ . كل ذلك كان مثيراً للوعي القومي في تونس وحافزالشبابها خاصة ، لأن يطمحوا للحصول على حكم نيابي مماثل،واستقلال ناجز. كما ان محاولات الطرابلسيين الاستقلالية في ليبيا،خلال الحرب العالمية الاولى ، جاءت حافزاً لنشاط التونسيين الى النضال في هذا السبيل. على ان فتيان تونس ، ظلوا مع ذلك ، يلجأون ، في سبيل تحقيق امانيهم ، الى الوسائل السلمية فحسب،وقد التفوا حول جريدة التونسي،التي اخذت تحمل بشدة على سلطة الحماية ، مما جعل فرنسا تتهم محرريها بانهم يستوحون مبادئهم من اوساط فتيان الترك ، وتعمد الى تعطيلها (١٩١٢) ،واخراج زعماء تحريرها من تونس . وكانت

القضية العربية في تركيا قد دخلت ، خلال ذلك ، في دور جديد ، اذ خرجت من نطاق البرلمان العثماني الى الاندية والمحافل ، وتعدت العاصمة الى الولايات ، ومنها الى سائر الامصار العربية . فتسرب هذا النشاط الى تونس . وكان قد سمح لعلي باش حنبه ، احد المنفيين التونسيين ، بالعودة الى بلاده ، فتولى زعامة حركة اصلاحية ترمي الى المطالبة بتمثيل التونسيين في المجالس الحكومية ، عن طريق الانتخاب الشعبي ، ونشر التعليم ، وتنظيم القضاء . وكانت هذه الحركة بمثابة الحجر الاساسي التي قام عليها اول حزب تونسي . وقد قابلتها السلطة يومذاك بالمقاومة ؛ وما زالت حتى قتلتها في المهد .

ولقد أدى هذا العراك بين الوطنيين والسلطة ، الى تشريد بعض شبيبة تونس والمغرب من بلادهم ؛ فانتشروا في عواصم اوروبا ، وانحاز بعضهم الى استامبول ، عاصمة العثمانيين ؛ ثم جمعوا جموعهم والفوا لجنة منهم ، هدفها استقلال الجزائر وتونس ، وانشأوا مجلة المغرب خلال الحرب العالمية الاولى . وتولى ادارتها السيد باش حنبه المشار اليه . على ان الاحكام العرفية وان منعت كل نشاط سياسي داخلي ابان الحرب العالمية الاولى ، إلا ان سكان الجنوب التونسي وخاصة قبائل بني زيد ، اعلنوا الثورة على فرنسا سنة ١٩١٥ ؛ ودامت المعارك بينها وبينهم سنتين ؛ ولم تستطع هذه اخمادها الا بالجيوش الجرارة التي ساقتها عليهم .

. . . . .

انتهت الحرب العالمية الاولى بوعود كان أرسلها الحلفاء ، وكان مسك ختامها تصريحات الرئيس ويلسن في مؤتمر السلام . وعلى اساس هذه الوعود المنعشة ، وما بعثته من آمال نضرة ، بادرت تونس الى العمل ؛ وكان عملها على اساس الاتحاد بين الامصار المغربية : ففي شهر ايلول ١٩١٨ ، رفعت « لجنة تحرير تونس والجزائر » ، عريضة الى مؤتمر الصلح بباريس ، تطالب فيها بحقوق شعوب المغرب ؛ وشفعتها ، في الشهر الأول من عام ١٩١٩ ، ببرقية اخرى الى الرئيس ويلسن تتضمن نفس الطلب .

وكان السيد عبد العزيز الثعالبي . احد منفيي تونس عام ١٩١٢ ، يقيم في باريس ، فرفع ايضاً عريضة في اوائل سنة ١٩١٩ ، الى الرئيس ويلسن ، يطالب فيها بالاستقلال . ثم اصدر في مستهل العام التالي كتابه « تونس الشهيدة » .

وبينما كان هذا الزعيم يناضل عن وطنه في عاصمة فرنسا ، كان انصاره في

تونس يتكتلون في سبيل الكفاح ، فالفوا حزب الدستور (١٩٢٠) ، وهدفه المطالبة بانشاء دولة دستورية ، واعتبار اللغة العربية لغة الدولة الرسمية . وكان هذا الحزب يحاول اقناع فرنسا ، بأن غايته لاتتعارض مع المعاهدات التي انبثقت عنها الحماية . وهو يعتمد في نضاله على صحيفة « تونس الشهيدة » ، وعلى الجرائد الاشتراكية التي كانت تصدر في تونس وفرنسا .

وقد وفق الحزب الدستوري باكتساب عطف الباي محمد الناصر ؛ وحاول المقيم العام . دون جدوى، تحويل الباي عن مؤازرة الحزب ؛ ولما لم ينل منه مأرباً ، اصدر اوامره الى القوات المصفحة ، بمحاصرة قصره ، وذلك في ٥ نيسان ١٩٢٢ ؛ ولكنه ما كاد يفعل ذلك حتى ثار الشعب عن بكرة ابيه ؛ وما تراجع الباي الا بعد ان قدم المقيم العام لسموه وعوداً خلابة ، اكد له فيها استعداد باريس لاجابة القوميين على ما يريدون .

غير ان الله لم يمد في اجله ، وخلفه الباي محمد الحبيب (١٩٢٢) وكان موالياً للحماية ، ومساعداً لمعتمد فرنسا الجديد لوسيان سان على تطبيق سياسته . وقد لجأ هذا المعتمد الى العنف ؛ وهو مع ذلك ، كان يحاول ان يخفف من وطأة الشدة ، التي لجأ اليها باعمال من شأنها ان تبرهن على حسن النية . فاذا به ينشيء مجلس الشورى التونسي (١) ، مكان المجلس الاستشاري (٢) ، ويجعله مؤلفاً من شعبتين ، واحدة منهما للافرنسيين ، والثانية للتونسيين . واستصدر قراراً من الباي (١٩٢٢) ، يقضي بتطبيق طريقة اللامركزية في المقاطعات ، وقيام مجالس محلية تمثيلية . غير ان هذه التدابير قوبلت بالمعارضة الشديدة . وما كان ذلك بسبب انقسام مجلس الشورى الى قسمين فحسب ، بل لان القسم الفرنسي منه ، كان وحده صاحب الشأن ، على قلة عدد الفرنسيين في البلاد .

وصادف ان استحكمت ، في تلك الاثناء ، حلقات الأزمة الاقتصادية العالمية ، واصاب تونس منها الشطر القاسي ، فكان ذلك مما حمل الاهلين المتذمرين ، على الالتفاف حول الشباب المثقف ، الذين تناولوا راية النضال ، اثر عودتهم من مدارس اوروبا . وقد التف جميع هؤلاء حول جريدة « صوت التونسي » ، التي اصدرها الاستاذ الشاذلي خير الله سنة ١٩١٩ ؛ متخذين في نضالهم اساليب

---

(١) Grand Conseil (٢) Conférences consultatives

جديـدة . وحدثت في تونس اثناء ذلك ، حادثتان كان لهما اثرهما الفعال في يقظة الوعي القومي واستئناف الجهاد حتى يومنا هذا .

الحادثة الأولى : انعقاد المؤتمر الافخارستي (١) في تونس (١٩٣٠) الذي كان يعتبره الفرنسيون « حملة صليبية تاسعة » بينما رأى فيه التونسيون مساً بكرامتهم ، وتعرضاً لدينهم .

والحادثه الثانية : اعتزام السلطة الفرنسية ان تحتفل بمرور خمسين سنة على احتلال تونس . وقد كان هذا تحدياً للقوميين ، حملهم على الاجتماع في مؤتمر عقد في (٣٠ — ١٠ — ١٩٣٠) ، وقرر مضاعفة النشاط في سبيل مقاومـة الاستعمار . ولما انتخبت هيئة جديدة ، لادارة جريدة « صوت التونسي » وتحريرها ، كان من ابرز اعضائها الاستاذ الحبيب ابو رقيبة .

وحاولت السلطة القضاء على نشاط هؤلاء الشباب ، فقدمتهم للمحا كمـة سنة ١٩٣١ ؛ ولكن تضامن الشعب معهم ، اضطرها لالغـاء المحاكمة ، والعدول عن اقامة الاحتفالات المقررة بمناسبة مرور خمسين سنة على الاحتلال الفرنسي .

غير انهـا مع ذلك لم تتراجع عن الاستعمار ، فاصدرت سلسلة من القوانين الاستثنائية ، للقضاء على نشاط الحركة الوطنية ؛ كما ان القوميين في تونس ، لم تؤثر عليهم هذه القوانين ، بل ظلوا مثابرين على نضالهم وكفاحهم .

. . . . .

وفي اواخر ١٩٣٢ رأي بعض الساسة الفرنسيين ، ان يفتحوا في وجه عرب المغرب ، ابواب التجنس بالجنسية الفرنسية . واستصدروا من رجال الدين فتاوى تعلن أن التجنس لا يخرج المسلم عن دينه . فكانت هـذه المحاولة مدعاة جديدة ، لاثارة العواطف ضد دولة الحماية كرة أخرى. واخذت تضرم نارها، الصحف الوطنية ، ولا سيما جريدة « صوت التونسي » التي كان يصدرها الحزب الحر الدستوري .

وقد اظهر الشعب سخطه على المتجنسين ، ومانع في دفنهم بمقـابر المسلمين ، فأدى ذلك الى مصادمات بـين الشعب والقوات الفرنسية ، ذهبت ضحيتها أنفس بريئة عديدة .

على ان النشاط السلبي الذي بدا في صفوف الشعب ، حمـل الحزب الحر الدستوري على استعادة قواه ، وعلى اقامة التنظيم على اسس جديدة. فعقد الحزب

---

(١) Congrès Eucharistique ·

مؤتمرا في منتصف ايار ١٩٣٣ ، اصدر ميثاقاً درج في ديباجته : « ان سياسة التفاهم مع فرنسا، قد فشلت فشلا ذريعاً بعد تجربة دامت سنوات طويلة » ، وان الغاية التي يرمي اليها الحزب هي : « تحرير البلاد ومنحها دستورا يحفظ شخصيتها، ويحقق لها سيادتها بين الأمم المتمدنة والمتصرفة في شؤونها . » ومعنى ذلك ان الحزب تجاوز مبدأه الأول ، الذي كان برنامجه لا يتعدى طلب قيام حكومة دستورية ، وبرز للنضال في سبيل الاستقلال .

وشهدت تونس خلال عام ١٩٣٤ ،مظاهرات عامة لم يسبق لها، من قبل، مثيل؛ فخف المسيو « بايروتون » المقيم العام الى مقابلتها بالشدة ؛ وقد أمر بحل الحزب ، والقاء القبض على ابرز اعضائه ؛ واعتقلهم ببرج القصيرة في صحراء الجنوب التونسي ؛ كما امر بتعطيل الصحف الموالية للحزب . غير ان هذا التدبير كان له رد فعل سيء في الأوساط الشعبية ، وعمل على خلق كفاح ناري دام سنتين متواليتين، رأت بعدها السلطة الفرنسية ، ان سياستها القائمة على العنف غير مجدية ، فتحولت الى اساليب المصانعة . وقد نصبت فرنسا المسيو جيون مقيما عاماً مكان المسيو بايروتون (١٩٣٦) وعهدت اليه بتنفيذ سياستها الجديدة . فاطلق سعادته سراح المعتقلين واباح الحريات العامة . على ان هذا الانتصار الذي احرزه القوميون ، كان باعثاً على اقبال الناس على مناصرتهم ، والالتفاف حولهم .

وفي هذه الاثناء تبوأت الجبهة الشعبية الحكم في فرنسا ، فعقد الحزب الآمال الطيبة عليها ، واوفد أمينه العام مرات عديدة الى باريس ، خلال سنتي ١٩٣٦ و ١٩٣٧ لاقناعها بوجهة نظر الحزب ؛ ولكن الجبهة الشعبية هذه لم تحد عن سياسة فرنسا التقليدية في الاستعمار . وربما كان السماح بعودة الزعيم عبد العزيز الثعالبي ، (١٩٣٧) من الشرق الأدنى الى وطنه ؛ وما حدث اثر ذلك من انقسام الحزب الحر الدستوري ، من جراء التنافس بين هذا الزعيم وبين الاستاذ الحبيب أبي رقيبة ، هما من عمل سياسة فرنسا التقليدية القائمة على قاعدة « فرق تسد » .

وقد جربت السلطة استثمار هذا الانقسام ، ولكن الاستاذ ابا رقيبة وصحبه استطاعوا ان يحتفظوا بزمام المعارضة . ولما رأوا ان سياسة التفاهم قد فشلت مرة اخرى ، وان السلطة تعتزم القضاء على الحركة القومية ، وجهوا نداء الى عقد مؤتمر في شباط ١٩٣٧ ، قرّروا فيه مقابلة العنف بالعنف . ومن آذار الى آب ١٩٣٧ قام الحزب في كل ناحيــة بمظاهرات اصطدمت بقوة الجيش والدرك ،

أهرقت فيها الدماء ، وآلت الى نفي القائمين بهذه الحركة . ولكن رغم ابعاد هؤلاء القادة ، وحل الحزب ، فقد ظلت مبادؤهم تتمتع بالتأييد، يوماً بعد يوم،بين مختلف طبقات الشعب . قالت جريدة الديبش تونزيان (١٩٣٨) بهذا الصدد ما يلي : « أصبحت للمرأة التونسية فكرة دستورية ،حتى انها لاتريد الزواج الا بالدستوري ، ولا تريد ان يكون زفافها الا مقروناً بالاناشيد الدستورية ». مرحى .

. . . . .

وكانت حوادث ٩ نيسان ١٩٣٨ ، التي دبرتها السلطة للقضاء على الحركة الوطنية ، فاتحة عهد نضال عنيف خلال شهري آذار ونيسان ، تجلت فيه النقمة على الاستعمار. أما وقد اصبح العالم على مقربة من حرب عالمية ثانية ، فقد تحولت فرنسا الى اساليب المصانعة والمداراة ؛ كما وضحنا ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب . وكان من باكورة سياستها الجديدة ، اطلاق سراح بعض المعتقلين (آذار ١٩٣٩)واعطاؤها الوعد بالافراج عن الباقين .ولكن المداراة لم تأتها بفائدة ايضاً ، بل اشتدت حركة النضال خلال الحرب ؛ وكان يتجلى هذا النضال بالتخريب المتواصل في المؤسسات الحكومية ، والمنشآت العسكرية بالرغم مما اتخذته السلطة من الأحتياطات ، وما فرضته من العقوبات . وقد تفشت ، اثر ذلك ، حركات التمرد والعصيان بين الجيوش التونسية ، الذين كانوا يرابطون في تونس نفسها ، ولا سيما بمدينتي القيروان وقابس .

قابلت السلطة الفرنسية ، خلال الحرب ، هذه الحركات بقسوة وعنف ليس لهما مثيل ، فاعدمت من أعدمت من القوميين ، ونفت من نفت . وكان في سجن القلعة ببيروت وحده خمسة عشر شاباً من خيرة شباب تونس المجاهدين .

ولما أعلنت الهدنة بين فرنسا والمحور ، رأى قادة الحزب الدستوري ان الفرصة سانحة للقيام بحركة واسعة ، للمطالبة بالاستقلال ، ليس لتونس فحسب ، بل لسائر الاقطار المغربية ، واعلنوا بطلان الحماية .وفي ٢٠ حزيران ١٩٤١ تقدم وفد يرئسه الدكتور الحبيب تامر ، بعريضة الى البلاط ، يطالب فيها حكومة الباي باعلان سقوط الحماية ، واطلاق سراح الزعماء المعتقلين في فرنسا . فاعتقلت السلطة هذا الوفد قبل المثول امام الباي ؛ كما اعتقلت اعضاء الوفود الاخرى الذين تقدموا في الملحقات بمثل هذه المطالب ، وزجتهم في غياهب السجون ، وعادت الى سياسة القمع بكل شدة وعنف .

غير ان الحركة الوطنية ، وفقت خلال ذلك ، بجلوس الباي محمد المنصف ، على عرش تونس (١٩ حزيران ١٩٤٢) . وهو معروف بمناصرته للحزب الحر الدستوري منذ سنة ١٩٢٢ . وكانت باكورة اعماله تقديم مذكرة ،بعد شهرين من تنصيبه ، الى حكومة فيشي ، طالب فيها باحترام السيادة التونسية ،ومسايرة رغبات الشعب .

وفي اليوم التاسع من شهر تشرين الثاني ١٩٤٢ ، نزلت جيوش المحور في تونس بمساعدة حكومة فيشي ؛ فساد هذا العهد جو من الحرية ، لم تعرف تونس نظيراً له ساعد المكافحين على تنظيم شؤونهم ، وترتيب تشكيلاتهم . كما افسح المجال لسمو الباي المنصف ، لأن يحاول استرداد السلطة . فبدأ بتأليف وزارة انتقالية ، اختار افرادها بنفسه ، كخطوة اولى في سبيل تسلم مقاليد الحكم . الا ان التطورات الحربية حالت دون استكمال برامجه . اذ ما كاد الانكليز والاميركان يستردون تونس من الالمان في ٨ ايار ١٩٤٣ ، حتى اسلموها للفرنسيين . وقد كانت باكورة اعمال الجنرال ماسيت الحاكم العسكري ، ازاحة الباي محمد المنصف باشا عن عرشه ، ونصب الامين باشا مكانه ، هذا فضلاً عن اعدام مئات من الشباب ، واعتقال آخرين بتهمة التعاون مع الالمان .

. . . . .

لا شك ان التطورات العالمية في الحرب وما بعدها ، لا سيما في النواحي الروحية ، اهاب بالتونسيين لتجديد نشاطهم في سبيل الاستقلال . ورغم ان دولة الحماية اخذت تحاول حجب انباء العالم العربي عن شمالي افريقيا ، فان الاصطدام الذي وقع بين الانتداب الفرنسي وبين لبنان في تشرين الثاني ١٩٤٣ ، وما مني به هذا الانتداب وجيوشه من الفشل الذريع في كل من سوريا ولبنان ، سرعان ما فشت اخبارهما بين التونسيين ، فكانت هذه الاحداث حافزاً لهم على استئناف النضال ، والاستخفاف بالوعود المعسولة التي كان يلقيها جزافاً كل من الجنرال ديغول ، والجنرال كاترو والجنرال ماسيت . هذا الى ان التونسيين كانوا يراقبون بغبطة ، تطور المشاورات للوحدة العربية ، وقيام الجامعة العربية نفسها ، متسائلين : لماذا لاتشترك تونس في هذه المشاورات ؟ ولماذا لاتساهم في الجامعة . وشاء الحزب الدستوري خرق النطاق الحديدي ، الذي ضربته حكومة الحماية على تونس ، فاتصل هذا الحزب منذ صيف ١٩٤٤ ،

بمصر لعرض قضيتهم على العالم العربي . وقد استطاع زعيم الحزب ، الاستاذ الحبيب ابو رقيبة خرق هذا النطاق فعلاً، والوصول الى القاهرة. وتمكن اخوانه اللاجئون في اوروبا مـدة الحرب من الالتحاق به أيضاً ، فأسسوا مكتباً للدعاية لقضية تونس في القاهرة ،تحت اسم«مكتب الحزب الحرالدستوري التونسي » اصدرنشرة باللغة العربية تشرح قضية بلادهم للعالم العربي ، واخرى باللغة الافرنسية للدعاية في الامصار الاجنبية .

على ان العالم العربي ، شرع منذ بـدء تعاونه السياسي ، يعرب عن عطفه على استقلال شمالي افريقيا : فقد قدم النحاس باشا عام ١٩٤٤ ، بوصفه رئيساً للوزارة المصرية ، مذكرة للحلفاء بهـذا الصدد ؛ كما ان امانة الجامعة العربية ، بادرت عملاً بقرار الجامعة، الى توجيه مذكرة اخرى الى الحكومة الفرنسية (١٩-١ ١٩٤٧)، تحتج فيها على اعمال العنف التي يرتكبها ممثلوها في تلك البلاد، ثم ما زالت، في كل مناسبة ، تبدي العطف على تحقيق استقلال تونس وسائر بلاد المغرب .

هذاولقد رأى التونسيون في عطف العالم العربي ما شجعهم على الاتحاد والاقدام، كما ان اتحاد التونسيين واقدامهم حمل الافرنسيين على مضاعفة العسف، والزيادة في اعمال الشدة ؛ خصوصاً وان حكومـة الجنرال ديغول ، شعرت بان تونس ومراكش، اصبحتا على وشك انفجار ، لا يقـل عنفاً عن الذي حدث في الجزائر (ايار ١٩٤٥) ؛ فسلطت على الشعب بوليسها يسومه سوء العذاب ، ومدت ايديها الى البقية الباقية من قادة الحزب الدستوري ، وزجتهم في السجون والمعتقلات .

وما كان هذا الضغط الا وسيلة لسرعة الانفجار: فاذا بالثورة تندلع في مديرية الساحل ، خلال صيف ١٩٤٦ ؛ واذا بالافرنسيين يقابلونهـا بالفظائع ، ولا سيما في قرى زمردين وبني حسان وسوسه ؛ فيهرع التونسيون المتألمون لعقـــد مؤتمر في العاصمة ، وذلك في (آب ١٩٤٦) يقررون فيه اعلان سقوط الحماية ، والمطالبـة بالاستقلال التام، والانضمام الى الجامعة العربية. ثم يقومون في كل مكان بمظاهرات كبرى ،وذلك في (٢ كانون الأول ١٩٤٦) تأييداً لمقررات هذا المؤتمر، واحتجاجاً على الانتقام الذي لجأت اليه السلطة. وقد اتخذ النضال منذ ذلك الوقت، لوناجديداً : فعدا اشتراك بعض كبرائهم في هـذا المؤتمر، وتأييد آخرين منهم مقرراته ، وعلى رأسهم شيخ الاسلام محمد الصالح بن مراد ، بلغ من تضامنهم انـــه لما عمدت

الحكومة لفصل سماحته ، وتعيين الشيخ محمد الدامرجي مكانه ، أبى شيخ الاسلام الجديد ، قبول هذا المنصب . ثم عقدت المحكمة الشرعية جلستين دون ان يتولى رئاستها أحد ، في حين ان مدينتي تونس وصفاقس اعلنتا الاضراب العام في (٢٠/١/١٩٤٧) ، احتجاجاً على فصل شيخ الاسلام . هذا فضلاً عن الاحتفالات الشعبية الرائعة التي اقامها الحزب الحر الدستوري (آذار ١٩٤٧) في كافة الانحاء ، وذلك احياء للذكرى الثانية لقيام الجامعة العربية ، علاوة على اعلان الشعب ، بعد ذلك ، الحداد والاضراب في (مايس ١٩٤٧) بمناسبة الذكرى السادسة والستين للاحتلال الفرنسي. وقد ذكرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب . مقررات مؤتمر الاتحاد العام التونسي الذي عقد في (كانون الثاني ١٩٤٧) التي تتلخص بطلب إنشاء مجلس نيابي، ورفع الاحكام العرفية والغاء الحكم العسكري في جنوب تونس، ذلك الحكم الذي لايزال قائماً منذ الاحتلال . فلم يسع السلطة الفرنسية حيال اجماع الشعب على النضال في سبيل الاستقلال ، الا ان تتخذ مسلكا جديداً في سياستها ، فأعلن الجنرال ماست في (ايلول ١٩٤٦) ، برنامج اصلاحات يقوم على تشكيل مجلس وزراء ، نصفه من التونسيين والنصف الآخر من الفرنسيين ، والحدّ من اختصاص المراقبين الافرنسيين في العاصمة والاقاليم . ولكن الشعب لم ير في هذه الاصلاحات شيئاً مما يحقق المطالب التي قررها المؤتمر ، فرفضها . كما اعلن الشعب من قبل احتجاجه الصارخ على مشروع الاتحاد الفرنسي، حينما ادرج في دستور فرنسا الجديد ، وايدهم في ذلك الباي نفسه .

وقد جاء في رد الحكومة الفرنسية على اعتراض سمو الباي :

« انها كانت حريصة عند مناقشة مشروع قانون انتخاب اعضاء مجلس الجمهورية الفرنسي ، على ان يحترم ذلك القانون السيادة التونسية ، فطلبت الى برلمانها ان يكون مركز انتخاب العضوين اللذين تنتخبهما الجالية الفرنسية في تونس لمجلس الجمهورية في وزارة الخارجية الفرنسية بباريس ، على ان لايجوز لهذين العضوين التكلم باسم البلاد التونسية »

وتزعم الاقامة العامة ، ان سمو الباي اقتنع بوجهة النظر الفرنسية ، بينما اكد ناطق بلسان القصر، ان موقف سموه من قضية تمثيل الجالية الفرنسية بتونس لم يتبدل ، وان سموه ثابت في الدفاع عن بلاده . هذا وقد تظاهر الشعب اواخر (١٩٤٨) تأييداً لسموه في موقفه الجليل .

ولعل سماح السلطة الافرنسية في صيف ١٩٤٩ ، للاستاذ ابي رقيبة في العودة الى وطنه ، سيكون بادرة خير ، ودليلاً على تحول في سياسة باريس . ولعل

فرنسا تقتنع بعد القرار الذي اصدرته هيئة الامم المتحدة ، بصدد استقلال ليبيا رغم معارضات الكه دورسيه ؛ لعلها تقتنع بان كل محاولة للاحتفاظ بالحماية على تونس لاشك فاشلة ، ولا تجدي نفعاً ؛ فتنهج ، من ثم ، حيال المغرب العربي ، نهج بريطانيا العظمى في الهند وغيرها ؛ وتعلن استقلاله .

البعث القومي في الجزائر

استعمر الافرنسيون الجزائر ، باساليب امنوا بها استئصال كل فكرة قومية في تلك البلاد . ولكن الحرب الكبرى الاولى ، اتت بما لم يكن في الحسبان : فعدا انها ساعدت على ان يستعيد الجزائريون شطراً كبيراً من اراضيهم ، بما حصل خلالها من الانتعاش الاقتصادي في قطرهم ، فقد عملت مباشرة على تطور الروح الشعبية . ذلك ان التجنيد الاجباري ، واختلاط الجزائريين ، عن طريق هـذه الجندية بالأوروبيين ، واعتيادهم عـلى التمتع بالمساواة في صفوف المحاربين ، وما صار لهم من حق لقاء آلاف الضحايا التي ذهبت منهم في سبيل فرنسا ، بالاضافة الى وعود الحلفاء العامة والخاصة ، ومبادىء ويلسون ، وما خلفت الحرب من تحفز في الشرق الادنى للجهـاد في سبيل الاستقلال ، وما كان للجزائريين انفسهم من الامثولات القومية التي تلقنوها من انقرة والقاهرة ودمشق وتونس ، كل ذلك كان بمثابة عناصر قوية ، تضافرت على اذكاء البعث القومي في الجزائر .

وقد كبر على دولة الاستعمار ، ان ترى هذا البعث ، وتشهد هـذا الانقلاب الفكري ، فعمدت الى تدارك الخطر قبـل استفحاله . وشرعت تعني عناية خاصة بالاستعمار والاستملاك ؛ عمـلاً بقاعدتهم الاستعمارية ان من يملك الارض يصبح صاحب البلاد ؛ بينما انصرفت ، في نفس الوقت ، الى قمع كل حركة وطنية . على انهـا مع ذلك ، لم تر بداً من ان تلجأ احياناً الى تخدير الرأي العام ، بمنح بعض الحقوق للجزائريين التي لا تمس جوهر سيادة الافرنسيين عليهم .

من ذلك انها منحت الوطنيين ، بمقتضى شريعة ٤ شباط ١٩١٩ والقرار المتمم لها ، حق الانتخاب للمجالس المحلية . ولكن هذه الشريعة ، قوبلت وقتذاك بالهزء والسخرية ، من جانب الوطنيين ؛ ذلك لانها فضلاً عن كونها لا تساويهم مع غيرهم من المتفرنسين على الاقل ؛ في التمثيل السياسي بالبرلمان الفرنسي ، تقوم على اساس جعل هذه المجالس شطرين : افرنسي ، وهو صاحب القول الفصل ؛ ووطني ، لا قول له ولا

شأن . هذا فضلاً عن ان اعضاء القسم الوطني في هذه المجالس المحلية ، إما معينون من قبل الادارة ، أو منتخبون من الفئة الموالية لها .

وفي أواخر سنة ١٩٢٤ ، انشأ الاستاذ مصالي الحاج بباريس ، حزب « نجمة افريقيا الشمالية » وجريدة الامة . وكان هدفه فيهما الاستقلال التام لشمالي افريقيا. فقابله الفرنسيون بالعنف، وخفت حكومة باريس لمطاردته وحل الحزب، وتعطيل الجريده . وألقته في غيابة السجن سنة كاملة . ولما فك اسره واستأنف العمل ، عادت السلطة للضغط عليه فاتهمته بتحريض الجند على العصيان،وسجنته ثانية . ثم وجهت اليه ، بعد ذلك ، تهمة التآمر على الدولة : ولكنه استطاع، في آخر لحظة ، ان يفلت من يد البوليس الباريسي ، ويفر الى جنيف . وقد شمله العفو حينما صار الحكم لكتلة احزاب الشمال بفرنسا ؛ وكان عهدها عهد نشاط للعناصر المطالبة بحقوقها . فعاد هذا الزعيم الى باريس .

وكان دعاة الاندماج والتفرنس من الفرنسيين ، جادون وقتئذ في مسعاهم ، وهم يستندون الى ما يلي :

اولاً – الى قانون كريميه Crémieux القاضي بادماج يهود الجزائر بفرنسا ، وسلخ جنسيتهم عنهم .

ثانياً – الى مشروع الوزير فيوليت Violet القاضي بالغاء الجنسية الجزائرية ، وربط الجزائر بفرنسا مباشرة . ولما شعر هذا الزعيم ، بان المساعي لدمج الجزائر بفرنسا ، اخذت تثمر حتى في بعض الاوساط الجزائرية ، غادر فرنسا الى وطنه في اواخر تموز ١٩٣٦ ، فاستقبله الشعب احسن استقبال ، والتف حوله العنصر الوطني . وما ان راح يكافح هذه الفكرة والتفرنس ، حتى قوبل بالشدة ايضاً ، وصدر الامر مجدداً بحل حزبه .

وفي ٢٧ مارس ١٩٣٧ تأسس حزب وطني آخر في الجزائر ، باسم « حزب الشعب الجزائري » ، فانشأ جريدة اسماها « جريدة الشعب » . واخذ هذا الحزب، وعلى رأسه الاستاذ مصالي الحاج ، يطالب بالاستقلال ، وبانشاء حكومة دستورية برلمانية . على ان تكون اللغة العربية لغتها الرسمية . فبادرت السلطة لاعتقال عمدة هذا الحزب ، على اثر مظاهرة قاموا بها في ١٤ تموز ١٩٣٧ ؛ وقابل الشعب هذا العمل باضرابات شاملة اشتركت فيها تونس وتلمسان احتجاجاً على الافرنسيين ، وعلى الاحكام القاسية التي صدرت من بعد في حق المجاهدين .

هذا وبينما كان الاستاذ مصالي الحاج ورفقاؤه في اعماق السجون، لمع نجم الدكتور ابن جلول وتولى زعامة النضال القومي ، على اساس الاتحاد بين مراكش وتونس والجزائر . فألم بابن جلول ما الم بغيره من الاضطهاد والابعاد ، واتهموه بالتآمر مع ايطاليا .

وقد سبق لنا ان بينا في الجزء الاول ، كيف ان حكومة باريس تحولت الى مصانعة اهل شمالي افريقيا ، منذ لاح في الافق شبح الحرب الكونية الثانية . ولما نشبت هذه الحرب فعلاً ، وكان ما كان من ظهور فرنسا بمظهر الانحلال والضعف، استيقظت العناصر التي كان قد قضي عليها بالرضوخ قسراً ، وتوثبت للمطالبة بالاستقلال . فخف عندئذ المرشال بيتان ، لتنصيب الجنرال ويغان باسم حكومة فيشي ، مندوباً سامياً على شمالي افريقيا منذ اوائل عام ١٩٤١ ، عاهداً اليه بتدارك الخطر .

وكان في جملة المحاولات التي لجأ اليها الجنرال ويغان ، اقامته مؤتمراً اقتصادياً في شمالي افريقيا ، عقد في الجزائر ، وتعيينه اربعة اعضاء من مسلميها في المجلس الوطني ، بينما لجأ الى الشدة وطارد الوطنيين ، وسجن بعضهم متهماً اياهم بالشيوعية .

ثم انتهى مصير الجزائر الى الدخول في حوزة الحلفاء ، الذين نصبوا الجنرال جيرو رئيساً على ادارة افريقيا الشمالية . واستناداً الى الاتفاق الذي حصل بينه وبين الجنرال ديغول ، من بعد ، عين الجنرال كاترو حاكماً عاماً للجزائر ، ومنسقاً للشؤون الاسلامية . ولقد سلك الجنرال كاترو مسلك الجنرال ويغان في المصانعة. فرأى حزب الشعب ، ان يعرب عن مطاليب اهل الجزائر ، ببيان اصدره في ١٠ شباط ١٩٤٣ ، وقدمه الى لجنة التحرر الفرنسية ، بواسطة الجنرال كاترو . وكان رئيس الحزب الحاج احمد مصالي ، لايزال في منفاه في الصحراء الجزائرية ، فخف الى تأييد هذا البيان. هذا الى ان حزب انصار الحرية المعروف (بهيئة البيان) قد رفع ايضاً في (شباط ١٩٤٣) الى السلطات الفرنسية منشوراً ، طالب فيه بمنح حق الادارة الذاتية للقطر الجزائري . فاذا بالجزائريين يفاجؤون بنفي رئيسه الدكتور عباس فرحات ايضاً ، جزاء جرأته .

وصادف ان شاعت انباء الانهزام الذي منيت به لجنة التحرر الفرنسية وقتئذ ، حيال نضال سوريا ولبنان للاستقلال ، وذلك رغم محاولة الفرنسيين اخفاء هذه

الانباء عن شمالي افريقيا ؛ فاذا بهـــذه الانباء تؤثر تأثيراً بالغاً في اذكاء حماس الجزائريين ، وتدفعهم الى الاستخفاف بفرنسا . فخفت هذه اللجنة ، وكانت تقيم في مدينـة الجزائر ، لعقد جلسة برئاسة الجنرال ديغول ، في ١٤ كانون الاول ١٩٤٣ اتخذت فيها مقررات ترمي الى زيادة عدد المسلمين في المجالس والمناصب . واصدرت بياناً بهذا المعنى ، استهلته بانها اعتزمت مباحثة الشخصيات الاسلامية ، من اجل اكتساب المسلمين الحقوق التي يتمتع بهـا المواطنون الفرنسيون في الجزائر ، مع مراعاة الشريعة الاسلامية .

وفي ٧ آذار ١٩٤٤ ، اتخذت لجنة التحرر الوطني الفرنسية قرارات تتضمن ان الجزائر ليست مستعمرة ، بل هي ارض فرنسية ، وان جميع السكان يحملون الجنسية الفرنسية ، لافرق بين الملل والطوائف . بيد ان هذه المقررات قوبلت بالاستنكار الشديد ايضاً ، لان الجزائريين الذين يعملون على التخلص من فرنسا ، رأوا فيها محاولات لتوثيق روابطهم بهـذه الدولة . وسرعان ما عقد في القاهرة مؤتمر من اجل الاحتجاج على هذه المقررات ، وانتخبت لجنة تنفيذية برئاسة الامير مختار عبد العزيز من الاسرة الجزائرية . وقد قدمت هذه اللجنة لائحة احتجاج الى الحلفاء وملوك العرب وامرائهم مطالبة فيها بما يلي :

اولاً ـ اعتبار القطر الجزائري قطراً عربياً .

ثانياً ـ وقف كل محـاولة لـفَرْنَـسة الجزائر .

ثالثاً ـ اطلاق سراح المبعدين والمسجونين .

رابعاً ـ انتخاب لجنة تأسيسية لوضع دستور البلاد .

خامساً ـ الاعتماد على اللغة العربية كلغة رسمية في البلاد .

وعدا ذلك فقد عقد مؤتمر شعبي في الجزائر ، ايد بيان حزب الشعب الجزائري المؤرخ في ١٠ / ٢ / ١٩٤٣ ، وطالب بالاعتراف بالجنسية الجزائريـة . وحررت في هذه المقررات مذكرات قدمت الى الولاية العامة ؛ ووجهت نسخة عنها ، الى باريس . وظل الجزائريون ، رغم مقابلة الفرنسيين هذه المطالب بالسلاح ، يواصلون نضالهم ، ويزدادون نشاطاً في سبيل تحقيق هـذه الاهداف ؛ تحدوهم الى ذلك يقظة كبرى في وعيهم القومي بالاضافة الى عوامل كثيرة اهمها الضيق في المعاش ، وعدم المساواة في توزيـــع الاقوات بينهم وبين الاجانب المقيمين في البلاد . على ان

الفرنسيين كانوا يتهمون الاميركان بانهم وزعوا نشرات تتضمن بنود ميثاق الاطلسي على الجزائريين ، وعملوا على تحريضهم للمطالبة بالاستقلال .

وفي الواقع فان الجزائريين ، كانوا يجدون في عطف اخوانهم العرب عليهم ، وفي تأييد الجامعة العربية لهم حافزاً لثباتهم على تحمل الاضطهاد في سبيل مثلهم الاعلى .

وكان يوم اول ايار ١٩٤٥ ، يوم العمل الدولي ، بداية عهد الاصطدام بين الشعب والسلطة : ذلك ان نقابات العمال قامت بتظاهرات يومئذ اعلنت فيها مطاليبها ؛ وما ان تقدم هؤلاء هاتفين بسقوط الاستعمار ، حتى انقض عليهم رجال الدرك ، واعتقلوا من اعتقلوا منهم ، واودعوهم السجون .

ثم وقعت الواقعة يوم عيد النصر في ٨ أيار ١٩٤٥ ، حيث انتظمت فيه المظاهرات العامة ، بشكل لم يعرفها القطر طول جهاده الوطني ؛ فاتخذ الفرنسيون من بعض المظاهر الوطنية التي تجلت في هذه المظاهرات وسيلة للتنكيل بالمتظاهرين : فقد ساءهم ارتفاع اللافتات التي تعلن مطاليب الشعب، مثل (حرروا الحاج مصالي) و (الجزائر للعرب) ؛كما حزّ في نفوسهم ، ان يرفع فوق الرؤوس علم بطل الجزائر الامير عبد القادر ؛ فانقض الدرك على المتظاهرين ، وانضم اليه الجيش الفرنسي . وقد اسفرت هذه المظاهرات عن مذابح مريعة ، وخاصة في مدينة عنابة Baun وسطيف وعلمية ، بلغت ضحاياها آلافاً مؤلفة من ابرياء لاذنب لهم الا المطالبة بحقهم الطبيعي في الاستقلال . هذا فضلاً عن٤١ قرية آمنة دكتها الطائرات دكاً بلا رحمة ولا هوادة ، ولم تبق منها اثراً لديّار .

ويكفي الاطلاع على مناقشات المجلس الاستشاري الفرنسي ، في جلسة يوم ١١ تموز ١٩٤٥ التي خصصت لبحث كارثة الجزائر ، لتقدير تلك الاعمال المنكرة التي ارتكبها عمال فرنسا اثناء تلك الحوادث وما بعدها ، من اعتقالات بالآلاف ، واحكام بالاعدام ، علاوة على النفي والاشغال الشاقة ، وحلّ الهيئات ؛ ولا سيما الدينية منها ، واقفال المدارس والاندية .

وقد اثبتت الجريدة الرسمية للجمهورية الفرنسية، في عددها ٥٧ الصادر يوم ١٢ تموز١٩٤٥ ، المناقشات التي جرت في جلسة المجلس الاستشاري المذكور، ووردت فيها فقرة ، لولا انها نشرت في الجريدة الرسمية لكنا شككنا في صحتها. قالت :

« في ١٤ مايس ١٩٤٥ فتحت ابواب السجن ، وبعد ان نودي على تسعة واربعين مسجوناً ، رؤي انه يلزم ايضاً ١١ آخرون لاتمام العدد المطلوب ، فاخذ هؤلاء كيفما اتفق من صفوف

المسجونين،واحيلوا جميعاً على المجلس العسكري، الذي قضى عليهم جميعاً بالاعدام رمياً بالرصاص. »!!!

وهذه المنكرات، فضلا عن انها اثارت احتجاجات الجزائر واحزابها وجمعياتها، ومنها الحزب الشيوعي،فقد رفعت اصوات العالم العربي مشفوعة بالنقمة على المستعمر.

هذا ولما بوشر في ٢ حزيران ١٩٤٦ بانتخاب الجمعية التأسيسية الفرنسية ، دعت حكومة باريس الجزائر،على اعتبارها جزءاً من فرنسا،للاشتراك في هذه الانتخابات.

وقد وقف حزب الشعب الجزائري من هـذه الانتخابات ، وقفة المعارضة ، وأيدته ، في ذلك ، كثرة الجزائريين . بينما ان حزب البيان ادّى بـه اجتهاده الى المشاركة فيها . وانتخب وقتئذ الدكتور عباس فرحات رئيس هذا الحزب مع نفر من الموافقين على المشاركة في الانتخاب اعضاءً في الجمعية التأسيسية المذكورة بباريس .

ثم لما عمدت فرنسا الى انتخاب مجلس الجمهورية ، وذلك على اساس الدستور الذي سنته هذه الجمعية ، انقلب موقف كل من الحزبين الجزائريين رأساً على عقب: فساهم في الانتخابات هذه حزب الشعب الجزائري ، ومثّله في هـذا المجلس خمسة نواب ؛ بينما وقف حزب البيان منها موقفاً معارضاً . ولا تزال الجزائر تواصل نضالها في سبيل حريتها ، فيدعو حزب الشعب الى الاستقلال ، على اساس التعاون مع العالم العربي ، بينما ان حزب البيان يدعو ايضاً الى الاستقلال ، دون ان يتعرض للاتصال بالجامعـة العربية والتعاون معها . اما ما يلفت النظر فهي تلك الوثبة الجبارة التي وثبها الشعب الشقيق في سبيل المطالبة باستقلاله، بينما كانت مطامحه ،الى سنين قلائل خلت ، لاتتعدى المطالبة بالانصاف والمساواة . هذا فضلًا عن ان الشعب الجزائري اصبح ، على وجه عام ، يريد الاستقلال عـلى اساس التعاون مع العالم العربي قاطبة مؤيدا بذلك حزب الشعب . ولقد قضّ مضجع باريس تلك الحفاوة التي قوبل بها زعيم حزب الشعب في الريف ، حينما فرضت عليه السلطة الاقامة الجبرية فيه ؛ وكان هذا حافزاً لها لانتداب وزير داخليتها لزيارة القطر الجزائري ، والاشراف على الحالة فيه عن كثب . ولا ريب انها اسرت اليه بوجوب اللجوء الى سياسة العنف والتضييق على ذلك الزعيم .

على ان الحزب الوطني الجزائري الذي يرئسه الاستاذ عباس فرحات أخذ يدعو الآن الى تأسيس « جمهورية الجزائر » على ان تكون علاقاتها مع فرنسا كعلاقات الهند ببريطانيا العظمى. ويصدر هذا الحزب جريدة الجمهورية الجزائرية ، معتبراً ان

الجمعية الجزائرية القائمة ، التي نصف اعضائها من الفرنسيين والنصف الآخر من المسلمين ، ان هي الا هيئة صورية لاتتمتع بحق تمثيـــل الشعب ؛ خصوصاً وانه يتوقف تنفيذ قراراتها على مصادقة باريس .

ويقوم الى جانب هـــذين الحزبين في الجزائر حزب آخر يسمى « حركة الانتصار للحرية الديموقراطيـــة » ، وهو يدعو الى الاستقلال الناجز ، وقطع كل عروة سياسية بفرنسا .

وفي الجملة ، فان الجزائر تشهد الآن وثبة طيبة شطر الاستقلال . وقد اثار اعتبارها قطعة من فرنسا بمقتضي ميثاق الأطلسي عاصفة شديدة من الاستياء ؛ تجلت بالاحتجاجات التي انهالت على المسؤولين من كل صوب ؛ ونخص بالذكر منها تلك البرقية التي رفعتها لجنة تحرير افريقية الفرنسية بالقاهرة الى الرئيس ترومان ، وابلغته فيها ان هـــذا العمل يعتبر ضربة موجهة ضد اماني تلك البلاد . هذا ويبدو ان بعض الاوساط الفرنسية شعرت بالمصير فشرعت تدرس اقامة عرش في الجزائر يستوي عليه احد احفاد الامير عبد القادر . يشجعها على ذلك الحماس الشديد الذي رأته بأم العين عندما احتفل ، قبل اشهر في الجزائر ، بازاحة الستار عن تمثال هذا الامير الخطير .

يقظة مراكش وكفاحها

فاجأت الحرب العالمية الاولى فرنسا ، قبل استتباب حكمها بمراكش المترامية الاطراف ، فاضطرت ان تقيم سياستها ، اول الامر ، على قواعد تحاشت فيها ان تكون متعارضة مع تقاليد البلاد وسيادتها . فكان الجنرال ليوتي المقيم العام هناك ، لايفتأ يدلي بتصريحات يعرب فيها بان الحماية ليس القصد منها الاستعمار ، وهو الى ذلك كان يتوخى في سياسته المحافظة على مظهر السلطنة ، ومراعاة نفوذ السلطان .

وانتهت الحرب ، ولكنها خلفت في مراكش روحاً جديدة ، قوامها الوعي القومي الذي كان من اكبر مظاهره تلك الثورة التي قام بها الريفيون ، بقيادة البطل الامير محمد عبد الكريم الخطابي ضد الحماية ، وذلك منذ سنة ١٩٢١ الى سنة ١٩٢٦. وما اتيح لفرنسا ان تطفيء نار هذه الثورة ، الا ولجأت للعمل عـــلى توطيد سلطتها : فحكمت البـلاد حكما مباشراً عسكرياً ، واصطنعت ادارة استعمارية تعمدت تجاهل حق السلطات المحلية ؛ وحاولت سنة ١٩٣٠ ، احداث

سياسة عنصرية ، قائمة على التفرقة بين العرب والبربر ، في الادارة والتشريع والتعليم واللغة . فكانت معارضة المراكشيين ، من عرب وبربر ، لهذه السياسة العنصرية ، سبباً لاندلاع الشرارة الاولى لحركة وطنية منظمة على اساس سلمي : فقد بادر المراكشيون للمطالبة بالعدول عن هذه السياسة الاستعمارية ملحين ، في نفس الوقت ، بادخال الاصلاحات المؤدية لترقية البلاد وتقدمها. حتى اذا كانت سنة ١٩٣٤ تقدمت « كتلة العمل الوطني » بمشروع اصلاحي داخل نطاق الحماية ، رفعته الى جلالة السلطان والى المقيم العام . وقد لقي هذا المشروع مقاومة عنيفة من الفرنسيين ؛ كما مني رجاله بالاضطهاد . ومرت سنوات ثلاث والشعب المراكشي يطالب بتنفيذ هذا المشروع ، ولكن دون جدوى .

ولما فازت الجبهة الشعبية بفرنسا في انتخابات سنة ١٩٣٦ ، امّل منها المراكشيون خيراً كثيراً . ولكن املهم هذا ذهب كسابقه ادراج الرياح . فدعت كتلة العمل الوطني الى مؤتمر يعقد برباط في تشرين الثاني ١٩٣٦ ، برئاسة الاستاذ محمد علال الفاسي لمعالجة الموقف . ولكن السلطة الفرنسية قابلت فكرة هذا المؤتمر بالشدة ، وخفت الى منع المؤتمرين من الاجتماع ؛ كما القت القبض على رجال الكتلة ، وامرت بحل فروعها . وقد اهاج هذا الأمر مراكش باسرها ، ودفع بها للقيام بمظاهرات واصطدامات استمرت نحو شهر حتى اضطرت الحكومة الفرنسية اخيراً الى اطلاق سراح المعتقلين ؛ واصدار الصحف الموقوفة ، واستئناف حرية الاحزاب ؛ وذلك علاوة على وعد قطعه المقيم العام على نفسه تعهد فيه بتنفيذ مشروع الاصلاح الذي قدمته الكتلة . ولكن تلك المصانعة لم تدم طويلاً ؛ بل سرعان ما عادت الادارة الفرنسية الى كبت الحريات ، واطلاق ايدي الحكام في الضغط على الوطنيين ، مما أدى الى ذلك الانفجار الذي حدث على شكل واسع النطاق في شهر تشرين الثاني ١٩٣٧ . ذلك أن الحزب الوطني الذي يرئسه الاستاذ محمد علال الفاسي ، دعا الى عقد مؤتمر برباط في ١٣ من الشهر المذكور ، اتخذ مقررات اطلق عليها اسم الميثاق الوطني. وجاء فيها ان كل تفاهم مع الحكومة لا يكون الا بعد العدول عن خنق الحريات، والشروع بتنفيذ المشروع الاصلاحي.

وقد قابلت الحكومة الفرنسية هذه المقررات ، بالقاء القبض على الاستاذ محمد علال الفاسي المشار اليه ؛ كما اعتقلت الاستاذ محمد حسن الوزاني ، رئيس حزب « الحركة القومية » وبعض اركان الحزب ، ونفتهم الى مجاهل افريقيا .

وفي الواقع فقد ظل هؤلاء المجاهدون رهن الاعتقال في منافيهم ، الى عام ١٩٤٦ ، وذلك رغم مظاهرات مراكش المتوالية احتجاجاً على اعتقالهم، ورغم الشفاعات الكثيرة التي تقدمت من اجلهم .

على ان مراكش ، التي عانت المجاعة منذ عام ١٩٣٨ من جراء القحط وسوء الادارة ، قد منيت ايضاً ، خلال عهد حكومة فيشي ابان الحرب ، بازمة اقتصادية حادة، صرفتها عن نضالها السياسي الى حين . ولكنها لم تلبث ان تنفست الصعداء منذ انزلت الولايات المتحدة قواتها ، وذلك بحماية اسطول بريطانيا العظمى ، في عدة نقاط يوم ٨ تشرين الثاني ١٩٤٢ . ويمكن اعتبار هذا الاحتلال نقطة تحول في النضال المراكشي ؛ ذلك ان اهل مراكش ، وعلى رأسهم جلالة السلطان سيدي محمد وحاشيته ، استطاعوا بواسطة هذا الاحتلال الانكلوسكسوني ، ان يخرجوا ، وهم في بلادهم ، من منطقة الحصار التي فرضها عليهم الفرنسيون منذ بدء الحماية الى نطاقٍ حرّ فسيح اخذوا يصغون فيه الى المواثيق الدولية ، وفي مقدمتها الميثاق الاطلسي ، ووعود الحلفاء المطمئنة . وشرعوا من ثم يرهفون الآذان لسماع انباء العالم العربي ، مغتبطين للتطورات السياسية التي تحدث فيه فتؤدي الى استقلالات خاصة ، وتعاون عام . وقد كان لانهزام لجنة التحرر الفرنسية امام لبنان في حوادث تشرين الثاني ١٩٤٣ ، ثم لتقهقرها حيال سوريا بعد قليل ، أثر بالغ في ايقاظ وعي المراكشيين . فاخذوا يستخفون بفرنسا زيادة عن استخفافهم بقوتها من قبل حينما ذابت ذوبان الملح امام عظمة المانيا . وكانت حكومة الجنرال ديغول ، تراقب بوجل التطورات الروحية التي حصلت في مراكش ، وشملت اهلها . وعلى اثر اجتماع تشرشل وديغول في مطلع عام ١٩٤٤ سارع السيد بيو Piaux المقيم العام في مراكش لمقابلة جلالة السلطان ، وبسط له النوايا الطيبة التي تضمرها حكومته نحو البلاد . فاذا به يشتم من جواب جلالته انه يحل شرف بلاده ومصلحتها المحل الاول ، ولا تستهويه الوعود الخلابة .

والواقع ان الشعب المراكشي عقد النية اخيراً على العمل متحداً في سبيل استقلاله ؛ واستهل عمله بتوحيد احزابه ، تحت اسم « حزب الاستقلال » برئاسة الزعيم السيد محمد علال الفاسي . وفي يوم ١٩٤٤/١/١١ ، قدم هذا الحزب لجلالة السلطان محمد الخامس ، ولممثلي الحلفاء مذكرة اطلق عليها اسم وثيقة الاستقلال .

وقد بدت مشاركة جلالة السلطان الفعالة في هذا النضال ، بما اظهره من اهتمام

خاص بهذه الوثيقة ، حتى بلغ منه انه الف لجنة خاصة لدراستها قصد الدخول مع فرنسا المحاربة في المفاوضة على اساسها . اما الفرنسيون فقد ارتاعوا لهذا الموقف الذي يقفه جلالة السلطان ، وخاصة حينما شاهدوا الوفود ، تهبط من القرى والمدن الى العاصمة ، لتؤيد ، بحماس شديد ، مطالب حزب الاستقلال . وما كان منهم الا ان خفوا لالقاء القبض على الزعماء ، وسوق الآلاف من الناس الى المعتقلات والسجون ؛ فضلاً عن انهم قابلوا مظاهرات المدن ، مدة شهرين ، بالدبابات والرشاشات . ولم يتورعوا عن ارتكاب المنكرات ؛ وخاصة في مدينتي رباط وفاس ، متهمين المجاهدين ، شأنهم في كل مناسبة ، بانهم من عمال المحور . على ان السلطة الفرنسية ، وان استطاعت وقف الثورة بالنار والحديد ، الا انها مع ذلك ، لم تقو ولن تقوى على اخفات صوت مراكش ؛ خصوصاً وان عاهلها ،وهو حامل علم الاستقلال ،لا يعبأ بالتهديد والوعيد. ولما دعاه الفرنسيون لحفلة افتتاح خط حديدي في مطلع عام ١٩٤٥ ، القى خطاباً في ذلك الاحتفال قال فيه :

« نعم انجزت فرنسا وعدها في القيام بمهمتها في الناحية المادية ، ولكن تطور البلاد يستدعي اكثر من هذا » وتطرق الى التنويه بالرقي المعنوي ، وكان يلمح به الى الاستقلال .

واعتزم جلالته ان يخرج من نطاق النفوذ الفرنسي فيزور طنجة الدولية ، غير ان باريس بذلت كل ما في استطاعتها للحيلولة دون سفره. ولما لم تستطع ، افتعلت حادثة الدار البيضاء في ٧ نيسان ١٩٤٧ ، التي ذهب ضحيتها الف قتيل ومئتا جريح من الاهلين .وكان املها ان تجر هذه الحادثة ذيولاً تمنع جلالته من مبارحة العاصمة. غير ان جلالته غادرها بالرغم من ذلك غير مبال بما حدث . وقد علقت جريدة النيوز كرونكل يوم ١١/٤/٤٧ على زيارته هذه بما يلي :

« ان السلطان يحاول اقناع الذين اغدقوا الوعود عليه ابان الحرب ، بوجوب الوفاء بما وعدوا ، وهو لا يرضى ان يظل العوبة في ايدي السلطات الاجنبية في فاس . لقد ساعد الحلفاء في شهر تشرين الثاني ١٩٤٢ حينما غزوا شمالي افريقيا ؛ وكافأه الرئيس روزفلت على هذه المعاونة القيمة بالعهد التالي الذي قطعه له : « ان انتصارنا سيكون بداية عهد جديد من الاطمئنان والازدهار لجميع الشعب المراكشي ، ولجميع الفرنسيين في افريقيا الشمالية ».

وابان وجود جلالته في طنجه ، دعا ، في خطبة يوم الجمعة ، لملوك الدول العربية ورؤسائها ؛ ثم القى خطاباً مستفيضاً في مهرجان اقيم له هناك ، هاجم فيه بشدة التفريق بين المواطنين المراكشيين ، بتقسيم بلادهم الى ثلاث مناطق .

وازاء هذه البوادر الاستقلالية التي حمل لواءها جلالة السلطان نفسه ، لم يسع

فرنسا الا المبادرة الى تعيين الجنرال جوان ، مقيماً عاماً في مراكش ، عاهدة اليه العمل بحزم لتلافي الخطر المحـدق . ولكنها عبثاً كانت تحاول ،لان الروح الاستقلالية، اصبحت هناك من القوة ، بحيث لاتقف في وجهها اية محاولة استعمارية . وقد كان موقف السلطان حازماً ، ممـا اثار الاصطدام بينه وبين الجنرال . واما قوام الخلاف بين جلالته وبين الجنرال جوان فهو يتلخص بما يلي :

١ - على اثر استحداث دائرة انتخابية فرنسية في مراكش رفض جلالته الموافقـة عليها لان ذلك يناقض السيادة الداخلية التي يجب ان تتمتع بها البلاد .

٢ - الحاح جلالته من اجل فصل الفرنك المراكشي عن الفرنك الفرنسي ؛ اذ يرى من الظلم ان تعاني مراكش ازمة النقـد الفرنسية ، دون ان تكون هناك اسباب تدعو الى ذلك .

٣ - رفض جلالته المصادقة على ابواب النفقات في الميزانيـة ؛ لانها تحقق مصالح الجالية الفرنسية ، على حساب الشعب المراكشي .

٤ - الخلاف على منصب حاكم طنجة الذي خلا في شباط ١٩٤٨ بوفاة الحاكم، وظل شاغرا : فقد اراد الجنرال جوان ان يعين فيه شخصاً يستطيع السيطرة عليه، على حين ان جلالته أصرّ على وجوب توفر الاتجاه الوطني في حاكم المدينة المراكشية .

هذا فضلاً عن تظاهر جلالته بصدد تضامن بلاده مع الجامعة العربية ، واعلانه عدم ارتباطه بالاتحـاد الفرنسي ؛ وتضامنه مع سائر عواهل العرب في مشكلة فلسطين . يضاف الى كل ذلك رعايته حزب الاستقلال المراكشي . وقد روى جودفري اندرسون مراسل الاسوسيتدبرس (١٤ / ٩ / ٤٩) في مقال له صادر عن طنجة مايلي :

« ان السلطان قال للرئيس اوريول رئيس الجمهوريـة الفرنسية بصراحة ، ان مراكش التي عرفت كيف تجاهد وتضحي في سبيل الحرية» لتدرك حق الادراك ضرورة تحقيق امانيها القومية، وانها لتطلب الى الجمهورية الفرنسية ان تعاملها معاملة شعب يتوق للحرية . »

ولعل موقف بعض الدول من فرنسا في قضية مراكش هو ما يحمل هذه على اخفات ثورة اعصابها الطبيعية في حين اننا نعرف مقدار ما تتحكم هذه الأعصاب بالاوساط الباريسية في مثل هذه الظروف .

وقد نشرت جريدة النيورك تايمس في تاريخ ٦ آب ١٩٤٩ تصريحاً لاحد كبار الساسة الاميركيين قال فيه: « لقد احتججنا في مناسبات عديدة على سياسة فرنسا

العنيفة غير الواقعيـــة في شمالي افريقية ، واوحينا باجراء تسوية عاجلة في تونس ومراكش . ولما عجزنا عن اقناع فرنسا بان تصحح فلسفتها الاستعمارية على ضوء اعمال بريطانيا ، لجأنا الى تحذيرها من اننا لا نسمح لها، بعد ذلك، ان تقوم بحركات عسكرية ضد الشعوب العربية في شمالي افريقيا . »

كفاح الريف المراكشي

بعد ان فرضت فرنسا حمايتها على مراكش (١٩١٣) اعترفت لاسبانيا بحق بسط نفوذها على الجزء الشمالي من هـذه البلاد ؛ فاخذت الجيوش الاسبانية تحتل المراكز الحربية على الشواطىء . ولكن الاهلين قابلوا هذا الاحتلال بثورة عرفت بالثورة الجبليـة . وظلت الحرب سجالاً بين الفريقين ، بالرغم من تفوق الاسبان بالعدد والعدة ، حتى سنة ١٩٢٠ .

وفي ذلك العام برز للميدان الامير عبد الكريم الخطابي؛ وكان ضابطاً في الجيش الاسباني ، وتلقى علومه في مدريد ؛ فتولى زعامة الثورة في الريف . ولم تنته سنة ١٩٢٤ حتى اصبح الامير باسطاً سلطانه على شمالي افريقيا كله ، عدا بعض المدن الساحلية منه . وقد انزل بالاسبان حول سبتة عـــدة هزائم حملت قائدهم على الانتحار، وأفضت بالتالي الى سقوط الوزارة في مدريد، وحل البرلمان ، والى القاء زمام السلطة في ايدي عصبة عسكرية يرئسها القائد بريمودي ريفيرا .

ولما علمت فرنسا بان الامر يكاد يستقر للامير عبد الكريم، خشيت ان يستفحل خطره ، وتمتد ثورته الى مناطق نفوذها ، فنزلت الى الميدان بجيوشها واساطيلها ؛ وحملت اسبانيا على مواصلة الحرب . فاضطر الأمير الى الاستسلام سنة ١٩٢٦ ، بعـــد قتال استمر ست سنين متواليات . ونفته فرنسا الى جزيرة ريونيون في المحيط الهندي ؛ وظل فيهـا حتى استجابت اخيراً لالحاح العالم العربي ، وافرجت عنه سنة ١٩٤٧ .

وبينما كانت الباخرة ، التي تقله من منفاه الى اراضي فرنسا ، مارة بقنـــاة السويس ، تمكن سموه من الالتجاء الى جلالة عاهل مصر ، ونزل ، من ثم ، ضيفاً عليه معززا في رحابه .

عـــلى ان اهل الريف المراكشيين لم يرضخوا ، بعـد اسر الامير عبد الكريم ، للامر الواقع ؛ بل تابعوا نضالهم ؛ فتألفت منهم هناك كتلة وطنية ظلت تعمل سراً حتى سنة ١٩٣٣ ؛ وهي السنة التي قامت فيها الجمهورية الاسبانية . فرأت

عندئذ هذه الكتلة، ان الظروف اصبحت سانحة للمطالبة بالاصلاحات ؛ فقدمت الى خليفة سلطان مراكش في المنطقة الاسبانية، والى رئيس الجمهورية الاسبانية ، والى المقيم العام في تطوان ، مشروع اصلاحات يتلخص بما يلي :

١ - تأسيس مجلس تشريعي ٢ - اعطاء الحريات العامة ٣ اعطاء حق انتخاب المجالس البلدية ٤ - تنظيم التعليم .

ولم تقم اسبانيا بتنفيذ شيء يذكر من هـذه المطاليب على بساطتها ، حتى اذا شبت الثورة الاسبانية الاهلية ، تلك الثورة التي نشبت وترعرعت في هذه المنطقة العربية ، وقامت على سواعد المراكشيين انفسهم ، سمحت عندئذ حكومة الجنرال فرانكو باصدار بعض الصحف الوطنيـة ، وادخال بعض الاصلاحات على نظام التعليم ؛ كما سمحت بتأسيس حزب سياسي ؛ وهو حزب الاصلاح الوطني ، الذي رئسه الزعيم عبد الخالق الطريس ، وحزب آخر هو حزب الوحدة المغربيــة ، برئاسة الاستاذ محمد المكي الناصري .وقد وضع الحزبان مشروع الاصلاح المرغوب.

بيد انه لما استتب الامر للجنرال فرانكو في مدريد ، قلب ظهر المجن لانصاره المراكشيين ، فعطلت حكومته الصحف الوطنية ، وطاردت الوطنيين ، وضيقت الخناق على الحريات العامة . ولكن الوطنيين هناك ، وعلى رأسهم حزب الاصلاح الوطني ، ما برحوا يلحون على الحكومة ، في وجوب تنفيذ ما وعدتهم به عنــد قيام ثورة فرنكو .وقد قامت مظاهرات كثيرة في هذا السبيل نخص منها بالذكر مظاهرات تشرين الثاني ١٩٤٦ . وهم الى ذلك قد اخذوا يساهمون مع اخوانهم في مراكش وغيرها من شمالي افريقيا في النضال من اجل الاستقلال التام .

وقد ابدت الجامعة العربية عطفها عليهم ، فوافقت ، في ١ نيسان ١٩٤٦ ، على قبول مندوبي المنطقة الخليفية ، في لجان الجامعة ؛ كما ارسلت بتاريخ ٦ ايلول ١٩٤٦ ، خطابا الى اسبانيا ، تبلغها فيــه ما يمكن ان تجنيه من وراء صداقة الشعب المراكشي ، فيما لو منحت هذه المنطقة حريتها واستقلالها .

وعند زيارة جلالة سلطان مراكش لطنجة (نيسان ١٩٤٧) ، كانت اسبانيــا تبدي من القلق ، ما لم يصدر عن فرنسا ؛ وذلك لان جلالته سيمر في طريقه الى طنجة ، بالاراضي الواقعة ضمن منطقة نفوذها . فأغلقت الطرق في وجه سكان تلك المنطقة ، لتحول بينهم وبين موكب السلطان ؛ هذا فضلاً عن انها لم ترتح لاطلاق سراح الامير عبد الكريم الخطابي ، واظهرت استياءها من ذلك، بتوجيه الاحتجاج لفرنسا على هذا التسريح .

ومن المؤسف ان تظل حكومة مدريد تتمادى في استعمال سياسة العنف ضد اهل الريف ، بينما لم يعد بوسع القسوة اذلال العناصر الطامحة للاستقلال والتحرر : فقد تعرضت فيما بعد ، لبعض الوطنيين عند عودتهم من مصر لبلادهم ، واستعملت قوتها ، فعملت على القاء البلاد في جحيم من النقمة والاضطراب . وقد رفع مكتب المغرب العربي بمصر الى الجامعة العربية ، في شهر تموز ١٩٤٩ ، والى الدول العربية شكواه من هذه المظالم ، جاء فيها :

١ — « ان حكومة الجنرال فرنكو جردت في هذا الاسبوع ، حملة عسكرية واسعة النطاق ، على منطقة شمالي مراكش ، فشردت الوطنيين ، وقتلت مئات منهم ، والقت القبض في خلال اسبوع فقط على عشرة آلاف شخص . »

٢ — « والمعروف الآن ان الاتفاق قد تم بين اسبانيا وفرنسا ، على تصديع وحدة مراكش ، فتضم اسبانيا القسم الشمالي منها الى بلادها ، وتضم فرنسا القسم الجنوبي الى الاتحاد الفرنسي »

٣ — « وقد اذاعت السلطة الاسبانية في جميع انحاء المنطقة ، كلمات الود المتبادلة بين العرب والاسبان ، وذلك لكي تفت في عضد الشعب المراكشي ، وتقنعه بأن الدول العربية لن تتحرك لانجاده » .

واخيراً فان الجنرال فرنكو ، اراد ان يستثمر زيارة جلالة ملك شرق الاردن لاسبانيا ، بعد نحو شهرين من حملته العسكرية على مدن الريف المراكشي وقراه ؛ وشاء ان يستغل تلك التصريحات الديبلوماسية التي صدرت ، في هذه المناسبة ، عن العاهلين ؛ ولكن هذا الزبد يذهب غثاء ، واما النشاط في سبيل الاستقلال ، فانه يستقبل كل يوم ، خلال تطورات هذا العصر التقدمي ، غذاء جديداً لايزال يزيده قوة ، حتى ادراك القصد .

نضال ليبيا ضد الاستعمار

نشبت الحرب العالمية الأولى ، وأهل الداخل في ليبيا : طرابلس وبرقة وفزان ، لا يزالون يشهرون السلاح في وجه ايطاليا . ويرجع الفضل الأكبر في ذلك ، لرجال الطريقة السنوسية ، ولا سيما لزعمائهم في برقة ، الذين كانوا ولا يزالون ، مصدر اتحاد القبائل الليبية ضد الاجنبي .

وقد استأنف « الباب العالي » في استامبول ، نشاطه خلال تلك الحرب ، لاثارة ليبيا ضد الايطاليين ؛ فاستطاع المجاهدون ، من جراء المساعدة القيمة التي بذلتها لهم السلطنة العثمانية ، ان يجلوا قسراً الايطاليين عن البلاد ، وان يقذفوا بهم الى سيف البحر ؛ وكان على رأسهم خليفة بن عسكر . ولولا ان تبدل وجه الحرب

من بعد ، وتمّ النصر للحلفاء وفي جملتهم ايطاليا ، لقذفوا بها ايضاً الى البحر نفسه .

على ان أهل ليبيا استأنفوا مع ذلك القتال بعد الحرب،وثاروا ثورتهم الكبرى على المستعمرين سنة ١٩١٩ ، وصمدوا حتى اضطروا حكومة روما ان تمنح ليبيا دستورا وبرلمانا ، وان تعترف بالسيد ادريس السنوسي في العام التالي ، كأمير على الواحات الداخلية : جغبوب وكفره وجالو ، يتمتع باستقلال اداري وداخلي .

ولكن مـا ان استتب الأمر للحزب الفاشستي في روما ، حتى نشط لاذلال الليبيين بحملات عسكرية ظل يوجهها لحربهم طيلة تسع سنين . ولما تمّ له اخضاع طرابلس سنة ١٩٢٩ زحف على برقة ، فتمكن من استرجاعها بعد عامين آخرين . واطلق على ليبيا اسم الشاطىء الرابع ، اشارة الى أنها اصبحت جزءاً من ايطاليا .

وعندما اتيح للجيش الفاشستي الانتصار على عمر المختار ، واعدامه سنة ١٩٣١ م اصبح الطليان اسياد البلاد دون منازع . غير ان اعمال القسوة التي لجأ اليها هؤلاء المستعمرون ما برحت ماثلة ، ليس امام انظار الليبيين فحسب ، بل في اذهان العالم كله . من ذلك أنهم نقلوا ثمـانين الف عربي من برقة الى صحراء سرت المحرقة ، حيث عفت آثارهم وآثار مواشيهم. اما اراضيهم الخصبة في الجبل الأخضر ، فقد منحت للجالية المستعمرة . ومن ذلك أيضاً إلقاؤهم من الطائرات ، عن علو ٤٠٠ متر ، الشيخ سعد ، من مشائخ الفوائد ، مع خمسة عشر رجلاً من اتباعه ، واحدا بعد واحد ، على مرأى من اهليهم دون رحمة ولا شفقة (١) . هـــذا فضلاً عن استباحتهم كل شيء في سبيل تأمين الاستعمار . اما العوض الوحيد الذي كانوا يتكرمون به على الانصار، فهو لا يتعدى منحهم الأوسمة والألقاب دون حساب.

وفي سنة ١٩٣٨ قررت حكومة روما ضم ليبيا الى ايطاليا ، واعتبارها جزءاً منهـا . وشرعت تستولي على اخصب الأراضي الساحلية ، وتسوق اليها ابناءها ؛ وكان عدد الارسالية الأولى بمقتضى الاحصاءات الرسمية ، يبلغ عشرين الف ايطالي؛ وهي تقصد بذلك ان تطبع ليبيا بالطابع الروماني ؛ فضلاً عن استثمار خيراتها .

ثم لما اصبح العالم على وشك الحرب الكونية الثانية، بادرت حكومة الدوتشي الى تجنيد السكان غير عابئة بشكاويهم ؛ ومن سوء طالع طرابلس وبرقـــة ، انهما أمستا خلال الحرب ميدانا للعراك بين الحلفاء والمحور، طيلة سنتي ١٩٤١ و ١٩٤٢ ، وذاق اهلوهمـا ، من جراء ذلك ، نكبـــات لم يذق مثلها قطر آخر . وقد لزم

---

(١) راجع كتاب A. y. Arberry المسمى بـ Islam to day. P P. 109—110

الطرابلسيون الجياد بين كرّ المتحاربين وفرّهم بينما الف بعض البرقاويين فرقة قصد تحرير بلادهم ، انضمت الى البريطانيين .

ونترك الكلام هنا الى الفيلد مارشال اللورد ويلسون قال (١) :

« لقد تبين لنا سنة ١٩٣٩ ان عرب بنغازي ، يستطيعون ان يلعبوا دوراً مفيداً إذا وقعت الحرب بيننا وبين ايطاليا ، وذلك بنقل الانباء الينا ، وبالقيام بأعمال التخريب ، فضلا عن المعاونة التي يسدونها للطائرات ، التي تضطر للهبوط في الصحراء .

وقد تقدم الينا بعض شيوخ برقة اللاجئين الى مصر ، باقتراح يرمي الى التطوع في صفوف الحلفاء لمحاربة المحور ، فعقدنا اجتماعاً ، على أثر ذلك ، في السفارة البريطانية بالقاهرة قررنا فيه رفض تنظيم قوة من الليبيين مستقلة بمصر ، مراعاة لحكومة القاهرة التي كانت تعارض في هذا الاقتراح .

غير ان سمو البرنس محمد علي ، تلطف ووافق على بحث هذا الموضوع بيني وبين السيد الادريسي زعيم السنوسيين . وقد كان من نتيجة هذا الاجتماع الاتفاق على قبول متطوعة الليبيين ، في صفوف الجيش الانكليزي نفسه المرابط بمصر .

واذ ثبت لدينا عند دخول ايطاليا الحرب سنة ١٩٤٠ ان القوة العربية الغربية ستلعب دوراً مهماً قمنا بتأليف فرقة كاملة منهم . وفي الواقع ، فان الهجوم الألماني الذي بلغ الحدود المصرية افضى الى انعزال كثيرين من جنودنا عن الجيش ، فخف العرب لاطعامهم وايوائهم ؛ كما انهم عملوا على ايصال هؤلاء الجنود الى الجبهة البريطانية عبر الصحراء ، مشياً على الاقدام ، وذلك مسافة ٣٠٠ ميل لا ماء فيها الا القليل . » اه

والى هذا فان بعض الليبيين من اهالي طرابلس وفزان ، خفوا الى الاتصال بالجنرال نوكيس الفرنسي في الجزائر ، مذ دخلت ايطاليا الحرب ، واتفقوا معه على تأليف قوة عربية ، تنضم الى صفوف الحلفاء ؛ ولكن هذا التدبير سرعان ما تلاشى ، من جراء سقوط فرنسا ، وتعاون حكومة فيشي مع المحور .

ولما زار المستر انطوني ايدن الشرق الاوسط (كانون الثاني ١٩٤٢) ، لم يسعه الا ابداء الشكر للسيد ادريس السنوسي في مصر ، للمعونة القيمة التي اسداها سموه لجيش الحلفاء؛وصرح بان حكومة جلالة الملك ، مصممة النية ان لا تدع السنوسيين في بنغازي بعد الحرب ، يعودون الى الحكم الايطالي على كل حال من الاحوال .

ولعل انكلترا كانت منذ ذلك ، تعتزم بسط سلطانها على برقة ؛ وقد احتلتها فعلاً سنة ١٩٤٣ ، اثر جلاء المحور عن شمالي افريقيا ، واحتلت طرابلس ايضاً ؛ وظلتا تحت الادارة العسكرية البريطانية ، بينما ان منطقة فزان الداخلية كانت من نصيب الاحتلال الفرنسي ، وذلك وفقاً لاتفاق هاك Hague الذي وصف الاحتلالين بالموقت .

• . . . . .

(١) — Arab - World, issued by the Anglo - Arab association — May 1948

هذا وما ان تنفس الاهلون الصعداء ، حتى اشرأبت نفوسهم للاستقلال ، يطالبون به ، على غرار اخوانهم في العالم العربي . كما ان اخوانهم هؤلاء لم يغفلوا عنهم : فقد سارع حزب الاتحاد العربي في القاهرة ، الى تقديم مذكرة للسيد كايسي، وزير الدولة البريطانية في الشرق الاوسط (٤٥/٤/١١) ، طالب فيها بمنح هذا القطر استقلاله ؛ وكان السيد ادريس السنوسي زعيم برقة والمقيم وقتئذ في عاصمة مصر احد اعضاء ادارة هذا الحزب .

وفي مؤتمر ملوك العرب ورؤسائهم الذي عقد في انشاص بمصر (مايس ١٩٤٦) تقرر ان يعهد الى جامعة الدول العربية بتهيئة الاسباب لاستقلال ليبيا ، ووافق مجلس الجامعة في مؤتمره الاستثنائي ، الذي عقد ببلودان (سورية) في (حزيران ١٩٤٦) ، على قرار مؤتمر انشاص ، ووجهت الامانة العامة لمجلس الجامعة ، برقيات الى وزراء خارجية الدول العظمى جاء فيها :

« ان كل تحقيق تقوم به الدول العظمى لمعرفة رغبات اهل ليبيا ، يهم الجامعة العربية التي تعتبر طرابلس وبرقة شعباً من الشعوب العربية ؛ وتحرص الجامعة على ان تشترك في الهيئة التي اشار اليها الاقتراح البريطاني . »

هذا ولما قررت اللجنة المؤلفة من قبل وزراء خارجيات الدول الاربع ، في تشرين الاول ١٩٤٧ ، انتداب هيئة للتحقيق في المستعمرات الايطالية السابقة ؛ بادرت على اثر ذلك ، هيئة تحرير ليبيا في مصر ، للسفر الى طرابلس من أجل إعداد الرأي العام قبل وصول اللجنة . وبينما كان ممثلو الدول العربية في المؤتمرات الدولية يعملون متفقين لاستقلال ليبيا ووحدتها ، كانت الجامعة العربية التي اخذت على عاتقها ، منذ تكوينها ، الدفاع عن هذا القطر ، لا تنفك ترفع صوتها مرددة هذا الطلب . وكان عبد الرحمن عزام باشا امين الجامعة ، يصرح ،من قبيل الاستدراك ، بقوله : « اذا كان مؤتمر الصلح سيفرض الوصاية على ليبيا ، فمصر أحق من سواها بها ، باعتبارها دولة عربية مجاورة »

وقد زارت لجنة التحقيق ليبيا ، واصدرت في ٢٧ تموز ١٩٤٨ تقريراً ، انتهى الى القول بان ليبيا غير كفء للاستقلال الذاتي . ولما لم يتفق وزراء خارجية الدول الأربع على صورة الحل النهائي ، رفعت هذه القضية الى هيئة الأمم المتحدة.

اما اختلاف وجهات نظر الدول فقد كان يرجع الى اختلاف مصالح كل منها فحسب : فبينما كانت فرنسا تؤيد الوصاية الايطالية ؛ وغايتها من ذلك ان تبقى ايطاليا في ليبيا حائلة بينها وبين العالم العربي ، ولا سيما المغرب الفرنسي ، كانت

بريطانيا تريد ان تجعل من برقة مركزا استراتيجياً لها ؛ متواطئة مع فرنسا على اقتسام البلاد : فتعترف لندن لباريس بالوصاية على فزان ، لقاء اعتراف باريس للندن بالوصاية على برقة .

واما الولايات المتحدة وروسيا ، فكانت كل واحدة منها تحاول اكتساب ايطاليا الى جانبها ، فتجعلان من ليبيا كبش المحرقة .

لذلك فان هيئة الأمم المتحدة ، لم تستطع البت في أمر هذه القضية في دورتها الثالثة ، فقررت في (٩/١٢/١٩٤٨) تأجيل النظر في مستعمرات ايطاليا للدورة الثانية ، أي (نيسان ١٩٤٩) .

. . . . .

وعلى انتظار ذلك ، خفت بريطانيا العظمى الى تحقيق امنيتها في برقة . فقد كان السيد ادريس السنوسي ، يقيم في القاهرة منذ عشرين سنة تقريباً ، هربا من جور الايطاليين . فلمّا قام بزيارة بلاده سنة ١٩٤٣ ، وشاهد الانكليز تلك الحفاوة التي قوبل بها هناك أقبلوا على سموه يسايرون امانيه الاستقلالية . فاذا بسموه يقصد الى بنغازي قاعدة هذه المنطقة (١٩٤٩) ، فيعلن الاستقلال ؛ وتبايعه طرابلس على اساس الوحدة الليبية .

وكانت هذه مفاجأة فوجىء بها العالم ، ولا سيما الجامعة العربية التي ما زالت تطالب بوحدة ليبيا واستقلالها . فوقفت الجامعة منها موقف المعارض ، ولا سيما عندما قرر السيد الادريسي تأجيل مؤتمر برقة الوطني الذي كان يريد درس الاماني التي قدمتها جميع الاحزاب السياسية في طرابلس الغرب بصدد الاتحاد . وكانت حجة سموه انه ليس من الموافق اتخاذ أي قرار ، قبل ان تعرف نوايا الدول الكبرى في قضية ليبيا ، وخصوصاً بريطانيا العظمى .

على ان برقية لشركة (و . ص . ف) وردت من القاهرة ، في ١٦ تشرين الأول ١٩٤٨ ، زعمت أن سموه كان يطلب لأجل الموافقة على تحقيق الوحدة الليبية ، شروطاً هذه خلاصتها :

١ ـ ان تقسم كل قبيلة طرابلسية ، وعائلتا القرمنلي والمناصرة الطرابلسيتين يمين الولاء له .
٢ ـ ان يكون عرش ليبيا لأسرته من بعده .
٣ ـ ان يمنح سكان برقة نصف مقاعد المجلس النيابي العتيد .

هذا واما مساعي بريطانيا العظمى في الحقل الخارجي فقد انتهى بها المطاف الى اتفاق بينها وبين ايطاليا، عرف باتفاق «بيفن ـ سفورزا» يقوم على القواعد الآتية :

١ ــ استقلال برقة تحت اشراف بريطانيا .
٢ ــ وضع طرابلس تحت الوصاية الايطالية ، باشراف لجنة من هيئة الأمم المتحدة
٣ ــ السماح لفرنسا ببسط حمايتها على منطقة فزان

وينص هــذا الاتفاق ايضاً على وضع كل من برقة وطرابلس تحت الادارة البريطانية حتى عام ١٩٥١، ثم تنتقل الوصاية عليها لايطاليا، وتبقى حتى عام ١٩٥٩ .

وقد فاز مشروع هــذا الاتفاق بموافقة اللجنة السياسية لهيئة الأمم المتحدة (١٣ أيار ١٩٤٩) ، وأوصت به الجمعية العمومية . ولكن موقف العرب منه ، حكومات وشعوبا ، بالاضافــة الى صمود اهل طرابلس الغرب في وجهه صموداً مرموقاً تجلى بمظاهراتهم النارية وتهديداتهم ، كل ذلك جعل هذا المشروع ينهار أثناء اجتماع الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة (١٨ أيار ١٩٤٩) ، ويرفض على اساس ردها كل اقتراح مبني على عودة ايطاليا الى طرابلس . وقــد اجلت الجمعية العمومية البحث في مصير المستعمرات الايطالية، الى دورتها القادمة في أيلول ١٩٤٩ .

وعلى اثر ذلك رأت لندن ضرورة استباق الحوادث، فاذا بالسيد ادريس السنوسي يعلن استقلال برقة رسميا ، واذا به يلبي دعوة لندن ويزورها . واذا به يبلغ هذا الاستقلال في (حزيران ١٩٤٩) للدول العربية . فلم يعترف احد منهــا به غير جلالة ملك شرق الأردن . وما ذلك عن كره بسموه ، بـل لأن العالم العربي لا يرضى عن وحدة ليبيا بديلًا ، على ما يكنه للسيد السنوسي من الاجلال والتقدير .

وأخيراً فقد جاءتنا البشرى ببرقية صادرة عن لايك ساكسس (١١ تشرين الثاني ١٩٤٩) ، تتضمن ان اللجنة السياسية لهيئة الأمم المتحدة ، قررت ان تتمتع ليبيا بالاستقلال في اسرع وقت ، وان لا يتجاوز موعد ذلك اليوم الثاني من كانون الثاني ١٩٥٢ ؛ على ان يجتمع ممثلون عن برقة وطرابلس وفزان ، لوضع دستور البلاد ، وتعيين شكل الحكومة .

ووافقت اللجنة ايضاً على انشاء مجلس استشاري للمساعدة في وضع الدستور وتأليف الحكومة المستقلة ؛ على ان يتألف اعضاء هذا المجلس من مصر ، وفرنسا ، وايطاليا ، والباكستان ، وبريطانيا ، واميركا ، يضاف اليهم ممثل عن كل قطر من اقطار ليبيا الثلاثة . وقد وافقت هيئة الأمم المتحدة على هذا القرار ، ومشت ليبيا العزيزة في طريق الاستقلال الناجز، وهي خطوة حاسمة لسحق رأس الاستعمار في سائر افريقيا الشمالية .

الفصل الرابع

عصر الانتدابات

الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان

منذ خاضت الولايات المتحدة غمار الحرب العالمية الأولى خف الرئيس ويلسن للاعلان عن رأيه بصدد مصير الشعوب المستضعفة بعد احراز النصر ، وافصح عن رغبته في تأمين مصيرها على اساس مبادىء انسانيــة تختلف عن الطرق المتبعة في الحروب الماضية .

ولقد قام نظام الانتداب على قواعد هذه النظريات الأميركية ، قصد تطبيقه على المستعمرات الألمانية ، والولايات العثمانيــة لتُحكم بمقتضى انظمة تضعها عصبة الأمم،وتشرف على تطبيقها . وقد عينت المادة ٢٢ من ميثاق العصبة العناصر التي يشملها الانتداب على انواعه،ووصفت العناصر التي يجري عليها الانتداب A بما يلي :

« العناصر التي بلغت من الرقي درجة تسمح بان يعترف بهـا كشعوب مستقلة ، تحت اشراف دولة تنتدب لمعاونتها ، ومد حكومتها الوطنية بالارشادات اللازمة ، الى ان تصير قادرة على ادارة شؤونها بنفسها . »

ولكن نوايا حلفاء الرئيس ويلسن، لم تكن مجردة عن المطامع صافية كنيته ؛ بل كانت مشبعة بالمطامع الاستعمارية ؛ التي ذر قرنها منذ الخطوة الاولى : فما عمدوا الى توزيع الانتدابات في مؤتمر سان ريمو (نيسان ١٩٢٠) الا واخذوا يصطدمون باتفاقات سرية عقدوهـــا فيما بينهم لقسمة الارث قبل وفاة المورث ، كاتفاق سايكس بيكو ، ووعد بلفور ؛ واما حق الشعوب المحررة في اختيار المصير فقد ضربوا بها عرض الحائط .

وكانوا قد عهدوا الى لجنة وضع مشروع الانتداب A ؛ فاتخذت لندن مقراً

لها . وعندما انتهى وضع المشروع تحول الى عصبة الامم المصادقة عليه ، فمر عليه وقت غير قصير في مجلس العصبة ؛ ثم تأجل اعلانـــه ايضاً من جراء ملحوظات أعربت عنها الولايات المتحدة ، ومطاليب جديدة اثارتها ايطاليا. حتى اذا كان يوم ٢٩ ايلول ١٩٢٣ أصدر المجلس قراراته بانتداب فرنسا على سورية ولبنان ، وانكلترا على العراق وفلسطين ، على اساس الانتداب A . وهذا القرار بالاضافة الى المادة ٢٢ من ميثاق العصبة ، يعتبر بمثابة الهيكل الشرعي والسياسي للانتداب على هذه البلاد .

على ان الدولتين المنتدبتين لم تنتظرا ، مع ذلك ، اعـلان الانتداب من قبل عصبة الامم ، بل راحتا فورا تقسمان الغنيمة دون انتظار ، وهما مطمئنتان الى ان ارادتها ارادة العصبة .

الانتداب على سوريا

وصف الاستاذ جبران منسى في كتابه الافرنسي المسمى (الانتدابات أ) حالة سورية الروحية عهد الحكم الفيصلي ، وقال: « شهدت سورية خلال الاحتلال العسكري عهداً من تلك العهود الشاذة التي لا حد فيها للشغف بالحرية والاخاء : فالذين زاروا دمشق سنتي ١٩١٩و١٩٢٠ قدر لهم ان يروا في الاجتماعات والاندية ، والمحاضرات والاحزاب ، زيادة على الغليان السياسي العام ، حالة مستثناة شبيهة بما يعقب الثورات الحرة الكبرى ؛ وقد ذهب بعضهم لتشبيه حالة دمشق هذه بما كانت عليه فرنسا سنة ١٧٨٩ » .

وفي اثناء هذه الثورة الروحية دخلت فرنسا سورية عنوة، بقوة النار والحديد، فالفت امة شغوفـة كل الشغف باستقلالها ، لا عن عاطفة قومية طبيعية فحسب ، بل نتيجة لممارستها الحكم الحرّ الاستقلالي عهد الملك فيصل ، واغتباطها به ؛ لذلك كان على فرنسا ان تجابـــه عقبات كأداء منذ تولت تطبيق الانتداب ، عقبات ازدادت تعقيداً من جراء الطرق التي لجأت اليها وأفضت الى اعتقاد السوريين بان الانتداب ليس سوى نوع من انواع الاستعمار .

. . . . .

١ — **عهد الجنرال غورو ١٩١٩ — ١٩٢٣** كان لدخول فرنسا سورية عنوة، بعد ذلك النضال السياسي العنيف الذي حصل بينها وبين حكومة فيصل، اثر بالغ

في توجيه السياسة الفرنسية فيها . ذلك ان الجنرال غورو اعتزم القضاء على كل مناعة في الشام تحول دون الاستقرار الفرنسي . فامر عام ١٩٢٠ بحل الوزارة السورية ، وبالغاء الوزارة الخارجية . وباعد بين دمشق وحلب باقامـــة دولتين منفصلتين فيهما ، ولا صلة لكل منهما بالاخرى الا بواسطة المفوض السامي ؛ واعلن استقلال جبل الدروز ، وفصل منطقة اللاذقية عن دمشق ، واطلق عليهـا (بلاد العلويين) نسبة للطائفـــة الفلاحة المقيمة في جبالها ؛ ومنح منطقة اسكندرونة استقلالاً ادارياً واسعاً وفقاً للاتفاق الفرنسي التركي . وهو مع ذلك، وان احتفظ باستقلال صوري لدمشق وحلب ، الا انـه لم يتردد في جعل حكم جبل الدروز وبـلاد العلويين حكماً مباشراً يتولاه موظف فرنسي في كل منهما مهمته اثارة النعرات الطائفية . على ان هـــذه الحكومات الصورية كانت ترجع في الصغائر والكبائر ، الى المفوضية الفرنسية العليا في بيروت . وقد زاول عمالها الحكم على الاساليب التي الفوهـــا في المغرب . وكان معظمهم جنوداً لا يحسنون الادارة ، فاثاروا النفوس وملأوا القلوب حقداً عليهم ، فضلا عن انهم حملوا بعض الافرنسيين على مؤاخذتهم . ومنهم مسيو بوانـكاريه الذي وجه انتقاداً شديداً لهم في مقـال نشر في مجلة العالمين بباريس سنة ١٩٢١ . وكأن الجنرال غورو شاء رتق الفتق بقدر ما تسمح بـه سياسة الاستعمار فألقى في ٢٠ حزيران ١٩٢١ خطاباً بدمشق وضع فيه اساساً للاتحاد بين دولتي دمشق وحلب . وبمقتضاه تألف مجلس الاتحاد من اعضاء مجلسي الدولتين ، وكان هذا المجلس يعقد اجتماعاته عاماً في دمشق وعاماً في حلب . وقـد اضيف اليه ممثلون عن منطقة العلويين منذ ٢٨ حزيران ١٩٢٢ . على ان هـذا التدبير ، جاء مخالفا للرغبات العامة ، لأنه فضلاً عن كونه لم يؤمن الوحدة المرجوة افضى الى بقـاء جبل الدروز مستقلاً عن جهاز الحكم السوري، كما انه منح متصرفية اسكندرونه ، امتيازات من شأنها اضعاف الصلة بينهـــا وبين سورية .

هذا وكانت الرهبة التي رافقت الجيش الفرنسي اثناء دخوله سورية غازياً قد اخذت تتلاشى امام العواطف الوطنية الملتهبة ، وذلك منذ السنة الاولى التي عقبت واقعة ميسلون؛ فنشط السوريون لمجابهة الاستعمار بالثورات المتوالية. وهكذا شهد عهد الجنرال غورو ثورة الشيخ صالح العلي في جبال العلويين (١٩١٩ - ١٩٢١)، وثورة حوران (من صيف ١٩٢٠ الى آخر العام) . وقـد ذهب ضحيتها السيد

علاء الدين الدروبي رئيس الحكومة السورية وزملاء له من الموالين للسلطة الفرنسية، وثورة ابراهيم بك هنانو في جبل الزاوية غرب حلب التي استمرت مشتعلة من اواسط عام ١٩٢٠ الى اواسط ١٩٢١ . هذا عدا الثورات التي قامت في الاراضي التي الحقت بلبنان، وخاصة في جبل عامل سنة (١٩٢٠ – ١٩٢١) .

ولما اتيح للجنرال غورو القضاء على هذه الثورات آخر عام ١٩٢١ وارادت جيوشه ان تتقدم شطر الشمال صمدت في وجهها القبائل العربية في دير الزور وناوشتها القتال مدة . ثم كاد الجنرال نفسه يلقى حتفه سنة ١٩٢١ اثناء مروره في ناحية القنيطرة فاخطأته النار ولكنها اودت بحياة مرافقه . هذا الى ان فرنسا لم يتسنّ لها الاستقرار في سورية ، بعد ان اتاحت لها قواها الدولية اخماد هذه الثورات. بل سرعان ماوجدت نفسها حيال معارضة جبارة متواصلة حرمتها الراحة والاطمئنان .

وفي اول نيسان ١٩٢٢ هبط السيد تشارلس كرين دمشق ، وكان معروفاً من السوريين مذ جاءهم رئيساً للجنة كرين – كينك (١٩١٩) ، ومحبوباً بسبب التصريحات المنصفة التي كان يدلي بها في تأييد قضيتهم . فما ان ذاع نبأ وصوله حتى ماجت به ارجاء المدينة كأنها ترجو بالشكاية اليه الحصول على مساعدة اميركا . وكان وداعه ، من بعد، مظاهرة وطنية ، علت خلالها الاصوات في طلب الاستقلال والوحدة . ولما عمدت السلطة الى اعتقال الذين رحبوا به اثر سفره ، قامت قيامة المدينة المهتاجة فاضربت دمشق ،ومشت في مظاهرات صاخبة ، قامت بها النساء في الطليعة . ولكن السلطة قابلت هذه الاحتجاجات بالعنف واعلنت الاحكام العرفية . وكانت زوجتي (الآنسة نازك العابد وقتئذ) من خطباء تلك المظاهرات ، فاعتقلتها السلطة ، ثم تمكنت من الفرار الى خارج الحدود على امل ان تجد هناك مجالاً اوسع لانقاذ وطنها (١) . وكانت الثورات المتوالية فيسورية ، والشكاوى قد فتحت آذان رجال السياسة في باريس ، فاضطر الجنرال غورو،بتأثير انتقاداتهم ، الى العدول عن سياسته السلبية . وقد بدأ ذلك بايقاف حكم الاعدام الذي كان اصدره المجلس العسكري غيابياً بحق سلطان باشا الاطرش زعيم جبل الدروز . ثم طفق الجنرال يبذل الاموال لتقريب اهل النفوذ ، وخصوصاً بين العشائر .

(١) راجع تفصيل ذلك في كتاب « لبنان وسوريا قبل الانتداب وبعده » لبولس مسعد

ولما رأى رجال البرلمان في باريس ان الجنرال غورو لم ينجح في سياسة العنف ، ولا في سياسة الاسترضاء ، شددوا النكير عليـــه وعلى صحبه ، رجال المفوضية ، واحجموا عن تقرير النفقات التي يطلبها ؛ فابحر في ٢٥/١١/١٩٢٢ الى باريس قصد تبرير موقفه ومطاليبه ؛ ولكنه لم يعد لان حكومته اضطرت تحت ضغط المعارضة البرلمانية الى انقاص المخصصات بدلاً من زيادتها .

. . . . .

٢ – **الجنرال ويغان** ١٩٢٣ — ١٩٢٥ : جلت الجيوش الفرنسية عن كيليكيا بعد اشهر من تعيين الجنرال ويغان مفوضاً سامياً على سوريا ولبنان ، وذلك بناء على اتفاق انقرة ؛ فكان هـــذا النجاح الذي احرزه الترك على الفرنسيين حافزاً للسوريين على المضي في نشاطهم ومقاومتهم . ولم يستطع المفوض السامي الجديد ان يقمع الثورات الا ّ في سنة ١٩٢٤ ، بعد ان ساقت حكومة باريس سبعين الف جندي الى بلاد الانتداب ، وانفقت المبالغ الطائلة من الاموال .

ومضى الجنرال في تحقيق برنامج الاستعمار ، وبعـد مؤتمر لوزان ١٩٢٤ ، استعمل الشدة في مجابهة المقاومة ؛ ولكنه مع ذلك بادر لاعطاء البلاد مظهراً من مظاهر التمثيل السياسي : فدعا الى احصاء السكان ، ثم الى اجراء انتخابات لمجالس الحكومات السورية على ان ينتخب كل منها خمسة نواب لتمثيله في مجلس اعلى يجمع بينها ؛ ولكنه زاد في استقلال متصرفية اسكندرونة الاداري ، وجعلهـــا تحت اشراف المفوضية المباشر ؛ كما انه فصل نهائياً بين دمشق من جهة ، وبين كل من جبل الدروز ، ومنطقة العلويين من جهة ثانية ، ونصب على رأس كل منهما حاكماً افرنسياً ، وجعلهما تحت اشراف المفوضية مباشرة .

وكان من الطبيعي ان يقابل هـــذا التدبير بالمقاومة ؛ فاضرب السوريون عن الانتخابات ؛ وما جرت من بعد ، الا ّ بضغط السلطة وبتوجيهها . وقـد انتخب المجلس الأعلى صبحي بك بركات رئيساً له ، وهو من الموالين للانتداب ؛ ولكن الشعور القومي كان قد بلغ اشده الى حد ان المجلس المذكور وقف موقفاً ما كان يترقبه الفرنسيون : فأعلن في ٥ / ١ / ١٩٢٥ ، الوحدة السورية في الجلسة الاولى التي عقدها لبحث القانون الاساسي .

. . . . .

٣ – **الجنرال ساراي** ١٩٢٥ : على اثر فوز كتـلة اليسار في باريس ، استبدل

الجنرال ويغان بالجنرال ساراي مجاراة لرغبة المسيو هريو رئيس هذه الكتلة ١٩٢٥/١/٢ . وعلى الرغم من ان المفوض السامي الجديد كان يحمل في حقيبته اصلاحات تتلاءم مع مبدأ حزبه السياسي ، فانه لم يكن موفقاً في تحقيقها : فقد اصطدم بتذمر شديد عام زادته الأزمة الاقتصادية اضراماً . ثم انه واجه ثورة جبل الدروز تلك الثورة التي اذكاها الكابتن كاربيه . ذلك انه على اثر وفاة سليم الاطرش امير الجبل نصبت المفوضية الافرنسية مكانه الكابتن المشار اليه ، فارهق اهله بالعنف والقسوة حتى حملهم على الثورة . وكانت ثورة حامية الوطيس امتدت الى سورية ولها نتائج ايجابية شملت الحاكم والمحكوم: ذلك ان الجمهورية الفرنسية لم تكن تعتقد ببقاء مناعة قومية في سورية بعد انتصار الجيش الفرنسي في واقعة ميسلون ؛ بل كان الفرنسيون يعتبرون الثورات التي فوجئوا بها ، بعد ذلك ، من قبيل اعمال العصابات التي تثيرها الدعايات؛ فلما واجهوا الثورة المذكورة ، ولمسوا فيها ما عند السوريين من قوة كافية ازدادوا اهتماماً بدرس مطاليب سوريا ، وتناقشوا حولها كتابة وخطابة ، واصبحت حديث الاحزاب والمجالس الرسمية . كما ان فشل الثورة ، بعد حين ، اضعف وقتياً حدة المعارضة فتولدت عن هذه التأثيرات المختلفة ، التي شملت كلا من باريس ودمشق ، سياسة جديدة تتجه نحو التفاهم .

. . . . .

٤ — دي جوفنيل ١٩٢٥ — ١٩٢٦ : نصب المسيو دي جوڤنيل مفوضاً سامياً، وانتدب لتحقيق مشروع التفاهم . وكان صبحي بك بركات قد قدم استقالته في ١٩٢٥/١٢/٢١ ، فكلف المفوض السامي الشيخ تاج الدين الحسني بتأليف الوزارة ، ولكنه اذ لم يوفق في ذلك اضطر المفوض لتكليف المسيو بيير أليب مندوبه في دمشق ، باستلام زمام الحكومة السورية .

ولما لم تثمر المفاوضات مع الوطنيين تحول مندوب فرنسا ، الى تأليف حكومة الداماد احمد نامي بك جاعلًا بين وزرائها ثلاثة من الوطنيين ، وذلك في ٢٦ نيسان ١٩٢٦ م على امل ان تتوسط هذه الحكومة لوقف الثورة . وربما كان اختيار الداماد ، وهو بيروتي ، لرئاسة الحكومة ، يقصد منه مكافأة الجراكسة المقيمين في بلاد الشام الذين اشترتهم فرنسا لمكافحة الثورة . ولعل من جملة اسباب السخط الذي قوبلت به هذه الحكومة ان رئيسها كان من طائفة تطوع شبابها لمحاربة القومية .

٥ — *هنري بونسو* ١٩٢٦ — ١٩٣٣ : حل المسيو بونسو محل المسيو دي جوڤنيل ١٩٢٦/١٠/٢ ، والثورة ما تزال متفاقمة . فعكف على درس القضية السورية صامتاً ، ونشر على اثر عودته من باريس صيف ١٩٢٧ ، بياناً صرح فيه بانه يحافظ على سياسة التفاهم التي حددها سلفه . وقد كان لهذا التصريح ، بعد ملاشاة الثورة ، الوقع الحسن في الاوساط الوطنية . وقابل الوطنيون هذا التصريح ببيان معتدل صدر عن مؤتمر عقدوه في بيروت ١٩٢٧/١١/٢٥ ، اعلنوا فيه استعدادهم للتعاون . وعلى الاثر اعلن المفوض السامي الغاء الاحكام العرفية ، والعفو عن كثرة المحكومين السياسيين . وعمد الى تأليف حكومة جديدة عهد بها (١٤ شباط ١٩٢٨) الى الشيخ تاج الدين الحسيني ، ونعتها بانها حكومة مؤقتة ريثما تتم انتخابات الجمعية التأسيسية التي يعهد اليها وضع الدستور . كما اعان في هذه المناسبة عن عزمه على عقد محالفة بين فرنسا والدولة السورية العتيدة ، تكون خيراً من المعاهدة الانكليزية — العراقية . وتحت تأثير هذه التصريحات المطمئنة قرر المؤتمر في دمشق — آذار ١٩٢٨ — تلبية طلب فخامته ، والاشتراك في الانتخابات . وجاء اجماع الكلمة على انتخاب مرشحي الهيئة الوطنية دليلاً على وجهة الرأي العام السوري. هذا وقد اجتمع المجلس المنتخب في ٢٩ حزيران ١٩٢٨ وانتخب رئيساً له فخامة هاشم بك الاتاسي. غير ان سياسة التفاهم لم تلبث ان لقيت حتفها منذ وضعت الجمعية التأسيسية الدستور — ١٤ ايار ١٩٣٠ — ذلك لان المفوضية العليا اعلنت اعتراضها على مواد ست جاءت في هذا الدستور تنصّ احداها على الوحدة ، وتنص المواد الباقية على حقوق رئيس الجمهورية ، وعلى التمثيل الخارجي ، وتنظيم الجيش . وجرب الفريقان ، دون جدوى ، الوصول الى حلّ مرضٍ . وانتهى الامر اخيراً الى انقطاع المفاوضات ، والى مفاجأة المجلس التاسيسي بقرار التعطيل . ثم استقلت المفوضية ، بعد ذلك ، في نشر مواد دستور عرضته على عصبة الامم ونالت منها التصديق عليه بالرغم من الاحتجاجات المدوية . ونصب المسيو بونسو مندوبه المسيو سالومياك رئيساً لحكومة جديدة (١٩ تشرين الثاني ١٩٣١) ، على انها حكومة مؤقتة ايضاً يقصد منها ادارة الانتخابات النيابية على اساس الدستور . وارسل دعوة الى الوطنيين يحضهم فيها على الاشتراك في هذه الانتخابات ، فاغتروا بالوعود المعسولة ، ولبوا دعوته . ولكن ما ان دارت الانتخابات حتى اصطدم الوطنيون بتدابير حازمة اتخذتها السلطة لفوز مرشحيها ؛

فكان هياج بلغ اشده في دمشق ، ولم يهدأ الا بعد ان اعلن وقف الانتخابات .

ثم استؤنفت الانتخابات من جديد على اساس اتفاق تمّ بين الفريقين يقضي باقتسام المقاعد النيابية بينهما في منطقة دمشق .

وفي ١١ حزيران ١٩٣٢ انتخب المجلس فخامة محمد علي بك العابد رئيساً للجمهورية . غير ان الاتفاق بين السلطة والكتلة الوطنية لم يطل عليه العهد ، اذ لم تباشرِ المفاوضات بشأن القواعد التي ينبغي ان تقوم عليها المعاهدة حتى اسقط في ايدي السوريين ، لا سيما حينما قرأوا بيانات المفوض السامي امام لجنة الانتدابات الدائمة في جنيف (٣ ايلول ١٩٣٢) التي تشير الى ان المشروع الجديد لحل القضية السورية يقوم على اساس عقد معاهدة مع جمهورية سورية تقتصر على المدن الاربع وحدها ؛ على ان تبقى المقاطعات السورية الاخرى تحت الانتداب المباشر ريثما يتم استعدادها للاستقلال، فكان ذلك باعثاً على ان تعود الازمة الى توتر اشد مما كانت عليه قبل الانتخابات . واصدر الوطنيون قرارهم ، على اثر اجتماع عقدوه في ١٨ نيسان ١٩٣٣ بالانسحاب من الحكم ومن البرلمان ؛ وبالتخلي عن سياسة التعاون.

. . . . .

٦ — **الكونت دى مارتيل** ١٩٣٣ — ١٩٣٨ : هبط دي مارتيل بيروت حاملاً مشروعاً جديداً للمعاهدة ، واذ بمفاجأة اخرى تبرز، اثر ذلك ، للميدان وتأتي دليلاً على اتفاق كلمة الشعب في صعيد الاستقلال : ذلك ان المجلس النيابي الذي لم يعد يضم ، بعد انسحاب الوطنيين ، الا انصار السلطة ، اقدم على رد مشروع المعاهدة التي تقدم بها الفرنسيون (تشرين الثاني ١٩٣٣) . فكانت مفاجأة غير منتظرة أثرت تأثيراً شديداً على المفوض السامي ، وجعلته يسترد المشروع ، ويعلن عدوله عن الاستمرار في ايجاد حل سياسي للتفاهم ، وعزمه على حصر اهتمامه في معالجة الشؤون الاقتصادية . وكانت قد منيت البلاد فعلا بازمة شديدة .وفي الواقع فان المفوض السامي اعرض طويلاً عن التفكير بالحلول السياسية حتى اذا نفد صبر الكتلة الوطنية خفت الى اصدار بيان باسم الشعب السوري (١٠ / ١ / ١٩٣٦) ضمنته ميثاق الامة القائم على الوحدة والاستقلال . وكانت جرأة محمودة لم تتردد السلطة في مقابلتها بسياسة العنف : فعمدت الى اغلاق مكاتب الكتلة ، والقت القبض على بعض رجالاتها ، مما سبب اضراباً عاماً في كل سورية احتجاجاً على هذه التدابير ، اقفلت فيه المتاجر والمصانع حتى المطاعم .

وما كان ابعاد بعض النواب والوجهاء وسجن الطلاب والادباء وتعذيب بعضهم الا لتستزيد النقمة على المستعمرين ، وتثير الثبات على الاضراب . وكانت حكومة الشيخ تاج الدين الحسني تلجأ الى القسوة في سبيل وقف الاضراب ؛ فأثارت، من جراء ذلك ، حقد الشعب عليها ، وازدادت كرها على كره . وكأن المفوض السامي اراد ان يجعل هذه الحكومة كبش المحرقة على امل ان يخفف بتنحيتها السخط العام ، وان يصل الى وقف الاضراب ، فأقالها وعهد الى دولة عطا بك الايوبي بتأليف الوزارة (٢٤ شباط ١٩٣٦) . ولكن هذا التدبير لم يؤثر شيئاً على الشعب ؛ وظل الاضراب على حاله من الشدة والتنظيم ، الى حد جعل الاوروبيين أنفسهم يظهرون اعجابهم بــــه ، وينعتونه بانه نوع من انواع التصوف الذي اشتهر بـــه الشرق . فما وسع باريس حيال ذلك الا ان تتراجع وتلتزم سبيل الحكمة ، فتأمر المفوض السامي بأن يفاوض الكتلة الوطنية مباشرة، ويدعوها لتأليف وفد يتولى في باريس المفاوضة للاتفاق على مشروع المعاهدة المطلوبة . وقــد قابلت الكتلة هذه الدعوة ؛ بوقف الاضراب ، وقصد رئيسها فخامة السيد هاشم الاتاسي على رأس وفد الى عاصمة فرنسا للمفاوضة .

هذا وعقب الاتفاق مبدئياً مع وزارة الخارجية الفرنسية على مشروع المعاهدة عاد الوفد السوري الى دمشق ؛ وجرت الانتخابات النيابية ، فأسفرت عن نجاح الكتلة الوطنية ، ثم انتخب المجلس رئيسها فخامة هاشم الاتاسي رئيساً للجمهورية . والف الوزارة دولة جميل بك مردم بك .

ولكن حكومة فرنسا لم تلبث ان تراجعت عن التصديق على مشروع المعاهدة ؛ وشرعت تماطل في عرضهــــا على البرلمان ، بينما كانت تتظاهر بمواصلة المفاوضة مع الحكومة السورية للاتفاق على بعض المسائل . حتى اذا حان الوقت اعلنت في ٩ ايلول ١٩٣٦ رفض هذا المشروع . ولعل اسباب هذا التراجع تعود الى ما يأتي :

أ – كانت حكومة مسيو ليون بلوم تتبنى فكرة المعاهدة ؛ فلما سقطت ، وخلفتها وزارة مسيو دالاديه تبدل الموقف لأن الرئيس الجديد كان يرى من الغبن عــــلى فرنسا ان ترضى بانكماش سلطتها عن سورية ما دامت قادرة على تعزيزها بالقوة .

ب – اعربت سورية ، وعلى راسها الحكومة ، عن تضامنها مع فلسطين تجاه

الخطر الصهيوني ، وفلسطين هي جزء من سورية منذ ايام نبوخذ نصر (٥٨٥ ق.م) على ما اعترفت به لجنة بيل الملكية . ولما عقد العرب مؤتمر بلودان (ايلول ١٩٣٧) مشمولاً برعاية حكومة دمشق ، فكرت انكلترا فيما يمكن ان تؤديه بلاد الشام ، اذا هي تمتعت بالاستقلال ، من المساعدات لثورة فلسطين ، فراحت ، والصهيونيون من ورائها ، تعمل في باريس على وقف المعاهدة . وهي تحسب ، في نفس الوقت ، الف حساب لها ان تمت من حيث التأثير على اهل فلسطين الذين ما فتئوا يطالبون ، دون جدوى ، بمثل هذه الامنية .

جـ - ان مشروع المعاهـــدة لم يكن حائزاً على ارتياح حزب اليمين ، ولا الرأسماليين الذين يرون في الاستعمار حقلاً للاستثمار ، مما جعلهم يعملون الى جانب زملائهم العسكريين على احباطه . وربمـــا كان للرأسماليين في اثارة نقمة هؤلاء العسكريين وغيرهم ، على مشروع المعاهدة ، ايد مغموسه في الذهب .

د - واخيراً جاء الخطر المنذر بالحرب ضغثاً على ابالة ، فاشتدت المعارضة بباريس ضـد المعاهـدة ، لا سيما حينما احتلت ايطاليا البانيا ، واكتسحت المانيـــا النمسا وتشيكوسلوفاكيا بعد ان نفضتا ايديهما من عصبة الامم .

ويمكن ان يضاف الى هذه الاسباب سبب آخر مصدره الحكومة السورية نفسها : ذلك ان هـذه الحكومة اعتزمت مزاولة السلطة والحقوق التي نصت عليهـا المعاهدة دون ان تنتظر تصديقها ، ولمـا قاموا بممارسة الحكم على اساس الاستقلال المطلق اشفق الفرنسيون على نفوذهم ان يزول ، وخافوا على مشاريعهم الاقتصادية ان تضمحل من جراء ما شاهدوه من حزم الحكومة السورية تجاه البنك السوري اللبناني الذي يحاول تجديد امتيازه ، فنشط كثيرون منهم للانضمام الى الحزب المعارض في باريس ، وكان لادارة البنك المذكور اثرها البالغ في مناوأة المعاهدة ، وعدم تصديقها من قبل البرلمان الفرنسي .

. . . . .

٧ - **غبريال بيو** ١٩٣٨ - ١٩٤٠ : لقد ارادت فرنسا ، التي لم تكن قد نسيت الاضراب الأخير ، ان تحتاط للامر قبل رفض المعاهـــدة ، فلجأت الى التمادي بالتسويف ريثما تقلم اظفار الكتلة الوطنية بالمؤامرات عليها وذلك باثارة انصار التجزئة في الجزيرة وجبل الدروز وبلاد العلويين ، وبالقاء الشقاق بين الوطنيين انفسهم .

ولما كنت احسب لهذا التسويف حسابه فقـد انتهزت فرصة مروري بباريس

سنة ١٩٣٨ في طريقي الى أمريكا بمهمة تتعلق بفلسطين لابسط لعطوفة الامير عادل ارسلان احد اعضاء الوفد السوري المفاوض ملحوظاتي في هذا الموضوع ، ورجوته نقلها لرئيس الوفد والحكومة دولة جميل بك مردم ـ ولكن الامير اقترح عليّ ان اشافه بها دولته مباشرة ؛ فاكتسبت فرصة عودتنا من فرساي الى باريس في سيارة دولته لا كاشفه بتكهناتي . وقد اقترحت عليه وقتئذ ، في شيء من الحرية، ان يستقيل تلغرافياً من رئاستي الوزارة والوفد احتجاجاً على هـذا التسويف ، فتكون استقالته هذه حافزاً للشعب ، الذي دب بينه الفتور ، وساورته الظنون، للاحتجاج بالطرق الفعالة على التسويف قبل ان تستحكم الشباك التي يحيكها الفرنسيون لسورية .

ويظهر ان المراجع الفرنسية كانت جد حريصة على ان يحتفظ دولة الرئيس بحسن الظن بها فكان اجتهاده يقوم على الامل بان يعود آخر الشهر حاملاً الاتفاق النهـائي بعد توقيعه ؛ وطمأنني قائلاً بان صلب المعاهدة لن يمسّ ، وان التحوير القليل ، الذي هو موضع المفاوضات ، انما ينحصر في الملاحق .

هذا وبينما كان الوفد السوري يواصل المفاوضة في باريس ، اذا بنا نرى السلطة تسهل للدكتور عبد الرحمن شهبندر ، اللاجىء الى القاهرة من سنتين ، العودة الى وطنه فيتولى زعامة المعارضة لمشروع المعاهدة . والدكتور شهبندر زعيم رافق القضية العربية منذ بعثها الاخير ، فلا غرو ان يؤدي مجيئه الى انقسام في صفوف الوطنيين ؛ بل الى تسرب الانقسام الى صميم الكتلة الوطنية . واذا بنا ايضاً نرى ثورة تنشب في الجزيرة على حكومة سوريا اثر عودة رسل الكردينال تبوني منها الى بيروت . وهو زعيم طائفة السريان في تلك الناحيـة ؛ واذا بجبل الدروز يطالب بالاستقلال عن سوريا ، بينما يقوم في جبال العلويين سليمان المرشد فيدعي الالوهية ، ويجند الجند على مرأى ومسمع من السلطة ، ويفرض الضرائب ، ويطالب بالانفصال عن سورية .

وهكذا رأينا الاسباب تتضافر على جعل حكومة دمشق ، التي تتولاهـا الكتلة الوطنية ، تخفض جناحيها ازاء ممثل الانتداب ، بتأثير هـذه الاحداث المفتعلة ؛ فتصبح الفرصة مؤاتية لان تعلن فرنسا رفضها المعاهدة دون ان تحسب حساباً لاحد . ورغم الاضراب الذي شمل سورية عقب رفض المعاهـدة ، فقد استرسلت المفوضية الفرنسية في سياستها الجديدة ، واصدرت قانوناً للطوائف

يتنافى مع تقاليد البلاد ، فكان ذلك مدعاة لتحرج الحالة بينها وبين وزارة جميل مردم بك تحرجاً افضى الى استقالتها (١٨ شباط ١٩٣٩) . وتوالت الازمات الوزارية . وبالرغم من أن المفوضية اعلنت الغاء قانون الطوائف فقد ظلت سورية في حالة اضراب مهيب اظهرت خلاله البلاد العربية ، وعلى رأسها العراق ومصر ولبنان ، عطفها على قضية المضربين ، وانتصارها لسورية .

وظلت سورية دون حكومة الى ان اذيع في ٦ نيسان ان دولة نصوحي بك البخاري رضي بتأليف الوزارة . ومع ذلك فان الرئيس الجديد لم يستطع ايقاف الاضراب الا بعد عشرين يوماً من توليه الحكم .

وكأن فرنسا رأت ان الفرصة سانحة ، اثر انحلال الكتلة الوطنية ، لتقوية مركزها ، خصوصاً وان الحرب اصبحت قاب قوسين او ادنى ، فاذاع ممثلها ، المسيو بيو ، على اثر عودته من باريس ، بياناً بسط فيه السياسة المقبلة التي اعتزمت حكومته انتهاجها . وكان هذا البيان جلياً بحيث لم يفض الى استقالة وزارة البخاري فحسب ، بل اخرج الشعب ثانيه الى الاضراب ، فضلاً عن انه دفع المجلس النيابي للاحتجاج ايضاً باسم الشعب .

وظلت سورية ، مرة اخرى ، دون حكومة ، وهي تواصل الاضراب والاحتجاج ، حتى كان مطلع شهر حزيران فاذا بدولة عطا بك الأيوبي يقبل بتأليف الوزارة على شروط ، ولكن المندوب السامي رفض تلك الشروط . فكان هذا التعنت من قبل الفرنسيين كافياً لان يحمل فخامة هاشم بك الاتاسي على ان يتقدم الى المجلس النيابي بتاريخ ٧ تموز باستقالته من رئاسة الجمهورية . على ان المفوض السامي لم ينتظر ريثما يبت مجلس الامة بصدد قبول الاستقالة ، بل اصدر في اليوم التالي مرسوماً يقضي بحل المجلس ، وتعليق الدستور ، كما اصدر قراراً آخر عهد فيه بالسلطة التنفيذية الى مجلس مديرين برئاسة مدير الداخلية آنئذ السيد بهيج الخطيب ، المعروف بصداقته للافرنسيين . وخلال هذه الاحداث نشرت الصحف في ٢٣ حزيران ١٩٣٩ برقية من باريس تعلن توقيع الاتفاق الفرنسي التركي المتعلق بتخلي سورية عن متصرفية اسكندرونة الى تركيا ، فسجلت سورية احتجاجها على ذلك ببرقية وجهها دولة فارس الخوري بصفته رئيس المجلس النيابي ، الى المفوض السامي . ثم استمرت تستنكر هذا التخلي في كل مناسبة ، خصوصاً

وان دولة الانتداب لاحق لها في اهداء قسم من البلاد التي انتدبت عليها في سبيل تأمين مصالحها الخاصة .

. . . . .

سورية خلال الحرب العالمية الثانية : اعلنت الحرب العالمية الثانية ، بينما كانت دولة الانتداب تحكم حكماً مباشراً من وراء مجلس مديرين ليس له من الامر شيء . ولما اعلنت الحرب ورافقتها الاحكام العرفية والعسكرية انصرف الناس الى تتبع انباء القتال ، وهم ينتظرون الفرج القريب . ولكن سلطة الانتداب كانت لا تفتأ تحرج الناس حتى اخرجتهم منذ غرة عـــام ١٩٤١ وجعلتهم لا يبالون بالاحكام العسكرية .ذلك ان المفوضية الفرنسية أمست في سورية ولبنان بحاجة ماسة للمال لتغطية نفقاتها ،خصوصاً ، بعد هزيمة فرنسا ، ووقوع حكومة فيشي في حالة أزمة خانقة جعلتها تطلب المدد من عمالها في البلاد .وكان ذلك حافزاً للمفوضية الفرنسية في بلاد الشام ، لان تأخذ على عاتقها مهمة اعاشة السكان ، وتصدر القرارات بمنع الاتجار بالحبوب ، وتحظير نقلها وتموينهـا . كل ذلك ، بغية تحصيل الاموال لنفسها بواسطة الشراء بقيم رخيصة ، وبيعها باثمـان غالية ، وبقصد توفير قسم كبير من هذا القوت لسوقه سراً الى فرنسا تباعاً .

وفضلاً عن ذلك فقد سمحت المفوضية الفرنسية بارسال المأكولات الى فرنسا ، ومنها السكر والارز رزماً بالبريد ، كما سمحت لجنودها المسرحين في سوريا ولبنان ان يتموّنوا مما كان محتكراً عندها من هذه المأكولات وغيرها . فكان ذلك سبباً لارتفاع الاسعار في الاسواق ارتفاعاً كثيراً. ومن جراء ذلك تهافت عمال الانتداب على الكسب الشخصي ،وخصوصاً في ناحية الميرة، مما ادى الى وقوع بلاد الشام في ضيق من العيش شرع يتفاقم شهراً بعد شهر. هذا وكان الوعي القومي قد استرد نشاطه منذ منيت فرنسا ،في بداية الحرب العالمية الثانية ،بخسران مكانتها العسكرية ؛فاذا بالحركات الاستقلالية تلعب دورها من وراء ستار الحالة الاقتصادية والضائقة المعاشية ، واذا بدمشق تضرب يوم ٢٨ شباط ١٩٤١ وتولي التجار مهمة المفاوضة ؛ ثم اذا بالطلاب والشباب يخرجون الى الميـــدان ، فينتشر الاضراب في سائر سورية . ويتطور الموقف يتحول الاضراب الى لونـــه السياسي الصريح حينما اذاع التجـــار (١٢ آذار ١٩٤١) بياناً فوضوا فيه السيد شكري القوتلي، الزعيم الوطني، ورئيس الكتلة الوطنية وقتئذ ، ان يتابع المفاوضة والعمل . وقد خف السيد القوتلي الى النضال .

وفي اول بيان له تعدى نطاق الاعاشة الى المطالبـــة باماني سورية القومية . وحاول الفرنسيون طاقتهم ان يحلوا الاضراب بالطرق المختلفة حتى اذا عجزوا وتحرجت الاحوال استلم الجيش مهمة الدرك ، واعلنوا مجدداً الاحكام العرفيـــة (آذار ١٩٤١) ، وقطعوا المواصلات بين المدن ، وأوقفوا أعمال البرق والبريد ؛ ولجأوا الى أعمال العنف والشدة . غير ان هذه التدابير جعلت الاضراب والمظاهرات تتحول الى شبه ثورة لم يبال فيها شباب سوريا بالارواح التي اهرقت ، وبالدماء التي سالت ، لا سيما في الحوادث التي وقعت اواخر شهر آذار .

. . . . .

٨ – **الجنرال دانز ١٩٤٠ – ٩٤١** : وازاء هذا الصمود العجيب الذي صمدته سوريا لم يجد الفرنسيون وسيلة لتهدئة الخواطر ، ووقف الاضراب ، الا بالمصانعة . فاذا بالجنرال دانز الذي كان قد نصب مندوباً سامياً في ٣٠/١٢/١٩٤٠ ، يذيع بياناً صباح ١ نيسان ١٩٤١ من محطة اذاعة الشرق في بيروت ، ينوه فيه بحرص السوريين على استقلالهم ، وباستعداد فرنسا لتأييد هذه الامنية حينما تسمح الظروف السياسية ؛ وهو بانتظار ذلك يرى ايصال سورية الى نظام يقوم على الاسس التالية :

١ ــ يحل محل مجلس المديرين مجلس وزاري يتولى الحكم .

٢ ــ يتألف مجلس آخر يمثل جميع الهيئات وعناصر النشء الجديد ؛ وتشترك فيه البلاد العلوية ، وجبل الدروز ، مع احتفاظ المنطقتين بامتيازاتها الخاصة .

٣ ــ ينشأ ايضاً مجلس شورى للدولة .

٤ ــ تهتم حكومة سورية بقضية التموين والاعاشة ، وتتولى ادارتها ، وينشأ مشروع للانتعاش

وقد صدر قرار بتعيين دولة خالد بك العظم رئيساً لحكومـة دولة سورية على اساس هذا النظام .

. . . . .

٩ – **الجنرال كاترو ١٩٤١ – ١٩٤٣** : ولما دخل الجيش الانكليزي ــ الدهغولي سورية ، وقام الجنرال كاترو مقام الجنرال دانز على رئاسة المفوضيـة الفرنسية (١٤ تموز ١٩٤١) استبقى الوزارة وشرع يفاوضها ، ويفاوض بعض رجالات البلاد ، للرجوع الى عقد معاهدة ١٩٣٦ بين فرنسا وسورية . ولكن السوريين ابوا هذه المرة ان يتقيدوا بمعاهدة بانتظار نتيجة الحرب ، وعلى امل بلوغ الاستقلال الناجز .

وخلال ذلك اعربت وزارة خالد بك العظم عن رغبتها في التخلي عن الحكم ؛

وقد حملها على الالحاح في طلب ذلك تأزم الأعاشة الى حد بعيد من جراء احتكار الجيوش مقادير وافرة من الاقوات . وقد قبل الجنرال كاترو استقالة الوزارة ، ونصب الشيخ تاج الدين الحسني رئيسا للجمهورية السورية ، وعهد اليه بتأليف الحكومة (١٢ ايلول ١٩٤١) .

وكان هذا التعيين غير متفق مع دستور البلاد، الذي ينص على انتخاب رئيس الجمهورية بواسطة ممثلي الامة ؛ كما انه لم يكن متفقاً مع الرغبات العامة ، لان الشيخ تاج كان قد لجأ الى فرنسا هرباً من نقمة الشعب عليه ايام توليه رئاسة الوزارة ، ومكث فيها طويلاً ، ثم لم يكن قد عاد لدمشق الا منذ عهد قريب . بيد ان الأجل لم يخدمه طويلاً : فقد فوجىء الناس في ١٧ كانون الثاني ١٩٤٣ بنعيه ؛ فاتخذ مجلس الوزراء ، وكان يرأسه دولة جميل بك الألشي ، قراراً ينص على ان يتولى المجلس مهام السلطة التنفيذية بالوكالة . وبعد ايام من ذلك اصدر المفوض السامي بالوكالة السيد جان هيللو بلاغاً رسمياً مؤرخاً في ٢٣ كانون الثاني اعلن فيه انه بعد التشاور مع الحكومة البريطانية صح عزم اللجنة الفرنسية على اعادة الدستور . وقد حاول الجنرال كاترو التفاهم مع فخامة هاشم بك الاتاسي على الاسس التي يعاد فيها الدستور ؛ ولما فشلت هذه المفاوضات اذاع في ٢٥ آذار ١٩٤٣ بلاغاً اعلن فيه عودة دستور الجمهورية السورية ابتداء من اليوم الذي ينتخب فيه مجلس النواب رئيساً للجمهورية .

وفي هذه المرة ايضاً برهنت سورية على انها متحدة الكلمة حول الكتلة الوطنية ورئيسها شكري بك القوتلي ، اذ تمت الانتخابات النيابية وفقاً لارادتها الوطنية ؛ ثم اجتمع المجلس النيابي في ١٧ آب ١٩٤٣ ، واختار الزعيم المشار اليه رئيسا للجمهورية . وفي عهده بلغت سورية استقلالها ؛ وسنتكلم على هذا العهد في عصر الاستقلال .

الانتداب على لبنان

« اعلن مع التعظيم لبنان الكبير . وأحييه باسم الجمهورية الفرنسية في رفعته وقوته ممتداً من النهر الكبير الى ابواب فلسطين ، حتى ذروة لبنان الشرقي » .

بهذه العبارة الفياضة اعلن الجنرال غورو المفوض السامي ، ورئيس قيادة جيش الشرق الادنى ، محاطاً باركان حربه ، استقلال لبنان الكبير . وذلك اثناء

المهرجان الذي اقيم في بيروت لهذه الغاية في اول ايلول ١٩٢٠ .

وعقب هذا المهرجان صدر مرسوم بتنظيم دولة لبنان الكبير اشير اليه بانه تنظيم مدني يقوم مقام الحكم العسكري . وفي الواقع فقد ظلت السلطة ، صغيرها وكبيرها ، تتقلب في ايدى رجال الجيش الفرنسي ؛ إذ نصب القومندان ترابو حاكماً عاماً على هذه الدولة ؛ وظل هذا المنصب من حظ الفرنسيين حتى اعلان الدستور في سنة ١٩٢٦ . ورغم ان منصب حاكم لبنان العام كان من نصيب الفرنسيين ، ومن فوقه المفوضية العليا تشرف على تصرفاته ، فقد نصبوا إلى جانبه في الادارة مندوبا للمفوضية ، كما نصبوا إلى جانب المديرين السبعة اللبنانيين مستشارين فرنسيين ، عهد اليهم الاشتراك في التوقيع على المعاملات الرسمية . هذا فضلًا عن ان تعيين اللجنة الادارية التي ألفوها ، وارادوا بها ان تكون استشارية ، قد بقي اختصاصها في يد المفوض السامي . فكانت مهزلة مفضوحة تحت ستار الاستقلال . ولكن اللبنانيين الذين عرفوا بالنباهة والثقافة ، لم يعودوا يؤخذون بالتعابير الرنانة التي وردت في خطاب الجنرال (كرفعته وقوته) ، بل انهم ما لبثوا أن اعربوا عما ادركهم من الخيبة . وهذا ما حمل السيد عبد الله صفير باشا على ان يوجه وقتئذ انتقاداً مراً للسلطة في كتابه « الانتداب الفرنسوي » ويقول :

« اجل ان من العبث البحث في امر الاستقلال الذي اعترف به الحلفاء للبنان ، وأعلنته الدولة الفرنسوية اذا كان كل شيء في هذه البلاد اصبح فرنساوياً من الحاكم الى رؤساء الدوائر الى الراية التي اتخذت بملء الثقة والارتياح شعاراً وطنياً للبنان . فان جميع الظروف تدل على ان الغرض من ايجاد هذه الحالة انما هو تنفيذ نص معاهدة سنة ١٩١٦ التي اعطيت فرنسا بمقتضاها المنطقة الساحلية السورية ومن جملتها لبنان ، وخولت الحق في وضع النظام الذي تستحسنه . »

اصطدام غورو بالوحدة السورية : على ان فريقاً من الناس ، وهم ما بين فرح باتساع الحدود ، وبين معتز بالمناصب والرواتب ، لم يحفل بلباب الحدث الجديد ، ولا بصورة تنفيذه ؛ بينما ان فريقاً آخر من كل الطوائف قد شعر بشذوذ هذا الوضع الجديد ، وخصوصاً لانه جاء صادماً لامان قومية كبرى كانوا يحلمون بها . وسرعان ما اصطدم الجنرال غورو بهؤلاء ، وفي طليعتهم طلاب الوحدة السورية : ذلك انه ما ان اعلن قرار احصاء النفوس في لبنان حتى قابله أنصار الوحدة السورية بالاضراب . وماذا عساه يفعل والاحصاء لا يتم الا بهم . وقد اعجزته الحيل في اقناعهم بقبول الجنسية اللبنانية . فاضطر المفوض السامي لان يشتري قبولهم بصدد الاشتراك في الاحصاء بتساهل غير قليل ، اذ رضي ان يقص من

« تذكرة الهويـة » ، التي ستعطى اليهم ، شطرها الادنى حيث يوجد نص على ان حاملها لبناني .ومع ذلك فان الاقبال على الاحصاء الذي جرى في ١٧ كانون الثاني ١٩٢٢ لم يكن عاماً. ولما عمد الجنرال، بعد ذلك ، وفي نفس السنة ، الى استبدال اللجنة الادارية،التي كانت عينت تعييناً، بمجلس نيابي منتخب رفض انصار الوحدة السورية ايضاً الاشتراك في انتخاب هذا المجلس . وقـد انتخب له ثلاثون عضواً « لو سألتهم عمن انتخبهم لاجابتك الكثرة انهـا الحكومة بوسائط استعملتها ومن الاصلح ارخاء الستار عليها(١)». على ان النقمة على الانتداب أخذت تستحكم بين كافة الاوساط اللبنانية : ولما اصدر المنسيو روبير دوكه ، بالنيابة عن المفوض السامي ، وفي اثناء غيابه ، نظام لبنان الاساسي (٨ آذار ١٩٢٢) خف احرار اللبنانيين الى الاحتجاج عليه في الوطن وفي المهجر على السواء ،وعدّوه اداة جديدة للاستعمار من وراء ستار ؛ كما اسموا المجلس النيابي الذي انتخب على اساسه«مجلس النمنيّ » . وازدادوا سخطاً على سخط حينما اعقب بقانون المحاكم المختلطة .

ولقد كان لهذه الانتقادات،التي اثارها اللبنانيون،اثرها الشديد على الجنرال غورو وهو في باريس ؛ لا سيما لانها اثيرت حوله في الوقت الذي تمّ فيه اتفاق الكلمة في فرنسا على شجب ادارة الانتداب.هذاوقد قتل خلال ذلك (٧ نيسان ١٩٢٢) اسعد بك خورشيد مدير الداخلية في بيروت جزاء موالاته للسلطة . وإذ صادف وقوع الحادثة ابان المظاهرات الوطنية التي أقامت دمشق واقعدتها لمناسبة زيارة مستر تشارلس كرين اعتبرت هذه الحادثة رمزاً لترابط انصار الوحدة والاستقلال في الساحل والداخل . وعندمـا القت السلطة القبض على بعض الوطنيين في بيروت بتهمة التآمر على مدير الداخلية استدعاني مسيو جوبيه،رئيس شعبة السياسة في لبنان ، للتحقيق معي في هذه القضية ، فلم اتردد في مصارحته بضرر السياسة التي ينهجونها ؛ وحذرته من مغبة العنف ، الذي كان يهدّد به ، ضارباً له المثل بما جناه الحلفاء من فوائد اثناء الحرب العالمية الاولى، من جراء قسوة جمال باشا ، قائد الجيش الرابع ، ومن شدته في معاملة اهل الشام .

(١) من خطاب بالقاهرة القاه يوسف مرزا بك مدير مالية لبنان في حفلة اقامتها له الجالية

هذا ولما عــاد الجنرال غورو من باريس لم يتمالك ان يعرب عن استيائه من موقف اللبنانيين خلال حفلتين اقيمتا له . ولكنه لم يستطع مع ذلك الا تعديـل سياسته وفقاً للاوامر التي تلقـــاها في باريس : فطفق يجامل ويبذل ... حتى اذا افتتح المجلس النيابي الاول (٢٥ مايس ١٩٢٢) اعلن في جلسة الافتتاح انه عدل الدستور على وجه يرجو ان يكون باعثاً على ارتياح اللبنانيين . وفي الواقع فان ذلك التعديل لم يكن شيئاً مذكوراً ، بل ظل اللبنانيون، سواء اكانوا من انصار فرنسا ام من غير ذلك ، يستثقلون وطأة الاستعمار . وقـد اعرب بعضهم عن تذمره هذا باثارة الفتن حتى اختل الامن في لبنان .

يستقبل اللبنانيون ويغان بشكاوٍ عامة : وترقب اللبنانيون ، من وراء تعيين الجنرال ويغان بـدلاً من الجنرال غورو ، تطوراً محسوساً في سياسة الانتداب يتلاءم مع امانيهم ؛ وقد رفع اليه بعضهم عقب وصوله الى بيروت بياناً ، مؤرخاً في ١ حزيران ١٩٢٣ ،اشاروا فيه الى الاسباب الأساسية التي ادت الى الاختلال ، وذكروا ، في مقدمة هذه الاسباب ، ما يأتي :

١ — استمرار التناقص في الصادرات بالنسبة للواردات .

٢ — الخسران المستمر من عملة الورق التي قامت مقام النقد الذهبي .

٣ — الحواجز الجمركية فيما بين الحكومات المتجاورة .

٤ — الامتيازات الاجنبية ، التي ثبتها الانتداب .

٥ — تطبيق الانتداب على قاعدة الحكم المباشر .

ثم طلبوا ، في جملة ما طلبوه ،«وضع حد للقوانين الاستثنائية الصادرة بشكل قرارات ، وتوحيد برامج التعليم ، وجعله وطنياً اجبارياً ، وانشاء مدرسة للحقوق لغتها العربية . وختموا هذه المطالب بوجوب « دعوة الجمعيـة الوطنية التأسيسية، وذلك بطريق الانتخاب العام الحر ، لوضع الدستور الاساسي للبلاد . »

واما انصار الوحدة السورية فقد انتهزوا فرصة وصول القادم الجديد للاعراب، بشتى الطرق ، عن امانيهم ، وفي مقدمتها الوحدة ، مبرهنين على ان فيهـا دواء الازمة الاقتصادية المستحكمة ، ومشيرين الى ان التجزئـــة في سورية الطبيعية،

بالاضافة الى وفرة الحكومات ، كانت مصدر ذلك الفيض في النفقات (١).

على ان حدثاً حصل وقتئذ جاء دليلًا على ان الشعور العام في لبنان ، وان اختلف عن الشعور العام في سورية في بعض الحالات ، الا انه واحد من حيث الرغبة في الاصلاح والحرص على الحكم الذاتي ؛ ذلك ان المحافل الماسونية في سورية دعت الى عقد مؤتمر عام تستعرض فيه شكايات البلاد وامانيها ، فلبت محافل لبنان الماسونية هذه الدعوة ، وعقد المؤتمر في دمشق من ٣١ تموز الى ٧ آب ١٩٢٤ . واشترك فيه ٢٦ محفلًا ؛ تمثلوا ببعض اعيان البلاد وادبائها . وكانت كلمتهم متفقة على انتقاد الانتداب وتصرفاته ، ورزوح البلدين تحت قوانين انما وضعت لعهد الاحتلال . وقد وضع المؤتمر كراساً ختمه بهذه العبارة :

« ونحن نطلب ان تنتخب الجمعية المؤسسة انتخاباً حراً ، وان تدعى الى تحقيق سيادة الامة ، وتضع للبلاد نظامها الاساسي ودستورها . »

وقد شاء المؤتمرون ان يتلطفوا وينتخبوني رئيساً لهذا المؤتمر ، ثم رئيساً للجنة التنفيذية ؛ فقدمت هذه المطالب الى فرنسا والى المفوضية الفرنسية في بيروت ، وطالبت بها بقوة .

على ان استفحال الفوضى في البلاد جعل الجنرال ويغان ينصرف بكليته الى معالجتها ، فاستعمل الشدة ، ووفق في ايجاد الأمن ، ولكنه لم يوفق في تحقيق الاماني من حيث الحقوق السياسية . ولما عاد من باريس صحب معه صديقه المتقاعد الجنرال فندنبرغ ، ونصبه حاكماً على لبنان الكبير مكان القومندان ترابو .

اللبنانيون يطالبون بالحكم الذاتي : اما خلفه الجنرال ساراي (٢/١/١٩٢٥) فقد زود بالتوصية بان يتلافى شكايات اللبنانيين على قدر ما يتفق مع مبادىء الاستعمار ، وان يعمل على استرضائهم بتنصيب حاكم منهم ؛ فدعا مجلس النواب ، وكلفه اختيار لبناني يحلّ محل الجنرال فندنبرغ ؛ ولكن رجال المفوضية ، الذين مارسوا الحكم المباشر في المستعمرات ، لم يطب لهم هذا التدبير ، فعملوا على احباطه ؛ وما كادوا يلمسون اثراً ضئيلًا لوجود اختلاف في المجلس حول اختيار هذا الحاكم حتى اغتبطوا وراحو يعتبرونه حجة لهم للتراجع ؛ فاذا بالمجلس يحلّ ،

(١) بين موجودات متحفي المتواضع النسخة الاصلية الثانية للمذكرة المسهبة المقدمة للجنرال ويغان بهذا المعنى والموقعة من وجهاء بيروت وصيدا وصور وطرابلس باسم الالوف من انصار الوحدة السورية.

واذا بالمسيو كايلا يعين حاكماً بالوكالة على لبنان، ثم حاكماً اصيلاً ، ويعين حبيب باشا السعد اميناً للسر العام .

وتولى المسيو كايلا الاشراف على انتخاب المجلس النيابي للمرة الثانية . (تموز ١٩٢٥). وفي الواقع فان تعاقب المجالس لم يكن محط اماني اللبنانيين ، بل كانوا لا يفتأون يطالبون بالحكم الذاتي على قاعدة الحياة الدستورية الحرة . وما كانت دولة الانتداب تعير آذانا صاغية لهذه المطالب . ولكن لما شبت الثورة السورية (١٩٢٥ - ١٩٢٧) واستفحل شأنها ، وجاء المسيو دي جوفنيل (٢ كانون الاول ١٩٢٥) بادر هذا المندوب الجديد الى منح لبنان حق اختيار حاكم له من الشعب ، وحق اشراكه في وضع دستوره . وقدقابل اللبنانيون هذا التطور بالارتياح . واما طلاب الوحدة السورية منهم فقد ابوا المساهمة في وضع الدستور ، وكان في طليعة هؤلاء جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية التي اكتسبت هذه الفرصة ايضاً لتكرار المطالبة بالوحدة ، وذلك في جوابها الموجه للمفوض السامي (٧ كانون الثاني ١٩٢٦) .

وقد اتيح للبنان ان يصبح في ٢٣ مايس ١٩٢٦ جمهورية ، وان يصير له برلمان مؤلف من مجلسين احدهما للشيوخ والآخر للنواب ، وان يتمتع بدستور . وقد اختار المجمع النيابي، اي المجلسان اللبنانيان، الاستاذ شارل دباس رئيساً للجمهورية لمدة ثلاث سنين . وفي الواقع فان المفوضية العليا ظلت صاحبة السلطة المطلقة : ذلك لانها نصبت الى جانب رئيس الجمهورية مندوباً لها احتفظ بالكلمة العليا ، كما احتفظ سائر المستشارين الفرنسيين ، في العاصمة والملحقات ، بالقول الفصل في كل الشؤون ؛ ولم تترك حكومة الانتداب الانتخاب طليقاً خشية ان تتبوأ المعارضة كراسي البرلمان ؛ بل اشرفت عليه ، وجعلت الاعضاء على قسمين : منتخبين ومعينين . ومع ذلك فان بعض النواب من طلاب الوحدة لم يغفلوا عن الاحتجاج رسمياً على الحاق بلادهم بلبنان ، وتسجيل احتجاجهم في محاضر جلسات المجلس . وصادف ان قام هذا الهيكل الحكومي خلال تفاقم الأزمة الاقتصادية في البلاد، واثناء ما كانت الغرف التجارية في سورية ولبنان قد قدمت شكاويها الى المفوضية ، منفردة ومجتمعة ، باسم مؤتمر عقد في بيروت (آذار ١٩٢٥) . فرأت السلطة في ذلك مجالاً لالغاء مجلس الشيوخ ،وحجتها مراعاة جانب الاقتصاد.

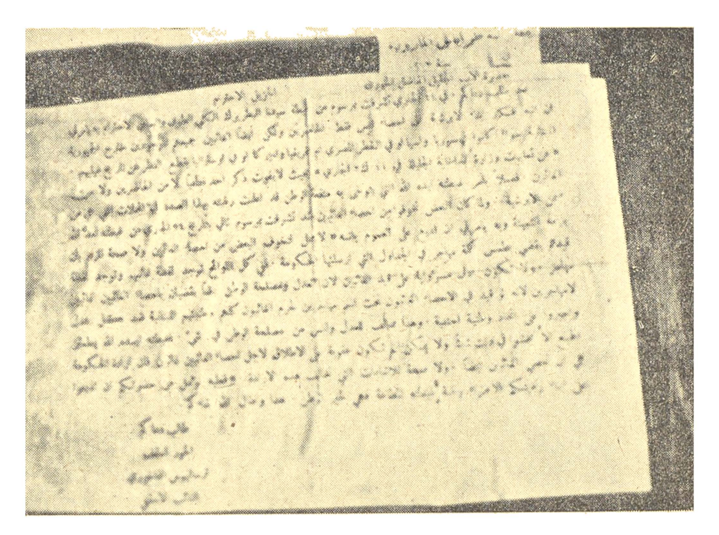
طلاب الوحدة السورية يفتقدون حقوقهم : وكأن المسلمين ، الذين كانوا قاطعوا لبنان من قبل ، قد شرعوا ينتبهون الى ما استفاده غيرهم في المناصب الكبرى والوظائف ، فبادروا منذ ذلك الى المطالبة بحقوقهم في الحكومة والقضاء. ولكنهم ظلوا ، مع ذلك ، يطالبون بالوحدة السورية: فلما عقد في دمشق مؤتمر عام (حزيران ١٩٢٨) اشترك فيه كثيرون من ذوي المكانة في البلاد الملحقة بلبنان ، وفي جملتهم نواب الساحل في المجلس النيابي اللبناني ، ولم يغفل هؤلاء الاعيان عن الاحتجاج بالاجماع على تجزئة البلاد والمطالبة بالوحدة السورية .

هذا ولما انتهت مدة الاستاذ شارل دباس في الرئاسة اعيد انتخابه لها (١٩٢٩) ، وبوشر في انتخاب المجلس النيابي للمرة الثالثة في حزيران من ذلك العام . ولكن حادثة ذات مغزى عرضت فأدّت الى حل هذا المجلس قبل حلول اجله : ذلك انه بمناسبة انتهاء مدة رئاسة الجمهورية في ايار ١٩٣٢ ، اعتقد المسلمون(١) على اختلاف طوائفهم ، ان الانصاف يقضي باتباع طريقة المناوبة في اختيار الرئيس العتيد ؛ وان من حقهم ترشيح احدهم لهذا المقام بعد ان تربع فيه اخوانهم مرتين . فدعت جمعية اتحاد الشبيبة الاسلامية في بيروت الى اجراء احصاء جديد قصد تسجيل الاسماء التي لا تزال مكتومة ،وخصوصاً من المسلمين من جراء احجامهم عن الاشتراك في الاحصاء السابق . وتبنى هذا المطلب بعض اعضاء المجلس النيابي ، فقرره المجلس ، وبوشر الاحصاء غرة عام ١٩٣٢ . ولما كان دستور لبنان يقوم على قاعدة توزيع الوظائف على الطوائف بنسبة عدد كل منها فقد اقبل ابناء الملل على الاحصاء إقبال جماعات تتسابق في مضمار الحصول على اكثر ما يمكن من الحقوق . ومثلما اعارت الطوائف المسيحية اهتمامها الشديد الى الاحصاء ، وعلى رأسها غبطة البطريرك الجليل ، ولا سيما بتسجيل اسماء المهاجرين ، كما يبدو هذا في دعوة غبطته المنشورة في الصفحة التالية ، فان جمعية اتحاد الشبيبة الاسلامية ، التي كنت اتشرف برياستها ، وجهت ايضاً الدعوات الى كل البلدان اللبنانية لعقد مؤتمر في بيروت . وقد عقد المؤتمر فعلاً وعالج قضية الاحصاء على وجه شامل ومنظم .

---

(١) نشعر بالم مرير كلما اضطررنا ،في سياق البحث ،الى ذكر كلمة مسلم أو مسيحي ؛ ولكن ما الحيلة وقد اراد الفرنسيون ان يقيموا كيان لبنان ودستوره على الطائفية حتى اصبح الكلام عليها كأنه كلام عن حزب سياسي يتميز عن غيره في الوسيلة والغاية .

دعوة غبطة البطريرك للاحصاء



مطرانية طرابلس المارونية

حضرة الاب الجليل الخوري . . . . . الجزيل الاحترام

بعد طلب دعاكم . في ١٤ الجاري تشرفت بمرسوم من غبطة سيدنا البطريرك الكلي الطوبى والسامي الاحترام به يأمرني ان انبه افكار ابناء الابرشية الى احصاء ليس فقط الحاضرين ولكن ايضاً الغائبين جميعهم الموجودين خارج الجمهورية اللبنانية سواء اكانوا في سوريا وآسيا او في القطر المصري ام افريقيا واميركا او في اوستراليا بقطع النظر عن تاريخ غيابهم . « عن تعليمات وزارة الداخلية الجليلة في ١١ ك ٢ الجاري » بحيث لا يفوت ذكر احد قطعياً لا من الحاضرين ولا من الغائبين . فعملا بامر غبطته ايده الله الذي يتوخى منفعة الوطن قد اعلنت رغبته بهذا الصدد في المحلات التي هي ضمن الابرشية - ولما كان البعض تخوفوا من احصاء الغائبين فقد تشرفت بمرسوم ثاني بتاريخ ٢٤ الجاري من غبطته امد الله بايامه الثمينة وبه يأمرني ان اذيع على العموم بانه « لا محل لتخوف البعض من احصاء الغائبين ولا صحة لزعم بان قيدهم يقضي بطمس كلمة مهاجر في الجداول التي ارسلتها الحكومة . ففي كل اللوائح توجد لفظة غائب . وتوجد لفظة مهاجر ولا تكون ادنى مسؤولية على قيد الغائبين لان العدل ومصلحة الوطن يقضيان باحصاء الغائبين غائبين لا مهاجرين لانه لو قيد في الاحصاء الغائبون تحت اسم مهاجرين لحرم الغائبون كلهم وطنيتهم اللبنانية ضد كل عدل واجبروا على اتخاذ وطنية اجنبية . وهذا مخالف للعدل وليس من مصلحة الوطن في شيء . فغبطته ايده الله يطمئن الجميع الا يخشوا في ذلك شيئاً ولا يمكن ان تكون عقوبة على الاطلاق لاجل احصاء الغائبين غائبين . فان ارادة الحكومة هي ان تحصي الغائبين ايضاً ولا صحة للاشاعات التي تخالف هذه الارادة . فعليه نؤمل من حضرتكم ان تذيعوا على ابناء رعيتكم الاعزاء رغبة غبطته المطاعة فهي لخير الوطن . هذا واطال الله بقاكم طالب دعاكم الخوراسقوف

النائب الاسقفي ارسانيوس الفاخوري

وجاءت نتيجة الاحصاء على الوجه التالي :

الطوائف المسيحيـة

مجموع العدد	موارنة	كاثوليك	ارثوذكس	ارمن	بروتستانت	سريان وكلدان
٣٩٦،٩٤٦	٢٢٧٨٠٠	٤٦٧٠٩	٧٧٣١٢	٣١٩٩٢	٦٨٦٩	٦٢٦٤

٣٨٦،٤٦٩	الطوائف المحمدية	سنيون	شيعيون	دروز
		١٧٨،١٠٠	١٥٥،٠٣٥	٥٣،٣٣٤

٦٣٩٣ طوائف متفرقة

٣٥٨٨ موسويون

٧٩٣،٣٩٦ وهو مجموع عدد المقيمين من اللبنانيين يضاف اليهم ما يلي :

٢٥٤٩٨٧ مهاجرون لبنانيون

٣١٦٢٨٤ ٦١٢٩٧ اجانب مقيمون

١١٠٩٦٨٠

وعلى اثر اعلان نتيجة هذا الاحصاء تجلت بادرتان : اولاهما زيادة الطوائف الاسلامية نحوماية وخمسة وعشرين الف نفس عن الاحصاء السابق . وثانيهما بلوغ عدد هذه الطوائف نحو نصف سكان الجمهورية اللبنانية . وربما كان عـددها ينوف على غيرهم لولا اللاجئين من الارمن الذين نالوا بسهولة الجنسية اللبنانيـة منذ وصولهم الى لبنان ، خلافاً لما عومل به الأكراد اللاجئون والبدو .

وقد عززت هذه النتيجة مطالب المسلمين التي ترمي الى نيل حقوقهم في مرافق الدولة ، بنسبة ما عليهم من الواجبات ، وعلى قدر عدد نفوسهم ؛ وغـذت فيهم الطموح الى منصب رئاسة الجمهورية على طريقة المناوبة .

غير ان هذه الأماني سرعان ما اصطدمت ايضاً بسياسة الدولة المنتـدبة الاستعمارية: ذلك ان فرنسا لم تكن تطمئن للمسلمين ، لأنهم اعـداء الانتداب ، والمناضلون في سبيل الاستقلال ؛ فكانت لذلك تحرص على اسناد رئاسة الجمهورية الى سواهم ؛ وتتخذ حجة لها : « انه لما كان رئيس الجمهورية السورية مسلماً ، فمن الانصاف ان تكون الرياسة في لبنان لمسيحي » .

والواقع ان الفرنسيين كانوا يذهبون الى مدى اوسع بالحيلولة بين المسلمـين وبين رياسة الجمهورية ؛ فيجنح بعض ساستهم الى جعل لبنان،بحدوده المكبرة،وطناً مسيحياً في الشرق الأدنى ، يشيح بوجهه عن الشرق ليستقبـل الغرب ؛ ولا سيما عاصمة الام الحنونة . وكان يظاهرهم في هذا القصد بعض اللبنانيـين ، والسواد الاعظم منهم من خريجي المعاهد الاكليريكية الفرنسية ، بينما كان العلمانيون منهم

يتحاشون الجهر بمثـل هذه الأمنية مراعاة لشعور مواطنيهم . ولكن بعض رجال الدين المسؤولين لم يتورعوا عن التصريح بهذه الأمنية في شتى المناسبات . وقد نقلت جريدة « صوت الاحرار » في ١٩ آذار ١٩٣٣ تصريحاً من هذا القبيل ادلى به غبطة البطريرك الماروني السيد انطون عريضة لمراسل جريدة « المقطم » يقول فيه :

« ان المسيحيين لم يبق لهم وطن في الشرق كله إلا لبنـان ازاء بقية الاوطان الاخرى ؛ لا سيما وقد لجأ الى لبنان اغلب بطاركة المسيحيين . واذا قلنا لبنان « وطن مسيحي » فلا ينفي كونه وطناً لكل من يقطنه من باقي الطوائف . »

وبهـذا الاستدراك يجري صاحب الغبطة مجرى جيراننا بفلسطين في سياق تعريفهم الوطن القومي اليهودي .

هذا وعندما كان المرشحون لرئاسة الجمهورية يتنافسون في سبيل الفوز لوحظ ان كفة الشيخ محمد الجسر، رئيس المجلس النيابي،قد رجحت على غيره،وذلك قبل اسبوعين من موعـد الانتخاب . فكبر ذلك على المفوض السامي المسيو بونسو ، وبادر الى التدخل ، رغم ان الشيخ المشار اليه هو ممن سبقت له اياد بيضـاء على الانتداب الأسود ، ورغم انه اظهر كفاءة نادرة اثناء المده الطويـلة التي قضاها رئيساً للمجلس النيابي . ورغب المفوض السامي الى سماحته ان ينسحب من ميدان الترشيح. ولما أبى اصدر سعادته قراراً بحل المجلس ، وتعليق الدستور (١٢تشرين الاول ١٩٣٢)؛ وشفعه بقرار آخر نصب فيه الاستاذ شارل دباس حاكماً على لبنان.

وهو ، في ذلك ، يزعم ان القصد من هذا الحلّ تخفيف النفقات عن عاتق المكلف اللبناني ، بينما ان راديو كولونيال ، وهي اذاعة فرنسية رسمية ، كشفت السر عن هذا التدبير : اذ اعلنت هذه الاذاعة ان المفوض السامي انما حل المجلس قصد « منع احد المرشحين غـير المرغوب فيهم من الوصول الى كرسي رئاسة الجمهورية » .

واذا علمنا ان المرشح الشيخ محمد الجسر كان مرغوباً فيه شخصياً في الناحيـة السياسية، تعين الاعتراف بانه لم يكن مرغوباً فيه من حيث الحرص على الاحتفاظ بمقام رئاسة الجمهورية في لبنان لغير المسلمين.وقد رأى المسلمون في موقف الفرنسيين هذا تحدياً لهم ؛ فرفعتُ بصفتي رئيساً لجمعية اتحاد الشبيبة الاسلاميـة شكواهم الى عصبة الامم ؛ وقد اعار مجلس العصبة اهتمامه لهذه الشكوى فوجه رئيسه،في الدورة التي تلت هذا الحادث ، الى الكنت روبير دوكه ، اثناء المنـاقشة عن سورية

ولبنان ، سؤالاً عما اذا كان محظوراً وجود مسلم في سدة رئاسة الجمهورية اللبنانية. فلم يسع ممثل فرنسا الا ان يجاوب : « كلا ، وليس من مانع في نظر فرنسا »

هذا ولما خلف الكونت دي مارتيل المسيو بونسو (١٢ تشرين الاول ١٩٣٣ نصب حبيب باشا السعد رئيساً للجمهورية ، وعبد الله بك بيهم اميناً لسر الدولة ، والّف مجلساً نيابياً جديداً من خمسة وعشرين نائباً بين منتخب ومعين . غير ان هذا التدبير لم يتفق مع الشعور اللبناني الذي كان لا يرضى عن الحياة الدستورية بديلًا . ولذلك رأينا المفوض السامي لا يسعه الا ان يعلن اعادة الدستور كاملًا ، ويعهد الى هذا المجلس بانتخاب رئيس للجمهورية . وقد انتهى الانتخاب بفوز الاستاذ اميل اده (٢٠ / ١ / ١٩٣٤) .

وقد استهل حكمه بأن رفع المجلس النيابي شكره الى المفوضية العليا على منحها اياه حرية انتخاب الرئاسة ، وعلى تحقيقها بعض المشاريع الاقتصادية ملافاة للتذمر الذي شمل الاوساط الشعبية . وصادف ذلك ان غبطة البطريرك الماروني السيد انطون عريضة كان على خلاف مع المفوض السامي لاصرار سعادته على منح شركة فرنسية امتياز حصر الدخان ؛ فادلى غبطته بحديث لجريدة الصحافي التائه (كانون الاول ١٩٣٤) اشار فيه الى ان « هذا المجلس انما عينت المفوضية ثمانية من اعضائه ، وعين المستشارون (الفرنسيون) السبعة عشر الباقين ؛ لذلك فلا يمكن ان يتكلم باسم هذا الشعب » الى ان قال « هم منشغلون برئاسة الجمهورية . وما هي هذه الرئاسة ؟ واية اهمية لها ؟ اني اراها صغيرة جداً . ورئيس الجمهورية سكرتير عند المستشار . »

الاعتراف بلبنان على شروط : وكانت سورية خلال ذلك تواصل نضالها في سبيل الاستقلال التام . فلما اعتزمت فرنسا مصانعتها والتعاقد معها على اساس معاهدة متبادلة شاءت ان لا يحرم لبنان من هذه الخطوة .

وكان على فرنسا حينما اعتزمت معاملة لبنان ، كسورية من حيث التعاقد على اساس معاهدة ، ان تجمع كلمة الرأي العام فيه ليكون صالحاً للتعاقد ؛ خصوصاً وان الكثرة الساحقة من سكان المقاطعات ، التي كبر لبنان على حسابها ، كانت لا تزال تنكر هذه التجزئة عن سوريا على اعتبار انها تمت دون استفتاء ، وترفض بالتالي ان تكون غريبة عن القضية العربية . ونخص بالذكر منها مدينة طرابلس ، التي اوفدت منذ سنة ١٩٣٤ الوفود لباريس سعياً وراء امانيها القومية ؛ والوحدة السورية .

وهنا لجأ رئيس الجمهورية الاستاذ اده الى السياسة والمصانعة ، بالاتفـــاق مع المفوض السامي الكونت ده مارتيل : فراح يتصل ،ليل نهار ،ببعض اعيان المسلمين ، ويقنعهم بفائدة الاعتراف بالكيان اللبناني ؛ يعاونه في هذه المهمة النائب خيرالدين بك الاحدب . وعلى اثر ذلك عقد اجتماع في دار السيد عمر بيهم ، احد اعيان المسلمين ، اعتبر كأنه اعتراف منهم بالكيان اللبناني على اساس التحفظات المتفق عليهـــا مع الجانب الحكومي والمفوضية .

اما السلطة فقد اكتفت ، بما اكتسبت من اعتراف ، وأتبعت المعاهدة الفرنسية اللبنانية بملاحق بينها رسالتان رقم ٦ ورقم ٦ مكررة موجهتان من رئيس الجمهورية الى المفوض السامي ينبئه فيهما بان الجمهورية اللبنانية تضمن (١) المساواة في الحقوق المدنية والسياسية دون محاباة (٢) تمثيل العناصر المختلفة في مجموع الخدمات على قدم المساواة (٣) توزيع النفقات للمصالح العامة بانصاف (٤) توحيد نظام المكوس (٥) اللامركزية الادارية .

وقد وقع مشروع المعاهدة بين فرنسا ولبنان في ١٣ تشرين الثاني ١٩٣٦ ؛ ولكنه جاء مختلفاً ، بعض الشيء ، عن مشروع المعاهدة الفرنسية السورية ،ودونه في المرتبة . وكان السبب في ذلك ان الرئيس الاستاذ اده كان يتمنى ان يمنح فرنسا اكثر مما تريد. وبانتظار تصدير الكاي دورسه على مشروع المعاهدة كوفىء الاستاذ الاحدب بانتخابه رئيساً للوزارة. واما اولئك الذين قطعت لاجلهم الوعود الرسمية فلم ينالوا شيئاً منها ؛ كما ان المفـــاوضين عنهم لم يلبثوا ان أدركوا كيف ان الحيلة جازت عليهم فانقلبوا على حكومة الاستاذ اده ، ورفعوا في حزيران ١٩٣٧ باسم المجلس القومي الاسلامي مذكرتين الى كل من المسيو ايفون دلبوس وزير الخارجية بباريس ، والكونت دي مارتيل المفوض السامي ، يحتجون فيهما بشدة على النكث بالعهود ، ويطالبون بالوحدة السورية . ولكن الاحتجاجات لم تكن ذات جدوى ، كما ان الامركان قد استتب للذين خدعوهم ، حتى اذا حاول بعض هؤلاء الاعيان الدخول في الانتخابات النيابية (تشرين ١٩٣٧) رغبة في ان يسمعوا احتجاجاتهم من على كراسي المجلس استعملت الحكومة وسائل لم تجرؤ حكومة اخرى عليها ، عززتها بالعنف والتزوير فجعلتهم ينسحبون من الانتخابات في بدء المعركة ؛ وجعلت الذين صمدوا منهم حتى النهاية ، وكنت واحداً منهم مرشحاً عن جبل لبنـــان ، يرون الاصوات التي رحوها تطير باعجوبات من صناديق الاقتراع لتستبدل بغيرها لصالح قائمة الحكومة الموالية للانتداب .

الاستاذ اده يتبنى فكرة الوطن القومي المسيحي : وهكذا كان لبنان حتى عام ١٩٣٧ ميدان نضال بين مبدأين متنافرين : مبدأ الاستقلال اللبناني على اساس قومي غير عربي يتجه نحو الغرب ، ومبدأ الوحدة السورية على اساس استقلال قومي عربي ؛ مع وجود مبدأ ثالث وسط بينهما، يقول باستقلال لبنان على اساس العروبة . وكان الافرنسيون ، الذين خلقوا المبدأ الاول وحشدوا حوله انصارهم ، قد وضعوا برنامجاً محكماً لتحقيقه ينتهي بجعل لبنان وطناً مسيحياً ؛ قصد تأييد مركزهم فيه . غير انهم كانوا ، في تطبيق ذلك البرنامج ، يلزمون خطة العمل دون القول . ولكن لما اتيح للاستاذ اميل اده ان يتبوأ كرسي رئاسة الجمهورية لم يتورع عن كشف القناع عن سياسته دون ان يحسب حساباً الى انه رئيس جمهورية لشعب ، لا لطائفة : فاذا بجريدة الف باء الدمشقية تنشر تصريحا (٤ تموز ١٩٣٤) لغبطة كيرللس التاسع بطريرك الروم الكاثوليك ادلى به في زيارته للرئيس اده وهو يتفق مع تصريح غبطة بطويرك الموارنة . واما الرئيس اده فراح يدلي بتصريحات اكثر صراحة صوّر فيها لبنان على صورة تجعله غريب الدار والافكار في محيط الشرق الاوسط .

١ — فقد صرح لروم لاندو (١) الانكليزي « اننا والسوريون امتان مختلفتان كل الاختلاف » الى ان يقول فاننا الجزيرة المسيحية الوحيدة في هذا البحر الاسلامي »

٢ — وخلال افتتاح الجناح اللبناني في معرض باريس (٢١ حزيران ١٩٣٧) القى خطاباً هناك اشار فيه الى ان اللبنانيين يرجعون في الاصل الى سلالات شعوب البحر المتوسط ، وانهم احفاد الفينيقيين .

٣ — وقبل مبارحته باريس ادلى الى جريدة الايكودو باريس بتصريحات جاء فيها : « لقد عقدنا معاهدة لمدة خمس وعشرين سنة تتجدد ضمناً بنفسها . وقد كنا نود عقد معاهدة ابدية . ولكن المتشرعين اكدوا ان هـذا الشكل من التعاقد لا يقوم؛وخشي غيرهم، زيادة على ذلك،ان يؤدي الى اتهام فرنسا بالاستعمار المستتر. ونحن على كل حال قد بذلنا جهدنا لالباس هذه العلاقة صفة الدوام بشكل ملموس. اذ بينما طلب جيراننا (الحكومة السورية) سحب الجيوش الفرنسية ، طلبنا نحن بقاءها دون شرط ، ودون تحديد زمن .»

— محرر الجريدة : « انكم يا سيدي اذن لا ترون مانعاً من انشاء قاعدة بحرية في الشرق على ما اقترح الجنرال ويغان »

(١) Search for to morrow, bY Rom Landaw

ـ الاستاذ اده : « كلا ابداً ، بل انا اضيف ان الساحل اللبناني يعتبر كله قاعدة بحرية فرنسية » .

ولما سأله المحرر عن موقف لبنان تجاه فلسطين التي يدافع عنها العالم العربي بكل حماس قال: « ان خلق جمهورية صهيونية ليس من شأنه ان يكون غير سارّ لنا »

وفي الواقع فقد جرت محادثات في باريس ، وفي كل من لبنان وفلسطين ، بين جماعة اده وبين زعماء الصهيونيين اشترك فيها بعض كبار رجال الدين ، كانت الغاية منها التعاون على اقامة دولتين : مسيحية في لبنان ، ويهودية في فلسطين . يكون بينهما حلف دائم في وجه جيرانهما العرب . وقد فصلنا ذلك في كتابنا « فلسطين اندلس الشرق » .

وكان من الطبيعي ان تثير تصرفات الاستاذ اده وتصريحاته عواطف القوميين أنصار العروبة في لبنان، لا فرق بين ان يكونوا من طلاب الوحدة السورية ، او من أنصار الاستقلال اللبناني على اساس عربي . وافضى هذا التضارب في المبادىء الى غليان في العواطف خلال ذلك العهد أنذر بخطر كبير .

حاول الفرنسيون العودة للحكم المباشر : اما الافرنسيون الذين كانوا مصدر الانشقاق بين جماعات اللبنانيين، فكانوا يتخذون من توتر الاعصاب حجة للزعم بانهم اذا جلوا عن لبنان فان المذابح تخلفهم فيه ، وبئس هذا المصير .

والى ذلك فقد كانت تراودهم أنفسهم ان يهتبلوا هـــذا التضارب في المبادىء لاسترداد ما اعطوا تحت ضغط الاضطرار . تراودهم نفوسهم القضاء على الحكومة الدستورية في لبنان، واستئناف حكمه حكماً مباشراً ـ وقد رأوا في ما اصاب لبنان من التوتر خلال عهد الاستاذ اده فرصة لأن يحققوا أمانيهم ، خصوصاً وان بركان الحرب العالمية الثانية كان على أهبة ان يقذف بحممه . فاذا بمؤامرة تكشفها الحكومة في بيروت (ايار ١٩٣٨) تدبر لقلب حكومة الاستاذ اميل اده ، ولقلب نظام الحكم في لبنان ، بغية الرجعة الى الحكم الفرنسي المباشر . وقد اخبرني بعض ابطال هذه المؤامرة عـن صلة الفرنسيين بهم . ولو تمت لكان الاستاذ اده قوبل من اصحابه بأفضل مكافأة على تملقه لهم .

نشاط مبدأ لبنان العربي : على انه من المفيد الاشارة هنا الى ان المعارضة في لبنان اصابها شيء من التطور منذ سنة ١٩٣٦ : فبعد ان كانت تقوم على المطالبة بالوحدة السورية ، وعدم الاعتراف بالكيان اللبناني ، التزمت السكوت عن الوحدة

السورية ؛ متجهة اتجاهاً جديداً يقوم على المطالبة بالمساواة ضمن نطاق لبنان .

ويرجع السبب في ذلك الى ان السوريين انفسهم اختاروا السكوت عن مبدأ الوحدة السورية حينما ارتضوا التوقيع على مشروع المعاهدة السورية الافرنسية سنة ١٩٣٦ . هذا الى ان اتجاه المعارضة الجديد ، جاء في الواقع ، بمثابة رد فعل لموقف حكومة لبنان وقتئذ ، اذ توخت اقامة وطن قومي مسيحي يلتزم العزلة عن العالم العربي ، ويولي وجهه قبلة المغرب . فانبرى معارضو هذا الاتجاه من كل الطوائف ، وبينهم طلاب الوحدة السورية ، الى المطالبة بأن تكون المناصب في الدولة والحقوق سواسية بين الطوائف ، كما هي المغارم ، وان يكون اتجاه لبنان اتجاهاً قومياً شطر العروبة . وهم ، الى ذلك، كانوا يقفون من الانتداب موقف الخصومة ، ولا يريدون عن الاستقلال بديلا ؛ خصوصاً بعد ان صار مصير معاهدة لبنان مع فرنسا (١٩٣٦) نفس مصير معاهدة سورية معها : أي الرفض بعد التسويف .

. . . . . .

لبنان خلال الحرب العالمية الثانية : وخلال هذا العراك في لبنان، بين المبادىء المتنافرة من جهة ، وبينها وبين الاستعمار من جهة ثانية ، نشبت الحرب العالمية الثانية ؛ فاذا بالمفوض السامي السيد بيّو يصدر بتاريخ ٢١ ايلول ١٩٣٩ قراراً يقضي بما يأتي :

١ – توقيف تطبيق مواد دستور الجمهورية اللبنانية .

٢ – منع اجراء انتخابات جديدة .

٣ – تعيين امين سر للدولة يؤازره مستشار فرنسي .

٤ – تحديد سلطة (صديق فرنسا) الاستاذ اده رئيس الجمهورية ، وتوسيع سلطة امين السر .

وقد عهد بهذا المنصب للسيد عبدالله بيهم منتدباً لرياسة مجلس المديرين الذي حل محل مجلس الوزراء ، على ان يتخذ المراسيم الاشتراعية بمصادقة المفوض السامي . واما الدرك والشرطة فقد الحقتا ايضاً بالمفوضية الأفرنسية .

وكان وجوماً في لبنان من جراء هذه التدابير اثناء الحرب ظل ملازماً الناس حتى وقع الاضراب في سورية آخر شباط ١٩٤١، فزحزح عن الانفس . وقد رأى اللبنانيون من نجاحه ما كان مشجعاً لهم على الشكوى من الاعاشة والادارة ؛ خصوصاً وان هيبة فرنسا كان قد اصابها الوهن بعد فشلها في الحرب، وان احترام

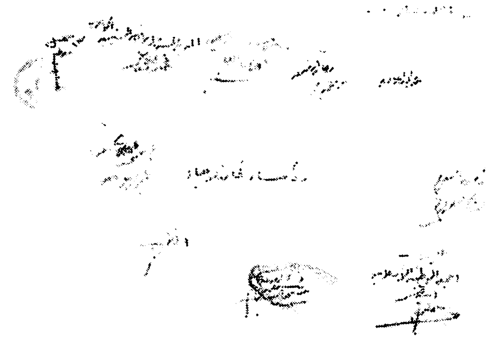
عمالها كان قد ضاع إثر تكشف اعمال بعض اولياء الامر الفرنسيين عن اختلاس واستثمار . فاذا بلبنان ، وعلى رأسه بيروت ، يعلن بدوره الاضراب منذ بداية نيسان ١٩٤١ ، واذا بمطاليبه تتعدى تنظيم الادارة الى طلب تشكيل حكومة وطنية لها صلاحيات واسعة ، اسوة بما حدث في سورية . وكان الحل بان تقدم الاستاذ اميل اده مكرها الى الاستقالة (٤ نيسان ١٩٤١) ، كما استقال امين سر الدولة ، وعهد المفوض السامي برئاسة الحكومة والدولة الى الاستاذ الفرد نقاش الذي اسند بدوره رئاسة الوزارة الى السيد احمد بك الداعوق .

وفي هذه الاثناء ازاح الجيش الانكليزي الفرنسي القوة الفرنسية التابعة لحكومة فيشي عن لبنان ؛ واذا بالجنرال كاترو يقف يوم ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٩٤١ في حفلة حافلة اقيمت ببيروت ويعلن استقلال لبنان اسوة بما فعل في سورية ؛ كما ان صاحب الجلالة ملك بريطانيا وجه برقية تهنئة الى رئيس الدولة اللبنانية . ولكن ازمة الاعاشة ظلت مستعصية . ولما لم توفق حكومة الداعوق في حلها اعتزلت الحكم في شهر تموز ١٩٤٢ على إثر مظاهرة شعبية اقتحمت دار البلدية . وفي ٢٧ منه كلف سامي بك الصلح تأليف الوزارة فألفى ، في جو الاستقلال المعلن ، مسوغاً له للمطالبة بالمصالح التي اختصت الدولة المنتدبة نفسها بها ، وفي مقدمتها المصالح المشتركة ، فقدم دولته بتاريخ ١٢ ايلول ١٩٤٢ مذكرة الى الجنرال كاترو بسط فيها نظر الحكومة بشأن هـــذه المصالح ؛ واعرب عن امل الحكومة بتحويلها اليها . فرد عليه الجنرال بان هذا المطلب لا يمكن التسليم به ، لاعتبارات اوردها ، منوهاً برده بان الانتداب لا يزال قائماً .

ووقعت مشادة ، من جهة اخرى ، بين الجنرال كاترو والاستاذ الفرد نقاش رئيس الدولة مردها الى ان الجنرال اظهر ميلاً ، منذ وصوله من الجزائر ، لتنحية الاستاذ النقاش ، واعادة الاستاذ اميل اده الى رئاسة الجمهورية ، ودعوة اعضاء المجلس النيابي السابق لاستكمال مدتهم ؛ وذلك تهرباً من انتخابات جديدة تحدث خلال سيطرة النفوذ البريطاني فتأتي بانصار بريطانيا العظمى . وبينما كان الجنرال كاترو يتابـــع استشاراته لاعادة الحياة الدستورية على اساس البلاغ الذي اصدره في ٢٣ - ٨ - ١٩٤٣ فوجىء بمذكرة من فخامة الرئيس النقاش اعرب فيها عن حقه ، دون سواه ، في القيام بهذه الاستشارات بعد ان تمتع لبنان باستقلاله . وقد كان لهذا الموقف تأثيره الشديد على الجنرال ؛ خصوصاً وان الاستاذ نقاش ابى الاذعان له عندما طلب اليه ان يقدم استقالته . غير ان الجنرال كاترو استطاع ، بعد شهر من ذلك ، ان يحصل

على موافقة الجنرال سبيرس ، المعتمد الانكليزي ، على تنحية الوزارة ؛ فخف في ١٨ آذار ١٩٤٣ الى توجيه رسالة الى الاستاذ نقاش يدعوه فيها الى تكليف الوزارة ان تستقيل ، وان يقدم بالتالي استقالته الشخصية . واتخذ في اليوم نفسه قرارات ثلاثة تتضمن (١) عودة الدستور (٢) تنظيم سلطات الحكومة المؤقتة في فترة الانتخابات (٣) تعيين الدكتور ايوب ثابت رئيساً للدولة والحكومة المؤقتة .

ازمة المرسومين رقم ٤٩ و ٥٠ (الدور الاول من النضال بين انكلترا وفرنسا في لبنان) : اما وانه لم يبق هناك مفر من اعادة الحيـــاة الدستورية واجراء انتخابات جديدة وفقاً لمطالب الرأي العام ، فقد اعتزمت السلطة الفرنسية القيام بمحاولة جديدة تؤمن لها كثرة الانصار في المجلس النيـابي العتيد . فاذا بالدكتور



المذكرة المرفوعة لسماحة المفتي الاكبر من رؤساء الجمعيات الاسلامية والموقعة من المؤلف بوصفه رئيساً للكتلة الاسلامية بطلب عقد مؤتمر لدرس هذين المرسومين .

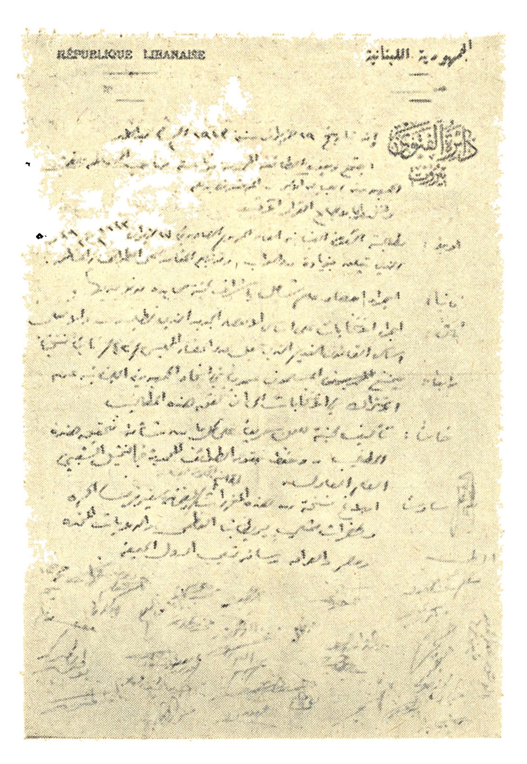
ايوب ثابت ، يصدر بالاتفاق معها يوم ١٧ حزيران ١٩٤٣ مرسومين رقم ٤٩ و ٥٠ يحدد فيهما عدد النواب ، ويوزع الكراسي على الطوائف والمناطق . وجاء في البند الرابع من المرسوم ٤٩ ما يلي : « يتألف عدد الاهالي من الوطنيين المقيدين في سجلات الاحوال الشخصية بتاريخ ٣١ – ١٢ – ١٩٤٢، ويضاف اليهم الاشخاص الذين هم غير مقيدين في هذه السجلات ، واصلهم من لبنان ، ومحل اقامتهم في الخارج » واصبح بمقتضى ذلك عدد نواب المجلس ٥٤ بدلاً من ٤٢ . اي بزيادة ١٢ مقعداً خص منها ١٠ بالطوائف المسيحية ازاء ٢ للمسلمين ؛ والقصد من ذلك ليس هو منح طائفة دون اخرى الزيادة في المقاعد فحسب وذلك استنادا الى المهاجرين ، وانما هو ايجاد الكثرة في عدد النواب الموالين لفرنسا من الطوائف غير المسلمة .

ولكن هذا التدبير لم يخفَ على بقية الطوائف ، خصوصاً وانه يقوم على اسس غير قانونية ؛ فاجتمع اعيان المسلمين في دار سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية يوم ١٩ حزيران ١٩٤٣ . بناء على طلب رؤساء الجمعيات ، وقرروا متفقين ما خلاصته :

(١) مطالبة الحكومة اللبنانية بالغاء المرسومين (٢) المبادرة لاجراء احصاء عام تجري الانتخابات على ضوء ارقامه (٣) يمتنع المسلمون عن الاشتراك في الانتخابات اذا لم تحقق هذه المطاليب . وبلغوا هذه المقررات الى مندوب فرنسا ايضاً ، وسائر الدول الحليفة ، ثم تنادوا لعقد مؤتمر حافل يوم ٢١ حزيران فصادق على هذه المقررات ، واختار اللجنة التنفيذية لملاحقتها . وكان لي الحظ بان اكون احد اعضائها . وعلى الرغم من ان حكومة الدكتور ثابت تراجعت عن موقفها ، واصدرت بتاريخ ٢٥ حزيران مرسوماً يقضي بتأجيل الانتخابات ، ويشير الى اعتزامها القيام بالاحصاء الجديد ، فان اللجنة التنفيذية هذه ظلت غير واثقة من هذه الحكومة ، وطلبت في المذكرة التي قدمتها الى السيد هيللو يوم ٦ تموز ، في جملة ما طلبت ، ايجاد حكومة حيادية ، على اعتبار ان الحكومة القائمة فقدت ثقة اللبنانيين . فلم يسع المندوب السامي بالوكالة الا الايعاز للحكومة بالاستقالة .

ولما كانت هذه القضية تتصل بفكرة القومية العربية ومصير لبنان منها : على اعتبار ان واضعي المرسومين رقم ٤٩ و ٥٠ كانوا يرمون ، في جملة ما يرمون اليه ، ايجاد كثرة في المجلس النيابي اللبناني من اصحاب فكرة العزلة ، فقد اعربت الامصار العربية عن اهتمام شديد بمطاليب المعارضين لهذين المرسومين ، حتى ان رفعة النحاس باشا ، رئيس مجلس وزراء مصر وقتئذ ، لم يتردد عن توجيه رسالة الى الجنرال

كاترو ، يقترح فيها ان يكون الحل بتقسيم الاربعـــة والخمسين مقعداً في المجلس النيابي اللبناني،وهوموضوع الخلاف، على الوجه التالي: ٢٩ للطوائف المسيحية،و٢٥ للطوائف المسلمة. وقد عرض الجنرال هذا الحل على لجنة المؤتمر التنفيذية فرضيت به.


RÉPUBLIQUE LIBANAISE

الجمهورية اللبنانية

دائرة الفتوى
بيروت

محضر اجتماع الطوائف المحمدية الذي رئسه صاحب السماحة الشيخ توفيق خالد المفتي الأكبر للجمهورية اللبنانية بشأن المرسومين ٤٩ و ٥٠ ، ومقرراته التي ورد ذكرها في الصفحة ١١٢

واما غبطة البطريرك عريضة ، بطريرك الطائفة المارونية المحترمة ، فقـــد وجه برقية في ١٣ تموز ١٩٤٣ الى رئيس الدولة هـــذا نصها : « نقاوم كل سعي

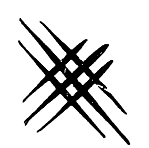
لتعديل قرارات حكومتكم العادلة بشأن الاحصاء وتوزيع المقاعد النيابية ، ونؤيد حكومتكم في موقفها التاريخي الشريف » . ولكن حكومة الدكتور ثابت لم تستطع الصمود حيال اصرار اللجنة التنفيذية المذكورة على تنحيتها ؛ وخلفتها في ٢١ تموز ١٩٤٣ حكومة ألفها الاستاذ بترو طراد ؛ ورغم ذلك فقد ظلت الازمة مستعصية من جراء تصلب الفريقين ، فاضطر المسيو هيللو حينئذ ان يستنجد بالجنرال سبيرس لايجاد حل لها . وقد قصد وزير انكلترا المفوض الى بكركي اولاً للمفاوضة مع غبطة البطريرك ، ولكنه خرج من هناك غير موفق ، ولا راضٍ ؛ ثم يمم وجهه نحو دار سماحة مفتي الجمهورية اللبنانية حيث اجتمع الى اعضاء لجنة المؤتمر التنفيذية ؛ وكان مرتاحاً لنتيجة المقابلة ، لنزول اللجنة عند رأيه بان يكون الحل على اساس ٣٠ نائباً للمسيحيين و ٢٥ للمسلمين . وبناء على ذلك بادر السيد هيللو الى اصدار مرسوم مؤرخ في ٣١ تموز بهذا المعنى ، عززه الجنرال سبيرس بنداء دعا فيه اللبنانيين « الى قبول الحل مشيراً الى ان الجهة التي لا تقبل به تتعرض لفقدان عطف الديمقراطيات الخ ... »

وبذلك لم يبق امام هذا التدبير الحازم مجال للمعارضة ، فأصدرت الحكومة اللبنانية في ٢٩ آب ١٩٤٣ مرسوماً عينت فيه موعداً للانتخابات . وبذلك انتهى الدور الاول من النضال بين الحليفتين في لبنان بفوز السياسة الانكليزية .

. . . . .

بين الكتلة الدستورية والكتلة الوطنية – الدور الثاني من النضال بين الحليفتين في لبنان) : عندما جرت الانتخابات النيابية قامت النزعات الحزبية السياسية مقام العصبيات الطائفية . وتبدت ، في هذا الدور ايضاً ، اصابع السياسة تلعب من وراء ستار ؛ ولكنها مع ذلك كانت غير خافية على الانظار : فكانت الجهة الفرنسية تحرص على نجاح الكتلة الوطنية ورئيسها الاستاذ اميل اده ، ذلك لانهما من انصار فكرة عزلة لبنان بالنسبة للمحيط العربي ؛ على حين ان الجهة الانكليزية ، كانت ترى في الكتلة الدستورية ورئيسها الشيخ بشاره خليل الخوري خيراً اوفر من جراء ميلها للتعاون مع الدول العربية .

وكان النزاع بين الكتلتين بالغاً اشدّه الى حد ان رئيسيهما فشلا في الدورة الاولى في الانتخاب ! ولا بدع فقد كان من وراء تنازعهما نضال سياسي ، وعراك مبادىء. واخيراً فقد نال كل فريق نصيباً من المقاعد في المجلس النيابي، ولكن الفوز الاخير للرئاسة كان من نصيب الشيخ بشاره خليل الخوري إذ انتخب فخامته في ٢١ ايلول ١٩٤٣ ، بشكل يشبه الاجماع ، رئيساً للجمهورية . وكان ذلك النجاح دليلاً على ان لبنان اصبح مستعداً لاعتناق مبدأ التعاون مع البلاد العربية ، ولاجتناب العزلة ،هذا فضلاً عن ان هذا الفوز سجل نجاحاً آخر للسياسة البريطانية على السياسة الفرنسية . واما الدور الثالث من النضال بين الحليفتين الذي انتهى بجلاء فرنسا عن بلاد الشام ، فسنتكلم عليه في عصر الاستقلال .



الفصل الخامس

عصر الانتداب في بلاد العرب

الانتداب الانكليزي

فلسطين

١ – تولى مؤتمر سان ريمو توزيع الانتدابات ، فكانت فلسطين من نصيب انكلترا . وصادقت جمعية الامم على صك هذا الانتداب متوج الديباجة بموافقة دول الحلفاء الكبرى على ان تكون بريطانيا العظمى مسؤولة عن تنفيذ تصريح بلفور . وقد تضمن هذا الصك مواداً خاصة لتأييد قيام الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، وهي :

المادة ٢ – تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن جعل البلاد في احوال سياسية وادارية واقتصادية تكفل انشاء الوطن القومي اليهودي .

المادة ٤ – يعترف بوكالة يهودية صالحة كهيئة عامة لتشير وتعاون ادارة فلسطين في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية ، وغير ذلك مما يمس انشاء الوطن القومي اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين وتساعد في ترقية البلاد تحت سيطرة حكومتها دائماً .

المادة ٦ – تنص على تسهيل الهجرة اليهودية ؛ كما ان (المادة ٧) توجب وضع قانون لتسهيل حصول اليهود المقيمين في فلسطين على الرعوية الفلسطينية . هذا فضلاً عن ان (المادة ١١) اجازت للحكومة ان تتفق مع الوكالة اليهودية لمباشرة الأعمال العامة والمصالح حيث لاتتولى الحكومة مباشرة هذه الامور بنفسها . وقد وضع صك الانتداب البريطانيون انفسهم بالتعاون مع الصهيونيين . اما العرب الذين كانوا يحاربون دولة الخلافة : تركيا، الى جانب بريطانيا العظمى،

استناداً الى وعودها لهم ، فقد كانوا خالي البال من وعد بلفور ، ولا يدرون عنه شيئاً .

« وحينما بلغ الجيش العربي تصريح بلفور في نهاية سنة ١٩١٧ كان الجيش قد اقترب ، اذ ذاك ، من العقبة ، فعم الذعر القوات العربية بسبب هذا النبأ » قال هـذا فخامة السيد نوري السعيد ممثل العراق في مؤتمر المائدة المستديرة بلندن سنة ١٩٣٨ ؛ في خطاب القـاه في المؤتمر وعقب عليه بقوله : « فقد تشاورنا فيما بيننا واعلنا عدولنا عن الحرب في سبيل استقلال العرب ريثما يرد الينا ما يؤيد ان تعهدات السر هنري مكماهون سوف تنفذ . اما جلالة الملك حسين فقد قدم احتجاجه على تصريح بلفور ، فوردت اليه من القائد هوغارت في كانون الثـاني ١٩١٨ تأكيدات قطعية صريحة بان وعد بلفور لايتعارض والحرية السياسية والاقتصادية التي وعد بها العرب في رسائل مكماهون . وزيادة على ذلك فقد اكدت له حكومة صاحب الجلالة ، بواسطة القائد هوغارت المشار اليه الذي جاء الى جده ، بان وعـد بلفور لاينطوي الا على تحديد ايواء اليهود في فلسطين لاسباب روحية وثقافية فحسب ، وليس في النية انشاء دولة يهودية ، وقد حمل جلالة الملك حسين هذه التأكيدات الى القوات العربية ، فشرعت حينئذ في مواصلة الحرب » .

ثم لم يلبث رجالات العرب ان اكتشفوا ؛ لاول مرة ، في مؤتمر الصلح ان الحكومة البريطانية كانت متأهبة لاعطاء اليهود وطناً قومياً في فلسطين على شكل يختلف تماماً عما صرحت به للعرب ، فأفضى ذلك الى المبـاحثات التي جرت سنة ١٩١٩ فيما بين جلالة الملك فيصل الاول وبين اللورد كرزن .

هذا ومنذ عهد بالانتداب لانكلترا سارعت لاستبدال الادارة العسكرية بادارة مدنيـة . ونصبت على رأسها السر هربرت صموئيل الاسرائيلي مندوباً سامياً (تموز ١٩٢٠) مزوداً بدستور خوله انشاء مجلس تنفيذي يكون عونا له ، واقامة مجلس تشريعي مكان مجلس الشورى. وقد عهدت الى هذه الحكومة تنفيذ الانتداب على قاعدة انشاء وطن قومي يهودي .

. . . . .

٢ - وكان عرب فلسطين ، قبل ان تسربت اليهم الظنون بانكلترا ، والشكوك بوعودها ، قـد اخذوا يستثقلون استمرار المهاجرة ، ويتألمون لما يبدو من هؤلاء المهاجرين من مظاهر ، منها ما هو مخالف للتقاليد الشرقية ، ومنها ما فيه مساس بكرامة أهل البلاد . ولا بدع فان انتقال اليهود من اوساطهم المزدحمة المظلومة في اوروبا الى بلاد مقدسة ترافقهم اليها الاماني الجميلة قد اهاج عواطفهم الى مدى بعيد . والعواطف اذا اهتاجت كانت كالعاصفة لا يقف في وجهها شيء . ولست بمستطيع ان اصف الصدمة الكبرى التي اصطدم بها عرب فلسطين ، اولئك الذين كانوا يترقبون ان يبرّ الحلفاء بعهودهم ، حينما تسربت اليهم انباء الوعود المقطوعة

لليهود ، وان الدول تآمرت على جعل وطنهم الصغير المقدس هديـــة للصهيونيين يقيمون فيه وطناً قومياً لهم ، ويباشرون حكمه بواسطة الوكالة اليهودية .

كانت صدمة ، جعلت عرب فلسطين ، على قلة عددهم وعـددهم ، يتذرعون بالاعتماد على النفس ويستخفون بكل قوة ؛ فالدول الكبرى التي وافقت على تصريح بلفور ، وانكلترا التي اخذت على عاتقها تحقيقه ، والصهيونية التي تفانت في سبيله ، كل اولئك اصبحوا في نظر الفلسطينيين اهون عليهم من تسليم وطنهم الذي قامت فيه مقدساتهم ، ونقشت على كل حجر من احجاره صفحة من صفحات تاريخهم .

والنضال الذي نشب بينهم وبين اليهود والانكليز منذ ثورة القدس الاولى ، وان كان يرجع الى اسباب فرعية متعددة ، الا ان اسبابه الاصليـــة لا تخرج عن امرين :

١ – وعد بلفور، وما تولد عنه من قضيتي الهجرة والبيوع .

٢ – رغبة عرب فلسطين في الحكم الذاتي اسوة بالبلدان العربية المنسلخة عن تركيا .

. . . . .

٣ – وكانت انكلترا ، ومن ورائها الصهيونيون ، تمضي في سياستها التي تتولى تنفيذها حكومة فلسطين ، وتدير دفتها الوكالة اليهودية، لا تلوي على احد. وكانت هذه الوكالة حكومة ضمن حكومة ، حسبما قالت لجنة بيل الملكية بتقريرها سنة ١٩٣٦ ؛ وهي تتوكأ على صندوق فلسطين التأسيسي فتنفق في سبيل تحقيق امانيها عن سعة حتى بلغت نفقات هـذا الصندوق ما بين سنتي ١٩٢١ و ١٩٣٦ نحواً من ٠٠٠ و ٢١٥ و ٦ ليرة انكليزية . واما الهجرة الصهيونيـــة فلم تكن ذات اهمية قبل عام ١٩٣٠ . ولكنها بدت خطرة منذ بدأ الضغط الفاشستي والنازي على اليهود . وبعـد ان كان عدد اليهود لا يتجاوز في فلسطين الثمانين الفاً سنة ١٩١٤ بلغ سنة ١٩٣٦ اربعمائة الف ؛ ثم ظل يزداد تباعاً حتى قدر عدد اليهود المسجلين بـ ٠٠٠ و ٥٦٥ سنة ١٩٤٤ . ثم ازداد عددهم بالالوف المؤلفة التي هبطت فلسطين بعد انتهاء الحرب بطرق مشروعة وغير مشروعة ،حتى اصبح عددهم سنة ١٩٤٧ بموجب الاحصاءات الرسمية ، ٠٠٠ و ٦٥٠ أي ٣٢ في المئة من مجموع السكان . هـذا عدا الذين تسربوا اليها بالطرق غير المشروعة . وقـد ادت زيادة المهاجرين الى التوسع في التملك ، فاقتنوا من الاراضي الزراعيـــة قبل الحرب العالمية الثانية نحواً من

٠٠٠ و ٣٣٢ و ١ دونم ؛ واضافوا اليها ، من بعد ، مساحات اخرى حتى بلغت سنة ١٩٤٣ ٨١٦ و ٦٧٣ و ١ دونماً . وهم لم يكونوا يملكون في عهد الادارة العسكرية الا نحواً من مئة الف دونم . ثم ازدادت املاكهم العامة حتى اصبحت تقدر سنة ١٩٤٧ بـ ٢٤٣ و ٠١٩ و ٢ دونماً ؛ ثلثها تقريباً لمؤسسة الكيرين كيميث Keren Kaymeth (اي الصندوق اليهودي) التي كانت تشتري بالاموال المجموعة اراضي فلسطين ، وتجعلها وقفاً لا يباع .

وبينما كانت الوكالة اليهودية تجدّ في توسيع مدى الهجرة والاستملاك وايجاد الاعمال الصناعية والزراعية للمهاجرين كانت ، في الوقت نفسه، تهتم بتعزيز الكيان الصهيوني السياسي : فضلا عن اهتمامها بالتربية والتعليم ، شاءت ان يكون ليهود فلسطين لغة دولة ؛ وبذلك اصبحت اللغة العبرية ، التي لم تكن تستعمل من قبل الا في الطقوس الدينية ، لغة قومية يعول عليها في الحكومة والصحافة والتأليف والتعليم .

واهتمت الوكالة بالتجنيد ، وعززته بطرق مشروعة وغير مشروعة بادخار العتاد الحربي وبقيام المؤسسات العسكرية . واتخذت مدينة تل ابيب كعاصمة ، واصبح عدد سكانها وقتئذ يناهز مائتي الف شخص .

والى جانب ذلك فقد اهتمت بالمظاهر القومية الاخرى فاتخذت اعلاماً للصهيونية وشارات وموسيقى واناشيد ، علاوة على السمات العسكرية .

. . . . .

٤ — واما العرب في فلسطين ، الذين صمدوا للقوة ، فقد اكسبهم النضال والكوارث العظام التي مرت بهم قوى فجائية سهلت في نظرهم الصعاب فظهروا بمظهر لم يكن مرتقباً؛فوالوا الاجتماعات وعقدوا،قبل الحرب العالمية الاخيرة،سبعة مؤتمرات ، وثابروا على الاحتجاجات . وهم في كل ذلك ، انما يلتفون حول المجلس الاسلامي الأعلى الذي شكلته الحكومة التركية سنة ١٩١٢ ، وحول اللجنة العربية العليا ، مخلصين لرئيسها سماحة الحاج محمد امين الحسيني المفتي الاكبر . غير ان تحيز الحكومة لخصمهم ، وصمّها الاذان عن سماع شكاياتهم ، بالاضافة الى استرسالها في تحقيق وعد بلفور ، وتعنت الصهيونيين في تحقيق الوطن القومي ، كل ذلك ادّى الى خروج الشكوى عن نطاق الكلام ؛ فكانت ثورات اخذت في اعناق بعضها البعض ، أحصينا منها ١١ ثورة منذ سنة ١٩٢٠ .

وكانت هذه الثورات على الاجمال موضعية في بادىء الامر موجهة ضد الصهيونيين وحدهم ؛ ثم انها استفحلت حتى صارت شاملة دامية تشتبك في القتال مع جيش الاحتلال . على ان انكلترا لم تتحول عن تنفيذ عهدها للصهيونيين ، وانما كانت تلتوي احياناً لتعيد سيرتها الاولى بعد انقضاء العاصفة ؛ فتوفد عقب كل ثورة لجنة للدرس ؛ وهي في الواقع ليست بحاجة الى الاستزادة من انباء فلسطين ، وانما كانت تقصد من وراء ذلك ، الى التسويف والتخدير . وقد بلغ عدد هذه اللجان عشراً لغاية سنة ١٩٣٦ ، كانت آخرها اللجنة الملكية التي يرجع اليها اقتراح مشروع التقسيم . ثم جاءت بعدها لجنة اخرى سنة ١٩٣٨ عرفت بلجنة وود هيد مكلفة بدرس الوسائل لتنفيذ هذا المشروع . فاضربت فلسطين احتجاجاً . واما اليهود فقد وجدوا في هذا التقسيم غايتهم لانه يؤمن لهم وطناً ؛ ما عدا الاميركان منهم فقد عمدوا الى معارضته من حيث انه يجعل حداً للهجرة .

هذا وكان نصيب هذه اللجان الفشل الدائم : ذلك لان تقاريرها ان جاءت في مصلحة العرب ، كاللجنة الاولى سنة ١٩٢٠ ، والسادسة سنة ١٩٣٠ ، والسابعة ١٩٣٠ ؛ او كانت تلك التقارير تنصفهم كلجنتي ١٩٢١ و ١٩٢٩ ، عمد الصهيونيون الى حمل حكومة بريطانيا على اهمالها .

واما اذا كانت تلك التقارير وسطاً بين ذلك فانها لم تكن ترضي الفريقين .

. . . . .

٥ ـ والواقع ان هذه الازمة كانت صعبة الحل . فالصهيونيون يفهمون تصريح بلفور بمعنى تهويد فلسطين لغة وروحاً وديناً وسياسة ؛ وهم قد اتخذوا هذا الهدف ميثاقاً لهم . أثبتته المادة الاولى من مقررات مؤتمرهم بزوريخ ، ثم لم يتحاشوا ان يعربوا عنه في كل مناسبة . فقد روت اللجنة الانكليزية التي أمّت فلسطين للتحقيق في ثورة سنة ١٩٢٠ ان الدكتور إدر اجاب على بعض الاسئلة بجرأة نادرة ، فقال : « انه لا يمكن الا ايجاد وطن قومي واحد في فلسطين ، وهو الوطن القومي اليهودي ؛ ولا تمكن المساواة في الحقوق بين العرب واليهود ، بل يجب ان يتغلب اليهود على العرب متى تكاثر عددهم . » وتقول اللجنة انه ابى ان يعترف ، او يقبل بعبارة ان تكون لليهود سلطة او سلطان قومي ، ووضع عوضاً عنها

عبارة « ان يكون لليهود حق التسلط والتغلب » وعلقت اللجنة على ذلك بما يلي : « ولما كان الدكتور إدر رئيساً عاملاً للجنة الصهيونية فهو يحيط بافكار الصهيونيين واعتقاداتهم الرسمية من جميع وجوهها ؛ ولذلك تعتبر تصريحاته على جانب عظيم من الشأن »

وقد اتى على ذلك حين من الدهر تبدل خلاله الرؤساء الصهيونيون ،ولكنهم ، برغم كل شيء ، لم يتحولوا عن هذا الميثاق : فان الدكتور وايزمن كان قد صرح ايضاً للجنة العشرة في مؤتمر السلام ١٩١٩ قائلا : « اننا نريد ان تصبح فلسطين يهودية مثلما ان انكلترا انكليزية » . ثم هو يكرر هذا التصريح بعد تسع عشرة سنة امام لجنة بيل الملكية . على ان الصهيونيين ازدادوا ، من بعد ، جرأة على الافصاح عن مطامعهم ؛ فاذا هم يعلنون دون تورية : « ان الصهيونية قد وضعت منهاجها السياسي ،فيجب ان تصبح فلسطين دولة يهودية » ، خصوصاً وانها في نظرهم ارض الميعاد . وهناك تصريحات اخرى دينية الطابع تعرب عن امانيهم في اعادة بناء هيكل سليمان (هار مقدش) على انقاض الحرم الشريف والمسجد الاقصى وقبة الصخرة ، وهي مقدسات المسلمين . بالاضافة الى المعابد المسيحية ، والاماكن المقدسة ، حسبما تشير الى ذلك الرسوم الملونة المتناقلة بين ايديهم .

واما الفلسطينيون فانهم يؤمنون بحق واحد لاشريك له في فلسطين ؛ ويدللون على ذلك بان اسلافهم عمروا هذا القطر قبل ان يأتي اليه اسرائيل ، ثم استمروا يدافعون عنه خلال تغلب اليهود على بعض اجزائه . ويضيفون الى ذلك ان تيطس الروماني دمر مدينة اورشليم سنة ٦٤ ب.م ، واحرق الهيكل . ثم على اثر ثورة اخرى قام بها اليهود كرر الرومان تدمير اورشليم سنة ١٣٥ ب.م وحرثوا ارضها واسلموا اهلها للعبودية ؛ فاختتمت بذلك صفحات تاريخ اليهود بفلسطين ، بينما استمر تاريخ الفلسطينيين متسلسلاً حتى ظهر بمظهر حي جديد في عهد العرب . ذلك ان الخليفة عمر بن الخطاب عمل على مراعاة شعور المسيحيين بالقدس فاعطاهم عهداً بألا يسمح لاحد من اليهود بالسكنى معهم . وهكذا ظــل اليهود بعيدين عن اورشليم بالرغم من تبدل الحكام حتى ان عددهم سنة ١٨٤٥ لم يكن يتجاوز اثني عشر الفاً .

هذا الى ان فلسطين ، اذا كانت مقدسة في نظر اليهود ، فهي في نظر العرب مسلميهم ومسيحييهم اقدس . نوه بذلك المرحوم المطران غريغوريوس حجار امام اللجنة الملكية (١٩٣٦) بقوله : « ان الدين المسيحي يقول لليهود ان روابطي بفلسطين هي اقوى جداً من روابطك : فان يكن لك فيها ابناء وملوك فهي موطن مخلصي والهي ، وموطن رسله ومهد كنيسته » .

واما المسلمون فهم ، فضلاً عما لهم في فلسطين من مقدسات وعلى رأسها المسجد الاقصى،إولى القبلتين وثالث المساجد الشريفة التي تشدّ اليها الرحال،كما في الحديث الشريف المسند ، يؤمنون ايضاً بان قرآنهم بارك هذا القطر ، وحض على سكناه حيث جاء فيه : « يا قومنا اسكنوا الارض المقدسة التي باركنا فيها » . ومع كل ذلك فان العرب ، مسلميهم ومسيحييهم ، الذين كانوا لايضمرون لليهود الا كل عطف ومحبة ، والذين اضطرهم تعنت غيرهم للدفاع عن وطنهم دفاع المستبسلين ، لم يقفوا وقفة المكابرين ؛ بل رضوا بالتعاون مع اليهود الذين نزلوا في فلسطين بالرغم منهم على شرط ان يصبحوا مثلهم فلسطينيين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ؛ وعلى شرط ان تتوقف الهجرة ويمنع انتقال الاراضي العربية لليهود .

ولم يكن العرب يوماً يمنعون رفدهم عن اللاجئين . أفلم يستقبلوا اليهود المطرودين من اسبانيا احسن استقبال خلال القرن الخامس عشر ؟

ولو ان يهود اليوم انفسهم هاجروا الى فلسطين دون ان تسبقهم اليها فكرة الاستئثار لما كانوا وجدوا من اهلها الا الترحاب . ومن اجدر من العرب كرماً ونجدة. ولكن حججاً كهذه هي حبر على ورق اذا لم تسندها القوة .

على ان العرب قد توسلوا ايضاً بطرق الاقناع فتوالت وفودهم الى عواصم العالم ، وخاصة الى عاصمة الدولة المنتدبة ؛ وكانوا كلما بسطوا امانيهم في لندن وطلبوا وقف الهجرة ، والحصول على الحكم الذاتي يصارحون القول : « بان المسألة ليست اعتبار الشعب الفلسطيني اقل تقدماً ورقياً من جيرانه في العراق وسورية ؛ ولكن من الواضح تماماً ان انشاء حكومة وطنية في هذا الطور سيحول دون تنفيذ العهد الذي قطعته الحكومة البريطانية للشعب اليهودي . »

وقد اعطي هذا الجواب في لندن للوفد الذي امها سنة ١٩٢٢ ، ثم تكرر نفسه لوفد آخر سنة ١٩٣٠ . وكان العرب دائماً يرون في هذا الجواب ان الوطن القومي اليهودي لا يقتصر على أنه انتزاع لوطنهم ، بل هو ايضاً العقبة الكأداء التي تعترض استقلالهم .

. . . . .

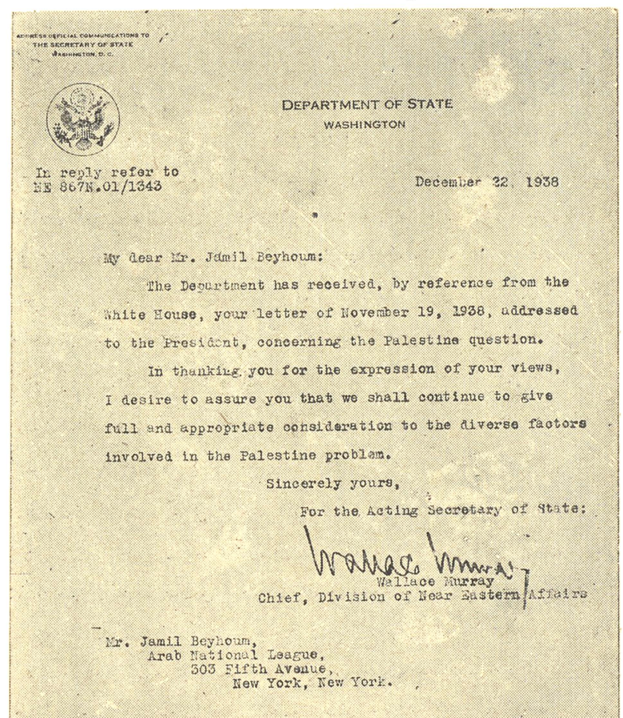
٦ — ولقد عملت المظالم التي رافقت الثورة التي نشبت سنة ١٩٣٧ على تجلي الاتحاد بين العرب والمسلمين في العالم بابرز صوره . فمؤتمر بلودان (سورية) الذي عقد في صيف ١٩٣٧ ، قد وضع ميثاقاً لفلسطين تعاهدت عليه الاقطار العربية الكثيرة التي تمثلت في هذا المؤتمر . ومؤتمر القاهرة الذي تألف من نواب العرب والمسلمين في خريف ١٩٣٨ قد جمع بين الهندي والصيني وبين المغربي والعراقي وبين المصري والشامي، فكان تعاهداً بين العرب والمسلمين على النضال في سبيل فلسطين.

ولم تشأ المرأة العربية ان تحرم من هذا الواجب فشهدت القاهرة بعد مؤتمر النواب المذكور مؤتمراً نسائياً عظيماً ، اشتركت فيه الاقطار العربية .

ولقد تجلى الاتحاد العربي في هذه المؤتمرات باجلى مظاهره ، وتأكد بالتصريحات التي ادلى بها اصحاب الجلالة الملوك عبد العزيز بن سعود ، وفاروق ، وغازي والامام يحيى . وقد جاء في الكتاب الذي وجهه جلالة ملك نجد والحجاز الى السيد روزفلت رئيس الولايات المتحدة وقتئذٍ في ٢٩/١١/١٩٣٨ ما يلي « ومن المستحيل اقرار السلام في فلسطين اذا لم ينل العرب حقوقهم ، ويتأكدوا ان بلادهم لن تعطى الى شعب غريب تختلف مبادؤه واغراضه واخلاقه عنهم . »

هذا وعلى اثر مؤتمري القاهرة البرلماني والنسائي العربيين بارح الاسكندرية يوم ٢٦ تشرين الاول ١٩٣٨ وفدان عربيان على الباخرة (الخديو اسماعيل) ، وكانت وجهة احدهما لندن وفيه المصري والهندي ، بينما كانت وجهة الثاني اميركا وفيه المسيحي والمسلم. وكنت احد افراد الوفد الثاني. وكان اول عمل باشرته عند وصولنا الى نيويورك رفع مذكرة الى الرئيس روزفلت بسطت فيها وجهة نظر العرب في قضية فلسطين، وناشدته انصافهم . وتلقيت الجواب على هذه المذكرة في ٢٢ كانون الاول ١٩٣٨ ؛ وهو يتضمن وعداً بمواصلة الاهتمام الكبير في هذه القضية . ثم ان وفدنا اتصل بحكومة واشنطن مباشرة ، واجتمع في مطلع عام ١٩٣٩ باركان الوزارة الخارجية، وعلى رأسهم السيد صمنر ولز الذي كان مستشاراً للدولة وملحقاً

في الشؤون الخارجية . ثم تابع الوفـــد رحلته فزار اكثر ولايات اميركا كما زار


ADDRESS OFFICIAL COMMUNICATIONS TO
THE SECRETARY OF STATE
WASHINGTON, D.C.

DEPARTMENT OF STATE
WASHINGTON

In reply refer to
NE 867N.01/1343

December 22, 1938

My dear Mr. Jamil Beyhoum:

The Department has received, by reference from the White House, your letter of November 19, 1938, addressed to the President, concerning the Palestine question.

In thanking you for the expression of your views, I desire to assure you that we shall continue to give full and appropriate consideration to the diverse factors involved in the Palestine problem.

Sincerely yours,

For the Acting Secretary of State:

Wallace Murray

Wallace Murray
Chief, Division of Near Eastern Affairs

Mr. Jamil Beyhoum,
Arab National League,
303 Fifth Avenue,
New York, New York.

جواب سكرتير دولة الولايات المتحدة الأميركية للمؤلف في نيورك
على مذكرته المرفوعة للرئيس روزفلت

كوبا والمكسيك ، مبيناً للاوساط الحكومية والشعبية ، وجهـة نظر العرب في قضية فلسطين ومحاولاً رفع التهم التي يلصقها بهم الخصوم .

. . . . . .

٧ – وخلال هذا النشاط العربي دوى صوت الفوهرر هتلر متعرضاً لفلسطين بخطاب القاه في نورمبرغ شهر ايلول ١٩٣٨ قال فيه :

« نحن لا نريد ان نخلق فلسطين جديدة على الحدود الالمانية وان نتيح اضطهاد ابنائنا كما يضطهد العرب في بلادهم . ذلك لان وراء الألمان السوديت دولة كبيرة تتولى الدفاع عنهم . »

وظلت المانيا تضرب، من بعد، على هذا الوتر الحساس . وكانت بريطانيا العظمى كلما دنت الحرب تزداد شعوراً بوجوب تسكين ثائرة العرب والمسلمين ، خصوصاً وان المانيـــا كانت تنفخ في النار الموقدة . وكانت تتوهم ان احسن حل للأزمة يكون في تحقيق مشروع لجنة بيل الملكية . واعني به مشروع التقسيم ؛ ولكن ما ان هبطت لجنة وود هيد ارض فلسطين ، مكلفة بدرس الوسائل لتنفيذ هـــذا المشروع ، وذلك خلال شهر شباط ١٩٣٨ ، حتى اصطدمت باضراب شديد قام به العرب احتجاجاً على هذا المشروع ، مما حمل الدوننغ ستريت على العدول عن مبدأ التقسيم ، والدعوة الى مؤتمر المائدة المستديرة في لندن . وقبل افتتاح المؤتمر ، الذي كان موعده في ٧ شباط ١٩٣٨ ، اجتمع ممثلو العرب بالسيد نيفل شمبرلن رئيس الوزارة البريطانية يومئذ ، فاوضح هذا لهم خطة حكومته بصراحة على الوجه التالي :

« ان العالم قادم على حرب لا تبقي ولا تذر ، وان بريطانيا العظمى مضطرة ، بسبب ذلك ، لان تحسب حساب الرأي العام الاميركي الذي جعلته الدعايات اليهودية يعطف على الصهيونيين ؛ لا سيما وان حكومة الولايات المتحدة تملك من الموارد والقوة ما يؤمن للحلفاء النصر على دول المحور » .

على انه وان لم يقدر النجاح لمؤتمر المائدة المستديرة ، الا انه كان ذا أثر طيب بالنسبة للعرب : فقد ابى ممثلوهم في المؤتمر ان يعترفوا لليهود بحق المفاوضة مصرين على ان يكون بحث الحلول مقتصراً عليهم وعلى ممثلي بريطانيا ؛ فكان لهم ما ارادوا ، ورفعت اعلام الدول العربية على القاعة المخصصة لجلسات المؤتمر ، وتقرر ان تكون اللغات العربية والانكليزية والفرنسية وحدها اللغات الرسمية في المناقشات والخطابة . وفضلاً عن ذلك فان توجيه لندن الدعوات الى الدول العربية للاشتراك في هـــذا المؤتمر ، وجلوس ممثليها من امراء ووزراء الى جانب اخوانهم مندوبي فلسطين ، قد جاءا بمثابة اعتراف رسمي بان قضية فلسطين هي قضية العرب كافة ، وان القضية العربية هي وحدة لا تتجزأ .

وكان من جراء فشل هذا المؤتمر ان تقدمت حكومة لندن واخذت على عاتقها اجراء الحلول في القضية الفلسطينية : فاصدرت ، في شهر ايار ١٩٣٩ ، الكتاب الابيض الثالث ، واعلنت انهـــا مصممة النية على تنفيذه بقطع النظر عن رأي الفريقين . ورغم انها تظاهرت فيــه بمراعاة جانب العرب ، اذ هو يلغي مشروع التقسيم ويحدد الهجرة بموعد ، ويعد بالحكم الذاتي لفلسطين ، لم يلق هذا الكتاب ارتياحاً في الاوساط العربية ، وذلك لقيامه على قرارات مطاطة في بعض النواحي ، ومؤجلة التنفيذ في النواحي الاخرى . ولذلك اعلن العرب احتجاجاتهم عليـــه ؛

واستأنفوا الثورة في فلسطين . كما ان الصهيونيين ، الذين لمسوا في هذا الكتاب تحولاً في سياسة الدوننغ ستريت عن وعد بلفور ، قامت قيامتهم عليه ، وبالغوا في المظاهرات ضده الى حد ان القائد العسكري بفلسطين انذرهم باستعمال القوة والعنف اذا هم لم يرجعوا عن هذه المظاهرات العنيفة . وكانت بريطانيا ، عند اعتزامها اصدار الكتاب الابيض ، قد حاولت ان تمهد لقبوله بالقضاء نهائياً على الثورة العربية في فلسطين ، التي كانت قد نشبت منذ ٢٢ حزيران ١٩٣٧ ، وذلك باستعمال العنف ؛ وخاصة بعد ان شعرت بدنو الحرب العالمية ، فتقدم الجيش في ١٩ تشرين الثاني ١٩٣٨ لاحتلال القدس ، واحتل آخر الشهر حيفا ويافا . فاستشهد في آذار ١٩٣٩ القائد عبد الرحيم الحاج محمد ، ثم في ١٦ نيسان اعلنت حكومة فلسطين ان السيد عارف عبد الرازق ، الذي خلفه على القيادة ، قد لجأ الى سورية ، وكان ذلك نذيراً بانتهاء الثورة .

. . . . .

٨ – ونشبت الحرب العالمية الثانية في صيف ١٩٣٩ فساد نوع من الهدنة والهدوء في فلسطين ، وخاصة في السنوات الاولى ابان ما كان الخطر النازي يدنو رويداً رويداً منها . ولكن الصهيونيين في سائر العالم لم يتوانوا ، مع ذلك ، في انتهاز الفرص لتحقيق آمالهم . ولما احاق الخطر ببريطانيا العظمى تقدم الدكتور وايزمن من حكومتها يعدها بمساعدة الرأسماليين اليهود إذا هي قطعت لهم عهداً بالتخلي عن فلسطين ، وعن قسم من جنوبي لبنان . ولكن المستر تشرشل ، رئيس الوزارة وقتئذ ، وضع حداً للاشاعات التي راجت على اثر ذلك حينما رد في مجلس العموم على سؤال وجه اليه بقوله : « انه لا يوجد تبدل في سياسة حكومة صاحبة الجلالة ازاء فلسطين » .

وكان هدف الصهيونيين المباشر يرمي الى تمزيق الكتاب الابيض ، وفتح ابواب فلسطين للهجرة . ولما آنسوا من حكومة تشرشل المعارضة ارتدوا الى اظهار نقمتهم على بريطانيا العظمى ، وعلى مندوبها السامي في فلسطين ؛ واتخذوا الولايات المتحدة مركزاً استراتيجياً لاعمالهم .

وقد ازدادوا نشاطاً بعد ان اطمأنوا لنتيجة الحرب على اثر احتلال الحلفاء شمالي افريقيا ؛ فاستطاعوا في اواخر ١٩٤٢ ان يؤمنوا تواقيع ٦٢ عضواً من اعضاء مجلس الشيوخ في واشنطن ، و ١٨١ عضواً من اعضاء مجلس النواب على مذكرة موجهة الى الرئيس روزفلت وحكومته يطالبون فيها بالحرص على

السياسة التقليدية للولايات المتحدة بشأن قيام الوطن القومي اليهودي في فلسطين؛ ثم جاءت الانتخابات الاميركية فكانت مجالاً افسح لنجاحهم فاذا بنا نسمع في شهر آذار ١٩٤٤ اقتراحاً يقـــدمه بعض الشيوخ طالبين فيه اقامة دولة يهودية في فلسطين .

وخلال تلك الجهود الجبارة التي كانوا يبذلونها عمدوا ، منذ مطلع عام ١٩٤٤ ، الى مجابهة بريطانيا العظمى في فلسطين وذلك باستعمال سياسة الارهاب والعنف. وتمادوا في طغيانهم حتى انهم حاولوا قتل السر مكمايكال المندوب السامي ؛ فنجا منهم ولكن اللورد موين الوزير البريطاني في الشرق الاوسط ، لم ينج ، بل قتل في مصر بايديهم يوم ٧ تشرين الثاني ١٩٤٤ ،فضلاً عن كثيرين من كبار الضباط والجند. ثم لم يتورعوا عن التشنيع ببعض رجالات الانكليز في فلسطين من عسكريين ومدنيين .

وحاول الصهيونيون ، لمناسبة مؤتمر سان فرنسيسكو الذي عقدتـــه الدول المنتصرة منذ ٢٥ نيسان ١٩٤٥ ، ان يؤثروا على المؤتمرين بشتى الطرق ، وان يثيروا قضية فلسطين في هذا المؤتمر ،وهم، وان باءوا بالفشل،الا ان آمالهم انتعشت من جراء موقف الرئيس ترومن الذي خلف الرئيس روزفلت على رئاسة الولايات المتحدة في ١٢ نيسان ١٩٤٥. وفي الواقع فان الرئيس الجديد دشن عهده بان اقترح في مؤتمر بوتسدام السماح لاكبر عدد ممكن من اليهود بدخول فلسطين ، وتباحث مع المستر تشرشل والمستر اتلي بشأن انشاء دولة يهودية في فلسطين .

والى هذا فقـد هلل اليهود وكبروا لقيام حكومة العمال في لندن ؛ اذ ان حزب العمال كان ابداً نصيراً لهم ؛ ولكن البيان الذي القاه وزير الخارجية المستر بيفن في مجلس العموم (١٣ تشرين الثاني ١٩٤٥) جاء مخيباً آمالهم . وقد صرح وزير الخارجية في هـذا البيان بان حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى دعت الولايات المتحدة للتعاون معها في لجنة تسهل ايجاد حلّ ما لوضع فلسطين تحت الوصاية التي ستحل محل الانتداب .

واما العرب الذين اصبحت قضية فلسطين عندهم مدار اهتمامهم فلم يتوانوا في الدفاع عنها ، حكومات وشعوباً وملوكاً ورعية ، حتى انهم لم يعودوا يعقدون مؤتمراً لأي غرض من اغراضهم الا ويثيرون فيه قضية فلسطين . هـــذا الى ان الجامعة العربية ، وهي التي كانت تمثل العروبة ، قد تولت عن الدول العربية اعباء الرد على بيان الحكومة الانكليزية الذي القاه وزير خارجيتها في مجلس العموم ،

كما انها قررت مجابهة اللجنة الاميركية البريطانية ، قبل وصولها ، بقرار مقاطعة العرب للمصنوعات الصهيونية .

واما اللجنة الاميركية البريطانية المذكورة – وهي التي عرفت بلجنة موريسون – فقد باشرت التحقيق في واشنطن، ثم انتقلت الى لندن فالقاهرة حيث عقدت منذ ٢ آذار ١٩٤٦ جلستين لاستماع بشهادات ممثلي الدول العربية . وقد كان لي الحظ ان اكون في عدادهم ممثلاً لحكومة لبنان مع وزيرها المفوض بالقاهرة . ثم هبطت اللجنة القدس فاستمعت الى العرب واليهود . وتفرع عنها لجنتان قصدت



عبد الرحمن عزام باشا يدلي ببيان الجامعة العربية امام لجنة موريسون ويظهر المؤلف الى جانبه الأيمن

احداهما بغداد فالرياض ، وأمت الثانية دمشق فبيروت . ثم ولت اللجنة وجهها شطر سويسرا مثقلة بالمذكرات لتضع في عزلة تقريرها المنشود .

وفي الواقع ان تقريرها الذي ظهر في ايلول ١٩٤٦ جاء دليلا على انها انما جاءت حاملة رسالة من واشنطن ، لم يكن في مقدور المذكرات العديدة ، التي تلقتها اللجنة خلال سياحتها للتحقيق ، ان يبدل حرفاً واحداً منها . فلا عجب اذا قوبل تقريرها في العالم العربي بالاحتجاج من كل صوب باعتبار انه رجعة الى الوراء

بالنسبـة اليهم ، وتأميناً لرغائب الصهيونيين ؛ ولا سيا من حيث تمزيق الكتاب لابيض الموضوع في سنة ١٩٣٩ . فقد اوصت اللجنة بان يبقى الانتداب حتى يتم الاتفاق على تنفيذ وصاية الامم المتحدة،وطالبت بان تفتح ابواب فلسطين لليهود ، وفي مقدمتهم مائة الف مهاجر؛ كما اوصت بالغاء القيود المفروضة على انتقال الاراضي لليهود .

. . . . .

وفي غضون هذه الثورة الفكرية التي شملت العالم العربي ، عـلى اثر نشر توصيات اللجنة ، وجه جلالة الملك فاروق الاول دعوة الى رؤساء الدول العربية لمؤتمر يعقد في زهراء انشاص في مصر ، وقد اصدر اصحاب الجـلالة والفخامة والسمو المؤتمرون ذلك البيان التاريخي الذي يتضمن القرارات الـتي اتخذت بالاجماع بشأن الدفاع عن فلسطين ،ودفع ما يهددها من اخطار .

وعلى ضوء هذه المقررات عقدت الجامعة العربية دورة استثنائية في بلودان (سورية) ظلت مقرراتها مكتومة ، وارسلت الامانة العامة للجامعة مذكرة بتاريخ ١٥ مايس ١٩٤٦ الى وزير بريطانيا العظمى في دمشق لابلاغ حكومته احتجاج مجلس الجامعة عـلى اللجنة الانكليزية – الاميركية في الاساس ، وعلى مقرراتها معلنة ان الاخذ بتوصيات اللجنة يعتبر عمل غير ودي موجه للعرب . فدعت حكومة المستر اتلي العرب الى مؤتمر عقد في لندن من ١٠ ايلول الى ٢ تشرين الاول ١٩٤٦ ، ثم تأجل الى ١٦ كانون الاول ١٩٤٦ بحجة اعتزام المستر بيفن وزير الخارجية السفر الى اميركا . واستأنف المؤتمر اجتماعاته في مطلع عام ١٩٤٧ ؛ ولكنه انتهى بالفشل ، لاسيا وان مشروع التقسيم كان اساساً للاقتراحات البريطانية .

اما الصهيونيون فقد رفضوا ان يشتركوا في المؤتمر، وواصلوا أعمال الارهاب اعراباً عن نقمتهم على دولة الانتداب ؛ واستطاعوا ان ينسفوا الكتاب الابيض برمته . والكتاب الابيض انما خط بدماء العرب التي اهرقت في ثورة فلسطين الكبرى ١٩٣٧ – ١٩٣٩ . ذلك ان بريطانيا العظمى ارادت التنصل من ثم من تبعات حل قضية فلسطين منفردة فاعلنت عزمها على رفعها الى هيئة الدول المتحدة. وقد اجتمع مجلس هـذه الهيئة في ٢٨ نيسان ١٩٤٧ اجتماعاً استثنائياً وقرر ، بناء على اقتراح لندن ، تعيين لجنة تحقيق من قبله .

وزارت هذه اللجنة اوروبا بطريقها الى فلسطين وما حولها من البلاد العربية ، ثم قدمت توصيات تقوم على مشروعين : وقد اخذت هيئة الامم المتحدة باحدهما ، وهو الذي قالت بـــه كثرة اعضائها ؛ ويقضي بتقسيم فلسطين الى دولتين عربية ويهودية ترافقه وحدة اقتصادية ؛ على ان يقوم في القدس نظام دولي خاص تشرف عليه الامم المتحدة . وفي ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧ لفظت الهيئة ، باكثرية الاصوات ، قرارهـــا مؤيدة مشروع التقسيم ، فكان ذلك اليوم بداية حرب بين العرب والصهيونية جعلت بلد السلام والمحبة ، يشتعل بالنار ويسبح في الدماء .

كيف أضعنا فلسطين

١ – من المؤسف ان العرب استهلوا القتال في فلسطين بتصرفات سرعان ما افضت الى التنابذ بينهم ، وادت الى تسرب الخلاف بين الفلسطينيين وبين اخوانهم العسكريين الموجهين من قبل الجامعة : فقد كان سماحة الحاج امين الحسيني رئيس الهيئة العربية العليا ، واعضاء الهيئة يرون ضرورة الاعتماد على الفلسطينيين انفسهم في الجهاد لانقاذ وطنهم ، وامدادهم بالمال والعتاد ، وبالمساعدات العسكرية متى يحين الحين . وقد سمعت سماحته بعاليه يتحدث في هـذا مؤمنا بأن الفلسطينيين قادرون على القيام بالمهمة اذا توفر لهم المال والعتاد لشجاعتهم وخبرتهم في جغرافية بلدهم ، علاوة على ما يتوفر لديهم من وسائط التموين . غير ان امير اللواء السيد اسماعيل صفوة احد ممثلي العراق في مجلس الجامعة العربية لم يكن على هذا الرأي . وقد رفع الى المجلس في اجتماعاته خلال شهر كانون الاول ١٩٤٧ ، تقريرا يتضمن ، فيما يتضمن ، الاعتماد على الجيوش النظامية فحسب .

لذلك ، فلما رئس سعادته اللجنة العسكرية التي اتخذت دمشق مقراً لها ، ووكل اليهـــا من قبل الجامعة العربية ادارة القتال بفلسطين ، واعداد الجيوش ، اظهر حرصه على أن لا تذهب المعدات الحربية ، والمساعدات المالية الى المجاهدين ؛ قصد الاحتفاظ بها لحين الزحف ، وذلك بعد انتهاء اجل الانتداب في فلسطين .

ولما حمل اليهود على المجاهدين الفلسطينيين حملتهم الكبرى في لواء القدس قصد فتح الطريق مابين اورشليم وتل ابيب ، وتموين ذويهم المحصورين في بيت المقدس ، واحتلوا قرية القسطل ذات الموقع الأستراتيجي الحصين خف الى دمشق في غرة نيسان ١٩٤٨ قادة المجاهدين ، وعلى رأسهم قائد « الجهاد المقدس » السيد عبد القادر

الحسيني ، منذرين محذرين ، وطلبوا النجدة من اللجنة العسكرية ؛ ولكنهم لم يجدوا عند اللجنة اي اهتمام بمطاليبهم . ويقول المرحوم عبد القادر الحسيني في مذكراته « انها قابلتهم بالسخرية والازدراء » ، كما انها « أبت ان تنجدهم بجيش الانقاذ الذي كان مقيماً في المثلث العربي على مقربة منهم ». ويبدو ان اللجنة كانت مطمئنة ، ولا تحفل كثيرا بما يصنع اليهود ، بدليل ان بعض اعضائها كانوا يجاوبون من راجعوهم محذرين : « لا تخافوا ولا تحزنوا ، وليست ثمة اهمية ، حتى ولو سقطت القدس ويافا وحيفا ، لأننا سنعيدها في الوقت المناسب . »

لذلك فقد اضطر المجاهدون ان يعتمدوا على انفسهم منذ بداية المعارك في شراء الاسلحة باثمان باهظة، وعلى الهيئة العربية العليا ، وما كانت هذه الهيئة لتبخل عليهم لوأن اموال المساعدات كانت تصل اليها مباشرة ؛ فكان من عواقب هذا الموقف، تقفه اللجنة العسكرية من الفلسطينيين، بالاضافة الى استشهاد قائدهم المرحوم عبد القادر الحسيني وبعض صحبه ان تسرب الفتور الى همم المجاهدين ، خصوصاً من جراء ما رافقه من الاعتقاد بان الدول العربية ستكفيهم مؤونة القتال .

اما الآن، وبعد ان وقعت الواقعة ، اخذ يعترف بعض المنصفين، وعلى رأسهم السيد نوري السعيد بالخطإ الفادح ، من جراء انهم لم يتركوا الدفاع عن فلسطين لاهليها . قال فخامته في خطاب القاه في مجلس الأمة العراقي شهر تشرين ١٩٤٨ : « فلو اننا حصنّا القرى العربية بالاسمنت المسلح ، كما فعل اليهود ، وسلحنا عرب فلسطين التسليح الكافي لما تشردوا، ولما كانوا بهذا الموقف المؤلم ». ويرى بعضهم أنهم لو فعلوا لكان اجدى، حتى ولو لم يقو المجاهدون على الصمود الى النهاية في وجه الصهيونيين : ذلك لان القوى العربية ، لوبقيت سالمة وراء الحدود محفوظة الكرامة كان بوسعها انقاذ الموقف . هذا فضلاً عن انه اذا دار البحث دوليا حول ايجاد حل لمشكلة فلسطين فالامم الكبرى ذات الشأن تظل تحسب حساب سبع دول عربية شاكية السلاح ، تنادي بلسان واحد : « لبيك يا فلسطين » .

حقاً ان امير اللواء اسماعيل صفوت كان على صواب حينما كان يعتقد بأن الجيوش النظامية اجدى من المجاهدين في الحرب ؛ ولكنه كان طيب القلب حينما اعتمد على جيوش دول سبع فحسب ، ولم يخطر بباله ما وراءها من « عنعنات » وارتباطات دولية ومصالح خصوصية من شأنها ان تجعل هذه الكثرة قلة حتى اصطدمت بوحدة الايمان .

٢ – وكان من تقصير اهل فلسطين انهم رغم معرفتهم مقدار تساح الصهيونيين، ورغم شعورهم بأنهم كانوا قاب قوسين أو أدنى من القتال، لم يعنوا بالتأهب للمعارك المقبلة . وعذرهم في ذلك ان الحكومة كانت تشدد الرقابة عليهم، بينما كان اليهود يهربون الكميات الكبيرة من الاسلحة ويتلقون الاعتدة ابان الحرب العالمية الثانية من الانكليز انفسهم بحجة استعمالها للدفاع عن مستعمراتهم؛ علاوة عن الضباط لتدريبهم على الشؤون العسكرية . والى هذا فبينما كانت الوكالة اليهودية توجه دفة الحكم الفلسطيني شطر مصالح قومها، كانت السلطة تطارد الهيئة العربية العليا، وتعمد الى حلّها طيلة هذه الحرب، وتبعد من تصل اليه يدها من رجالهم .

والواقع ان دولة الانتداب لم تترك للعرب، كما تركت لليهود، فرصة الاستقرار والاستعداد . وهم لم يستأنفوا نشاطهم الا بعد اعادة الهيئة العربية لفلسطين، وذلك بمقتضى القرار الذي اتخذه مجلس الجامعة العربية في بلودان صيف ١٩٤٦ . بل ان نشاطهم العملي لم يقم الا بعد ان هبط مصر سماحة الحاج امين الحسيني عائداً من المانيا، ورجع كبار المجاهدين الآخرين من المعتقلات البريطانية في افريقية والعراق . وعلى اثر ذلك تمّ تأليف قوة من المجاهدين باسم « الجهاد المقدس » بقيادة عبد القادر الحسيني . فشرع هذا البطل الشهيد مع معاونيه يدربون شباب فلسطين على استعمال الاسلحة، وينظمون صفوف المجاهدين . غير ان الوقت كان قصيراً، وما مضت سنة واحدة حتى دار القتال بين عرب فلسطين العزل، وبين اليهود المجهزين؛ ينجد الاولين اخوانٌ لهم كثر على مقربة من ساحات الوغى، وذلك بخطب نارية واناشيد ملتهبة، بينما يمدّ الثانين ابناءُ ملتهم القليلون المشتتون في اطراف العالم؛ ولكنهم يمدونهم بالمال والرجال والعتاد، فضلاً عن توجيههم دول العالم لخدمة اهدافهم . ومع ذلك فقد بدأت اعمال المجاهدين على شكل عسكري لاشائبة فيه، وشملت جميع مناطق فلسطين . فوقعت معارك طاحنة، ولا سيما حول طريق القدس – تل ابيب. ذلك ان العرب كانوا يحاولون سد هذه الطريق في وجه اليهود، بينما كان هؤلاء يجهدون الانفس لفتحها قصد بقاء الاتصال بين اخوانهم في لواء القدس وبين لواء تل ابيب . ثم اتسعت ساحة القتال حتى شملت جميع اقاليم القدس وبيت لحم والعرقوب والخليل ورام الله .

وتناسى اليهود ، خلال ذلك، خلافاتهم،فأصغوا الى الوكالة اليهودية ، ووحدوا القيادة العسكرية وذلك بتأليف الجيش اليهودي من جميع الجمعيات والفرق المناضلة. ثم قاموا ، علاوة على حركاتهم العسكرية حول منطقة القدس ، بهجمات عنيفة على جهات يافا وحيفا وصفد وطبريا . وهم في ذلك كانوا يستعينون بحرب الاعصاب وذلك بمزاولة اعمال الارهاب والقسوة . وقد صمد المجاهدون في وجههم صموداً باسلاً ، وقابلوهم بالمثل ؛ فنسفوا عمارات البالستين بوست ، وشارع ابن يهوذا ، والوكالة اليهودية . ولكن سرعان ما اختل التوازن : فقد اشتد ساعد الصهيونيين منذ آذار ١٩٤٨ بالمساعدات التي غمرتهم من اوروبا واميركا ، وبالمتطوعين الذين وصلوا اليهم من المدربين على الحروب ؛ فوضعوا خطة جديده تبتدىء بفتح طريق القدس — تل ابيب ؛ ترافقها خطة أخرى مدارها القاء الذعر في نفوس اهل القرى العربية قصد اجلائهم عنها بسائق الخوف .وقام الجيش الاسرائيلي ، منذ ذلك ، بتنفيذ هذه المقررات ؛ بينما أن المجاهدين العرب قطعت عنهم المساعدات ، وحرموا من الامدادات . اجل ، وقد بينا في الكلمة السالفة كيف ان قائدهم السيد عبد القادر الحسيني ، ورفاقاً له من قادة الفرق خفوا الى دمشق ، واعربوا الى اللجنة العسكرية عن اوجه الخطر طالبين النجدة السريعة ، واوضحنا كيف انهم عادوا الى ساحة القتال يائسين ، خصوصاً وقد بلغهم ، وهم في دمشق ، نبأ سقوط قرية القسطل بيد اليهود (٤ نيسان ١٩٤٨) وهي امنع القرى العربية المشرفة على طريق القدس — تل أبيب .

ومن المؤسف ان قائد الجهاد المقدس ما كاد يعود الى ساحة القتال حتى دفع حياته الغالية ثمناً لمحاولته استرداد القسطل ؛ وكذلك الشيخ حسن سلامه قائد قطاع يافا ، فانه سرعان ما لقي ربه شهيداً في الدفاع عن منطقته . ذلك ان اليهود، وقد اخذوا خطة المبادرة ، قاموا، في وقت واحد، بتشديد الهجوم في كل الميادين، وحملوا عدة حملات على حيفا ويافا وطبريا وصفد وعكا اثناء هجومهم على قرية القسطل .

على ان معركة القسطل كانت نقطة تحول خطير في حرب فلسطين لان استشهاد البطل الحسيني ، وعشرات من زعماء النضال اوجد فراغاً شديداً في صفوف المجاهدين؛ كما ان اعمال الارهاب التي ارتكبها الجيش الصهيوني في دير ياسين وغيرها من القرى القت الذعر الشديد في قلوب الفلاحين ، فهاموا على وجوههم هاربين.

وقد خف اليهود ، على اثر ذلك ، لاستغلال كل من التضعضع الذي وقع في صفوف المجاهدين ، والرعب الذي استقر في أفئدة القرويين ، فسددوا ضربات قاسيات عليهم اتاحت لهم فتح طريق تل ابيب - القدس ، وتموين ذويهم هناك بالقوافل المتتابعة ، بينما كانت هذه الطريق مقفلة في وجههم ، وفي وجه قوافلهم منذ ثلاثة اشهر . وجددوا ، على اثر ذلك ، حملاتهم على القدس نفسها ، على مرأى ومسمع من الجيوش العربية التي كانت ترابط وراء التخوم في انتظار انتهاء اجل الانتداب .

وتعاقبت النكبات بعد معركة القسطل خصوصاً مذ حقق الصهيونيون اهدافهم العسكرية في معارك مشهار هاعيمك والمالكية ، وتغلبوا على جيش الانقاذ ، الذي كان يقوده فوزي باشا القاوقجي ، واستولوا ، في الجبهات الاخرى ، على طبريا فحيفا ويافا فصفد وعكا ، وما حول هذه المدن من مئات القرى ، وشتتوا سكانها على حال يفتت الاكباد ، لا عهد لنا به الا في اواخر ايام الاندلس .

نكبات فوق نكبات كنا نتساءل خلالها : أين جيوش الدول العربية السبعة ؟ أين ذلك الحماس الناري الذي كان يلهب آذاننا ، قبل القلوب ؟ فيقال لنا « اصبروا ان الله مع الصابرين » . والواقع انهم ، كانوا ينتظرون كلمة السر ، ينتظرون يوم ١٥ ايار ١٩٤٨ ، يوم انتهاء اجل الانتداب ، بينما كانت بريطانيا تستعجل ، في قرارة نفسها ، انفاذ التقسيم بالقوة قبل ذلك اليوم الذي يفتح مصاريع ابواب فلسطين في وجه الجيوش العربية المحتشدة . « فإنا لله وانا اليه راجعون » (١) .

امارة شرق الاردن

الى شرق وادي الاردن ونهره تمتد منطقة زراعية كانت في عهد مضى كثيفة الزرع والاحراج ، واصبحت على عهد آل عثمان غير حافلة إلا بالمراعي . اما عمان ، عاصمة الامارة ، فلم تكن سوى قرية لا صلة بينها وبين مجدها التالد إلا بما شخص من آثارها ، ولا وسيلة لها لتأمين الحياة الا بتوسطها بين قبائل بني صخر وبني حسن وعباد والعدوان .

(١) تتمة هذا البحث يأتي في الكلام على عهد الاستقلال آسفين ان يكون عهد الاستقلال لحداً لفلسطين العربية .

ولما اكتسح الجيش الفرنسي سورية، وخلع الملك فيصل (تموز ١٩٢٠) انفصلت رقعة شرق الاردن عن حكومة دمشق العربية، وتولى ادارتها المندوب السامي البريطاني في فلسطين، والف فيها بعض المجالس المحلية لادارة شؤونها. ولكن موجة من الفوضى طغت على ادارتها لما بين ذلك التنظيم وبين تقاليد البداوة من التنافر، فاستقر في ذهن الانكليز ان لا بد من اللجوء الى اسلوب خاص في حكم هذه البلاد.

والواقع أن شرق الاردن التي تبلغ مساحتها نحو ٣٤ الف ميل مربع اي ما يكاد يعادل مساحة فلسطين مرتين ونصف، والتي لم يكن فيها من السكان إلا ٢٥٠ الفاً، السواد الاعظم منهم بدو، كانت تحتاج الى ادارة خاصة تتناسب مع بيئتها وتقاليدها.

وبينما كانت هذه الفكرة تختمر في دماغ الانكليز تقدم الامير عبدالله بن الحسين، ملك الحجاز ورافع علم الثورة الكبرى، ونزل شرق الاردن مضمراً الثأر لأخيه الملك فيصل من الافرنسيين، وعاقداً النية على استرجاع دمشق. فالتف حوله رجالات العرب الذين كانوا تشتتوا بعد واقعة ميسلون، وعاهدوه على المؤازرة افراداً وجماعات. وكأن الصهيونيين تهيبوا مجاورة البادية مباشرة فاوحى اليهم والى البريطانيين ايضاً وجود الامير في عمان، فكرة الاتفاق معه على امارة شرق الاردن. فجرت مفاوضات مبدئية بين الامير وبين المستر تشرشل في قصر السر هربرت صموئيل المندوب السامي بالقدس، مفاوضات لم تكن — فرنسا — غريبة عنها لأن المسيو روبير دوكاي، وكيل المندوب السامي في سوريا ولبنان، رافق سمو الامير الى الاجتماع بالمستر تشرشل في بيت المقدس. اما خلاصة الاتفاق الذي تم في هذا الاجتماع فيتلخص بقيام حكومة يرئسها الامير عبدالله على قاعدة الاستقلال الاداري، تسترشد برأي المفوض السامي في فلسطين، وتتعهد بالمحافظة على حدود فلسطين وسورية من كل اعتداء. ولقاء ذلك تتعهد انكلترا بمساعدة هذه الحكومة بما يكفي لنفقات انشاء قوة تستطيع توطيد الأمن.

وعلى هذا الاساس قامت امارة شرقي الاردن منذ شهر نيسان ١٩٢١، وامدتها الخزينة البريطانية في تموز سنة ١٩٢١ بمبلغ ١٨٠ الف جنيه للنفقات التمهيدية، ثم واصلت مساعدتها المالية، فانفق سمو الامير عن سعة لتأليف القبائل، وتجميل جهاز الحكومة. ولما وضع صك الانتداب على فلسطين جاء في المادة الخامسة

والعشرين منه نص يتعلق بشرق الاردن فحواه :

« انه يحق للدولة المنتدبة ، بموافقة مجلس عصبة الامم ، ان ترجىء او توقف تطبيق ما تراه من النصوص الواردة في صك الانتداب ، مما يكون غير قابل التطبيق على شرق الاردن ، وان تتخذ ما تراه ملائماً من التدابير لادارة تلك المنطقه وفقاً لاحوالها المحلية . فهي بذلك تدار على اساس صك الانتداب الا المواد المتعلقة بتأسيس الوطن القومي اليهودي فلا تسري عليها . »

وفي ١٦ ايلول ١٩٢٢ اقر مجلس عصبة الامم مذكرة رفعتها اليه الحكومة البريطانية تتضمن نص هذه المادة مع تعيين حدود شرق الاردن ؛ وتعلن انكلترا فيها اضطلاعها بالمسؤولية التامة ، كدولة منتدبة على تلك المنطقة ، بمقتضى احكام صك الانتداب. فقام منذ ذلك التاريخ،الى جانب سمو الامير ،معتمدٌ بريطانيٌ على رأس كتلة من المستشارين انتشروا في دوائر الحكومة . وعهد بقيادة القوة المحلية الى بيك باشا البريطاني ايضاً ، فتقرب من البدو ، واصطبغ بصبغتهم ، فاحسن اسلاس قيادهم .

وكان الملتفون حول سمو الامير من احرار العرب ، قد اطلقوا عليه تيمّناً لقب « منقذ سورية » ، اذ ما كانوا يترقبون منه المحافظة على استقلاله فحسب ، بل العمل على رفع الاغلال عن اعناق الامصار العربية الأخرى ؛ فاذا بهم يرونه ، من بعد الاتفاق مع بريطانيا مضطراً لالتزام جانب السياسة في العلاقات التي ترادفت بينه وبينها ، وكذلك في المناسبات التي حدثت بينه وبين حكومات فلسطين . فوقعت الواقعة بينهم وبينه ، وتوترت العلاقات بين سموه ايضاً وبين اللجنة العربية العليا بفلسطين .

ولما تفاقم الخلاف بين سموه وبين اعوانه بالأمس امر باخراج بعض رجالات سورية وفلسطين من شرق الاردن ؛ ثم لجأ الى قوانين وضعت قصد تشديد الاحكام على المعارضين : مثل قوانين منع الجرائم (١٩٢٧) ، والعقوبات المشتركة (١٩٢٨) والنفي والابعاد (١٩٢٨) . ونفذها فأثار النفوس في الاوساط القومية،ليس في شرقي الاردن فحسب،بل في البلاد العربية الاخرى . على ان سموه شاء،في نفس الوقت،ان يتخذ من موقف المعارضة تجاهه حجة لاقناع انكلترا بوجوب مسايرة الأماني القومية ، وايجاد حكومة دستورية مستقلة وفقاً لتصريحات الوزارة البريطانية سنة ١٩٢٢ ، وطبقاً لتصريح المندوب السامي بفلسطين سنة ١٩٢٣ ؛ وقد قصد الى لندن خريف ١٩٢٢ على امل تحقيق هذه الامنية ، ولكنه لم ينل فيها الا التسويف .

وكأن الانكليز ارادوا صرف اهل شرق الاردن عن الحاحهم في طلب الاستقلال فقدموا مشروع معاهدة . ولمّا اجمعت البلاد على رفضه اتخذوا من هذا الرفض حجة لهم على اهمال المشروع .

وكان سمو الامير لا يبرح يطالب بالاستقلال معتمداً على الرغبات العامة ، فرأى البريطانيون وجوب مسايرته ، فاعلنوا تصريح ٢٥ مايس ١٩٢٣ ، وفيه بعض التطمين للافكار العامة .ولكن هذا التصريح لم يرق ، على ما يظهر للمندوب السامي بفلسطين ، ولذلك كان يعمل على معارضته . ولما آنس الامير ان ابواب الاتفاق مع الدوننغ ستريت ، على اساس المطاليب الشعبية،قد سدت في وجهه ، جرب ان يقف موقفاً حازماً ، فوافق على تأليف لجنة منتخبة وضعت قانوناً لانتخاب المجلس النيابي ؛ كما انه وافق على تأليف لجنة اخرى لوضع القانون الاساسي . فاذا بالامارة تصبح ، بفضل ذلك، على عتبة الحكم الدستوري. وقد ذعرت دار الانتداب من هذا الموقف يقفه سموه ، وبادرت الى مقاومته بالضغط المالي ، كما عملت على توثيق عرى الارتباط الاداري بين شرق الاردن وفلسطين ، واحكمت ارتباط القوات المحلية بين البلدين. فلم يسع الامير تحت هذا الضغط الا ان يرجىء مكرهاً تنفيذ قانون الانتخاب ، وان يهمل مشروع القانون الاساسي .

اما احرار شرق الاردن فلم يزدهم استئثار السلطة وعنادها الا حرصاً على المطالبة بالحياة الدستورية . واظهروا من الثبات والنضال الوانا ، فلم يسع دار الانتداب ، حيال ذلك ، الا ان تنزل عند طلبهم : فاوعزت للحكومة بأن تؤلف لجنة عهدت اليها باعادة النظر في قانون الانتخاب (١٩٢٦) ، واعدت مشروعاً جديداً لمعاهدة .ولما عرف الشعب فحوى هذا المشروع قامت قيامته ، واعلن استنكاره له على اعتبار انه يتنافى مع امانيه. وما ان عمد الامير الى انتخاب مجلس تشريعي في اواسط (١٩٢٨) قصد التصديق على هذه المعاهدة حتى قاومه طلاب الاستقلال ، ولم يعبأوا بسياسة العنف التي لجأ اليها ؛ بل تنادوا الى مؤتمر عقد في عمان (تموز ١٩٢٨)، ووضع ميثاقاً وطنياً على قاعدة الاستقلال والحكم الدستوري ، معلناً ان الانتداب ليس سوى وسيلة لمساعدة فنية فحسب . غير ان الحكومة أدى بها اجتهادها الى المضي في اجراء انتخابات المجلس التشريعي ، وحملت هذا المجلس على تصديق المعاهدة . وبمقتضى هذه المعاهدة (المادة ٢) فان سلطتي التشريع والادارة عائدتان لجلالة ملك انكلترا يزاولهما سمو الامير بواسطة الحكومة الدستورية ! كما ان الامير (المادة ٥) يوافق

على ان يسترشد بنصيحة جلالتـه بواسطة المندوب السامي ، ويتقيد (بمقتضى نص مواد اخرى) بارادته في سن القوانين ، وانشاء القوات العسكرية .

ولقد قابل احرار شرق الاردن هذه المعاهدة، ومثلهم القوميون في البلاد العربية الاخرى ، بالتذمر والألم. وانا لنحسب ان الامير نفسه لم يجار لندن، ولم يرض بهذه المعاهدة الا مكرهاً ؛ يؤيد ذلك انه ما فتىء منذ توقيعها ، يشير في كل مناسبة ، الى تأثيرها السيء، مقترحاً على الحكومة البريطانية تعديلها بما يهدىء من روع الاهلين. ومن اجل ذلك سافر ثانية الى لندن ، حتى اذا استفحل شأن الاضراب في سورية استفاد سموه من هذه الفرصة لاقناع الدوننغ ستريت بوجوب تعديـل المعاهدة . واذا بنا نرى حكومة شرق الاردن تذيع نبأ هذا التعديل. (٢٧ - ١ - ١٩٣٦)

على ان المعاهدة ظلت مع ذلك بعد تعديلها قائمة على اساس الانتداب ، وهو يحرم البلاد من سيادتها ؛ فضلاً عن انها لم تؤمن لشرق الاردن استقلالها المالي ، ولم تطلق لها حرية التمثيل السياسي ، ولم تضع على عاتقها تبعة الامن الداخلي. ولذلك لم ترض عن هذا التعديل اللجنة التنفيذية للمؤتمر الاردني، ولاسائر احرار الاردنيين؛ فظل الموقف على ما هو عليه من الحراجة . ولم يتبدل الا حينما تطور موقف لندن من العالم العربي حيال خطر الحرب العالمية الثانية : فقد استطاع سمو الامير ، لهذه المناسبة، ومن جراء ارتياح لندن لموقفه من ثورة فلسطين ١٩٣٧، ان يحصل على تعديل جديد في المعاهدة بمقتضى اتفاق خاص في شهر ايار ١٩٣٩. ولكن هذا التعديل لم يخرج، مع ذلك، المعاهدة عن نطاق الانتداب.

وقد اذاعت الحكومة البريطانية وقتئذ بلاغاً في صدد هذا الاتفاق ختمته بقولها:

« ووافقت على منح سموه جميع السلطات التي كانت معطاة للموظفين الانكليز وللسلطة الانكليزية بصفتها الدولة المنتدبة على المنطقة » .

والواقع ان بريطانيا العظمى قد جعلت من شرق الاردن خلال الحرب العالمية الثانية ، ولا سيما منذ توترت العـلاقات بينها وبين العراق سنة ١٩٤١ ، مركزاً استراتيجياً حربياً، وعطلت كل سيادة لامارته ، وابرمت مع سموه اتفاقات ثلاثة نشرتها الجريدة الرسمية لحكومة شرق الاردن وهذا ملخصها :

١ ــ يمكن لبريطانيا الاحتفاظ بقوات مسلحة في شرق الاردن ، وانشاء قوات مسلحة فيهـا لصيانة السلام والنظام .

٢ ــ يوافق سمو الامير بالاصالة عن نفسه ، وبالنيابة عن خلفائه وورثائه على ان يتبع نصيحة صاحب الجلالة البريطانية حول الوقت الذي يجب فيه اعتبار الحالة خطرة طارئة .

٣ ــ يوافق سموه ، كذلك ، بالاصالة وبالنيابة عن خلفائه وورثائه ، على ان يصون ذلك القسم من طريق حيفا ــ بغداد الذي يمر بشرق الاردن .

وليس عجيباً ان تفرض بريطانيا ارادتها باحتلال البلاد عسكرياً ، وانما العجيب أن توجب على سموه مثل هذا الاتفاق ، بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن ورثائه وخلفائه ، بما يحمل على الاعتقاد انها كانت تطمع بان يظل احتلالها العسكري قائمـــاً الى الابد .

وبالفعل فقد اتخذت لندن شرق الاردن مصدراً للحملة التي ساقتها على العراق برئاسة كلوب باشا (ابي حنيك) قائد جيش شرق الاردن . كما جعلت عمان مقراً للمؤتمرات المتواصلة في سبيل تأييد هذه الحملة والقضاء على حكومة رشيد عالي بك الكيلاني ، وقد طاردت شرطة عمان كل من اشتبه به انه من مؤيدي الحركة الكيلانية .

العراق

تمكنت انكلترا من اخماد الثورة العراقية التي نشبت صيف ١٩٢٠ ، ولكنها، مع ذلك ، لم تستسلم للعاطفة ، بل اتخذت من هذه الثورة عظة وذكرى؛ فبينما كان مجلس العموم البريطاني يحمل عليها لكثرة ما تنفقه في سبيل تأييد الحكم بالعراق شرعت هي تصغي الى النصائح التي ما زال بعض ساستها يدلون بهـــا ، وتتلخص بضرورة مراعاة شعور العراقيين الاستقلالي .

وبالفعل فقد عمد المندوب السامي السر برسي كوكس ، عملاً باحكام مؤتمر السلم، الى تأليف حكومة وطنية عهد برئاستها الى السيد عبدالرحمن النقيب كبير الاسرة الكيلانية ببغداد ، على ان يقوم الى جانبها مجلس للشورى . ولما شعرت لندن بان العراقيين لم يرتاحوا لهذه الحكومة التي تحكم باسم المندوب السامي ، ويتصرف بشؤونها المستشارون ، عطفت على فكرة انشاء دولة عراقية ؛ واستعرضت اسماء شخصيات عدة كمرشحين لرئاستها ؛ وكان بينهم اسم الامـــير فيصل ملك سورية سابقاً النازل في اوروبا . ولما استقر رأي حكومة جلالة الملك على تحقيق هـذه الفكرة اولت الامير فيصلاً ثقتها فتوجه الى العراق ، وما كادت قدماه تطآن ارض بغداد حتى فاجأه مجلس الشورى باتخـاذ قرار اجماعي (١١ تموز ١٩٢١) بالموافقة على اقتراح السيد عبد الرحمن النقيب المتضمن مبايعة الامير فيصل بالملك على عرش العراق. ولما جرى الاقتراع على ذلك نال فيصل ٩٧ بالمئة من الاصوات، فبويع ملكاً على العراق (٢٣ آب ١٩٢١) .

وكان الامير فيصل قد اقترح ،قبل اعتلائه العرش، وخلال مفاوضات لندن ، ان يصاغ الانتداب على شكل اتفاق ، واخذ وعداً من المستر تشرشل بتحقيق هذا الاقتراح. واستناداً الى هذا الوعد استأنف ملك العراق المفاوضة مع البريطانيين ، واسفرت مساعيه عن عقد المعاهدة الاولى في ١٠ تشرين الاول ١٩٢٢ . وقد اعلن رسمياً ،حين عقدها،انها الخطوة الاولى لاجل الغاء الانتداب .وجلت القوات البريطانية عن العراق في غرة تشرين الاول ١٩٢٢ ، ما عدا قوة الطـــيران ، وانشىء الجيش العراقي .

ولكن العراقيين لم يرتاحوا ،مع ذلك،لمعاهدة تقوم على اساس الانتداب،وتقضي عليهم بالاستمرار على قبول الارشاد والاحتلال العسكري ، وتستمهلهم عشرين سنة اخرى لنيل الاستقلال، فثارت ثائرتهم على هذه المعاهدة وتحول المجلس التأسيسي الى بركان عند عرضها عليه(١٩٢٤) ولكن المعاهدة خرجت ، مع ذلك ، مذيلة بمصادقته .

ولا بدع فقد كانت تحيط بالمجلس حين عرض المعاهدة عليه القوة العسكرية ، وتمطره بتهديدات المفوض السامي ووعيده،وانه يستعيد الحكم المباشر اذا لم يصادق المجلس على العهدة ؛ فما كان بوسع المجلس الا ان يعترف بالامر الواقع .

غير ان لندن ارادت ان تتدارك النفور العام فوقعت في العام التالي من عقد هذه المعاهدة ، اي في سنة ١٩٢٣ ، بروتوكولاً عدل مدتها فجعلها تنتهي بدخول العراق عضواً في جمعية الامم ، على ان لا تتجاوز هذه المدة اربع سنين من تاريخ عقد الصلح مع تركيا . وفضلاً عن ذلك فانها جربت ان تجعل ممثليها في العراق يظهرون بمظهر خفيف الظـــل ؛ فكانوا يسلكون في الوظائف الموكولة اليهم مسلك المرؤوسين .

والواقع ان نفوذ الانكليز ظل يتجلى،على رغم هذا المسلك ، في حمل الغير على الانقياد لهم .وكان المجلس التأسيسي قد صادق ايضاً على القانون الاساسي ، وقانون انتخاب مجلس الامة .وفي ١٦ تموز ١٩٢٥ عقد مجلس الامة جلسته الاولى وافتتحها جلالة الملك فيصل الاول .

ثم عرضت قضية الموصل ، فاغتنم البريطانيون فرصة انعقـــاد مؤتمر انقرة ، ومطالبة تركيا لهم بهذا الجزء من العراق لحمل البرلمان ببغداد على ابرام المعاهدة الثانية (حزيران ١٩٢٦) ؛ وبها تمدد اجل المعاهـــدة الاولى الى خمس وعشرين

سنة واعترف العراق بالانتداب صراحة ، واستكان لانشاء ادارات ممتازة في بعض مناطقه الشمالية تحكم تحت اشراف المندوب السامي المباشر .

والواقع ان هذه المعاهدة ، التي عقدت تحت ضغط الخطر التركي ، كانت رجعة الى الوراء ، فكان من الطبيعي ان يتجلى الم العراقيين منها ، ولا سيما بعد ان تمّ ابرام معاهدة انقرة التي ايدت حق العراق بالموصل ؛ وزال الخوف على هذا الجزء العراقي المهدد .

ولما كان بروتوكول نيسان ١٩٢٣ ، الذي اشرنا اليه ، حدد مدة انتهاء المعاهدة الاولى بدخول العراق عضواً في جمعية الامم على ان لا تتجاوز هذه المدة اربع سنين ابتداءً من تاريخ ابرام الصلح مع تركيا ، وبما ان معاهدة لوزان عقدت سنة ١٩٢٤ ، اصبحت تلك المعاهدة العراقية – الانكليزية تنتهي في عام ١٩٢٨ . فسافر الملك فيصل الى لندن (آب ١٩٢٧) للمفاوضة بشأن الاعتراف باستقلال العراق ، وادخاله في جمعية الامم ، وتحديد المصالح البريطانية فيه . وانضم اليه جعفر باشا العسكري رئيس الوزارة العراقية وقتئذ . وقد اعترضت الفريقين المتفاوضين صعوبات كانت وليدة اختلاف وجهتي النظر بينهما ادت الى انقطاع المفاوضات . وغادر جعفر باشا عاصمة انكلترا ، ولكنه ما ان وصل الى الاسكندرية حتى قفل عائداً الى بريطانيا بناءً على الامر الوارد اليه من جلالة ملك العراق . واستؤنفت المفاوضات في ٢ كانون الاول ١٩٢٧ . وربما كان لاقتحام الوهابيين الحدود العراقية الاثر الشديد في تراجع المفاوض العراقي عن موقف التصلب ، فانتهت هذه المفاوضات بالتوقيع على المعاهدة الثالثة في ١١ كانون الاول ١٩٢٧ .

وما ان ذاع فحوى هذه المعاهدة في العراق حتى عم الاستياء كلا من الحكومة والشعب . وكيف لا والعراقيون ، الذين كانوا ينتظرون بفارغ صبر حلول عام ١٩٢٨ لبلوغ الاستقلال استناداً الى البروتوكول المذكور ، وللاشتراك في عصبة الامم ، رأوا في المعاهدة الحديثة استمهالاً جديداً . وزاد في نقمتهم العامة تلك البنود المالية والعسكرية التي عرضتها انكلترا كتتمة للمعاهدة ، والتي من شأنها توثيق عرى الانتداب .

وازاء السخط العام ، واختلاف رأي الاحزاب المشتركة ، في الوزارة بصدد هذه المعاهدة ، استقالت وزارة جعفر باشا (٢٨/١/١٨) ، وخلفتها وزارة عبد المحسن بك السعدون التي حلت المجلس النيابي ، وعملت على انتخاب مجلس من

انصارها . ولكنها مع ذلك ، ورغم ان المجلس هو صنع يدها ، فقد تهيبته وارجأت عرض المعاهدة عليه ريثما تنتهي المفاوضات على ملحقها المالي والعسكري. ولم يكن بوسع الوزارة السعدونية الا التأثر بالشعور العام ، كما تأثر المجلس قبلهـــا ، فلم تتساهل في المفاوضات التي جرت بشأن هذين الملحقين ؛ كما ان المفاوض الانكليزي لم يتراجع عن تصلبه ، فاضطرت الوزارة الى الاستقـــالة (٢٠ / ١ / ١٩٢٩) . وخلف السعدون في رئاسة الوزارة توفيق بك السويدي ؛ وصادف ان تعين وقتئذ مفوضاً سامياً في العراق السر جلبرت كلايتن ، فترقب الساسة تبدلاً محسوساً من جراء وجوده . ورأت الوزارة الجديدة ان تتحول الى طريقة يستطاع بها انهاء حكم المعاهدات بواسطة دخول العراق في عصبة الامم . واعرب السر كلايتن عن استعداده لتأييد الحكومة في هذا المسعى. وفعلا فقد شرع المفوض السامي المشار اليه، يلح على وزارة العمال ، منذ تبوأت الحكم للمرة الاولى ، في لزوم اتخـــاذ قرار عاجل فيما يتعلق بالاقتراحات العراقية . ولمـا لوحظ ان الازمـة السياسية اوشكت ان تحل ،عُهد الى عبد المحسن بك السعدون بتأليف وزارة جديدة اشترك فيها حزب ياسين باشا الهاشمي المعارض .وتألفت لجنة وزارية قوامها هذان الوزيران وناجي باشا السويدي للمفاوضة . ومع ذلك فقـــد اعترضت المفاوضات عقبات كأداء وتصلب من الفريقين ممـــا حمل رئيس الوزارة العراقية على اليأس والانتحار .

ورغم ان خلفه ناجي باشا السويدي معروف باعتداله فقـد كان شديد التأثر بالرأي العام فلم يقدر له الوصول الى حل .

وما ان استلم الحكم نوري باشا السعيد (٢٣/٣/١٩٣٠) حتى اتى بما لم تستطعه الاوائل: فاقدم على توقيع معاهدة جديدة في ٣٠ حزيران ١٩٣٠ . وعمد الى حل المجلس النيابي وانتخاب مجلس آخر من انصاره ، ثم لم يلبث ان صادق على هذه المعاهدة غير عابىء بالانتقادات الحادة التي كانت توجه اليه .

وفي الواقع فان المعاهدة ، وان احتفظت ضمناً بالسيادة الانكليزية ، فيما عدا الشؤون الاقتصادية والتجارية ، إلا انها جاءت مليئة بالتظاهر بمراعاة شعور العراقيين : فهي قد اعترفت باستقـــلال العراق ، ووعدت ببذل المساعدة لادخاله في عصبة الامم ، فضلاً عن انها حلت بعض القضايا الاقتصادية والمالية .

وكأن الانكليز ارادوا ان يصرفوا الرأي العام العراقي عن دعايات المعارضين

الشديدة ضد المعاسدة ، فعملوا على الهائهم بالثورات : ولم تكد الحكومة السعيدية تقضي على ثورة اكراد السليمانية في مهدها حتى برز للميدان الشيخ محمود الزعيم الكردي،وبلغ من جرأته انه دخل العراق على رأس قوة مسلحة .وقدم طلباً الى المندوب السامي الانكليزي يكرر فيه نغمة انشاء حكومة كردية في كردستان تحت الانتداب الانكليزي . ولكن القوات العراقية انقضّت عليه ، والجأته الى الاستسلام يوم ١٣ مايس ١٩٣١ .

ولعل جلالة الملك فيصل كان قد اطمأن الى ان العراق قطع بهذه المعاهدة العقبات الكأداء التي كانت في طريقه الى الاستقلال ، فتحول الى الحلف العربي يسعى لتحقيقه ، والى الاتصال بالدول المجاورة للتفاهم معها على حسن الجوار . فاذا بوفد عراقي يستقل طائرة برئاسة فخامة رئيس الوزارة متجهاً الى الامصار العربية ،فيوقع اولاً على معاهدة صداقة وتعاون عراقية – اردنية (٢٦ آذار ١٩٣١) ، ثم يعززها بالتوقيع على معاهدة اخرى مع المملكة السعودية (٧ نيسان ١٩٣١) تنص على الصداقة وحسن الجوار .

ولما أراد الوفد مغادرة مكة انقسم هناك الى شطرين ،قصد احدهما الى القاهرة حيث وقع على معاهدة بشأن تسليم المجرمين (٢٠ نيسان ١٩٣١) ، وأمّ الآخر صنعاء فوقع على معاهدة صداقة وولاء بين العراق واليمن .

وجاء دور جلالته فلبى دعوة رئيس جمهورية تركيا في تموز ١٩٣١ ، واكتسب فرصة وجوده في انقرة لافتتاح المفاوضات في الشؤون التجارية وحسن الجوار . ثم واصل الرحلة الى ڤينا وفرنسا . كما انه اجاب دعوة شاه ايران في السنة التالية وبحث في طهران الشؤون المعلقة بين المملكتين .

وانتهى عهد الانتداب البريطاني يوم ٣ تشرين الاول سنة ١٩٣٢ وذلك بدخول العراق عضوا في عصبة الامم . فبلغت مدة الانتداب فيه اثنتي عشرة سنة ، ابتداء من ٢٧ تشرين الاول سنة ١٩٢٠ ، تعاقب خلالها اربع عشرة وزارة في بغداد .



الفصل السادس

عصر الاستقلال في بلاد العرب

منطقة الهلال الخصيب

تجتاز الامم في طريق الحياة مراحل عدة ، يتجه بعضها صعداً نحو العلاء ، كما ينحدر بعضها الآخر شطر الهبوط . وهكذا كان شأن العالم العربي : فقد مرّ في تطوره بمراحل شتى ؛ فانحط بعد العلاء، وصادف عهد انحطاطه ابان نهوض الغرب ، واختيار التمدن الحديث .

ثم دالت الأيام فاذا بالعرب يستيقظون ، واذا بهم ، وقد قوي الوعي القومي العالمي ، يتذكرون امجادهم وقوميتهم التي لها من المفاخر ما يجعلها في مستوى اسمى القوميات .

وقد انعقدت هذه الذكريات التاريخية على امانٍ ما لبثت ان خرجت، خلال الحرب العالمية الاولى، من حيز الفكر الى حيز العمل . وما انتهت الحرب حتى كان جلالة الملك حسين (شريف مكة) يشترك في مؤتمر السلام العالمي ، ويجلس ممثلوه باسم الامة العربية الى جانب مندوبي العالم لحل مشاكله ، ثم يحتلون ايضا مقاعدهم في عصبة الامم. ولم يغادر مندوبوه هذه العصبة، وذلك سنة ١٩٢٠، إلا احتجاجاً على حلفائه الذين نكثوا بعهودهم للامة العربية ؛ تلك العهود الرنانة التي قطعوها لها اثناء اشتعال نيران الحرب . على ان البلاد العربية، التي منيت بعد الحرب بالتجزئة ، ومنيت بالحمايات والانتدابات ، لم تيأس ، بل ظلت تناضل عن قوميتها ، وتجاهد في سبيل استقلالها حتى انجلى الموقف عن اعلان استقلال الواحدة منها تلو الواحدة . وهذا الفصل يلم بالخطوط الكبرى لتاريخ الدول العربية التي اتيح لها الاستقلال ، وذلك في المنطقة المعروفة بالهلال الخصيب ، ويجمل احداث فلسطين بعد الانتداب ، واما بقية الدول العربية المستقلة فسيأتي الكلام عليها في الفصل التالي .

مملكـة العراق

١ – **العراق قبل الحرب العالمية الثانية** : دخل العراق عضواً في عصبة الامم يوم ٣ تشرين الاول ١٩٣٢ ، فكان هذا الحدث بمثابة بداية عهد الاستقلال . وبمقتضى قانونه الاساسي الذي ينص على ان العراق دولة ذات سيادة حرة ، وحكومـــة ملكية وراثية نيابية ؛ اخذت حكومات العراق المتتالية تمارس تدريجاً الحكم المستقل ضمن نطاق معاهدة ١٩٣٠ مع بريطانيا العظمى . فألغيت الامتيازات الاجنبية ، ما عدا الاحوال الشخصية التي حددت بقانون خاص ، وبات الاجانب يخضعون لنظام قضائي يتساوون فيه مع سكان البلاد الوطنيين . كما ان حكومات بغداد شعرت بالتبعات تلقى ،من بعد ،على عواتقها،فازدادت اهتماماً بالاصلاح العام، وخصوصاً في ناحية التربية والتعليم، وتوجيهها وجهة قومية ، وفي ناحية مشاريع الريّ . ومع ان وزارة الدفاع ظلت تستعين ببعثة عسكرية انجليزية للمشورة ، فقد سنت في أوائل سنة ١٩٣٤ قانوناً للخدمة العسكرية الاجبارية . هذا فضلاً عن اهتمام حكومات العراق ، منذ عهد الاستقلال ، اهتماماً بارزاً بالعروبة ؛ وبالعمـل على التقريب بين الحكومات العربية بالمعاهدات والمحالفات .

واما الاحداث الداخلية في العراق فتتلخص بما يلي :

ودعت وزارة نوري باشا السعيد الحكم في ٢٧ تشرين الاول سنة ١٩٣٢ عـلى اعتبار ان مهمتها انتهت بدخول العراق في عهد جديد ، فانتدب جلالة الملك فيصل الاول السيد ناجي شوكة لتأليف الوزارة الاولى في هذا العهد .

وكان العراقيون غير قانعين بمعاهدة ٣٠ حزيران ١٩٣٠ ، ومستخفين بذلك الاستقلال الذي قام على أساسها ، فلم تستطع الوزارة ان تصمد للمعارضة. فخلفتها وزارة السيد رشيد عـالي الكيلاني (٢٠ آذار ١٩٣٣) واعلنت في منهاجهـــا الوزاري انها تسعى لتعديل المعاهدة . وأراد جلالة الملك ان يستمزج رأي السفير البريطاني بما ورد في المنهاج الوزاري قبل الموافقة على نشره فاعترى السفير هزة ، وقال : « ليس من الصحيح ان توجه الانظار الى امثال هذه الاوهام ...! » وآلم هذا الجواب الوزارة ،ولولا اصرار الملك لما رضيت البقاء في الحكم .

على ان حكومة لندن ، وقد شعرت بغليان الرأي العام ونقمته على هـــذا

الاستقلال المنقوص ، شاءت الاستعانة بالمجاملات لتهدئة الافكار ؛ فكما وجهت دعوة الى الحكومة العراقية للاشتراك في المؤتمر الاقتصادي الدولي الثاني ، الذي عقد في لندن ١٩٣٢ ، كذلك وجه جلالة الملك جورج الخامس دعوة الى جلالة الملك فيصل لزيارة بريطانيا العظمى زيارة رسمية لمناسبة دخول العراق عضواً في عصبة الامم . ولما بلغ جلالته لندن (٢٠ حزيران ١٩٣٢) استقبل استقبالاً منقطع النظير ، واقيمت له الحفلات الفخمة التي تشير الى منزلته في عاصمة الدولة .

ولكن الديبلوماسية البريطانية لم تكتف بالمجاملات في مواجهة الرأي العام العراقي الناقم ، بل لجأت الى وسائل اخرى ؛ واذا بجلالة ملك العراق الذي غادر لندن مسروراً من زيارتها يفاجأ في برن (المصيف الذي اختاره في سويسرا للاستشفاء) بانباء فتنة التيارين (١) ، وما تخللها من احتجاجات الحكومة البريطانية المتوالية على موقف العراق الشديد ازاء الثائرين ؛ واذا به يصطدم بانتقادات الصحف العالمية المرة الموجهة للعراق على اثر استعمالها القوة في سبيل اخماد الثورة .

وكان الباعث على فتنة التيارين انهم اعربوا الى عصبة الامم عن تعلقهم بالانتداب الانكليزي مذ جرى بحث استقلال العراق. ولما ردت العصبة احتجاجهم بمقتضى قرار (١٤ - ١٢ - ١٩٣٢) مكتفية بالتوصية في اسكان من لا ارض له منهم قاموا بفتنة قابلتها الحكومة بشدة . وقد اثرت هذه المؤامرة على صحة الملك فيصل ، خصوصاً وان الحكومة البريطانية عمدت الى حمله على انتقاد موقف حكومته ازاء التيارين ؛ ثم لما تأكد لديها ان بغداد ماضية في سبيل كبح جماح الثائرين تحولت لاقناع جلالته بان يعود الى عاصمته لمداركة الامر بشخصه . وقد فعل ، ولكنه ما كاد يبلغ دار السلام (٥ آب ١٩٣٢) حتى كان كل عصيان قد اصبح في خبر كان .

غير ان هذه الاحداث المؤلمة ، وما جرته من الحواشي ، لم تمض بسلام ، في الحقيقة ؛ بل اقضت مضجع جلالته حتى ذهبت بحياته . اجل فان هذه الاحداث

---

(١) التيارون ربما كانوا من بقايا الآشوريين ، وكانوا من رعايا السلطنة العثمانية فغدروا بها اثناء الحرب العالمية الاولى منضمين الى الجيش البريطاني في حملته على العراق . ولما دخلت العراق في منطقة نفوذ بريطانيا نزلوا في الموصل ، فكانت ترعاهم وكانوا لها يداً . اشتركوا معها في محاربة الثورة العراقية ، ثم حاولوا معارضة استقلال العراق .

قد اثارت في جسم جلالتـــه النحيل عناصر المرض فخف الى برن للاستشفاء والاستجمام ؛ وتوفي هناك ليلة ٨ ايلول ١٩٣٣ .

وبادر العراق لمبايعة وحيده باسم غازي الاول ،وذلك في نفس اليوم الذي مات فيه ابوه . وكان البريطانيون يتوقعون تبدلاً في السياسة الخارجية بعد وفاة الملك فيصل . ولكن وزارة رشيد عالي بك الكيلاني اعلنت في بيانها الوزاري انهـــا ستتابع نفس السياسة التي كانت عهد المليك الراحل . غير ان هذه الوزارة لم تلبث ن رفعت استقالتها في ٢٨ - ١٠ - ١٩٣٣ لان جلالته أبى عليهـــا حل المجلس النيابي ؛ وخلفتها وزارتان رأسهما السيد جميل المدفعي . وخلال ذلك ابرم المجلس النيابي (٢١ نيسان ١٩٣٤) لائحة قانون الاعمال العمرانية الرئيسية ، وهي تنص على ارصاد ثلاثة ملايين وتسعمائة وسبعة وثمانين الف دينار تنفق على اقامة سد في الحبانية ، وآخر في كوت العمارة لاحياء اراضي الغراف ، ولاقامة جسرين عـلى نهر دجلة ؛ فضلًا عن مشاريع اخرى ثانوية .

والواقع ان العراق شرع يفتقد فيصلًا الاول كلما مر يوم على وفاته ، فقـد ساءت احوال الادارات العامة من بعده ، وكثرت الشكاوى في الالوية من بعض الموظفين ، وتردد صداها في البرلمان . ولم تستطع وزارة جميل بك المدفعي ، ولا وزارة السيد علي جودت الايوبي ، التي خلفتها (٢٧ آب ١٩٣٤) ، ان تقمعا روح التمرد على النظام الذي استفحل امره .

وكانت وزارة الايوبي قد استصدرت ارادة ملكية بحل المجلس النيابي ، وعملت على انتخاب مجلس آخر يؤيدها،ولكن أتباعهـــا اساليب حزبية اثناء الانتخابات كان باعثاً على تقوية المعارضة ، وقيام ثورات لاحقة : فان الوزارة الايوبية ، وان امنت جانب المجلس النيابي الجديد، وهو صنيعها،الا انها اصطدمت بمجلس الاعيان الذي شرع يتولى زمام المعارضة ، وانضم اليـــه رؤساء القبائل المسلحـة الذين عارضتهم الحكومة اثناء الانتخابات ، ولم يكن لهم حظ في النيابة . فكان نضال بين مجلس الاعيان ، ومن ورائه هؤلاء الرؤساء،وبين الحكومة ومن ورائها قبائل اخرى ؛ نضال تفـــاقم شره تحت ستار الدفاع عن الدستور حتى كاد يؤدي الى الالتحام ، واراقة الدماء .

ولم يوفق السيد جميل المدفعي الذي خلف السيـــد الايوبي في رئاسة الوزارة (٢٣ شباط ١٩٣٥) في اقناع المعارضـــة للاشتراك في وزارته ؛ وخصوصاً

العناصر التي كانت موضع ثقة القبائل . ولما استأنفت هذه القبائل السعي لاسقاط الوزارة بالقوة ، وعلى رأسها الشيخ عبد الواحد سكر في لواء الديوانية ، وزحف الجيش لتأديبها معززاً بالقبائل الموالية خف جلالة الملك غازي واعلن رغبته في حقن الدماء ، فاستقالت الوزارة .

ورغم أن السيد ياسين الهاشمي الذي الف الوزارة التالية (١٧ آذار ١٩٣٥) بادر الى استعطاف المعارضين بحل المجلس النيابي مدار نقمتهم ، وقام بانتخاب مجلس آخر على اساس حرية الانتخاب ، فضلاً عن انه حلّ حزب الحكومة بغية اظهاره حيادها ، رغم كل ذلك ، كان عهده حافلاً بالفتن ، في شمال العراق وجنوبه ، ولا سيما في الفرات الاوسط . وذلك للاسباب التالية :

١ ــ دسائس المعارضة على الوزارة الهاشمية اسوة بغيرها .
٢ ــ سوء الادارة من قبل الموظفين في بعض الالوية .
٣ ــ اجتهاد الوزارة في تطبيق قانون التجنيد ، غير مبالية بالعراقيل التي كان يضعها خصومها في هذا السبيل .

هذا الى ان الوزارة الهاشمية كانت قد اخذت تحصد الاشواك التي القى بذورها حزب الاخاء الوطني المنسوب لرئيسها . فهو قد استعان بالقبائل من اجل معارضة وزارة السيدين الايوبي والمدفعي ، ولما اسندت الوزارة للهاشمي نفخ المعارضون في نفس البوق ، فكانت مؤامرة المعارضة مع الجيش برئاسة الفريق بكر صدقي مما ادى الى استقالة الوزارة الهاشمية لتخلي مكانها الى زعيم المؤامرة السيد حكمت سليمان (٢٩ تشرين الاول ١٩٣٦) .

على أن هذه الحقبة وان منيت بفوضى السياسة إلا انها لم تخل من آثار محمودة في النواحي الاصلاحية : فيذكر لحكومة دولة الايوبي منحها وزارة المعارف مخصصات اضافية لفتح ٨٢ مدرسة اولية جديدة ، علاوة على التخصيصات في ميزان عام ١٩٣٤ ، وكذلك موافقتها على تنفيذ مشروعي جدول الاسحاقي ، وجدول الحويجة ، وهما من الاعمال المهمة في الري . اما مآتي وزارة دولة الهاشمي فأهمها :

١ ــ الاتفاق مع ايران على سحب العراق شكواه التي قدمتها وزارة الايوبي الى عصبة الامم ، على ان يحل الخلاف بينهما مباشرة . ٢ ــ معاهدة اخوة وتحالف بين العراق والمملكة السعودية ، وبدء مفاوضات مع حكومة اليمن التي انضمت الى هذه المعاهدة سنة ١٩٣٧ . ٣ ــ التوقيع على معاهدة تجارية بين المانيا والعراق لتبادل التعامل على اساس معاملة اكثر الامم حظوة . ٤ ــ انتقال جميع الحقوق التي كانت للحكومة البريطانية في السكك الحديدية الى العراق لقاء اربعمائة الف جنيه انكليزي . ٥ ــ المباشرة بفتح ترعة الحويجة قصد تسهيل جريان الري من مياه الزاب الاصغر .

٦ ـ تأسيس المصرف الزراعي الصناعي لتسليف الزراع واصحاب المعامل . ٧ ـ زيادة المخصصات المعارف سنة فسنة منذ عهد الاستقلال . فقد كانت لعام ١٩٣١ ـ ٣٢ تبلغ ٢٨٨،٧٢٥ ديناراً اي بنسبة ٧،٩٩ في المئة من الميزانية . فتزايدت على مر السنين حتى بلغت عام ١٩٣٦ ـ ٣٧ ٤٩٠،٨٥٦ ديناراً ، اي بنسبة ١٠،٣٧ في المئة من الميزانية .

هذا وكان جعفر باشا العسكري قد قتل اثنـــاء المؤامرة على وزارة الهاشمي وخيف الفتك بسائر اركان الوزارة المنحلة ، فبـــادر السفير البريطاني الى تقديم مذكرة الى الحكومة السليمانيـــة يلقي عليها تبعة اي اعتداء يقع على الزعماء المذكورين؛ كما ان الحكومة بدا لها، من بعد، ان توعز اليهم بمغادرة العراق. وربما كان الفريق بكر صدقي احرص من غيره على الخلاص من الهاشمي وسائر المعارضين تمهيداً لغاية كان يضمرها ؛ الا وهي الاستئثار بالحكم أسوة بمصطفى كمال وبهلوي وغيرهما من الدكتاتوريين العصاميين . على ان هذه الحكومة وان أعلنت انها ستتبع سنة فيصل في سياستها الخارجية متمسكة بالمبدإ العربي، وافرجت عن الصحف المعطلة، وسمحت بدخول الكتب الممنوعة ومنها كتابي (الانتدابان في العراق وسورية)؛ ورغم انها اعتمدت على الاذاعة في الصحف العراقية وغيرها واعتمدت على الشباب ، الا ان الظنون ظلت تحوم حول شعوبيتهـا . على ان الفريق بكر صدقي وجماعته وان فاتهم الايقاع بالهـاشمي والكيلاني والسعيد ورفقائهم الذين غادروا العراق الا انهم لم يوفروا بعض أنسباء هؤلاء الزعماء ، فتآمروا على قتلهم ، واقصوا بعضاً آخر عن الوظائف ليضعوا فيها انصارهم .

والواقع ان ياسين باشا الهاشمي لم يسلم من اذاهم ايضاً . فقد اصيب من جراء هذه النكبات بنوبة قلبية لم تمهـله غير لحظات ، وتوفي في بيروت يوم ٢١ كانون الثاني ١٩٣٧ .

على ان نجم هذه الوزارة بدأ يأفل منذ اوائل صيف ١٩٣٧ : فقد كانت الدعوة للتجنيد العام وسيلة لهيـاج حفيظة رؤساء القبائل المعارضين . وهم على أشد النقمة عليها لشمولها بالعناية زملاءهم الرؤساء الآخرين المناصرين لها . وما القت الحكومة القبض على بعضهم الا ونشبت الثورة في السماوة بلواء الديوانية .

وبدأت المعارضة تتنفس الصعداء ، على اثر ذلك ، فاذا بالسيد جميل المدفعي يقوم في مجلس الاعيان يوم ٢٦ حزيران ١٩٣٧ وينتقـــد بشدة تدخل الجيش في السياسة وهيمنته على الشؤون العـامة . ثم لم يمض الا القليل حتى كان احد الجنود ينقض على الفريق بكر صدقي في ميدان الطيران بالموصل فيرديه (١١ آب ١٩٣٧)؛

ثم يذيع السيد محمد امين العمري بياناً يعلن فيه انه قطع علاقته ببغداد ، وتولى السلطة في الموصل مستقلاً مؤيداً من حكومتها .

اما السيد حكمت سليمان فلما يئس من إثناء العمري عن عزمه ابرق الى السيد جميل المدفعي في دمشق يناشده الحضور الى بغداد ؛ وكان يحاول ان يدعم وزارته به ؛ ولكنه لم ير بداً من الاستقالة والتخلي له عن المنصب . وهـذه أهم الاحداث الخارجية التي حصلت في وزارته :

١ ـ انتهاء المفاوضات مع اليمن وقبولهـا الانضمام الى المعاهدة العراقية السعودية . وقد وقع الامام يحيى هذه العهدة يوم (١٧ صفر ١٣٥٦ ـ ٢٩ نيسان ١٩٣٧) ٢ ـ تمديد المعاهدة العراقية التركية ٣ ـ معـاهدة حسن جوار بين العراق وسورية ٤ ـ معاهدة صداقة بين العراق وايران ٥ ـ التوقيع على ميثـاق سعد آباد بين تركية وايران والعراق يوم ٨ تموز ١٩٣٧ . وقد صدق مجلس الامة بلندن بتاريخ كانون الثاني ١٩٣٨ هذا الميثاق .

ولما الف السيد جميل المدفعي يوم ١٧ آب ١٩٣٧ الوزارة رحب جيش الموصل بالخبر ، واعلن قائده العام السيد العمري رجوع الحالة الى طبيعتها ؛ كما ان حكومة بغداد أصدرت قانوناً بالعفو عن جميع الاشخاص الذين اغتالوا الفريق بكر صدقي على اعتبار ان الدافع لهم انما هو المصلحة العامة .

وظهر اتجاه المجلس النيابي الجديد شطر الوحدة العربيـــة ، وعطف الحكومة والشعب على قضية فلسطين ؛ ولكن سرعان ما اضطربت جلسات هذا المجلس منذ آذار ١٩٣٨ بسبب المشكلات المالية ، وموقف الحكومة من الشيوعية ؛ ثم بسبب انتكاس قضية مصرع بكر صدقي بك خلال الصيف ، واثارة الجدل حول معرفة المسؤول عن مصرعه . ولكن حكومة دولة المدفعي مضت مع ذلك في تحقيق برنامجها الاصلاحي فوضعت مشروع الخمس سنوات لانشاء الطرق والجسور والمواصلات البريـــدية والتلفونية والبرقيـة ، وذلك بانفاق ثمانية ملايين و ٢٥٠ الف دينار . ومنها ستة ملايين تستوفى من شركة النفط العراقية ؛ كما انها اوفدت ستة وسبعين طالباً الى الجامعات الاوروبية .

وفي تشرين الثاني الف الوزارة تكراراً السيد جميل المدفعي ، وكانت باكورة اعمالها انشاء لجنة لدرس مشروع تأسيس مصرف وطني . غير ان المعارضة تفاقم امرها في العاصمة الى حد انها صرفت الحكومة عن كل شيء آخر . ولم ير السيد المدفعي من جراء ذلك بدا من اللجوء الى الشدة فابعد ستة زعماء عن بغداد الى خارجها ، بينما ظل هو يتابع سياسة حمل الرأي العام على نسيان الانقلابات التي توالت . فعاد

نوري باشا السعيد الى وطنه ، ورجع ايضا السيد مولود مخلص ، وانتخب رئيسا للمجلس النيابي . وفي غرة كانون الاول جرت الانتخابات النيابية ، فاحرزت فيها الحكومة الكثرة الساحقة ، وتوّج المجلس اعماله بقرار قضى بأن تراقب الكتب التي تضر بالقومية مراقبة شديدة . ولما سقطت حكومة المدفعي وتولى نوري باشا السعيد تأليف الوزارة محتفظاً لنفسه بوزارة الخارجية ، نشط خصوم جميل بك لمناقشته الحساب فرفع بعض النواب تقريراً مؤرخاً في ٢٢ شباط ١٩٣٩ الى رئاسة المجلس يتهمون بـه رئيس الوزارة السابق وحكومته تهماً كثيرة . فاسدل جلالة الملك الستار على هذه المشاغبات بمرسوم ملكي صدر في ٢٥ من الشهر المذكور يقضي بحل مجلس النواب . واحتفل في ذلك اليوم بوصول اول قطار من حلب الى الموصل .

على ان وزارة دولة السعيد اصبحت ، من بعد ، هدف المعارضين ، واذا بمؤامرة عليها تظهر بين بعض شيوخ القبائل عن طريق الاتصال بضباط الجيش . فقضت عليها الحكومة بحزم وشدة ، وساقت الى المحكمة العسكرية مدبريها ، وفي طليعتهم السيد حكمت سليمان والكولونيل صالح صائب . وبعد مضي يومين من الاحتفال بتدشين سدة الكوت المعروفة باسم مشروع الفرات اعلن (١٩٣٩/٣/٢٦) ان الحكومة الجديدة التي الفها ايضاً نوري باشا السعيد قررت اذاعة منهاجها الوزاري بالمذياع لعدم وجود مجلس نيابي . وقد تطرق المنهاج الى الحلف العربي واعتزام الحكومة تحقيقه ، والعمل على استقلال البلاد العربية المجاورة . ثم جرت انتخابات المجلس النيابي وعرفت نتائجها في ٨ حزيران ١٩٣٩ . فاذا بحزب الاخاء الوطني يحتل اكثر مقاعده ، وذلك بكثرة كبرى .

٢ – **العراق خلال الحرب العالمية الثانية** : كان نوري باشا السعيد عند اشتعال هذه الحرب رئيساً للوزارة ، ووزيراً للخارجية فاستصدر في ٥ ايلول ١٩٣٩ قراراً من مجلس الوزراء يقضي بقطع العلاقات السياسية مع المانيا . ثم لما دخلت ايطاليا الحرب كانت رئاسة الوزارة قد صارت لرشيد عالي باشا الكيلاني ، وكان نوري باشا يتولى وزارة الخارجية ؛ وفي ١٠ حزيران ١٩٤٠ زار سفير انكلترا نوري باشا وابلغه ، عطفاً على بحث سابق ، ان لندن تتوقع من العراق قطع علاقاته مع ايطاليا . ولما علم السفير بان مجلس الوزراء قرر التريث سارع لمقابلة سمو الوصي على العرش

شاكياً، وابلغه ان حكومة جلالةملك انكلترا غير واثقة من دولة الكيلاني. ولكن رئيس الوزراء ابى ان يستقيل مما ادى الى اشتداد النزاع بينه وبين سمو الوصي، ثم انتهى بالاستقالة في ٣٠/١/١٩٤١ وقيام وزارة الفها طه بك الهاشمي. على ان السيد الكيلاني تمكن، وهو خارج الحكم، من اكتساب الجيش، فاعاده هذا بعد شهرين تقريباً الى الرئاسة بالقوة، باسم حكومة الدفاع الوطني؛ وكانت باكورة عمله ان استأنف العلاقات بين العراق والمانيا.

ورأت بريطانيا العظمى، تداركاً للخطر، ان تقوم بامر حاسم فساقت بعض الفرق الى العراق. ورأى رئيس الوزراء بدوره ان احتلال قوات بريطانيا بعض اجزاء العراق لايتفق مع المعاهدة فاعلن الحرب عليها في ٢ ايار ١٩٤١. وسرعان ما حاصر الجيش العراقي مطار الحبانية، واحتل الرطبة، وهاجم القوة البريطانية في البصرة. غير ان اعتماده على نجدات المانية كافية لم يتحقق، ولذلك لم يستطع ان يصمد للقوى الانكليزية اكثر من شهر واحد. وفي ٣٠ ايار غادر السيد الكيلاني ووزارته وقواده العراق، واستطاع ان يصل الى برلين. واما الذين قبض عليهم من انصاره فقد احيلوا للمحاكمة، ومنهم من نفذ فيهم حكم الاعدام، ومنهم من نفي الى خارج البلاد، او ألقي في غيابة السجن.

وقد عهد الى السيد جميل المدفعي بتأليف الوزارة، فالفها في ١ حزيران ١٩٤١. غير ان محاكمة وزارة الكيلاني وانصاره قد خلقت ازمة وزارية جديدة من جراء استعمال الصرامة معهم. وانتهت هذه الازمة بسقوط الوزارة في ٢٩ ايلول ١٩٤١، واستدعاء نوري باشا السعيد، وتكليفه تأليف الوزارة؛ وقد ظل دولة نوري باشا قائماً على رئاسة الوزارة رغم سقوطها مراراً وتعديلها. واتخذت سياسة العراق في عهده اتجاهاً صريحاً نحو توثيق العلاقات مع حكومة لندن. ففي جلسة ١٩/١/١٩٤٣ اتخذ مجلس الوزراء قراراً باعلان الحرب على المحور، والانضمام الى تصريح دول الامم المتحدة في واشنطن الموقع عليه في ١٥/١/١٩٤٢؛ وكانت العراق بذلك اول دولة عربية اعلنت الحرب على المحور.

وقابلت حكومة جلالة الملك بلندن هذا القرار باهداء تسع دبابات الى الجيش العراقي تسلمتها حكومة بغداد في حفلة رسمية يوم ٢٤ - ١ - ١٩٤٣. ثم جاء عن لندن في ٢٨ ايار ١٩٤٣ ان مجلس العموم البريطاني تلقى رسالة من مجلس النواب العراقي يعرب فيها عن الابتهاج الذي شمل الشعب للانتصارات التي

احرزتها الجيوش البريطانية في افريقية ، وان مجلس العموم الذي صفق طويلاً عند تلاوة هذه التهنئة وجه الى مجلس النواب رسالة شكر حادة . وارادت مدينة لندن ان تساهم في اظهار هذه العواطف المتبادلة فقدم محافظها في مطلع ١٩٤٤ قلادة ذهبية هدية منها الى مدينة بغداد . »

وفضلاً عن ذلك فقد دعت حكومة لندن سمو الوصي على العرش الامير عبد الاله لزيارة بريطانيا العظمى حيث استقبل اعظم استقبال ، ونزل اياماً في قصر جلالته . وفي طريقه الى لندن صدرت الارادة الملكية العراقية ، يوم ٢٩ تشرين الاول ١٩٤٣ بتعديل الدستور بحيث اصبح سموه، بهذا التعديل، ولياً للعهد .

واما الخطوط الكبرى للاحداث التي وقعت في السياسة الداخلية من بعد فتتلخص بما يلي :

١ ــ نشطت في اواخر ١٩٤٣ حركة ترمي لتأليف الأحزاب السياسية اثر تأليف الوزارة الجديدة ،واستقبلت الصحف ، بتحبيذ بالغ ، تنويه خطاب العرش بعزم الحكومة على إفساح المجال لتأسيس الاحزاب والجمعيات .

٢ ــ المباشرة بـ سد ضخم تبلغ نفقاته نحو خمسة ملايين جنيه بين جبال كردستان من شأنه الحيلولة دون الفيضانات التي قد تجتاح بغداد ،وارواء المناطق الزراعية الجديدة .

٣ ــ فتنة في كردستان قام بها الزعيم الكردي مصطفى البارازاني ، انتهت في شباط ١٩٤٤ بمجيئه الى بغداد مع بعض زعماء بارازان ليقطعوا على انفسهم عهداً بالولاء . وكانت لهذه الفتنة ذيول من الاضطرابات في صيف ١٩٤٥ اخمدتها الحكومة .

٤ ــ اصدار المجلس العسكري العراقي حكمه على فريق آخر من المتهمين بالاشتراك في حركة السيد رشيد عاليباشاالكيلاني ،فحكم على العقيد كاملالشبيب بالاعدام ، وقد نفذ فيه الحكم شنقاً ، كما حكم على غيره بالسجن مدداً متفاوتة مع غرامة كبيرة ،وذلك في شهر آب ١٩٤٤ .

٥ ــ اتجاه الرأي العام العراقي لطلب تعديل المعاهدة ، مما حمل دولة حمدي الباجه جي رئيس الوزارة العراقية على التصريح في مجلس الاعيان يوم ١٧ حزيران ١٩٤٥ بان المفاوضات مع بريطانيا لاجل تعديل المعاهدة ستجري عندما تنتهي الحرب مع اليابان .

. . . . .

٣ - **العراق بعد الحرب العالمية الثانية** : استمع العراقيون ، اسوة بغيرهم من الشعوب العربية الظمأى للاستقلال ، لوعود الدول التي انتهى اليها النصر ، وللعهود التي قطعتها على انفسها بضمان حريات الامم ، وتأمين رغباتها واستقلالها . فكانوا ، وهم في طليعة المناضلين عن سيادتهم ، اشد الناس ترقباً لليوم الموعود الذي تتحقق فيه هذه الاماني العزيزة .

ومع ذلك فالذي لاحظناه ان حركة التحرر التام في العراق كانت على وجه عام اضعف مما كان منتظراً ، ويرجع ذلك الى رد الفعل الذي حدث اثر فشل

محاولة السيد رشيد عالي الكيلاني في نيسان ١٩٤١. فقد عملت بريطانيا العظمى، منذ استتب الحال في العراق، على تقوية نفوذها باخماد صوت المعارضة. ووافق هذا هوى انصارها القائمين على الحكم؛ ولما استعملت الشدة في قصاص رجالات حركة الكيلاني استكان الشعب لزعمائه.. وكان لسان حالهم: «عيون بصيرة وأيدٍ قصيرة».

وكأن شيوعيي العراق ارادوا ان يمثلوا المعارضة استناداً الى حماية الشيوعية العالمية لهم؛ ولكن الخوف من تدخل السوفيات في العراق بواسطتهم حمل حكومة السعيد على مطاردتهم واخفات اصواتهم.

بيد ان سكوت العراق لم يعد ممكناً، بعد ان اتيح لسورية ولبنان ان تبلغا استقلالهما؛ كما انه لم يعد جائزاً بعد ان رأى العراق مصر تجهد في سبيل تعديل معاهدة ١٩٣٦ استناداً الى تطور العالم ومبادئه بعد الحرب الثانية. ولذلك رأينا وكالة روتر تذيع منذ نيسان ١٩٤٦:

« ان وزارة الخارجية العراقية تعد مذكرة مفصلة عن موقف العراق من معاهدة ١٩٣٠، وان اهم ما تعالجه هذه المذكرة مسألة القواعد الجوية البريطانية وحراستها والتعاون الاقتصادي، وقضية استخدام المستشارين البريطانيين، والخبراء الفنيين، مما نصت عليه تلك المعاهدة. »

وعلى اثر ذلك استقبل وزير الخارجية البريطانية في لندن سفير العراق، وتحدث اليه بخصوص تعديل المعاهدة، والموعد المناسب لبدء المباحثات في هذا الشأن. على ان المعارضة في العراق قد استفادت من هذه الفرصة لاستئناف نضالها، وذهبت المطالبة بالجلاء: فخطب الاستاذ محمد رضا الشبيبي زعيم المعارضة في مجلس النواب في جلسة ٢١ نيسان ١٩٤٧ قائلا:

« ان كل مفاوضة من اجل تعديل المعاهدة العراقية البريطانية في ظل الاحتلال القائم عديمة الجدوى، وانها لا تعدو ان تكون: (بيفن يفاوض بيفن) «وقال:» لماذا لا يحذو العراق حذو مصر في عرض قضيته على مجلس الامن ما دامت مطالب البلدين واحدة ».

وحذا حذو الاستاذ الشبيبي، الاستاذ مولود مخلص في مجلس الاعيان ولم يطالب بتعديل المعاهدة فحسب، بل ذهب للمطالبة بتغييرها واستبدالها. هذا الى ان المعارضة حملت ايضاً على المعاهدة التي وقعت في بغداد في شهر نيسان ١٩٤٧ بين العراق وشرق الاردن، والتي تنص على القيام بعمل مشترك في حالة وقوع اعتداء دولي على احدى الدولتين، او في حالة وقوع فتن داخلية؛ كما تنص على تبادل البعثات العسكرية، وانشاء لجان دائمة يكون من اختصاصها تنفيذ التعاون الفعلي

بين المملكتين . وحجة المعارضة ان هذه المعاهدة ستكون وسيلة لازدياد نفوذ البريطانيين في بلاد الرافدين ، ولا سيما في الناحية العسكرية من جراء ما لهم من حقوق في شرق الاردن بمقتضى المعاهدة الموقعة بين لندن وعمان .

وبينما كانت لندن تتردد في اجابة طلب بغداد الملح لتعديل المعاهدة ، وذلك ريثما تنتهي المفاوضات مع مصر ، وتحلّ مشكلة السودان . واذا بنا نفاجأ في آخر عام ١٩٤٧ ببادرة تشير الى توجيه جديد في سياستها : ذلك ان لندن شاءت ان تطبق مشروعاً جديداً في الشرق العربي يقوم على قاعدة الدفاع المشترك ، وارادت ان تبدأ به في العراق ، واذا بوفد من العراق برئاسة رئيس الوزراء السيد صالح جبر يهبط لندن . حاملاً في حقائبه التعديل الذي اتفق عليه في قصر الرحاب مساء ٣/١/ ١٩٤٨ . ونحن ننشر الخطوط الكبرى لهذا التعديل للاعراب عن مطاليب القطر الشقيق :

١ — (مقدمة المعاهدة) رفع بحث خطوط المواصلات منها .
٢ — رفع قيد المشاورات في الامور السياسية الخارجية ، والاكتفاء بالنص على ان ينهج احد الفريقين المتعاقدين سياسة معادية للفريق الآخر .
٣ — تستلم العراق القاعدتين الجويتين في الحبانية والشعيبة عندما يتم ابرام معاهدات الصلح بين الدول التي اشتركت في الحرب العظمى .
٤ — عدم السماح في ابقاء قوات مسلحة بريطانية في العراق زمن السلم .
٥ — الغاء حصر استخدام الاخصائيين في الحكومة العراقية بالبريطانيين .
٦ — الغاء الاتفاقيات الخاصة بالسكك الحديدية والميناء . وتستلم العراق هذين المرفقين الهامين.
٧ — ضرورة تسليح الجيش العراقي والقوة الجوية الملكية العراقية بعين الاسلحة التي تسلح بها الوحدات البريطانية ، وفي نفس الوقت الذي يجرى فيه تسليحها .
٨ — رفع القيود الموجودة في المعاهدة السابقة بصدد التمثيل السياسي .

وقد لقي الوفد العراقي ، اول الأمر ، بعض الصعاب في لندن ، فذللها المستر بيفن ، ووضعت نصوص المعاهدة الجديدة في ١٥/١/١٩٤٨ ، على اساس مطاليب العراق . ولكن المعاهده الجديدة كان من مساوئها انها جعلت ابواب هذا القطر في حالة الحرب مفتوحة للقوى البريطانية على مصاريعها ؛ فضلا عن انها نصت على تأليف مجلس مشترك بين البريطانيين والعراقيين للدفاع .

فقابل العراقيون هذه المعاهدة بشبه ثورة عامة ، ذهبت فيها الارواح الغالية ، مما حمل دولة رئيس الوزارة على مغادرة البلاد ، وعلى تقديم استقالته .

ولم يقف ذلك الغليان في الاوساط الشعبية الا بعد ان ألف الوزارة السيد

محمد الصدر ، وجمع فيها رجـالات الاحزاب ، وكبار الساسة . ولكن وزارة سماحته لم تستطع تأمين رغبات الشعب بصدد تعديل المعاهدة ؛ كما ان وزارة دولة السيد حمدي الباجه جي التي خلفتها قصرت ايضاً عن ادراك هذا الهدف بينما كان فشل الدول العربية في فلسطين يزيد قلق الشعب العراقي حدة، ونقمته شدة . وقد افضى هذا التوتر الى الرجوع للسيد نوري السعيد الذي سبق لدولته ان عمل على عقد معاهدات بالقوة غير مراع فيها الا اجتهاده الخاص . وما ان شكل الوزارة حتى غادر بغداد الى لندن (ايلول ١٩٤٩) ، ودرس معها أمر تعديل المعاهـدة ، وقضية القرض الذي يتطلبه العراق في الازمـة الشديدة التي تحيق به الآن ؛ كما درس معها التوجيه الجديد للشرق العربي في هذا الوقت العصيب . بيد ان وزارة السعيد التي اصطدمت بعقبات كأداء كان ينقصها الانسجام فلم تقدر لها الحيـاة الطويلة؛ وقبل ان ينتهي عام ١٩٤٩ خلفتها وزارة ائتلافيـة قام بتأليفها دولة علي جودت الايوبي. وإنا لنرجو لها التوفيق في تذليل هذه المصاعب الداخلية والخارجية التي تواجه القطر الشقيق .

شرق الاردن

بارح سمو الامير عبـد الله بن الحسين امير شرق الاردن بلاده في شباط ١٩٤٦ الى لندن بدعوة من الحكومة البريطانيـة ، وذلك بعـد مفاوضات تمهيدية متبادلة لعقد معاهدة جديدة على اساس شبه ستقلالي، يعترف فيها بسموه ملكا على المملكة الهاشمية في شرق الاردن . وقد وقع الفريقان هذه المعاهدة في آذار ١٩٤٦ ، ثم اقرها مجلس العموم ، كما اصدر المجلس التشريعي الاردني في ٢٥ ايار قراراً باعلان استقلال البلاد التام على الاساس الملكي النيابي مبايعاً جلالتـه ملكاً على شرق الاردن . وقد وصف جلالته هذه المعاهدة في اول دورة للمجلس التشريعي (١١تشرين الثاني ١٩٤٦)بانها معاهدةصداقة وتحالف على قدم المساواة، وفي حدود ميثاق الامم المتحدة ؛وفي الواقع فهي وان اطلقت يد حكومة شرق الاردن في الشؤون الداخلية ، الا انها بمقتضى ملحق المعاهـدة المتعلق بالقضايا

العسكرية(١) جعلت تلك البلاد منطقة استراتيجية حربية لبريطانيا ؛ فضلاً عن ان المادة الخامسة من المعاهدة نفسها ربطت شرق الاردن ببريطانيا العظمى في الشؤون الحربية والدفاع .

وقد اعلن جلالته في الخطاب الذي القاه في تلك الدورة ما يلي :

« هذه آخر دورة من دورات مجلسكم التشريعي الموقر الذي نودعه راضين عنه مستقبلين مجلساً نيابياً نؤمل من ورائه الخير العميم ؛ وسيعرض عليكم مشروع القانون الاساسي الجديد للنظر فيه واقراره . »

وقد اقر المجلس التشريعي في دورته هذه قانون المملكة الاساسي ، فكان ، اسوة بالمعاهدة نفسها ، عرضة لحملات الحزب العربي الاردني ، وغيره من المحافل السياسية العربية . وقد ازدادت شدة هذه الانتقادات حينما اتضح رسمياً ان جيش شرق الاردن نفسه يكاد يكون في حد ذاته فرقة من فرق الجيش البريطاني . صرح بذلك وكيل وزارة الخارجية البريطانية في مجلس العموم (٢٠ نيسان ١٩٤٧) حيث قال :

« ان عبء النفقات السنوية لجيش شرق الاردن يقع على عواتق دافعي الضرائب البريطانيين . وان هذه النفقات تقدر بمليون جنيه استرليني . ويشمل هذا المبلغ نفقات وحدات هذا الجيش التي تعمل في فلسطين ؛ كما يشمل المساعدة المالية التي اضطلعت بها الحكومة لتستطيع حكومة شرق الاردن الوفاء بنفقات الوحدات العسكرية لقواتها . »

وقال وكيل الوزارة ايضاً رداً على سؤال وجه الى الحكومة :

« ان هذا الجيش قوة عسكرية تابعة للملك . وقد تم الاتفاق بين بريطانيا وبين حكومة شرق الاردن على مداه . وان ثمة اربعين ضابطاً بريطانياً الحقوا بهذا الجيش ، وهم يتولون شؤوناً ادارية فيه . »

ومن جراء ذلك اصبح هذا الجيش اردني الاسم انكليزي الجسم ، كما يستفاد ذلك من خطاب القاه نوري باشا السعيد في مجلس الامة العراقي اواخر عام ١٩٤٨ حيث قال :

« ونحن نعلم ان في هذا الجيش ضباطاً من الانكليز، وهو مسلح بسلاح بريطاني ، كما ويصرف عليه من الخزينة البريطانية ؛ ولنفرضه جيشاً بريطانياً أتى لمساعدتنا »

(١) المادة الاولى من الملحق العسكري : « يجوز لصاحب الجلالة الملك (البريطاني) اقامة قوات مسلحة في شرق الاردن في الاماكن المقيمة فيها عند توقيع هذه المعاهدة ، وفي اماكن اخرى يتفق عليها . ويقدم صاحب السمو الامير جميع التسهيلات الضرورية لايواء هذه القوات وصيانتها وخزن ذخائرها ومعداتها بما في ذلك تأجير اي ارض تلزم ، ويستملك اى حق خاص على ارض كهذه اذا وجد ذلك ضرورياً . »

ومنذ عقدت المعاهدة الجديدة لوحظ اتجاه مرموق من قبل كل من اوليـاء الامر في عمان وبغداد لمشروع اتحاد يتناول توحيد السياستين الخارجيتين، والقيادة في الجيشين وغيرهما، تخللها اجتماعات متصلة تحصل فيما بين جلالة الملك عبدالله وسمو الامير عبد الاله الوصي على عرش العراق؛ وظلت المفاوضات متصلة بين القطرين الى ان طلعت علينا الانباء في نيسان ١٩٤٧ بان معاهدة من هذا القبيل قد وقعت فعلاً لمدة عشر سنين، ثم صادق عليها مجلسا البلدين التمثيليان .

وقد عتبر المعارضون، في كل من بغداد وعمان، هذه المعاهدة مناورة لتمكين النفوذ البريطاني في العراق بواسطتها، وبطريق شرق الاردن الذي لا يزال تحت الاحتلال من الناحية العسكرية، فحملوا عليها اشد الحملات؛ خصوصاً وانها جاءت ابان سعي العراق للتحرر التام من الجيش البريطاني .

وها نحن نلخص فيما يلي بعض مواد المعاهدة الاردنية ... العراقية التي حامت حولها الظنون :

(المادة الخامسة) : في حالة وقوع اعتداء من جانب دولة ثالثة يتعهد الفريقان بان يتشاوروا لدفع ذلك الاعتداء .وفي حالة حدوث فتنة في بلاد احد الفريقين تجرى تدابير مشتركة لقمع الفتنة .

(المادة السابعة) : يتعاون الفريقان على توحيد الاساليب العسكرية بتبادل بعثات عسكرية .

(المادة الثامنة) : تنص على جواز التمثيل الخارجي المشترك .

(المادة التاسعة) : يتعهد الفريقان بتعيين لجان ذات سلطات تنفيذية يكون من اختصاصها تنفيذ التعاون الفعلي .

واما حكومتا بغداد وعمان فقد دافعتا عن هذه المعاهدة زاعمتين انها لا تتعدى ان تكون معاهدة صداقة وحسن جوار .

هذا وقد مضت حكومة عمان منذ اعلان الاستقلال في سبيل استكمال مظاهره: فعينت سفيراً لها في لندن، ووزراء مفوضين وقناصل في بعض البلاد، وفي عواصم الدول العربية. واشتركت في بعض المؤتمرات الدولية اولها المؤتمر الصحي الدولي التابع لمنظمة الامم المتحدة الذي انعقد في نيويورك، ومؤتمر فلسطين بلندن؛ وساهمت في مؤتمرات واجتماعات الجامعة العربية . وتقدمت بطلب الانضمام الى هيئة الامم المتحدة، وذلك بالاتفاق مع لندن . ولكن طلبها ارجىء قبوله بالاكثرية، تحت اصرار موسكو .

وفي مطلع عام ١٩٤٧ رأت مملكة شرق الاردن في اتجـاه سياسة انكلترا الجديد فرصة سانحة للبحث معها بشأن تعديل المعاهدة الاخيرة فخف الى لندن وفد يمثلها برئاسة رئيس الوزارة توفيق ابو الهدى باشا . ولم يلبث ان اعلن رغبة بلاده في ان لا يقتصر البحث على التعديل؛ بل يشمل تغيير المعاهـدة من اساسها .

ولكن هذه المفاوضات التي ظلت منذ ٢٥ كانون الثاني ١٩٤٨ الى ٦ شباط لم تنته باتفاق حاسم ؛ فعاد الوفد على غير جدوى ، ولكنه كان مثقلاً بالوعود .

وقد عرضت ، خلال ذلك ، ازمة فلسطين الحادة ، فصرفت الدول العربية ، مدة من الزمن ، عن كل أمر آخر ، ولا سيما المملكة الهاشمية في عمان ، لانها تعتبر فلسطين جزءاً متمماً لها .

على ان موقف شرق الأردن من هذه القضية كان مدار تطور فجائي من جراء ارتباطات هذه المملكة ببريطانيا العظمى ، وخصوصاً في الناحية العسكرية . ففي بداية القتال اظهر جلالة الملك عبدالله تحمساً لانقاذ فلسطين يكاد لا يضاهيه تحمس ؛ حمل الدول العربية على الرضاء بأن يتولى جلالته زعامة الانقاذ ، وحمل الشعوب العربية على ان تتمنى انقاذ البلد المقدس ، ساحله وداخله ، بمساعدة جلالته ؛ ولو افضى ذلك الى ضمه الى شرق الأردن .

ولكن السياسة الدولية التي كانت تطلق للعرب مجال الحماس ، وتترك لهم ابواب الكلام مفتوحة على مصاريعها ، كانت ، في نفس الوقت ، تقف في وجه عملهم الجدي مفسحة لاسرائيل المجال لتحقيق التقسيم قسراً .

وما ان تم التقسيم بالقوة حتى أطلق سراح الجيوش العربية ؛ فأحاطت بتل ابيب ، وخضدت شوكة الصهيونيين ؛ فأصابت بريطانيا العظمى بذلك هدفها : فهي من جهة قد عملت على تحقيق التقسيم المقرّر ، ومن جهة اخرى جعلت اسرائيل تعرف حدّها ، وترى ان لا مندوحة لها من الرجوع الى لندن مستجيرة .

وقد عرضت اثناء ذلك تطورات سياسية ، وأخصها تفاقم الخطر على بريطانيا العظمى من جراء تمكن الاتحاد السوفياتي من اواسط اوروبا ؛ تطورات ذللت قياد لندن لواشنطن ؛ فاذا بالدونِنج ستريت ، الذي كان بالأمس لا يتورع عن تأييد العرب ، ولا يتردد عن شحن الأسلحة اليهم ، يتحول فجأة عن هذا الموقف ، فيتحول معه شرق الأردن .

على ان جلالة الملك عبدالله حاول ان يستمر على موقفه الحازم تجاه اسرائيل ؛ ولكن لندن التي لم تتورع عن انذار جلالته بقطع المخصصات السنوية ؛ ما ترددت ايضاً في ارسال الوعود ، ولا سيما من حيث ضم القسم الباقي للعرب بفلسطين الى شرق الأردن ، كنواة لسوريا الكبرى .

واذا بالكونت برنادوت يقترح ، في جملة ما اقترحه لحل القضية الفلسطينية ،

ان يلحق القسم العربي من فلسطين الى عمان ؛ واذا بعمان تستسلم ؛ واذا بجيشها ، وهو بقيادة كلوب باشا واعوانه من الانكليز، يتراجع تاركاً المهمة الى الدول العربية الاخرى . وقد اصبح همّ جلالة الملك عبد الله ينصرف من بعد الى تسوية القضية الفلسطينية تسوية عاجلة على أساس « الحكمة لا العواطف » والى احكام الحاق ما تبقى من فلسطين في حوزة العرب الى مملكته . فكان مؤتمر عمان فمؤتمر اريحا اللذان عقدهما انصاره من الفلسطينيين، وقرروا هذا الالحاق ، وكان من بعد قيام جلالته بتنفيذ مقرراتهما ، غير آبه لاحتجاجات الجامعة العربية ، والدول العربية . ومثلما ولى عماله على هذا القسم من فلسطين ، فقد اشركه في الحكم إذ اختار بعض رجالاته لتولي بعض الوزارات ، ثم انتهى الامر بانضمامه نهائياً الى عمان

وقد رأى جلالته في الخصام الذي استحكم بينه وبين بعض الدول العربية بسبب هذا الالحاق مجالاً للاعراب عن امانيه القديمة . أما وقد توترت العلاقات بين جلالته وبين هذه الدول ، فلم تبق حاجة لتجنب ما يؤذيها . فاذا بتصريحات تترى من قبل جلالته مدارها ان سوريا الكبرى لا بد من تحقيقها .

وربما حسب جلالته ان الفرصة قد سنحت حينما وقع الانقلاب الأول في سوريا الذي قام به الزعيم حسني الزعيم. وقد خف لايفاد بعثة عسكرية من قبله أمت دمشق ، وراحت تتصل بالديكتاتور السوري الجديد وجماعته .

ولكن فرنسا التي عملت على التخلص من الحكم السابق بدمشق المعادي لها ، وساهمت في المال والعتاد والرأي ، لم يكن يروق لها ترك ثمرة جهودها هذه لبريطانيا العظمى تتمتع بها ، وذلك بالحاق سوريا لشرق الاردن ؛ او باتحادها مع العراق .

وكان خلافاً من جراء تضارب المصالح الدولية الاجنبية ، استحكم ما بين دمشق وعمان وبغداد ؛ حتى امسى عداءً ؛ وجرّ الى التهديد المتبادل بالحرب ، ناسين ان هذه الجنود التي ساقها كل منهم الى التخوم ، هي أجدر بان تتحد لوقف مطامع اسرائيل التي لا تزال تشهر السيف في وجوههم جميعاً .

وخلال ذلك ، وبينما كانت الدول العربية تتنابذ فتفشل ؛ كان الوحي البريطاني يدعو الى التكتل في الشرق الاوسط بين الدول الاسلامية قصد خلق اتحاد قوي يقف في وجه المطامع البلشفية ، فاذا بجلالة الملك عبد الله يزور فارس ؛ ويتبادل مع جلالة الشاه محمد رضا بهلوي اواخر ايار ١٩٤٩ التوقيع على معاهدة صداقة وتحالف

على أن بريطانيا العظمى لم تستكن حيال تفاقم النفوذ الفرنسي في سوريا عهد الزعيم حسني الزعيم، بطل الانقلاب الأول، يوم ٣٠ آذار سنة ١٩٤٩، هذا النفوذ الذي كان عندها بمثابة رقعة ثوب في الشرق الأوسط. وكانت الغلبة في نهاية الامر للدوننغ ستريت على الكه دورسيه؛ وذلك بالانقلاب الثاني الذي وقع في دمشق، وكان يحمل لواءه الزعيم سامي الحناوي. (١٣ آب ١٩٤٩).

وعلى اثر هذا الانقلاب ولت الحكومه الاتاسية الموقتة وجهها شطر بغداد وعمان، فكان ذلك مما شجع جلالة الملك عبد الله لأن يغادر شرق الاردن الى لندن ويطالب، فيما يطالب، بتحقيق سوريا الكبرى. ولعل الذي حمل جلالته على السرعة في السفر الى لندن، اثر نجاح الانقلاب السوري الثاني، وجود سمو الوصي على عرش العراق هناك منذ شهر تقريباً.

ولكن الموقف السياسي العالمي، جعل بريطانيا العظمى، بعد اجتماع مؤتمر لندن الذي عقده الديبلوماسيون ورجالات السلك السياسي في الشرق الاوسط، تنحو ناحية اخرى، في الوقت الحاضر، لا تتفق مع اثارة موضوع سوريا الكبرى او الهلال الخصيب الذي يباعد بين الكتلتين العربيتين؛ على انها كانت، في الواقع، تنشط سراً هذا الموضوع الذي من شأنه توسيع مدى نفوذها في الشرق العربي. لذلك فان كلا من جلالته وسمو الوصي وفخامة نوري السعيد أخذ يشعر صراحة بأن انكلترا، التي فرقت بين العرب بالأمس، اصبحت، بعد قضاء مأربها في فلسطين، تريد الآن ان تجمع كلمتهم حول الجامعة العربية كالبنيان المرصوص في وجه الخطر الشيوعي؛ خصوصاً وان الوقت الحاضر يتمخض بحرب توشك ان تنشب، وهي تقوم على القنبلة الذرية، مهددة البشرية والمدنية.

وبعد، كما أن نوري باشا السعيد غادر لندن موليا وجهه شطر القاهرة حيث اعلن تنصل العراق من الهلال الخصيب فان جلالة الملك عبد الله ما ان وصل الى عاصمته عائداً من لندن بطريق اسبانيا حتى صرح لمراسل جريدة بيروت بعمان (١ تشرين الاول ١٩٤٩) بقوله:

« فلا داعي للبحث بعد الآن في اي مشروع كان يتعلق بسوريا سواء اكان هذا المشروع مشروع سوريا الكبرى او الهلال الخصيب الا برأي السوريين انفسهم. فهم اصحاب العلاقة الأولى في الموضوع. »

غير ان جلالته لم يستطع مع ذلك إلا الاعراب عن حرصه على اجتناب الجهات

الاخرى التدخل في شؤون سوريا ، فعلق على هذا التصريح بقوله :

« ولكنني اذ اتطلب للبلاد السورية حياة ملؤها الهدوء والاستقرار اعلن في الوقت نفسه انني لن اتغاضى عن اي جهد قد تبذله اية جهة من الجهات للتدخل في شؤون هـذه البلاد ؛ وسأراقب سير الأمور وتطورات الحالة عن كثب مراقبة دقيقة . وقـد ابلغت ذلك الى الدكتور نجيب بك الارمنازي رسول الحكومة السورية الى عمان كي يتولى بدوره ابلاغ هـذه الشؤون الى الجهات المختصة . »

وكان نوري باشا ، بما فطر عليه من الذكاء ، يدرك ما تضمره حكومة المستر أتلي ، لذلك ورغم، تصريحاته اثر رجوعـه من لندن التي تنوه بتنصل بغداد من مشروع الهلال الخصيب ، فقد ظل يعمل لأجله في بغداد ودمشق .

غير ان الانقلاب الثالث الذي قام به العقيـــد اديب الشيشكلي في سوريا (١٩/١٢/١٩٤٩) افضى الى غلق هذا الباب . وخصوصاً حينما منحت اللجنة التأسيسية بدمشق ثقتها لوزارة خـــالد بك العظم على اساس « بقاء ما كان على ما كان » .

سوريا ولبنان

في طريق الاستقلال (الدور الثالث من النضال بين فرنسا وبريطانيا العظمى)

بينما كانت سوريا ولبنان تؤمل التحرر من الانتـداب الفرنسي بادراك ذلك اليوم الذي تبرّ فيه فرنسا بوعدها ، وتوقيع معاهدتي عام ١٩٣٦ اللتـين وافقت عليهما كل من دولتي سورية ولبنان ؛ اذ بنفير الحرب العالمية الثانيـــة يدوي في الفضاء فيتخذ المفوض السامي المسيو پيو قرارين في اواخر ايلول ١٩٣٩ ، احدهما بحق الجمهورية اللبنانيـــة ، والآخر بحق الجمهورية السورية ؛ وكلاهما يقضي بوقف الدستور ، وحل المجلسين النيابيين ، واعلان الحكم العسكري العرفي .

وشاءت بريطانيا العظمى بعد توفر النصر لها في العراق على الوزارة الكيلانية احتلال سورية ولبنان بحجة تطهيرهما من النفوذ الالماني ؛ فحملت عليهما في ٨ حزيران ١٩٤١ بقيادة الجنرال كاترو الأفرنسي تعاونها قوة من فرنسا الديغولية . وقـد امطرت هذه الحملة البلاد بنشرات مختلفة القت بها من الطائرات موجهة الى الجيش والاهلين تدعوهم فيها للانضمام الى صفوف الحلفاء .

وكان في جملة هذه المناشير رسالة من الجنرال كاترو مستهلة بهذه العبارة :

« في الوقت الذي تدخل فيه قوات الفرنسيين الاحرار بالاتحاد مع قوات حليفتهم الامبراطورية

البريطانية بلادكم اصرح بانني قد توليت سلطات ممثل فرنسا الحرة ، فرنسا ذات التقاليد المجيدة ، فرنسا الحقيقية . وباسم زعيمها الجنرال ده غول اني قادم اليكم بهذه الصفة لانهاء عهد الانتـداب ، وأعلن حريتكم واستقلالكم . وبنــاء على ذلك ستصبحون من الآن وصاعداً شعباً حراً ذا سيادة ، وستتمكنون من ان تؤلفوا لانفسكم دولاً منفردة،او ان تتحدوا في دولة واحدة. وفي اي الحالتين سيضمن استقلالكم ، وتكفل سيادتكم بمعاهدة توضح بها العلاقات المتبادلة بيننا . » وختم المنشور بالعبارة الآتية : « لقد ازفت ساعة عظمى في تاريخكم . ان فرنسا ، بصوت ابنائها الذين يحاربون من اجل حياتها ، ومن اجل حرية العالم ، تعلن استقلالكم » .

وتأييداً لهذه الوعود والتصريحات الرسمية القت الطائرات البريطانية ايضاً نشرة موقعة من السيد مايلز لمبسون ، سفير صاحب الجلالة البريطانية في القاهرة ، جاء فيهـــا :

« وقد فوضتني حكومة صاحب الجلالة البريطانية ان اصرح بانها تؤيد ضمان الاستقلال الذي اعطاه الجنرال كاترو بالنيابة عن الجنرال دي غول لسورية ولبنان وتشترك فيه .. الخ »

ولما تسنى للحملة البريطانية ــ الده غولية الانتصار على قوة فيشي الافرنسية في معارك دامت منذ ٨ حزيران الى ١٤ تموز ١٩٤١ هبط الجنرال ده غول بنفسه عاصمتي سوريا ولبنان ، وجدد التصريحات التي اعلنتها الحملة ، مؤيداً استقلالهما ، كما ان السيد ونستون تشرتشل رئيس الوزارة البريطانية ،ادلى،عقب ذلك ، بتصريح نفى فيه ان تكون لدولته مطامع في سورية ولبنان ، مؤيداً وعده لهما بالاستقلال . غير ان تطوراً جديداً في نوايا فرنسا المحاربة بحق سورية ولبنان اخذ يتراءى مذ وفق الحلفاء في احتلال شمالي افريقيا وما صار من بعده من الشأن للقوة الفرنسية . وقد بدأ هذا التحول في المذكرة التي وجهها الجنرال ده غول بالاتفاق مع الجنرال جيرو برقياً الى السكرتيرية العامة لجامعة الامم بتاريخ ١٩ نيسان سنة ١٩٤٢ حيث قــال :

« ان الجمعية الوطنية اعتبرت دائماً ان فرنسا تبقى مرتبطة بتعهداتها ، وتحتفظ بكل ميزاتهــا وحقوقها كعضو في الجامعة . وبهذه الروح اطلعناكم على التدابير التي اتخذت بموجب الانتـداب المعهوذ الى فرنسا في بلاد الكمرون ودول الشرق (اي سورية ولبنان) »

وبينما كانت السلطة الفرنسية تحاول الاستمرار في حكم البلاد وفقاً لسياستها التقليدية الماضية على اساس الانتداب الاستعماري لوحظت رغبة ، في نفس الوقت ، من بعثة سبيرس التي كانت تمثل الحكومة البريطانية في سورية ولبنان ، في توجيــه العلاقات التي تربطها بفرنسا ،وجهة تتفق مع مستوى علاقات مصر والعراق ببريطانيا العظمى . فكان من جراء ذلك شبه اصطدام بين ممثلي الدولتين الحليفتين . وكان الجنرال سبيرس لا يفتأ يتصــل تارة بالسيد جان هيللو مفوض فرنسا السامي ، وطوراً

بغيره لاقناعهم بوجوب اعلان الحياة الدستورية في سورية ولبنان. غير ان الجانب الفرنسي، ومن لف لفه، كانوا يدفعون هذا الاقتراح بحجج واهية: وهم، في الحقيقة، انما كانوا يخشون أن يكون للانكليز، في المجالس النيابيين بدمشق وبيروت، أنصار اوفر من انصارهم، ويخسرون بذلك ما لفرنسا من كفة راجحة في بلاد الشام. ولكن فرنسا كانت وقتئذ كالخاتم في اصبع لندن، فاغتنمت وزارة الخارجية البريطانية فرصة مجيء الجنرال كاترو الى لندن، وذلك في مطلع عام ١٩٤٣، يحتكم اليها في الخلاف الذي كان قد استحكم بين رئيسه الجنرال ده غول والجنرال جيرو، وأقنعته بما تتوخى تحقيقه في جمهوريتي سورية ولبنان. فاذا ببلاغ رسمي يطلع علينا يوم ٢٣ كانون الثاني ١٩٤٣ صادر عن مندوب فرنسا في سورية ولبنان السيد هيللو يقول:

« ان اللجنة الوطنية الفرنسية نظراً لكونها مصممة العزم على تقوية استقلال سورية ولبنان الذي اعلنه الجنرال كاترو باسمها سنة ١٩٤١، وحيث انها، بعد التشاور مع الحكومة البريطانية، رأت ان تطور الحالة العسكرية في البلاد يسمح باعادة النظام الدستوري فقد فوضت المندوب العام المطلق الصلاحية القائد الأعلى في الشرق ان يتخذ لهذه الغاية التدابير اللازمة بعد التشاور مع الحكومتين السورية واللبنانية وأهم الشخصيات السياسية المحلية. لذلك فعودة الجنرال كاترو المنتظرة قريباً الى الشرق ستكون مرحلة حاسمة في حياة لبنان وسورية السياسية. »

وقد جرت الانتخابات النيابية فعلاً في لبنان، وكانت موضوع تنازع مكشوف بين انصار كل من فرنسا وبريطانيا العظمى. وهي وان أسفرت عن تقاسم المقاعد النيابية بين انصار الدولتين الا ان الفوز في انتخابات رياسة الجمهورية كان من نصيب الكتلة الدستورية الداعية الى لبنان مستقل في نطاق العروبة بما يتفق مع سياسة انكلترا والولايات المتحدة، كما بينا ذلك في الصفحة ١١٤.

واعتبرت فرنسا بما أصابها في لبنان من الخسران، فعمدت الى محاولات كثيرة ترمي بها الى تأمين بقاء نفوذها في سورية قبل ان تسمح باجراء الانتخابات فيها؛ ولكنها منيت بالفشل ايضاً في هذه المحاولات، لأن السوريين لم يعبأوا بها، وقاموا بالانتخابات قسراً عنها، وانتخب المجلس السيد شكري القوتلي رئيساً للجمهورية. وعقد المجلس في يوم ٢٣ — ١ — ١٩٤٤ جلسة أقسم فيها رئيس الجمهورية والوزراء والنواب يمين الأخلاص لدستور لا أثر للانتداب فيه؛ مما حمل المندوب الفرنسي على الاعتراف باستقلالها. وهكذا كانت عودة الحياة النيابية في سورية ولبنان مرحلة حاسمة في حياتها السياسية.

الجمهورية اللبنانية : بعد انقضاء يومين على انتخاب رئيس الجمهورية ، أصدر فخامته مرسوماً بتعيين النائب رياض بك الصلح رئيساً للوزارة . وفي ٧ تشرين الاول ١٩٤٣ عقد المجلس النيابي جلسة لاستماع البيان الوزاري ، فاذا بدولته يتلو بياناً ليس كالبيانات الوزارية في عهد الانتداب ، بل هو ، في الواقع ، شرع سياسي جديد للبنان يقوم على الاستقلال الصحيح في الداخل ، وعلى التعاون مع البلاد العربية في السياسة الخارجية . وقد احرزت الوزارة ثقة المجلس بالاجماع على اساس هذا البيان بين الهتاف الشديد المتواصل .

ولقد تسرب القلق الشديد الى الجانب الفرنسي مذ عرف مضمون البيان ، خصوصاً لما جاء فيه من رغبة في تعديل الدستور اللبناني . ولما لم تثمر محاولاته لحمل الحكومة على العدول عن المضي في التعديل اصدرت لجنة التحرر الوطني الفرنسي في الجزائر مذكرة في ٥ ت ٢ سنة ١٩٤٣ صرحت فيها :

« بما انه ليس من الممكن تحوير نصوص ناجمة عن موجبات دولية تعهدت بها فرنسا الا بموافقة ممثل فرنسا لذلك فهي لا يمكنها الاعتراف بصحة اي تعديل يجري بدون هذه الموافقة . »

واما حكومة الاستاذ الصلح فقد بادرت الى الرد على هذه المذكرة ، وتقدمت للمجلس النيابي في ٨ منه بمشروع التعديل حاذفة من الدستور اللبناني كل ما يتنافى مع الاستقلال ؛ فاقرها المجلس على هذا التعديل بالاجماع .

وحينئذ ثارت ثائرة الجانب الفرنسي ، ولجأ الى العنف من غير حساب ، فقابل السيد جان هيللو مندوب فرنسا هذا التصرف باصدار قرار مؤرخ في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٩٤٤ اعلن فيه :

« ان النص الذي قبله مجلس النواب اللبناني في تعديل الدستور هو خال من كل صبغة شرعية ، وهو ملغى . »

وزاد على ذلك بان اصدر مرسوماً بحل مجلس النواب اللبناني ، ووقف الدستور . وعزز هذا القرار بقرار آخر ، في اليوم نفسه ، يتضمن تعيين الاستاذ اميل اده رئيساً للحكومة والدولة . ثم انه لم يقف عند هذا الحد ، بل اوعز الى السلطة فاعتقلت في الليلة التالية رئيس الجمهورية اللبنانية الشيخ بشارة الخوري ، ورئيس الوزارة رياض بك الصلح ، ووزير التموين عادل بك عسيران ، ووزير الداخلية كميل بك شمعون ، ووزير الخارجية سليم بك تقلا . كما اعتقلت نائب طرابلس عبد الحميد افندي كرامي ، وساقتهم جميعاً الى قلعة راشيا . وحينئذ ظهر لبنان من اقصاه الى اقصاه بمظهر لا مثيل له في عهد الانتداب ، مظهر لا يتميز بشدة حماسته فحسب ، بل بوحدة

الكلمة حتى لم يستطع الاستاذ اميل اده ايجاد وزراء لوزارته . وانتصب الشعب صفاً واحداً رجالاً ونساء ، شباباً وصغاراً ، لا يبالي بالدبابات التي ملأت الشوارع والاسواق ، ولا يحفل بالعنف الذي لجأ اليه الجند الفرنسي ، وخصوصاً عبيد الوجوه والقلوب . اما الاضراب فقد شمل الاسواق والمتاجر والمحاكم والدوائر الحكومية والمدارس ، وتوقفت الصحف عن الصدور ؛ واما المظاهرات العامة فكانت مستمرة . وخلال ذلك كان المجلس النيابي يوالي اجتماعاته ، وكان الوزيران اللذان سلما من الاعتقال ، وهما الاستاذ حبيب ابو شهلا ، نائب رئيس الوزراء ، والامير مجيد ارسلان ،وزير الدفاع ، قد اتخذا تدبيراً قانونياً من شأنه اعتبارهما بمثابة مجلس للوزراء يقوم باعمال رئيس الجمهورية . فقرر المجلس النيابي يوم ١١ تشرين الثاني ١٩٤٣ الموافقة على هذا التدبير ، ومنح الثقة لهذه الوزارة . ورأت هذه الحكومة ان ترتفع الى قرية بشامون في الجبل على بعد عشرين ميلاً تقريباً من بيروت . واذا بلبنان يتنادى للالتفاف حولها ، واذا بالعاصمة تتسابق لتأمين مؤونة تلك الجماهير المحتشدة في بشامون للدفاع عن الاستقلال ، وتتبارى في توفير الاسلحة لها .

وكان الافرنسيون يحاولون، خلال ذلك، اقناع البريطانيين بان القضية هي محض لبنانية افرنسية ، فضلاً عن انهم حاولوا التقدم الى بشامون مقرّ الحكومة اللبنانية . ولكن المجاهدين تصدوا لهم وأهرقوا الدماء التي اتخذت لوناً لعلم جديد أقره المجلس النيابي اللبناني رمزاً للاستقلال . على ان بعثة سبيرس ظلت عقبة في وجه الفرنسيين ، وحالت بينهم وبين ما في نيتهم من استعمال العنف والشدة . وكان الاميركان يشاطرون البريطانيين العطف على الحركة اللبنانية ، يحدوهم الى ذلك ما يشاهدون من حماس العرب في سائر الامصار ، وعطف المسلمين على قضية اللبنانيين . فلم يسع لجنة التحرر الفرنسية ، إزاء كل ذلك وإزاء انذار الحلفاء لها بأن موقع سورية ولبنان ستراتيجي يؤثر في مصير الحرب ، الا ان تصغي لنصائح الجنرال كاترو ، الذي كان يتولى المفاوضة عنها ، تارة مع الجنرال سبيرس ، وطوراً مع مستر كاسي الوزير البريطاني في القاهرة ، فسمحت باخلاء سبيل الموقوفين ، وعودة الامور الى ما كانت عليه ، فعاد رئيس الجمهورية الى تسنم الرئاسة الاولى ، وعادت الوزارة الى كراسيها مرفوعة الرأس ، وواظب المجلس النيابي على اعماله ناصع الجبين . وقد قوبل هذا الفوز العظيم بالفرح الشديد الشامل ليس مسايرة للعواطف

الثائرة فحسب ، بل لانه جاء مؤيداً الاستقلال من الناحية العملية. ولقد كان في الواقع فوزاً حاسماً للسياسة الانكليزية على السياسة الفرنسية في هذه الناحية من الشرق الاوسط. وفشلاً للفرنسيين شبهه الجنرال كاترو بفاشودة الثانية Fachodé (١).

. . . . .

الجمهورية السورية : ما زالت سورية تكافح في سبيل استقلالها منذ ان احتلها الجيش الفرنسي بالقوة ، وفرضت عليها جمعية الامم الانتداب . وما كانت الثورة الكبرى (١٩٢٥ — ١٩٢٧) إلا مظهراً من مظاهر هذا الحرص على الاستقلال . ولما خانتهم القوة ازاء الدولة الفرنسية تحولوا الى النضال بطريقة شبه سلمية ، اعني بها طريقة الاضراب المنظم « واللاتعاون ». وقد جنوا من ثباتهم هذا انهم جعلوا دولة الانتداب تقتنع ، تحت ضغط الاضراب عام ١٩٣٦ الذي طال امده ، بان لامناص من وقف عهد الانتداب. فعقدت بينها وبين الجمهورية السورية تلك المعاهدة (١٩٣٦) التي حال الرأسماليون وغيرهم دون توقيعها في باريس .

ونشبت الحرب العالمية الثانية وسورية لا تزال تناضل ضد الانتداب . فرأت بعين حزينة وقف دستورها وتسريح نوابها ، واستقالة رئيس جمهوريتها هاشم بك الاتاسي ، واستلام السلطة الفرنسية الحكم المباشر من وراء مجلس للمديرين اقامته مقام المجلس الوزاري . ولكن لم يكن بوسع سوريا الا التزام الهدوء والتريث تحت ضغط الاحكام العرفية العسكرية ، خصوصاً وان « الكتلة الوطنية » كانت قد منيت قبل الحرب بالتفكك . غير ان في سوريا روحاً حرة ليس من الممكن كبتها ، واذا خفت صوتها فالى حين فقط . لذلك فان الضائقة المالية التي رافقت بداية الحرب ، بالاضافة للبحبوحة التي نعم بها وقتئذ الافرنسيون الحاكمون ، والاختلاسات الكثيرة التي ارتكبوها كان لها اشد الاثر في خروج سوريا الى موقفها السلبي، واستئنافها طريقة الاضراب. فاذا بالاضراب يقع في دمشق منذ يوم ٢٨ شباط ١٩٤١ ، واذا به يعم سائر المدن. حتى اذا ما عمدت السلطة الى القوة والعنف تحوّل الاضراب الى شبه ثورة عامة . وخلال هذه الازمة افتقد الناس

---

(١) ومن مدعاة الفخر التنويه هنا بمساهمة الكتلة الاسلامية ، التي أتشرف برياستها ، في هذا النضال ضد المستعمر ، وبتقدير الحكومة جهودها وذلك بمنحها وساماً من الاوسمة العالية .

الزعيم فالتفوا حول شكري بك القوتلي الذي كان يرأس الكتلة الوطنية. وقدتولى المفاوضات مع الجنرال دانز المندوب الفرنسي والقائد العام. ولم يسع هذا المندوب الاّ النزول عند كلمة الشعب المجتمعة، فاعلن في اليوم الاول من نيسان ١٩٤١ حلّ مجلس المديرين، وتأليف مجلس وزاري، وتحويل ادارة الاعاشة الى حكومتي سورية ولبنان؛ وذلك في خطاب اذاعه من محطة راديو الشرق استهله بالتحدث عن الاستقلال، والوعود التي قطعت حوله. وقد عهد الجنرال الى خالد بك العظم برئاسة الحكومة والدولة. ولما اعتزمت الجيوش البريطانية الديغولية التقدم الى بلادالشام، وطرد جيوش فيشي والمحور منها، بادر قادة هذا الجيش وغيرهم للضرب على الوتر الحساس الذي يعرفونه عند السوريين، فالقت الطائرات المناشير عليهم؛ كما اذيعت الخطب في انديتهم معلنة الاستقلال ومؤكدة ضمانه. ولكن ما ان استتب الامر للافرنسيين، وتولوا، كما ذكر سابقاً، مقدرات البلاد، واخذوا يطبقون العهود حتى بدت عناصر سياستهم التقليدية تبرز رأسها شيئاً فشيئاً. من ذلك انهم حينما ارادوا اختيار رئيس للجمهورية السورية في عهد الاستقلال لم يقع اختيارهم الاّ على الشيخ تاج الحسني، الذي نعته الجنرال كاترو في مرسوم التعيين بانه رجل الساعة. والواقع ان المرحوم الشيخ كان قد لجأ الى باريس سنوات عديدة هرباً من نقمة الشعب عليه من جراء موالاته للافرنسيين. ولم يكن قد عاد منها الا منذ امد قريب. وفي ٢٧ أيلول ١٩٤١ اقيم في دمشق مهرجان كبير بمناسبة احتفال الحكومة السورية بالاستقلال؛ وقد اشترك فيه ممثلو فرنسا وانكلترا واعلنوا بدورهم هذا الاستقلال، ووقعوا ايضاً محضر الاجتماع. وكانت البلاد ترقب عودة الحياة الدستورية، وهي موضوع البحث بين الجانبين الانكليزي والفرنسي؛ فاذا بالسيد جان هيللو يصدر البلاغ الرسمي المؤرخ في ٢٣ - ١ - ١٩٤٣ الذي اعلن فيه عزم اللجنة الفرنسية، بعد التشاور مع الحكومة البريطانية، على اعادة النظام الدستوري. وكان من الطبيعي ان تؤثر احداث لبنان الاستقلالية، التي جرت في تشرين ١٩٤٣، اشد تأثير على سورية، وهي السباقة دائماً في هذا الميدان؛ وكأن لجنة التحرر الفرنسية حاولت استدراك الأمر فبادرت الى التصريح بحسن نواياها مؤكدة عزمها:

« على فتح مفاوضات مع الحكومة السورية من اجل انسجام انتداب فرنسا مع العهد الاستقلالي الموعودة به دول الشرق وفقاً لتصريحات سنة ١٩٤١ ».

ولكن السوريين قابلوا هذا التصريح بوابل من التصريحات المعاكسة على ألسنة

الوزارة والنواب والصحف ، وكلها تعلن ان سورية لم تقبل الانتداب ، ولن تقبل ببقائه ، مشيرة الى ان المادة ١١٦ من الدستور السوري ، التي جاءت لتثبيت الانتداب ،انما وضعت من قبل الجانب الفرنسي وحده ، والحقت الحاقاً بالدستور دون ان يعترف بها السوريون . وقد عقد المجلس النيابي السوري جلسة يوم ٢٣ كانون الثاني سنة ١٩٤٤ اقسم فيه رئيس الجمهورية والوزراء والنواب يمين الاخلاص للدستور، على اعتباره مؤلفاً من ١١٥ مادة لا اثر للانتداب فيها. وازاء هذا الاجماع لم يسع الجنرال كاترو إلا الاعتراف لسورية بالاستقلال دون تحفظ ، على ان يعيد اليها ، والى لبنان معاً ،الصلاحيات التي كانت تمارسها المفوضية الفرنسية .

. . . .

اعتراف الدول باستقلال سورية ولبنان – بادرت الدول العربية جميعها للاعتراف باستقلال كل من دولتي سورية ولبنان ، وتلتها الدول الاسلامية : الافغان وايران وتركيا ؛ ولم تتردد الصين في ان تكون في طليعة المعترفين بهذا الاستقلال .

وكانت الولايات المتحدة قد اعلنت تأييدها لسورية ولبنان في نضالهما من اجل الاستقلال. كما ان بريطانيا العظمى عملت، اثناء هذا النضال،بالطرق الديبلوماسية، لبلوغهما هذه الامنية . فلما تحققت امنيتهما خف وزير اميركا المفوض الى تقديم مذكرة لوزير خارجية لبنان ، ومثلها لوزير خارجية سورية ، وذلك في ٧ ايلول ١٩٤٤ ، استهلها بقوله :

« ان حكومتي راقبت بعناية مقرونة بالود والعطف الخطوات السريعة التي تم بها انتقال السلطات الحكومية الى الحكومتين اللبنانية والسورية منذ تشرين الثاني ١٩٤٣ ، واصبحت الآن ترى في الامكان اعتبار الحكومتين اللبنانية والسورية ممثلتين للبلاد ومستقلتين فعلاً . »

ولم ينته عام ١٩٤٤ الا وكان الاعتراف الدولي بهذا الاستقلال يكاد يكون عاماً . وبالاضافة للولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفياتي فقد اعترفت به ايضاً عامئذٍ بولونيا وبلجيكا والبرازيل ؛ ثم توالى مثل هذا الاعتراف من قبل سائر الدول . وتلاه تبادل التمثيل السياسي بينها وبين الدولتين المستقلتين. ولما تقرر في مؤتمر يالطا دعوة الدول المتحالفة لاجتماع يعقد في سان فرنسيسكو اعتباراً من ١٥ نيسان ١٩٤٥ ، لتنظيم العالم القادم ، ولانشاء مؤسسة دولية تقوم مقام عصبة الامم ، دعيت حكومتا سورية ولبنان للاشتراك فيه اسوة بالدول التي أعلنت الحرب على المحور قبل آذار ١٩٤٥ .

وقد وضع هذا المؤتمر ميثاق السلم الدولي، وبمساعي ممثلي سورية ولبنان وسائر الدول العربية تضمن هذا الميثاق، في جملة مواده ،المادة ٧٨، التي تنص على ما يلي :

« لا تسرى الوصاية او الانتداب على الامم المشتركة في المؤتمر لان المؤتمر يعتبر جميع الامم المشتركة فيه متساوية في السيادة » .

ولما صادق المؤتمرون بالاجماع على هذه المادة ، وفي عدادهم مندوبو فرنسا ، لم تبق لحكومة باريس من بعد أية حجة مقبولة للتلويح بالانتداب على سورية ولبنان .

والى هذا فان دولتي سورية ولبنان اصبحتا تدعيان الى كل اجتماع دولي من بعد ، والى كل مؤتمر عالمي ، كما انهما كانتا في طليعة الدول التي قبلت في منظمة هيئة الامم المتحدة .

. . . . .

الصراع بين فرنسا وسورية ولبنان في سبيل « الصلاحيات » : منـــذ اضطلعت فرنسا باعمال الانتداب في بلاد الشام، خفت لتطبيق قاعدة (فرّق تسد) : ففصلت فيما بين الساحل والداخل ، وأقامت فيهما حكومتي سورية ولبنـــان . ولكنها احتفظت، مع ذلك، بوحدة بينهما في السياسة العليا، على نحو ما كان عهد آل عثمان ، كان مرجعها المفوضية الفرنسية في بيروت بدلاً من الباب العالي بالآستانة .

وكان في جملة اعمال المفوضية هذه منظمة تعرف « بالمصالح المشتركة » ، توحد بين سورية ولبنان بسبع عشرة ادارة مشتركة ، وهي : الجمارك ،مراقبة الشركات الاجنبية ، سكة الحديد ، الكهرباء ببيروت، المرفأ ، خط جونية بيروت، الآثار، تسجيل الماركات ، الشؤون الاجتماعية ، الجيش المساعد ، الرسوم المالية المشتركة ، الحجر الصحي ، الأمن العام ، البحرية التجارية ، البرق والبريد ، الطب البيطري، المساحة ، حمل السلاح ، والمفرقعات.

ولما أعلن الجنرال كاترو استقلال لبنان في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٤١ ، كما اعلن استقلال سورية ، وذلك بعد دخول البريطانيين بالاشتراك مع الديغوليين سورية ولبنان ، وعهد الى سامي بك الصلح بتأليف الوزارة اللبنانيـــة ، قـــدم دولته الى الجنرال مذكرة بتاريخ ١٢ ايلول ١٩٤٢ اعرب فيها عن رأي حكومته في بعض ادارات « المصالح المشتركة » التي يمكن تحويلها الى الحكومة ، فورد اليه الجواب من الجنرال بالرفض ، على اعتبار ان استقلال لبنـــان لم تعترف به الدول الأجنبية ، وان الانتداب لا يزال قائماً .

وقد أتيح لسورية ولبنان ان يتمتعا في العام التالي باستقلال اعترفت به الدول

الاجنبية ، كما بينّا ، فوحّدا المسعى ، من ثم ، لاستلام كل التبعات التي كانت دولة الانتداب تحرص على الاحتفاظ بها . وسرعان ما قدمت الحكومتان مذكرة الى السفير الفرنسي السيد جان هيللو تطلبان فيها تسليمهما المصالح المشتركة . وقد استمهلهما سعادته عشرة ايام ريثما يتسنى له حمل هذه المذكرة الى الجزائر حيث كانت تتمركز فرنسا المحاربة التي كانت تعرف بلجنة التحرر الفرنسية ؛ وقد حاولت هذه اللجنة سلوك سبيل المساومة ، فعلقت أمر تسليم هذه المصالح الى الحكومتين على عقدهما معاهدة بينهما وبينها تنص على مركز ممتاز لفرنسا في كل من البلدين. ثم جاء الجنرال كاترو للمفاوضة ، ولكنه لم يجد سبيلاً الى اقناع سورية ولبنان في عقد اية معاهدة ؛ فلم يسعه الا الرضوخ للأمر الواقع : وفي ١٩٤٣/١/٢٢ صدر بلاغ عنه وعن المفاوضين السوريين واللبنانيين في دمشق يعلن الاتفاق الذي حصل بين الفريقين على تسليم فرنسا الحكومتين «الصلاحيات» التي كانت ،الى ذلك الوقت ، تمارسها باسمها ، وعلى نقل المصالح المشتركة وموظفيها اليهما مع حق التشريع والادارة ، وذلك منذ اول كانون الثاني ١٩٤٤ .

وبناء على هذا الاتفاق اقيمت حفلة في ديوان رئيس الجمهورية اللبنانية يوم ١٩٤٤/١/٣ وقّع فيها السوريون واللبنانيون من جهة ، والفرنسيون من جهة ثانية ، اتفاقاً خاصاً يتعلق باستلام دوائر الجمرك وادارة حصر الدخان . وانتخبت الحكومتان لجنة مشتركة لادارتها .

ولم يكن الجانب الفرنسي ،في الواقع ، حسن النية : وآية ذلك ان الجنرال كاترو ما كاد يعود للجزائر الا وصرح قائلاً : « ان الحالة الحاضرة لا تسمح بمجابهة حلّ آخر في هذا النطاق قبل نهاية الحرب » . واما السوريون واللبنانيون فلم يكونوا قد اقتنعوا بما سلمت به فرنسا ؛ بل استأنفوا السعي متحدين للمطالبة بما بقي في حوزتها من سلطات وتبعات . وفي مطلع عام ١٩٤٤ اثيرت قضية الجيش في مجلس النواب السوري بشكل ناري ؛ وفضلاً عن الالحاح في المطالبة باستلام القوات التي جندتها دولة الانتداب فقد اجمع خطباء المجلس على القول بوجوب تأليف جيش وطني . وتوالت ،على اثر ذلك ، المظاهرات الرائعة في اطراف البلاد تطالب بالجيش ، وبالتجنيد الاجباري .

واثيرت هذه القضية ايضاً في مجلس النواب اللبناني ، ورددت الصحف اللبنانية اماني البلاد ؛ فاذا ببلاغ تصدره الحكومة بتاريخ ١٥ حزيران ١٩٤٤ تعلن فيه

انه وضع تحت تصرفها طابور من القناصة اللبنانية ، ومفرزة من السيارات المجهزة بالرشاشات . واذا بسعد الله بك الجابري رئيس وزراء سورية يعلن في مجلس النواب يوم ١١تشرين الاول ١٩٤٤ « ان المباحثات انتهت الى تسليم نصف الجيش قبل عقد الهدنة ، على ان يسلم النصف الآخر يوم عقد الهدنة » .

وفي الواقع فقد كان كل ذلك تخديراً من قبل الفرنسيين ، بانتظار نهاية الحرب ؛ كما يستفاد ذلك من تصريح الجنرال كاترو الذي اوردناه . لذلك فان السوريين واللبنانيين ، الذين كانوا على علم تام بما يضمر الفرنسيون ، لم يتوانوا لحظة في السعي لاستكمال عناصر الاستقلال ، وصيانة مظاهره : فقد اتخذت الدولتان قرارات متتابعة بهذا المعنى تنص على وجوب جعل اللغة العربية لغة الدولة دون غيرها من اللغات ، وعلى الغاء وظائف المستشارين الفرنسيين ؛ كما تنص على الغاء المحاكم المختلطة .هذا الى ان الحكومتين احتجتا على تعيين مندوبين فرنسيين دون اخذ موافقتهما ؛ ومنعتا ، منذ عام ١٩٤٤ ، المهرجانات والاستعراضات التي كان الفرنسيون قد اعتادوا اقامتها سنوياً لمناسبة عيد الحرية في ١٤ تموز . كما منع لبنان ، فيما بعد ، اجراء القداس القنصلي ؛ وكانوا يقيمونه ، كل عام في بيروت ، لمناسبة عيد الفصح برئاسة مندوب فرنسا . وفضلاً عن ذلك فقد اعلنت الدولتان عام ١٩٤٤ انهما تعتبران كل المراسيم التي تصدر عن المندوب السامي الفرنسي لغواً ، على اعتبار ان التشريع محصور فيهما .

فرنسا تستعين بالدرهم الابيض لليوم الاسود : كان الفرنسيون ينتظرون استتباب امورهم بعد النصر لاسترجاع انتدابهم على سورية ولبنان ، وذلك ما كان يحملهم على المماطلة في تسليم الجيش ، وما بقي من المصالح المشتركة ، وعلى التراجع والتعنت كلما برقت ، امام اعينهم ، بارقة أمل في قرب اندحار المحور .

ولما حرر الحلفاء باريس تجلّت سرائرهم ، اذ عقدت لجنة التحرر الفرنسية جلسة رئسها الجنرال ديغول ، وقرروا جازمين ان يتوقفوا عن تسليم الجيش ومصلحة الامن العام الى حكومتي دمشق وبيروت .

وكان من اثر هذا القرار ان استعرض القادة الفرنسيون الجيش في سورية ، وتلوا على الضباط والجند ، (كما اخبرني في حينه احد الضباط) ، بلاغاً باللغة العربية

يعلنون فيه ان لا مرجع لهم الا فرنسا ؛ ويحذرونهم كل التحذير من الانصياع لأوامر أي كان سواها .

هذا الى انهم ازدادوا ، من ثم ، نشاطاً في صعيد التفريق بين العناصر والطوائف ، كما ازدادوا كرماً في انفاق الاموال في سبيل تأييد المعارضين من انصارهم كما نوجزه فيما يلي :

١ – في لبنان : اصطدم الفرنسيون في لبنان ، ابان حوادث تشرين الثاني ١٩٤٣ ، باتحاد كلمة اللبنانيين اتحاداً لم يكونوا ينتظرونه ، فهالهم الامر ، وخفوا ، من بعد هذه الصدمة ، الى العمل بنشاط عظيم للتفريق بين الصفوف على أمل خلق حوادث تمكنهم من استبقاء انتدابهم . وللفرنسيين في لبنان قواعد ، غير القواعد الحربية ، يعتمدون عليها في تثبيت اقدامهم : فلهم ، عدا بعض رجال الدين الذين غمرتهم فرنسا بمساعداتها ، مؤسسات علمية ، ومستشفيات وارساليات دينية ، يمشي وراءها جيش لجب من خريجي هذه المعاهد ، ومن الرهبان والراهبات ومريديهم ، فضلاً عن صحف كثيرة تنطق بلسانهم ، منها افرنسية اللسان ، ومنها افرنسية القلب . وفوق ذلك كله كانت لهم اذاعة لاسلكية تدعى « اذاعة الشرق » ، وهي في الواقع غروبية انما تدعو لفرنسا وتبشر بها .

وقد جندت فرنسا كل هذه القوى الداخلية لمحاربة العهد الاستقلالي في كل من سورية ولبنان باسطة يدها في توزيع المال تحقيقاً للامال . وكان من جراء ذلك ان نشط حزب المعارضة في المجلس النيابي اللبناني للعمل ، وتألفت جمعيات ومنظمات ، وانشئت صحف جديدة ؛ وكلها تحمل على لبنان في عهده الاستقلالي .

وفضلاً عن ذلك فقد استطاعت فرنسا ان تستعيد الاكليروس الماروني الى صفها بعد ان كان مؤيداً للحكومة في حوادث تشرين ١٩٤٣ ، وذلك بما القت في روعه من مخاوف مدارها ان تعاون لبنان مع البلاد العربية سيفضي الى القائه في احضان الاسلام . فاذا ببعضهم يتظاهر في تأييد كل مطلب من مطالب فرنسا : من عقد معاهدة بينها وبين لبنان تحفظ لها فيه مركزاً ممتازاً ، الى طلب حمايتها واستبقاء جنودها .

ولم تمض حكومة لبنان في مشاورات الوحدة العربية ، وفي وضع ميثاق الجامعة العربية ، وفي الدخول بمفاوضات مع حكومة سوريا لتأليف لجنة مشتركة

للمصالح المشتركة ، وفي تأليف جيش وطني ، إلا وكانت العناصر المعارضة تحمل عليها وتنفر الرأي العام منها . ثم لا تقف عند هذا الحد ، بل تصور كل شبح غولاً يكاد يلتهم لبنان : فاذا تكلم الملك عبد الله بشرق الاردن في موضوع سورية الكبرى ، واذا بحث نوري باشا السعيد في حلف مع تركيا ، واذا ايد عبد الرحمن عزام باشا عرب شمال افريقيا ، نادوا بالويل والثبور ، وعظائم الامور ، واتخذوا من هذه المناسبات وامثالها حجة لهم لمهاجمة الجامعة العربية وتسفيه التعاون العربي ، داعين ، كرة اخرى ، الى انشاء وطن مسيحي في لبنان .

وفي وسط هذه الفوضى الفكرية ، التي استطاعت فرنسا ان تخلقها في لبنان ، ارادت ايضاً القيام بتجربة لعلها تكون حاسمة وتعيد علمها يرفرف فوق مرافقه . وكان ذلك في نيسان ١٩٤٤ لمناسبة انتخابات تكميلية لمجلس النواب اللبناني[١]. فقد فاز في هذه الانتخابات السيد يوسف كرم من اهدن ، وهو احد افراد اسرة تعرف بولائها وصداقتها القديمة لفرنسا ، وربما كانت لها مساعدة في فوزه .

وكان يوم ٢٧ نيسان ١٩٤٤ موعداً لجلسة الندوة النيابية التي سيشهدها النواب الثلاثة الجدد ، فاذا بالسيد يوسف كرم يهبط من اهدن الى بيروت بتظاهرة اتخذ منها المتآمرون على استقلال لبنان فرصة للاندساس فيها فزحفوا على المجلس النيابي ترفرف فوق رؤوسهم الاعلام الفرنسية ، وتتردد عزائمهم اناشيد يحيون بها فرنسا ، وطلقات نارية يطلقون معها عواطفهم شطر الانتداب . ولما بلغ الموكب المجلس النيابي تقدم جندي من المتطوعة عند الفرنسيين محمولاً على الاكتاف ، وحاول رفع العلم الفرنسي على باب المجلس ، فاذا بعيار ناري يرديه ، واذا بمعركة تنشب بين المتظاهرين وبين الدرك لم يلبث ان اشترك فيها بعض الجنود الفرنسيين المرابطين في بناية التلفون المواجهة لدار الندوة ، فصوبوا منها نيرانهم على الدرك ، ثم لم يوفروا النواب في داخل المجلس . على ان مندوب فرنسا وان تبرأ من هذه المؤامرة ، التي استطاعت الحكومة ان تقضي عليها في مهدها ، الا ان الرأي العام اللبناني ما كان في استطاعته ان يصدق ان فرنسا كانت غير مشتركة في تدبيرها .

٢ – في سورية : على ان سورية نفسها لم تسلم من مثل هذه المؤامرات . والظاهر ان عمال الفرنسيين كانوا قد فقدوا اتزانهم حتى لم يعد في طاقتهم امتلاك اعصابهم حيال تحول الرأي العام في سورية ولبنان عنهم ، وتظاهره بالعطف على البريطانيين . والواقع ان هذا العطف على بريطانيا كان وقتئذ طبيعياً من جراء

المساعدة التي قدمتها لها خلال النضال في سبيل الاستقلال .

اجل ان سوريا لم تسلم من هذه المؤامرات : وان حادثـــة « ملعب المرج الاخضر » التي وقعت بدمشق يوم ١٩ اذار ١٩٤٤ واحدة منها : فقد اعتدى افراد من الجند الفرنسيين المتطوعين على المشتركين في حفلة كانت تقيمها الحكومـة في هذا الملعب ، واطاقوا عليهم النار ، بينما كانت طائرات انكليزية من نوع سبتفـاير تقوم بعرض جوي ، وذلك لمناسبة التبرعات التي كانت سوريا تجمعها لتقديم بعض الطائرات هدية الى جيش جلالة الملك في لندن . ولولا حكمة الحكومة لاستشرت الفتنة وفقاً لما يتوخاه عمال فرنسا .

واذا لاحظنا ان حادثة اقتحام الندوة اللبنانية ، التي ذكرناها ، وقعت ايضاً في مثل هذا الظرف : اي في غضون المهرجان الكبير الذي كان يعده الطيران البريطاني في بيروت لمناسبة استعداد لبنان لتقديم هـــدية من الطائرات للجيش الانكليزي . اذا لاحظنا ذلك علمنـــا أن الحادثتين مدبرتان ، ومصدرهما ثورة الاعصاب وسوء النيات .

وقبل ان يهدأ روع الاهلين اذا بانباء فتنة اخرى تقع في دمشق يومي ٢٠و٢١ ايار ١٩٤٤ تتبعهـا اضطرابات في حلب وامهات المدن السورية . وهي وان ظهرت بمظهر المعارضة لسفور النساء ، الا انهـا ، في الواقع ، كانت مدبرة من وراء ستار للاخلال بالامن العام .

وكان المجال أرحب للافرنسيين في جبال العلويين ، حيث كان لهم انصار من الاقطاعيين . وكان على رأس هؤلاء نائب في المجلس السوري اسمه سليمان المرشد لقي منهم المساعدة الى حد انه ادعى الألوهية . فلما كان عهـد الاستقلال فرضت عليه الحكومة الاقامة الجبرية في دمشق ، واستمع القضاء الى الشكايات الموجهـة ضده . فخف الفرنسيون لاستثمار نقمة هـذا الرجل وذويه على الحكم الحاضر بأن اثاروا عشيرته ؛ وكلما تقدم الدرك السوري للاقتصاص منها ، كان يحول الجيش الفرنسي بينه وبينهـا . وكانت هذه الحماية لعشيرة المرشد مدعاة لازدياد الطغيان الى امد طويل ، وبالتـــالي الى بث القلق في سورية . ولكن لما استتب الامر في سورية بعد جلاء الفرنسيين حوكم سليمان المرشد وذووه ونفذ فيه حكم الاعدام .

المعركة الحاسمة بين فرنسا وبين سورية ولبنان : ما ان تقرر النصر النهائي للحلفاء

على المحور حتى كشف الجنرال ديغول القناع عما يضمره حيال سورية ولبنان: وقد استهل عمله باعلان اصراره على عقد معاهدة بين فرنسا وبين كل من الدولتين يكون لفرنسا فيهما المركز الممتاز ؛ واخذ يسوق الجنود تباعاً اليهما لتنفيذ ارادته بالقوة . وخلال ما كان كل من سورية ولبنـان يقيم المهرجانات ايام ٨ و ٩ و ١٠ مايس ١٩٤٥ مساهمة في عيد النصر تجلت نوايا الفرنسيين ، الذين قوّى اندحـار المحور معنوياتهم ، وأحيا وصول النجدات العسكرية لبلاد الشام اعتدادهم بانفسهم ، فتحدوا الاهلين تحديات افضت الى وقوع الاصطدام المتواتر في الساحل والداخل .

وكان الجنرال بينه المفوض الفرنسي في سورية ولبنان قد دعي لباريس وعاد منها مزوداً بتعليمات جديدة مشبعة بهذه الروح . وفي ١٨ مايس ١٩٤٥ سـلم في دمشق وزير خارجية سورية ، بحضور وزير خارجية لبنان ، مذكرة تتضمن رغبة الحكومة الفرنسية في صيانة مصالحها الثقافية والاقتصادية والاستراتيجية . وتعلق المذكرة قضية نقل القطعات الخاصة (أي الجيش) الى الدولتين على التفاهم على هذه النقاط . ولكن الجنرال لم يلبث ان اصطدم بموقف حازم تقفه سوريا ولبنان في وجه هذه المطاليب : فقد عقد ممثلوهما في اليوم التالي اجتماعاً في شتورا قرروا فيه وقف المفاوضة ، وتوحيد الجهود للدفاع عن الاستقـلال ؛ كما قرروا الابراق الى جامعة الدول العربية شاكين من تعنت فرنسا في موقفها .

وبينما كانت الدولتان تتبادلان مع حكومـة فرنسا المذكرات ، وبينما كانت الدول العربية ، وعلى رأسها الجامعة العربية ، تثير بعنف قضية بلاد الشام ، كان الاصطدام في شوارع دمشق وبيروت وسائر المدن متصلاً بين المتظاهرين من جهة وفي طليعتهم الطلبة ، وبين القوى الفرنسية من جهة اخرى وكانت المناداة عامة بطلب الجلاء .

والتفتت فرنسا الى انصارها وعمالها في البلاد ، وأرادتهم ان يثيروا الفتنة بين المسيحي والمسلم ، ولكنها لم تفلح ، فتحولت الى اصدقائها تستنجد بهم ، وخصوصاً في لبنان كيما يطلبوا حمايتها ، ويحتجوا على جـلاء جنودها ، فاذا بمؤتمر اكليركي يعقد في الصرح البطريركي الماروني يوم ٢٩ ايار سنة ١٩٤٥ ، ويقرر تأييد فرنسا في طلبها عقد معاهدة مع لبنان ؛ واذا بالخور اسقف انطون عقل يغـادر بيروت الى فرنسا ، ومنها الى امريكا ، حيث تتجمع الجالية اللبنانية ، فيتكلم باسم غبطة البطريرك الماروني ، طالباً حماية المسيحيين ، على ان تتولى فرنسا هذه الحماية .

على ان الافرنسيين كانوا قد اعتزموا اخضاع سورية عنوة ليتحولوا بعد ذلك

الى لبنان ، فقابلوا المظاهرات الشعبية فيها بالنيران ، وبخطف بعض الافراد وتعذيبهم . وجعلوا الشوارع ساحة حرب تقوم فيها رشاشات منصوبة ، بينما كانت السماء تمور بالطائرات . حتى اذا كان مساء ٢٩ أيار ١٩٤٥ بدأوا المجزرة ، واشتركت جميع المراكز الفرنسية باطلاق القنابل والرصاص على دمشق ، وصوبوها نحو المجلس النيابي ومقرّ الدرك . وارتكبوا مثل ذلك في سائر المدن السورية الاخرى فكانت مجزرة بشرية رافقتها الحرائق والتهديم ؛ ولكنها لم تزد السوريين الا ثباتاً على اصرارهم في طلب الجلاء .

ولم يكن في وسع العالم الذي يراقب هذا التعدي ، ان يبقى ساكتاً ، لا سيما وان العالم العربي كان قد تأهب للعمل انتصاراً لاخوانه ؛ وذلك وفقاً للمادة السادسة من ميثاق الجامعة ، فاذا بالسيد تشرشل رئيس الوزارة البريطانية وقتئذ ، يبرق في ٣١ أيار ١٩٤٥ الى الجنرال ديغول يطلب اليه الكف عن اطلاق النار ، ويعلمه انه اصدر امره الى قائد جيوش الشرق الاوسط بالعمل على حقن الدماء .

وسرعان ما وصل الجنرال باجيت الى دمشق ، وتبعته القوات البريطانية ، فسلّم سعادته الى الحكومة السورية الادارات الرسمية ، بينما كانت قواته تتولى حماية الجيوش الفرنسية ومؤسساتهم اثناء سحب قواتهم من جميع المدن السورية .

وكان هذا الموقف الطائش الذي وقفه الديغوليون في بلاد الشام بمثابة الموقعة الحاسمة التي قضت عليهم ليس بالجلاء فحسب ، بل باضاعة ما حاولوا غرسه خلال اجيال طوال . ففي دمشق اجتمع مجلس بلديتها وقرر :

« ١ ـ رفع الاسماء الفرنسية من جميع الشوارع . ٢ ـ ازالة كل نصب تذكاري فرنسي . ٣ ـ المطالبة بالغاء المحاكم الاجنبية . »

هذا الى ان الحكومة اصدرت قراراً يقضي بمنع نشر اي شيء باللغة الفرنسية . كما ان الطلبة نظموا حفلة احرقوا فيها كتبهم الفرنسية ، ثم غادروا المدارس الفرنسية ، التي ظلت مقفلة الى حين ؛ وجرى مثل هذا في سائر مدن سورية .

وفي بيروت ولبنان ، اتخذ المجلس البلدي بعض المقررات المماثلة في هذا الشأن ؛ وساهم مع الحكومة لفيف الشعب في اظهار النقمة على سياسة الاستعمار .

وعلى اثر اجتماع اشتركت فيه الحكومتان صدر عنهما بلاغ في ٢٠ حزيران ١٩٤٥ ينص على اتفاقهما على انتهاج سياسة مشتركة في تسريح الموظفين الفرنسيين ، والعمل على جلاء القوى الفرنسية ، واستلام « القطعات الخاصة » (المتطوعة) . ويشير البلاغ الى عزمهما على عدم منح اية دولة امتيازاً ، او مركزاً ممتازاً . وكانت

الاحزاب الفرنسية قد سفهت ،في دورها،سياسة الجنرال ديغول فحاول هذا رتق الفتق ، ولكن دون جدوى ؛ ذلك ان المندوب الفرنسي الجنرال بينه كان قد وجه الى باريس رئيس غرفته الكونت اوستروروغ على اثر انقطاع المفاوضات بينه وبين دمشق وبيروت ، فعاد هذا في ٢٧ حزيران ١٩٤٥، وقصد ، في اليوم التالي لعودته ، دار هنري بك فرعون وزير الخارجية اللبنانية طالباً وساطته لاستئناف المفاوضات؛ثم شوهد، على اثر ذلك، هنري بك يزور دمشق مرتين لهذا الغرض ؛ ولكن سورية اعلنت انه لا يمكنها المفاوضة الا بعد جلاء القوات الفرنسية ، وتسليم « القطعات الخاصة » لها وللبنان .

وكانت فرنسا تؤمل ،بعد ان نفضت يدها من سورية،ان تحتفظ بمركزها في لبنان حيث تجمعت قواتها العسكرية ، فعدلت الى المصانعة ، بالاضافة الى الدعاية التي قام بها عمالها في انحاء الساحل ؛ واصدرت مفوضيتها في بيروت بلاغاً يؤذن بانتقال فرق الجيش الخاصة الى الحكومتين . وكانت تسعى ، في نفس الوقت ، لاكتساب لندن ؛ ولكن كل هذه المساعي ذهبت ادراج الرياح .

ولما عقد مؤتمر وزراء الخارجية الخمسة في لندن(ايلول ١٩٤٥)اتصل السيد بيدو بالسيد بيفن ، اتصالاً وثيقاً ، لايجاد الحلول ؛ وتتابعت منذ ذلك المفاوضات بينهما بالطرق الديبلوماسية الى ان صدر عنهما بلاغ مشترك نوه بان الخبراء العسكريين البريطانيين والفرنسيين سيجتمعون في بيرت منذ ٢١ — ١٢ — ١٩٤٥ لتحديد تاريخ قريب جداً للشروع في اولى عمليات الجلاء .

وعرضت فرصة مؤاتية لسورية ولبنان،في الشهر التالي،لاثارة موضوع الجلاء: فقد عقد مؤتمر الامم المتحدة في لندن ، وتمثلت فيه كل من سوريا ولبنان ، كما تمثلت فيه سائر الدول العربية . واثار مندوبو سوريا ولبنان ، في هذا المؤتمر ، قضية جلاء الجيوش الاجنبية عن بلادهما فوراً ؛ وايدتهما في هذا الطلب الدول العربية وغيرها ، فلم يسع فرنسا إلا النزول عند رغبة شعبين متحدين في النضال .

وبعد اتفاق خاص جرى بباريس فيآذار ١٩٤٦ انسحبت الجنود الفرنسية تباعاً اسوة بالجنود البريطانية في مهلة حددت ، وتنتهي بنهاية عام ١٩٤٦.وهكذا استلم البلدان مقدراتها وتبعاتها ، فأدركا حظها وأمنيتها في الاستقلال .

هذا ولما كان عهد الاستقلال في سوريا ولبنان حفل بأحداث خليقة بالتدوين ، وحرية بالتعليق فقد اخترنا الوقوف هنا عند مستهل هذا العهد لنوفي البحث حقه في الجزء الثالث من هذا الكتاب .

كيف ضاعت فلسطين عهد الاستقلال

في الساعة ١٢ من ليل ١٥ ايار ١٩٤٨ انتهى اجل الانتداب البريطاني على فلسطين ،فخف الصهيونيون ،في ذلك اليوم ،الى اعلان « دولة اسرائيل ». وما كادوا يفعلون ذلك حتى بادرت بعض الدول للاعتراف بها ، وفي مقدمتها الولايات المتحدة ، واتحاد الجمهوريات السوفياتية ؛ على حين ان واشنطن وموسكو ما اتفقتا يوماً على أمر ما ؛ بل كان لسان حالها « شتان بين مشرق ومغرب . »

وكانت الهيئة العربية العليا لفلسطين قد اعدت العدة لقيام دولة « فلسطين العربية » ، واتصلت في اواخر شباط ١٩٤٨ بالمراجع العربية العليا قصد الحصول على موافقتها ؛ ولكن هذه المراجع كانت تحاذر التعرض لأي عمل من شأنه ان يؤول الى تفكيك اواصر التفاهم بين الدول العربية . وقد قدرت الهيئة العربية العليا هذه المعذرة فاقترحت ، بعد شهرين من ذلك ، انشاء ادارة مدنية لفلسطين. ثم لما انتهى أجل الانتداب استأذنت الهيئة بالدخول لفلسطين ؛ ولكن بعض الجهات العربية لم تظهر موافقتها على الأمرين ، وذلك حرصاً على بقاء التفاهم .

ثم كان نجاح الجيوش العربية في تطويق تل ابيب مشجعاً للهيئة العربية العليا على استئناف المسعى من اجل قيام حكومة فلسطينية ، تكون مسؤولة تجاه مجلس وطني . غير ان اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية لم تأخذ بهذا الرأي ايضاً حباً باستمرار التضامن .

ولكن هذا التضامن لم يلبث ان تلاشى بعد صدور اقتراحات الكونت برنادوت الوسيط الدولي ، تلك الاقتراحات التي جعلت مرة شرق الاردن جزءاً من فلسطين ، واعتبرت مرة اخرى فلسطين جزءاً من شرق الاردن. اجل ، وعلى اثر هذه الاقتراحات اخذت تصدر عن عمان تصريحات ، في بعضها تلميح ، وفي بعضها تصريح ، تتضمن الارتضاء بهذا الحل. فكانت هذه التصريحات حافزاً للجامعة العربية لأن تخرج عن نطاق المصانعة. فأعلنت اللجنة السياسية في ٨ تموز ١٩٤٨ تشكيل ادارة مدنية موقتة لفلسطين مسؤولة امام الجامعة نفسها ؛ ثم تطرقت في اجتماع الاسكندرية الذي عقدته الجامعة (ايلول ١٩٤٨) الى موضوع اقامة حكومة بفلسطين مسؤولة امام مجلس تمثيلي . وبناء على ذلك اجتمعت الادارة المدنية الموقتة في مدينة غزة ، وقررت في ٢٢ ايلول ١٩٤٨ ، اعتبار نفسها حكومة

للبلاد باسم حكومة عموم فلسطين ؛ ووجه رئيسها احمد حلمي باشا رقاع الدعوة لتأليف المجلس الوطني .

ولكن الوقت كان قد فات ؛ ولم تحصل الفائدة المرجوة من هذه الحكومة ؛ خصوصاً وان الدول العربية أمست على حال من التنازع كان يجعلها تنصرف عن فلسطين الى مهامها الخاصة ، وتحجب عن هذه الحكومة معاونتها .

على أن اعلان حكومة فلسطين كان له رد فعل في عمان اخرجها من حيز الكلام الى حيز العمل المكشوف : فبعد مؤتمر عمان عُقد مؤتمر اريحا (كانون الأول ١٩٤٨) باسم المؤتمر الفلسطيني الثاني ، واتخذ قرارات بضم ما تبقى بيد العرب من فلسطين الى شرق الاردن .

ولما وافق المجلس النيابي في عمان على هذه القرارات لم تسكت الدول العربية الأخرى ، خصوصاً وانها كانت قد انفقت ، في مؤتمر زهراء انشاص ، على انقاذ فلسطين شريطة أن يترك الى اهليها تقرير مصيرهم . فأعلنت هذه الدول ، بعد يومين من هذا القرار ، احتجاجها عليه ، مما اضطر عمان للموافقة على تأجيل تنفيذه . بيد ان حكومة شرق الأردن لم تلبث ان ضمت فعلاً القسم العربي من فلسطين ، ولم تستثن منه الا جزءاً ضيقاً عند سيف البحر في الجنوب الغربي وضع تحت اشراف الادارة العسكرية المصرية . وانتدبت من قبلها حكام المنطقة التي الحقتها بها كما انها ادخلت في وزارتها بعض ابناء هذه المنطقة . ثم لما زار جلالة الملك عبد الله لندن (آب ١٩٤٩) كان في جملة مساعيه حمل بريطانيا العظمى على اعلان اعترافها بهذا الضم دون انتظار قرار هيئة الامم المتحدة . على ان انكلترا وان اختارت ارجاء هذا الاعتراف الا ان حكومة عمان لم تلبث ان اعلنت ضم فلسطين العربية اليها ، ما عدا القسم المصري المذكور ، واتخذت التدابير اللازمة لاشراكها في الوزارة والمجلس النيابي .

وهكذا فان اختلاف الدول العربية على جلد الدب قبل صيده جعل الجلد كله يمسي في قبضة خصومهم . ولو انهم كانوا على اتفاق بريء لاتشوبه الأغراض الذاتية لما توانوا في اعلان حكومة لفلسطين اسوة بما فعل الصهيونيون يوم انتهاء الانتداب ؛ يكلون اليها الدفاع عن وطنها بما لديها من خبرة وامكانيات محلية ، ويمدونها بالمال والسلاح بالاضافة الى الرجال ، لاسيما اهل الفن والتنظيم العسكري . ثم هم يقفون من ورائها يهزون عصا العز ولا يضربون بها . اذن لكان حل هذه القضية أتى على غير مانرى ؛ ولكنا حفظنا الكرامة التي اضعناها والثقة التي فقدناها .

كانت الدول العربية على اتفاقها في المثل الأعلى القومي ، وعلى ما تجلى من مظاهر الاتحاد بينها في كنف الجامعة العربية ، لا يزال كل منها يحتفظ بنزعات شخصية وسياسات شعوبية ؛ واهمها ما بين الهاشميين والسعوديين . وترجع تلك النزعات الى استيلاء آل سعود على الحجاز ، والقضاء على دولة الأشراف فيه .

والى هذا فان طمع عمان ، بتحقيق سوريا الكبرى ، وامـل بغداد بتأمين الهلال الخصيب كانا حافزين للدول العربية الأخرى على التكتل ضد هاتين الامنيتين . ومنهم من كان يفعل ذلك ، كسوريا ولبنان ، لان هذين المشروعين يمسان مباشرة بكيانها . ومنهم من كان يعارض ، كمصر والمملكة العربية السعودية لأن تحقيق سوريا الكبرى ، او الهلال الخصيب من شأنه ان يعطي الهاشميين قوة جديدة تخل بالتوازن الدولي العربي .

غير ان الخطر الجسيم على فلسطين وما وراءه من اخطار على الدول العربية في مستقبل قريب حملا هذه الدول على الاجتماع والاتحاد في سبيل انقاذ هذا البلد المقدس . واجتمع رؤساؤها بدعوة من جلالة الملك فاروق بزهراء انشاص بمصر (١٩٤٦) ، وقرروا ، فيما قرروا ، ان يترك للفلسطينيين أنفسهم اختيار مصيرهم ، وذلك بعد القضاء على الصهيونيين .

ولما وقعت الواقعة بين العرب والصهيونيين صدر عن جلالة الملك فاروق نطقاً سامياً في ١٢ نيسان ١٩٤٨ مفاده « أن الدول العربية تعتبر فلسطين وديعة في ايديها ، وانها تترك مصيرها الى ما بعد انقاذها ليقول اهلها كلمتهم بشأنها » وقد ايدت جميع الدول العربية هذا النطق السامي ، وكذلك اللجنة السياسية للجامعة العربية ؛ فكانت ، من ثم ، تلك المظاهرات السياسية الملتهبة والخطب النارية التي اوهمت العالم ان العرب كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، وان لا سبيل لحل قضية فلسطين على غير هواهم . وهذا ما كان حافزا للولايات المتحدة الأميركية لان تعلن في مجلس الامن انها غير مستعدة لتنفيذ قرار التقسيم بالقوة .

غير ان الصهيونيين لم ييأسوا ، مع ذلك ، بل خفوا الى تحقيق التقسيم عملياً قبل انتهاء اجل الانتداب الذي حددته بريطانيا العظمى : فاحتلوا بالقوة الاراضي التي جعلها مشروع التقسيم من نصيبهم ، ثم اجتازوها الى غيرها ، وذلك على مرأى ومسمع من دولة الانتداب والدول العربية التي كانت تحاذر دخول فلسطين قبل انسحاب الجيوش الانكليزية منها . ولما انتهى اجل الانتداب (منتصف ليل ١٩٤٨/٥/١٥) اجتاحت جيوش الدول العربية فلسطين من جميع الجهات حسب الخطة الموضوعة

من اللجنة السياسية العربية في اجتماعي دمشق وعمان . وعلى جبهة طولها ستون كيلو مترا اجتازت القوات المصرية حدود صحراء سيناء ، كما عبرت قوات الجيش الاردني والجيش العراقي جسر اللنبي ، وانشأت لها مقرا في مدينة اريحا ، بينما كانت القوات السورية واللبنانية تتقدم في الناحية الجنوبية .

واثناء ما كانت القوات الاردنية تندفع نحو القدس ؛ ومنها الى اللد والرملة على بعد عشرين ميلًا من تل ابيب ، وكانت القوات العراقية تحتل اواسط فلسطين متقدمة من عاصمة الصهيونيين حتى صارت قذائفها تصب على مستعمرة ملبس ، كانت القوات المصرية تحتل غزة وبئر السبع وبيت لحم والخليل والمجدل ، فتصبح على مقربة من مستعمرة روخبوت ؛ وهي خط الدفاع الاول عن تل ابيب .

وقد دل هذا النجاح في الزحف على ان اللجنة العسكرية بدمشق ، المنبثقة عن الجامعة العربية ، لم تكن مخطئة في اعتمادها على القوى العربية ؛ اعتمادا جعل بعضهم يعتبر حرب فلسطين نزهة عسكرية ؛ ولكن بعض هؤلاء القادة كانت تنقصهم الخبرة السياسية حينما لم يحسبوا حساب « العنعنات » التي تربض وراء ستار اتحاد الدول العربية ؛ ولم ينتبهوا الى الروابط التي تربط بعض هذه الدول بالدول الاجنبية . وكانوا طيبي القلوب ايضاً حينما اطمأنوا الى سياسة بريطانيا العظمى .

والواقع أن الاتحاد العربي الذي بدا للعيان كالبنيان المرصوص ، كان سحابة صيف لم تلبث ان انقشعت عن لا شيء . فقد ظهر التباين في وجهات نظر الدول العربية منذ الاجتماع الاول الذي عقدته الجامعة العربية (كانون الاول ١٩٤٧) لتحديد الموقف تجاه قرار منظمة الامم المتحدة في التقسيم ؛ فاختلفوا على القيادة العامة ؛ كما اختلفوا على تفسير مقررات بلودان السرية (أيار ١٩٤٦) . وقد حاول بعضهم ، تهرباً من تنفيذها ، التنصل منها بتفسيرها على غير مفهومها . ثم لما اجتمعوا صيف ١٩٤٨ في صوفر عارض بعضهم اقتراحاً يرمي الى اخذ قرار بمقاطعة كل من بريطانيا العظمى والولايات المتحدة ، ووقف اعمالها البترولية في الظهران والعراق ، وذلك في حال استمرارهما على مظاهرة اسرائيل . بينما كانت دولة العراق نفسها لاتبالي ، إبان حماسها لفلسطين ، بتأييد هذا الاقتراح رغم مواردها البترولية . هذا فضلًا عن أن الدول العربية ما كادت تصطدم بتدخل الدول الاجنبية عقب ان طوق العرب تل ابيب ، وما كادت تفاجأ باقتراح مجلس الامن بشأن الهدنة الأولى في ٢٩ أيار ١٩٤٨ إلا وازداد اختلاف وجهات النظر عندها ، ولا سيما بصدد قبول الهدنة ، وعدم

قبوها ، وذلك تبعاً لعلاقات كل منها بالدول الاجنبية . وقد جرّ هذا التباين في الرأي الى قبول تلك الهدنـة التي قضت على ثمرة انتصاراتهم ،وأفضت ،من بعد ، الى الشقاق بينهم . هذا فضلاً عن افساحهم المجال بهالاستكمال اليهود استعداداتهم ، وللدول الاجنبية لالقاء بذور الانقسام في صفوفهم ؛ تحقيقاً للوعود المقطوعـة منها لاسرائيل .

هذا وإذا صح ما يزعم البعض ان الذي حمل الدول العربية على قبول الهدنـة الاولى إنما هو حرمان جيوشهم من الاسلحة الكافية فتكون التبعة أعظم ،خصوصاً إذا علمنا أنه لم يكن قد مضى نصف شهر على اكتساحهم فلسطين — وهنا مجـال للتساؤل « كيف ساغ لهم ان يدخلوا الحرب دون سلاح كافٍ ؟ » . ثم « مـاذا كانوا يفعلون في غضون الأشهر الستة التي انقضت قبل اشتراكهم في القتا ل؟ »

. . . . .

اشتبك العرب واليهود بالقتال الجـدّي عقب قرار منظمة الامم المتحـدة في ٤٧/١١/٢٩ القاضي بقسمة فلسطين ؛ وكانت الولايات المتحدة تظاهر الصهيونيين علناً ، ومثلها كل من فرنسا ، وجمهورية الاتحاد السوفياتي . وهذا ما حمل نوري باشا السعيد رئيس وفـــد العراق في اجتماع هيئة الامم المتحدة بلايكساكسس (تموز ١٩٤٧) على القول : « لقد خيب هذا الاجتماع الآمال في العدالة الدولية . »

على ان بريطانيا العظمى ، وان كانت تحرص على تحقيق مشروع التقسيم ، إلا انها كانت ، مع ذلك ، تتظاهر بمساعدة العرب لمآرب لها شخصية أهمها ما يلي :

١ - كان شعبها طـافح القلب من اليهود بسبب الجرائم التي يرتكبونهـا في فلسطين ضد رجالاتهم وجندهم ؛ فكانت لندن تميل لذلك لأن تترك الفرصة للعرب كيما يذللوا الصهيونيين ، الى حد يحمل هؤلاء على الالتجاء اليها .

٢ — كانت ، وهي قلقة البـال على مركزها في الشرق الاوسط المهدد من الولايات المتحدة الاميركية تعتبر اليهود مـــن اعظم العوامل لتمكين اميركا دونها من ناصية هذا الشرق ؛ فتتوخى لذلك الاحتفاظ بصداقة العرب بغيـــة الاحتفاظ بنفوذها بين اوساطهم .

وهذا ما كان يحمل بريطانيا العظمى ، اول الامر ، على التصويت الى جانب العرب جهاراً في المؤتمرات الدولية ، وعلى امدادهم بالعتاد . يؤيد ذلك ما ورد في كرّاس اصدره نوري باشا السعيد (آب١٩٤٨) ،وأشار فيه الى اجتماع سري هام

بشأن فلسطين عقده بلندن ممثلو انكلترا والعراق المنتدبون لبحث تعديل المعاهدة (١٣/١/٤٨) ، وكان على رأسهم المستر بيفن . وقد علق فخامته على هذا الاجتماع بقوله : « اكتفي بالقول اننا خرجنا من الاجتماع والاتفاق تام بين وجهتي نظر الحكومتين حول تسيير قضية فلسطين في الاتجاه الذي يطمئن رغبات عرب فلسطين خاصة ، والأمة العربية عامة . »

وبعد ان أشار السعيد الى حصول الاتفاق ايضاً في هذا الاجتماع على تجهيز الجيش العراقي والقوة الجوية الملكية العراقية بأحدث الأسلحة والتجهيزات ، وذلك باسرع ما يمكن ، انتهى الى التصريح بوصول بعثة عسكرية عراقية الى لندن ، قبل ان يغادرها ، منتدبة لاستلام هذه الأسلحة وشحنها . »

وكان هذا الموقف الذي وقفته لندن من القضية الفلسطينية مشجعاً بالتالي لحكومتي عمان وبغداد على مجاراة عواطف شعبيهما في سبيل انقاذ فلسطين . ولا يخفى ما للشعب العراقي خاصة من الاندفاع المخلص في هذا السبيل ؛ وما عنده من الغيرة على القضايا العربية .

فاذا بنا نرى حكومتي العراق وشرقي الأردن تتحمسان تحمساً لا يجارى منذ اعلان تقسيم فلسطين (٢٩/١١/٤٧) ، ويبدي ممثلوهما الحماس الشديد لانقاذها ، وذلك منذ الاجتماع الاول الذي عقدته الجامعة العربية ، وحضره رؤساء وزارات الدول العربية . قال السيد نوري السعيد بمناسبة هذا الاجتماع في كراسه المذكور ما يلي :

« وقد اطلعت على أثر انضمامي الى الوفد العراقي على تقرير امير اللواء اسماعيل صفوة قائد قوات جيش التحرير حول قضية فلسطين فوجدت ان التقرير قد عالج تلك القضية معالجة صحيحة ، واتفقت مع فخامة رئيس الوزراء (السيد صالح جبر) على تأييده عند عرضه في اجتماع الجامعة ، وانني لا ازال اذكر ما غمرني من الحزن ، وساورني من الاسف حينما وجدت ان هذا التقرير الثمين لم يلق التأييد الذي يستحقه من مندوبي دول الجامعة في اثناء المناقشات التي دارت حوله ، ما عدا مندوب العراق ، مما دعا رئيس وزراء العراق ، في النهاية ، الى طلب تنفيذ المقررات السرية المتخذة في بلودان .

« وكانت مفاجأة مزعجة لنا ان نجد اكثرية المندوبين تفسر تلك المقررات تفسيراً مخالفاً فهومها الذي كان عالقاً بالاذهان ، وخاصة بذهن رئيس وزراء العراق . »

« وعند انتهاء اجتماعات الجامعة توجهنا الى عمان للتشرف بمقابلة صاحب الجلالة عبدالله المعظم. وقد عرضنا على جلالته ما دار في اجتماعات القاهرة ، وأعربنا لجلالته عن عدم ارتياحنا لاهمال تقرير أمير اللواء اسماعيل صفوة ، وعن الشكوك والمخاوف التي تساورنا حول نجاح المساعي المبذولة لانقاذ فلسطين . وقد تفضل جلالته بتشجيعنا ذاكراً انه اذا أيد العراق شرق الاردن بجميع قواه

وموارده فان في استطاعة المملكتين ان تقوما بتنفيذ ما جاء في التقرير . وقد عدنا الى العراق ونحن مزمعون على تنفيذ الخطة المرسومة في التقرير . »

والواقع ان جلالة الملك عبدالله وقف على اثر ذلك موقفاً جعل العالم العربي يتطلع اليه ، للمرة الثانية ، كأنه المنقذ ، وجعل الدول العربية تعقد له لواء الزعامة في هذه المهمة . واذا به ، وهو يشعر بهذه التبعة ، يوجه الشكر لمصر من جراء حماسها لفلسطين مشجعاً لها على هذا الموقف .

والى هذا فما ان اعلن الصهيونيون دولة اسرائيل يوم انتهاء الانتداب البريطاني حتى رأينا جلالته يقابل هذا الاعلان بالتفنيد ، ويصرح قائلا :

١ ــ ان نهاية الانتداب البريطاني تعتبر زوالا لكل الوعود التي قطعها بلفور .
٢ ــ ليس لليهود اي حق في فلسطين .
٣ ــ ليس لليهود اي ادعاء للاستقلال الذاتي المحلي ، لانهم لم يقبلوا العروض السابقة .
٤ ــ انني اكرر وعدي بان اهل فلسطين سيقررون مصيرهم بحرية .

غير ان العرب ما كادوا يرغمون انف اسرائيل ، وذلك باحاطتهم بتل أبيب حتى قامت قيامة الدول ، وفي عدادها بريطانيا العظمى ، وبادرت الى العمل لوقف الخطر العربي ، ومعالجة الموقف معالجة يتحقق بها مشروع التقسيم .

وكانت بريطانيا العظمى تتمنى لو ان الظروف تعطيها فرصة أوسع للمساومة مع اليهود ، ولكنها ما كانت تستطيع التردد ازاء ضغط الولايات المتحدة ، خصوصاً وان الخطر الشيوعي كان قد استفحل امره ، واصبح على مقربة من لندن باحتلال السوفيات شطراً من برلين . هذا الى ان بريطانيا العظمى ، وقد وقعت في هاوية الافلاس ، اصبحت تتطلع الى الدولار تطلع العليل الى الترياق .

وهذا ما يفسر الانقلاب العجيب الذي شاهدناه في موقف لندن حيال العرب ، ذلك الانقلاب السريع الذي افضى بالتالي الى تبدل سياسة بعض الدول العربية بشأن فلسطين .

. . . . .

اتفقت الدول الكبرى على الوقوف في وجه العرب ، قبل ان يتم لهم القضاء على دولة اسرائيل ، فاعلنت حجز الاسلحة عن الشرق الاوسط ، واتخذت الجمعية العامة لمنظمة الامم المتحدة قراراً يقضي بتعيين وسيط لها بين العرب واليهود (١٤ ــ ٥ ــ ٤٨) ، كما ان مجلس الامن بادر الى اتخاذ قرار آخر ، بعد نصف شهر من قرار الجمعية ، ينص على وجوب وقف القتال طوال اربعة اسابيع .

وقد وقع اختيار الجمعية العامة على الكونت برنادوت ، ليكون وسيطها بين المتقاتلين . بيد انه ما ان دخل في المفاوضات مع الفريقين حتى اصطدم بتنافر بين وجهتي نظرهما لا سبيل الى تذليله . وحينئذ جاء دور لندن ، فالتفتت الى عمان خاصة ، وأومأت اليها بالوقوف ، مهددة بقطع المخصصات السنوية اذا لم تمتثل.

وقد اخذنا العجب ، ولم يكن ذلك لتراجع لندن وضغطها على عمان ، بعد ان كانت مصدر حماسها ؛ فهذا ليس من شأنه ان يثير عجبنا ؛ وقد شهدنا بانفسنا امثولات مثله من قبل : ألم تثر جلالة الملك فيصل بدمشق ضد فرنسا ، حينما كنا اعضاء في المجلس السوري ، وتمده بالمال والعتاد حتى اذا تمت المساومة بينها وبين فرنسا على الموصل تحولت الى عاهل سوريا تنصحه بالتفاهم مع الكه دورسه ، وسدّت الابواب في وجهه ؟

بلى ، ولكن عجبنا انما كان لتهديدها عمان بقطع المخصصات عنها في حين ان شرقي الاردن لا يحتاج الى تهديد ما زال جيشه يأتمر باوامر ضباط من عندها ، وسلاحه سلاحها ؛ ونفقاته من خزينتها .

ولعلها كانت مناورة الغاية منها خلق مبرر لجلالة الملك عبدالله ، وذلك في اضطراره للتراجع تسهيلاً لمهمة الوسيط الكونت برنادوت . وماذا ترى يصنع جلالته ، والقوة التنفيذية ليست في قبضة يده ، والمال لا يأتيه من مصدر آخر غيرها ؟ . فما وسع العرب . من بعد ، وقد جنح زعيم حملتهم الى المفاوضة مضطرا ، وشاطرته مصر في وجوب الرضوخ لقرار مجلس الأمن إلا النزول عند ارادة هذا المجلس ، والتوقيع على الهدنة الأولى ، التي بدأت في صباح ١١ حزيران ١٩٤٨ لتنتهي في صباح ٩ تموز سنة ١٩٤٨ .

ولكن الوسيط الدولي لم يجد مع ذلك سبيلاً للتقريب بين وجهتي نظر العرب واليهود في رودس . فوضع ثلاث مذكرات لمقترحاته وجهها لكل منهما في ٢٨ و ٢٩ حزيران ١٩٤٨ ، تتلخص بما يلي :

١ — قيام دولتين عربية ويهودية في فلسطين على أن تشمل شرقي الاردن .
٢ — اتحاد بين الدولتين يتوخى منه تنمية مصالحها الاقتصادية.
٣ — انشاء مجلس مركزي يتولى شؤون هذا الاتحاد.
٤ — ترك الهجرة حرة عامين ، ثم تتفق الدولتان ، من بعد ، عليها .
٥ — عودة اللاجئين العرب لديارهم .

على ان هذه المقترحات التي تقوم على اساس قسمة فلسطين لم يرض عنها الجانبان ، واغضبت العرب خاصة لأنها اعتبرت شرقي الاردن جزءاً من فلسطين. وقد قدمت الجامعة العربية مذكرة للوسيط استعرضت فيها اسباب الرفض، واوردت فيها تصريح رئيس وزراء شرقي الاردن في اجتماعات اللجنة السياسية حيث قال : « قد تجاوز الوسيط الحدود بربط مملكة شرق الاردن الهاشمية بمشكلة فلسطين بحجة انها تقع داخل حدود الانتداب . وهو زعم كاذب يتمسك به الصهيونيون على الرغم من ان بلادنا اصبحت دولة مستقلة ».

ومثلما ان قومنا ارتكبوا غلطا بقبولهم الهدنة ، فقد وقعوا في غلط آخر حينما رفضوا تمديد الهدنة . ولعلهم كانوا لا يعرفون مدى الاستعدادات التي قامت بها اسرائيل خلالها ، ولعلهم كانوا يغفلون ايضاً عن التبدل الذي حدث اثناءها في اتجاهات بعض الدول العربية . فاستؤنف القتال ، ولكنه كان هذه المرة، على غير ما كان عليه في المرة الاولى : فاسرائيل كانت قد استوفت العدد ، واستعانت ،بما لديها من مال وجاه ،ببعض الاخصائيين الاجانب في الحرب ؛ بينما ان العرب كانوا قد فقدوا وحدة النيات ؛ وامست فلسطين التي جمعت كلمتهم مصدر التنازع بينهم .

فهذا وسيط الدول الكونت برنادوت يقترح في التقرير الذي رفعه الى منظمة الامم المتحدة اقتراحاً جديداً مداره ضم القسم العربي بفلسطين الى شرق الاردن . وماذا تريد عمان اكثر من ذلك ؟ وهذه لندن صاحبة الأمر والنهي توحي اليها ان تنصاع ، وتعدها فوق ذلك بسوريا الكبرى ؛ ثم هي تزيد لها المخصصات السنوية زيادة وافيـــة ؟.

وقد شرع جلالة الملك عبد الله يلتزم ، منذ ذلك ، جانب الاعتدال ، فيوجه النصائح الى زملائه عواهل العرب ، والى الجامعة العربيـــة بوجوب نبذ ثورة العواطف ، وذلك بالاقبال على المفاوضة على اساس مقترحات الوسيط الدولي .

ولكن الدول العربيـــة الاخرى كانت تصرّ على رفض مقترحات الكونت برنادوت ، ليس لأنها تقوم على اساس التقسيم فقط ، بل لأنها تبت في مصير القسم العربي من فلسطين على غير مـــا تقرر بينهم في مؤتمر زهراء انشاص. فافضى هذا الخلاف في الاتجاه الى تفكك رابطة التعاون في ميادين القتال ، والى افساح المجال لاسرائيل بالتالي لتحقيق تلك الانتصارات التي لم تكن تحلم بها من قبل .

وكانت منظمة هيئة الامم المتحدة تجتمع في قصر شايو بباريس حينما تقـــدم

السيد فارس الخوري (١) بمشروع جديد (٤٨/١١/٢٦) رفعه الى اللجنة السياسية مقترحاً انشاء دولة موحدة في فلسطين على اساس الكانتونات او المقاطعات المتحدة تتمتع فيها المناطق التي تعيش فيها اغلبية ّما بحكم ذاتي واسع ، قائلًا ان مشروع برنادوت ، القائم على مشروع التقسيم ، سيقابل بنفس الرفض الذي قوبل به التقسيم. ورغم ان هذا الاقتراح ايده مندوب مصر ، فقد سقط لمعارضة اسرائيل ، ولأن بعض مندوبي العرب كانوا على غير هذا الرأي .

وظل جلالة الملك عبد الله، خلال ذلك ، يدعو اخوانه الى الاعتدال . وقد تلقى الاستاذ رياض الصلح رئيس الوفد اللبناني لمنظمة الامم المتحدة في باريس برقية من جلالته مؤرخة في ٤ تشرين الثاني ١٩٤٨ جاء فيها : « لم يعد مجال للغلو ، وان الحكمة والوطنية اللتين تتحلى بهما تدعوانك الى اعمال الروية وإمعان النظر ، دون اي اعتبار آخر ، في حالة اللاجئين الذين يجب ان يعودوا لأوطانهم . »

ويرتفع في نفس الوقت صوت السيد نوري السعيد ، وكان رئيساً لمجلس الاعيان ، وينتقد سياسة الدول العربية ، وذلك في جلسة سرية عقدها مجلس الأمة العراقي ، ويقول :

« في عام ١٩٣٩ صدر الكتاب المعروف بالكتاب الثالث للحكومة البريطانية ، ولكننا لم نقبله في ذلك الوقت ، ورفضناه بينما كان المرحوم محمد محمود باشا رئيس الوزارة المصرية آنذاك يلح بقبول هذا الكتاب . ولكن العاطفة اضاعت هذه الفرصة . وبعد مدة قليلة عدنا نطالب بتطبيق اما جاء فيه . هذا وقد سمعتم منذ يومين ولا شك باقتراح دولة السيد فارس الخوري في هيئة الامم المتحدة . وانا اعتقد ان الرأي العام العربي يؤيد هذا المشروع . ولكن هل تعلمون ان مضمون المشروع اقترح من المستر بيفن وزير الخارجية البريطانية في كانون الثاني لسنة ١٩٤٧ ، ورفضناه ؟ ان هذه الفوضى احدثت كل هذا . فاذا لم نتخلص منها فأنا أخشى ان تضيع بلاد العرب كلها . »

هذا وكانت دولة اسرائيل تقدر للمعتدلين منا مواقفهم الحكيمة : فقد سمعت اذاعتها مساء ١٢ آب ١٩٤٩ تثني على جلالة الملك عبد الله ، وتنتهي الى القول : « ليس من الحطة ان يطلب المنصور المفاوضة مع المكسور حباً بالسلام . »

وكان من المحزن ايضاً ان اختلافات الدول العربية خرجت من نطاق الاجتهادات الى حيز النكايات رغم الخذلان المشين الذي كان يصيبهم في فلسطين ، ورغم الاخطار المحدقة بهم بعد فلسطين : فبينما كان المصريون في غمرة من الثورة الروحية ضد الانكليز الذين اهتبلوا فرصة نكبتهم بفلسطين لمحاولة فصل السودان عن القاهرة ، تلقى المجلس التشريعي السوداني ، وليد لندن ، تهاني شرق الأردن بمناسبة انتخابه (كانون الأول ١٩٤٨) . ولعل الذي حمل جلالته على هذا هو احتجاج حكومة

١) رئيس الوفد السوري في منظمة الامم المتحدة

النقراشي باشا رئيس الوزارة المصرية على ضم القسم العربي من فلسطين الى شرق الاردن.

واما اليهود فكانوا قد جمعوا جموعهم في أنحاء العالم حينما كادت احلامهم تطير في مهب الرياح من جراء تطويق العرب عاصمتهم في فلسطين ، فتباروا في ارسال الامرال والمعدات الحربية الثقيلة الى ساحة القتال خلال الهدنة الاولى ؛ وتنافسوا في استئجار المتطوعة من اوروبيين واميركيين ، والاخصائيين ، حتى اذا استؤنف القتال اوقعوا بالعرب المتخاذلين نكبات لم يكونوا يتوقعونها . فاحتلوا بسهولة في الجبهة التي كان الجيش الاردني مسؤولاً عنها اللد والرملة وعشرات من القرى العربية القريبة من الجيش العراقي على مرأى ومسمع منه . وما كان تخلف الجيش العراقي عن نجدة اخوانه هناك بأعجب من اخــلاء جبهة اللد والرملة من الجيش الاردني عند تقدم اليهود اليها . واحتل اليهود ايضاً الناصرة وشفا عمرو وصفوريا وما حولها حيث كان يرابط جيش الانقاذ بعد ان صدرت اليه الاوامر بالانسحاب. فكانت كارثة الهجرة إذ خف مائة وخمسون الف فلسطيني لا يلوون على أحد الى مغادرة وطنهم ، علاوة على ما تشرد منهم من قبل في المناطق العربية المجاورة .

قضي الأمر وتحققت ارادة الدول الاجنبية ، وتمت الغلبة لاسرائيل على العرب ، وكان الكونت برنادوت قد شخص بعد استئناف القتال الى ليك ساكسس ، فعاد الى رودس في ١٩ تموز ١٩٤٨ حاملاً معه قرار مجلس الامن الذي يتضمن دعوة الفريقين الى وقف الحركات العسكرية ، ومتابعة المفاوضات مع الوسيط . وإذا به يجد انقلاباً في الموقف : هدوء في أعصاب الدول العربية المتخاذلة الى حد انها لم تعد تتأثر من الانكسار تلو الانكسار ، وتعنت لا يوصف في الجانب الاسرائيلي حتى شعر الوسيط الدولي نفسه بان الوساطة لم تعد مقبولة عندهم .

. . . . .

انتهى الامر ورضيت اسرائيل ، بعد ضغط الوسيط ، بالتوقيع على الهدنة الثانية في ١٨ تموز ١٩٤٨ امتثالاً لقرار مجلس الأمن ، ولكن توقيعهم هــذا كان ، في الواقع ، حبراً على ورق. ذلك انهم ظلوا يثابرون على تنفيذ برنامجهم الحربي بغية اكتساب فرصة تخاذل الدول العربية وتنازعها . وقد بلغ من استخفافهم بالهدنة ومقترحيها وبالعرب ايضاً انهم أغاروا ، خلال اليوم التالي للهدنة ، على القاهرة بالطائرات ، أثناء ما تقدمت وحداتهم لقتال الجيش المصري .

هذا ولما لم ترق لاسرائيل مقترحات الكونت برنادوت التي رفعها في ايلول

١٩٤٨ الى منظمة الامم المتحدة معدلاً فيهـــا اقتراحاته الاولى ، لم يتورعوا عن الفتك به ، غير عابئين بالدول جمعاء التي نصبته ، ولا حافلين بلندن التي ينسبون اليها وضع مقترحـــاته . ومضوا في تحقيق خطتهم ، فهاجموا في اواسط تشرين الاول ١٩٤٨ الجيش المصري .

وتعالت حينئذ صيحات الشعوب العربية طالبة من دولها ان تخف لنجدة مصر ، ولكنها كانت صرخات ، لا نقول عنهـا « انها في واد » ذلك لان للأودية أصداء . وكانت العاقبة ان تحققت لاسرائيل اهدافهم في احتلال النقب ، وادراك ساحل البحر الاحمر .

وانه لحدث ، لو تعلمون ، عظيم ... يزعم اليهود ان بغيتهم من احتلال النقب لا تتعدى اخراج خيراته المعدنية للعالم ، وهم يبررون هذا الاحتلال باساطير مدارها ان الأثريين الأميركان اكتشفوا في ناحية العقبة آثار مدينة اسرائيلية ترجع الى عهد الملك سليمان ؛ وان هذا العاهل انشأ في العقبة ، التي كان اسمها « ازيون جيبر » اسطولاً تجاريا كان ينقل سبائك الحديد والنحاس الى جزيرة العرب . والواقع انهم يريدون من احتلال النقب الوصول الى البحر الاحمر لربط المواصلات مع الشرق الأقصى ومع افريقيا دون المرور بالبلدان العربية ، لا سيما العراق وقنال السويس .

واما في الناحية الحربية ، فهم يتوخون بذلك اولاً الفصل بين أجزاء العـالم العربي وتجزئة العـالم الاسلامي ، وثانياً جعل مكة والمدينة وسائر جزيرة العرب تحت رحمة اسطولهم وطيرانهم . وهم يريدون بذلك . ان يمثلوا الدور الذي مثله ، من قبل ، رينو دي شاتيون صاحب الكرك باحتلاله ايلة سنة ١١٨٢ م ، إذ حال بين اتصال مسلمي آسيا ومسلمي افريقية ؛ كما ان العمارة التي انشأها هناك هيمنت على سواحل البحر الاحمر مدة عامين ؛ ووجهت مطامع هذا الصليبي الى مكة والمدينة . ولولا ان برز للميدان السلطان صلاح الدين الأيوبي ، واتيح له ان يأسر رينو ، ويحزّ رأسه لدخلت الكعبة وقبر الوسول في حوزة الصليبيين ؛ اسوة ببيت المقدس .

ولا ريب بان مطامع ابن غوريون باحتلال العقبة لا تقـــل عن مطامع رينو صاحب الكرك ، خصوصاً وانه لا يجد بين العرب اثراً لصلاح الدين .

على ان بريطانيا العظمى التي ما برحت تحاول بلوغ هذه الأمنية : اي احتلال العقبة ، عزّ عليها ان تستقل اسرائيل بالغنيمة . لذلك وخلال ما كانت جيوش اسرائيل تتقدم شطر العقبة ، وتصطدم ، في طريقها ، بشرق الاردن ، ولا تجد عمان بين الدول

العربية من يحرك ساكناً لنجدتها ، ارتفع صوت واحـد ، هو صوت المندوب البريطاني (٩ - ١٢ - ٤٨) الذي قدم لمجلس الأمن الدولي تحذيراً اذا ما تعدت القوى اليهودية على حدود شرقي الاردن ، مشيراً الى الواجبات المترتبة على دولته بمقتضى المعاهدة التي تربطها بعمان .

وقد حملت لندن عمان آنذاك على الاستنجاد بها ، وعلى طلب احتلال العقبة ليكون الاحتلال الانكليزي شوكة في عين اسرائيل؛ فكانت الفرصة السانحة ، التي ما زالت تتحينها حكومات انكلترا المتوالية ، إذ خف جيشها للنزول في ذلك الموقع الاستراتيجي العظيم الذي هو نقطة اتصال بين كل مـن مصر وفلسطين وشرق الأردن والمملكة العربية السعودية .

واما اسرائيل فانها ما كادت تحتل ما احتلته في النقب وسائر الجهة الجنوبية من فلسطين حتى تحولت الى مهاجمة قضاء الجليل الأعلى . ومثلما ان الدول العربية صمت آذانها عن الاصغاء لكل نداء من اجل نجدة مصر اولاً ، وشرقي الاردن ثانياً ، فقـد تخلت ايضاً عن جيش الانقاذ الموكول اليه الدفاع عن الجليل فاضطر الى الانسحاب تاركاً أمر الدفاع الى الأهلين ؛ وكان هؤلاء ضحية تخاذل العرب فغادروا ديارهم هائمين .

وبينما كانت اسرائيل ماضية في سبيلها كانت منظمة الأمم المتحدة تعقـد اجتماعاتها في قصر شايو بباريس في نهاية عام ١٩٤٨ قصد ايجاد حل للقضية الفلسطينية؛ وهي كأنها لا تبالي باستخفاف الصهيونيين بمقرراتها وتعهداتهم . ولا بدع ، خصوصاً وان الدول العربية كانت هي نفسها قد انصرفت عن فلسطين الى مشاغلها الخاصة ، كما ان مندوبيها في اجتماعات قصر شايو كانوا اذا حضروا الى الجلسات جاؤوها متأخرين ، واذا جاءوا كانوا على اختلاف في الرأي ، وتباين في القصد .

واخيراً ولد الجبل بعد طول المخاض فأرة : فقد وافق مجلس الأمن في باريس على مشروع قرار يدعو اصحاب العلاقات لمفاوضات مباشرة ، او بواسطة الوسيط الدولي ، لعقد هدنة بغية اقامة خطوط تخوم دائمة ، ولاتخاذ التدابـير لانسحاب او تخفيض القوات المسلحة . على ان تكون هـذه الهدنة مرحلة انتقال تؤدي الى سلم دائم في فلسطين . كما ان منظمة الامم المتحدة بباريس قررت تأليف لجنة اسمتها «لجنة التوفيق الثلاثية» وذلك في ١١ / ١٢ / ٤٨ . واما تعدي اسرائيل على العرب ، واحتلال اراضيهم ، وطرد ابنائهم ، وارتكاب الفظائع ، وقتلهم الكونت برنادوت

الوسيط الدولي ، فكل ذلك ذهب ادراج الرياح ، ولم يقابـله مجلس الامن ، ومنظمة الامم المتحدة بغير الأسف . !

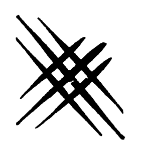
وكأن هـذا التراخي الذي بدر من جهة المنظمة والمجلس ، بالاضافة الى اللامبالاة التي غمرت الدول العربية ، كان لا يزال يشجع اسرائيل على غيها ، او ربما كانت تل ابيب تريد ان تضغط ، اكثر فاكثر ، على الدول العربية المعارضة قصد الانصياع الى مقررات باريس ، فاعادت الكرة ، اواخر كانون الاول ١٩٤٨ ، على القوات المصرية المرابطة في جنوب فلسطين ، وذلك قبل ان ينشف حبر هـذه المقررات الدولية .

وقد دافع المصريون دفاع البواسل ، ولكن القاهرة لم تلبث ان قبلت بوقف القتال تحت التأثير السيء الذي تركه في نفوس حكومتها ، جمود العرب وتخليهم عن نجدتها ؛ وبادرت منفردة الى رودس للتوقيع على الهدنة الدائمة مع اسرائيل ، تلك الهدنة التي افضت الى دخول تسعين في المئة من النقب في حوزة الصهيونيين . وكالطيور التي تقع في شبكة الصياد اذا ما سقطت واحدة منها ، فقد استسهلت بقية الدول العربية الاقتداء بزعيمتها مصر ، وخفت الى توقيع هـذه الهدنة واحدة بعد واحدة وعلى انفراد كما تشتهي اسرائيل . ما عدا العراق الذي سلم القسم الذي كان يشغله في فلسطين الى الجيش الاردني وانسحب ، ثم لم يدخل مع اسرائيل بالمفاوضات ، ولم يوقع معهم تلك الهدنة .

وبعد ذلك الحماس الناري لفلسطين ، اصبحت الدول العربية ترى السلامة غنيمة ، واصبح همّ مندوبيها في لجنة التوفيق الثلاثية ، التي عقدت جلساتها في بيروت ثم انتقلت الى لوزان ، انما ينحصر في قضية اللاجئين ، وفي مصير القدس . وهم ، مع ذلك ، قد انقسموا على انفسهم : فقد نقلت اذاعة دمشق تصريحا للجنرال رايلي كبير مراقبي الهدنة ابان وجوده في دمشق اواخر آب ١٩٤٩ ، سمعته بنفسي ، انحى فيه باللائمة على الدول العربية من اجل اختلافات وفودها بلوزان خلال اجتماعات لجنة التوفيق هناك ، وقال ان تلك الاختلافات كانت سببا لتراجع اسرائيل عن قبول اللاجئين . هذا وبينما كانت تقول الكثرة منهم بتدويل القدس وفقاً لما يطالب به الفاتيكان ، يرفض ممثلو شرق الاردن التدويل اسوة باسرائيل ، وذلك بغية قسمتها بينهما . ثم انتقلت هذه الخلافات الى صفوف مندوبي الدول العربية في اجتماعات ليك ساكسس التي عقدتها هيئة الامم المتحدة منذ ١٥ ايلول ١٩٤٩ حتى ان المندوبين انفسهم

شعروا بسوء المصير ، وارسلوا الى حكوماتهم يطالبونها بسرعة عقد مجلس الجامعة العربية للاتفاق على سياسة موحدة . واما دولة اسرائيل التي ما ان ظهرت للوجود حتى اعترفت بها الدول الاجنبية ، فقد اصبحت بحكم المعترف بها من قبل الدول العربية ايضاً وذلك بعد توقيع كل منهم، على انفراد ، الهدنة الدائمة . كما انها قبلت في ١٢ أيار ١٩٤٩ في منظمة الامم المتحدة، وتبادلت التمثيل السياسي مع الدول، ودعيت للمؤتمرات الدولية .

وما كان تخلف بريطانيا العظمى عن الاعتراف بها، مدة من الزمن، الا قصد المساومة، حسب عادتها، حتى اذا أمنت مصالحها بادرت ايضاً الى الاعتراف باسرائيل، والى تبادل التمثيل السياسي معها ، وهي رافعة الرأس لانها لا تبيع رخيصاً .



الفصل السابع

عصر الاستقلال في بلاد العرب

وادي النيل وجزيرة العرب

المملكة المصرية

خلاصة ما تجد عهد الاستقلال بمصر من الاصلاحات : اصبحت مصر بعد تصريح ٢٨ شباط (فبراير) ١٩٢٢ دولة تتمتع باستقلال داخلي ؛ وبينما اخذت تفاوض بريطانيا العظمى لتحديد العلاقات بينهما صدر الدستور المصري (١٩٢٣) ، وافتتح البرلمان في السنة التالية ، على الاسس الواردة في هذا الدستور .

واستهل عهد جلالة الفاروق ، مليك مصر والسودان ، بأعظم حدث سياسي في تاريخها ، وذلك بتوقيع وزارة صاحب الرفعة مصطفى النحاس باشا المعاهدة الانكليزية – المصرية في ٢٣ آب سنة ١٩٣٦ التي اعترفت باستقلال مصر استقلالاً تاماً ، وحلت القضايا الاربع المعلقة منذ تصريح شباط المذكور . وفي ٦ مايس ١٩٣٧ باشر جلالته سلطته الدستورية ، وكان من التوفيق ايضاً ان رافق هذا الحدث ذلك الاتفاق الذي تم بين بريطانيا العظمى ومصر على عودة بعض قواتها الى السودان .

ولما عقدت معاهدة مونترو (مارس ١٩٣٧) ، التي نصت على الغاء الامتيازات الاجنبية ، استردت مصر بذلك سيادتها كاملة في التشريع والقضاء . كما ان اتفاقها المالي مع الدول ذلك الاتفاق الذي أفضى الى الغاء صندوق الدين ، جاء معززاً كرامتها الوطنية . ثم كان دخولها عصبة الامم وقتئذ مما اضفى عليها مكانة دولية أيدت هذه الكرامة .

غير ان مصر وان تمتعت باستقلالها الداخلي ، لكنها لبثت ، مع ذلك ، قلقة

البال من جراء وجود الجيش الانكليزي في البلاد واضعاً يده على المطارات، ومحتلا بعض الامكنة . هذا فضلا عن بقاء سياستها الخارجية مربوطة بلندن .

لذلك فان الحكومات المصرية المتعاقبة كانت لاتفتأ تواصل جهودها لتعديل المعاهدة ، وللمطالبة بالسودان ؛ وهي في نفس الوقت ، ولا سيما ، مذ توقيع معاهدة لوكارنو ، ما تزال تعنى باقامة جهازها الدولي . كان الجيش قد هبط سنة ١٩٣٠ الى ١٢،٣٧٠ مجنداً ، فاهتمت به وجهزته بافضل المعدات الميكانيكية وغيرها ، وبالطائرات والانوار الكاشفة . واذا به يصبح سنة ١٩٤٠ على زيادة محسوسة ، وصار عدده يبلغ ٤١،٩٠٦ مجنداً . ولعل من ابرز مظاهر تقدم الجيش المصري تلك المعاهد الراقية التي انشأتها الحكومة المصرية، وعلى رأسها كلية اركان الحرب الملكية ، ومدرسة ضباط الصف ، ومدارس علم الصحة ، والهندسة ، والصناعات الحربية ،والطيران والمدفعية . وكانت تسترشد، في كل ذلك،برجال البعثة العسكرية البريطانية. ثم تلقت مصر عبراً من الفشل الذي اصاب العرب في الحرب الفلسطينية ، وقدرت الخطر الاسرائيلي فاعارت كل عنايتها للجيش ؛ وفضلا عن تعديلها قانون التجنيد فقد خصصت سنة ١٩٤٩ ربع ميزانية الدولة لاعداد جيش قوي . والى هذا فان وزارات المعارف ، في عهد الاستقلال عنيت عناية مرموقة بالمدارس والتعليم الشعبي . وعملا بالدستور المصري الذي نص على وجوب جعل التعليم الأولي الزامياً اهتمت اهتماماً شديداً بزيادة هذه المدارس الاولية بالاضافة الى اهتمامها ايضاً بالتعليمين الثانوي والعالي . فكان من نتيجة ذلك حصول زيادة محسوسة في عدد الطلبة : فقد كان عددهم سنة ١٩٣٤ لا يتجاوز ٧٠٢،٠٧٩ تلميذا،فبلغ سنة (١٩٤٤) ١،٢٤٨،٨٤٣٠ تلميذا. ثم افتتحت وزارة المعارف، في السنوات الاربع الأخيرة، مدارس ابتدائية وثانوية اكثرعدداً مما انشىء فيما سبقها من سنوات: فقد كان عدد التلاميذ والتلميذات بالمدارس الابتدائية الأميرية في السنة الدراسية ١٩٤٣-١٩٤٤ نحواً من ٤١،٠٠٠ وبلغ في عام ١٩٤٩ ٩٥،٠٠٠.وكان عدد التلاميذ والتلميذات في المدارس الثانوية الأميرية في السنة الدراسية المذكورة ٣٢٠٠٠ ، وبلغ في العام الحالي ٥٠،٠٠٠ .

اضف الى ذلك أنه كان عدد التلاميذ والتلميذات في المدارس الحرة الخاضعة لتفتيش وزارة المعارف من ابتدائية وثانوية سنة (١٩٤٣ – ١٩٤٤) ٣٣،٠٠٠. وبلغ في العام الحالي ١٢٢،٠٠٠ .هذافضلاًعن العناية الفائقة التي اظهرتها وزارات المعارف

المصرية ، عهد الاستقلال ، بالتعليم العالي : وهي مثلما خصصت اخيراً في ميزانيتها نحو مليوني جنيه ونصف المليون للتعليم الالزامي فقد خصّت التعليم العالي بقرابة ثلاثة ملايين ، كما انها علاوة على تأييدها الجامعة المصرية والأزهر بالقاهرة تأييداً شديداً ، انشأت جامعة فاروق الأول بالاسكندرية ؛ واعدت منذ عام ١٩٤٥ العدة لمواجهة حاجات التعليم العام من المعلمين بانشاء معهد للتربية بالاسكندرية الى جانب معهد القاهرة بالاضافة الى خمس مدارس لمعلمي ومعلمات المدارس الابتدائية ، وانشاء مدرسة المعلمين العليا بالقاهرة ، واهتمامها بتوسع معاهد اعداد المعلمين والمعلمات القائمة .

على انا وان نوهنا بهذه العناية التي تبديها وزارة المعارف في الحقل التعليمي عهد الاستقلال الا اننا مع ذلك لا نستطيع الا ابداء الأسف لبقاء الامية منتشرة في القطر الشقيق على مدى واسع : فقد كانت نسبتها سنة ١٩٣٧ نحو ٨١ في المائة . ولا ينتظر ان تكون اقل بكثير من ٧٥ في المائة في احصاء سنة ١٩٤٧ ؛ كما صرح بذلك المستشار الفني لوزارة المعارف في محاضرة القاها من محطة الاذاعة المصرية صيف ١٩٤٨

واما في النواحي الاقتصادية فقد تكلمنا مفصلاً ، في الفصل الحادي عشر من الجزء الاول ، على ما اصابته مصر من التقدم . وهي في الواقع اصابت منه عهد الاستقلال حظاً اوفر ؛ ويكفي القول في الناحية الزراعية ان قيمة موارد الدخل الاهلي الزراعي قدرت بنحو ٣٢٠ مليون جنيه لسنة ١٩٤٥ — ١٩٤٦ ، وقيمة الدخل منها ١٧٨ مليون جنيه ، كما ان قيمة المنتجات الصناعية بلغت ٢٠٠ مليون جنيه في ذلك العام ، وقيمة الدخل الاهلي منها ٧٠ مليون جنيه

هذا والذي يصح التنويه به هنا ذلك الاهتمام الذي رافق عهد استقلال مصر في صعيد توثيق الروابط بينها وبين الاقطار الاسلامية والعربية ، وذلك بمعاهدات صداقات واتفاقات تجارية واقتصادية كانت القاهرة تعقدها مع هذه الاقطار الشقيقة ، بالاضافة الى المؤتمرات الثقافية والفنية والصحية التي كانت تدعو اليها ، والمساعدات المالية والفنية التي كانت تبذلها في سبيل عمران الحجاز ، والتأييد الذي اعارته للجامعة العربية .

الاحداث السياسية حتى الحرب العالمية الثانية : اتيح للوزارة النحاسية الثالثة الاعتزاز بنفسها من جراء مواقفها الاصلاحية والقومية ، وخصوصاً لأنها وفقت سنة ١٩٣٦ لعقد معاهدة هي بمثابة نواة الاستقلال ، هذا فضلاً عن انها كانت تمثل الكثرة

الساحقة ؛ وأفضى بها هذا الاعتزاز لأن تطمع بان تتمتع بطلاقة يد في الحكم تتناسب مع قوتها ؛ وشاءت ان تكون لها منظمات من الشباب تحقق امانيها .

ولكن طموحها هـــذا انتهى الى حذر رجالات البلاط الملكي فاتهم النحاس باشا بميله الى اعتبار الحزب والدولة امراً واحـداً . واذا بهم يطالبون بحل منظمة القمصان الزرقاء المرتبطة بحزب الوفد ، واذا بهم يصرون ايضاً على احتفاظ البلاط بحق تعيين ثلث اعضاء مجلس الشيوخ ، وان يستشار في تعيين كبار موظفي الدولة ، علاوة على احتفاظه بحق اصدار المشاريع القانونية .

وكان من نتيجة هذا التوتر بين الوزارة والبلاط ان الدكتور احمد ماهر باشا بادر للانسحاب من الوزارة ، وعمد الى تأليف الحزب السعدي بالاتفاق مع محمود فهمي النقراشي باشا . وعلى اثر ذلك عمد جلالة الملك الى اقالة الوزارة الوفدية (٣٠/١٢/١٩٣٧) مكلفاً محمد محمود باشا تأليف وزارة غيرها ؛ وقد استهلت هـــذه عملها بتأجيل عقد جلسات البرلمـــان مدة شهر ، وبحل منظمات القمصان الزرقاء والخضراء والفاشستية . ثم استصدرت مرسوماً بحـــل مجلس النواب ، وقامت بانتخابات للمجلس تكللت بنجاح الوزارة الجديدة . وقد اعاد محمد محمود باشا ، بعد الانتخابات ، تأليف الوزارة (٢٧ نيسان ١٩٣٨) ؛ ثم الفها كرة اخرى ، في تموز ، بينما ان الوفد المصري ظل بعيداً عن كل نشاط سياسي .

وكانت ايطاليا مذ بدأ شبح الحرب قد اخذت تظهر ، نشاطاً كبيراً في ليبيا ، وتعمل على اكتساب عواطف المصريين (١) . فكان ذلك حافزاً للدوننغ ستريت لأن يفاوض مصر لتوسيع نطاق الاتفاق الحربي الذي كان قد عقد بينهما ، ولان يعمل على تعزيز القوى الحربية المصرية ، وتجهيزها بالاعتدة .

وعملاً بنصيحة لندن زادت حكومة مصر المخصصات للدفاع الى مليون جنيه اخرى ، وارصدت للطيران ٤١٨ الف جنيه . كما انها اعدت مشروع خمس سنين للدفاع الوطني ، ارصدت بمقتضاه تسعة ملايين جنيه لانشاء اسطول ، وثمانية وعشرين مليوناً للجيش . هذا علاوة على تبادل البعثات العسكرية بين لندن والقاهرة .

في الحرب العالمية الثانية : ظل محمد محمود باشا رئيساً للحكومة الى ١٠-٨-١٩٣٩ . وهو وان ظل يعمل على تمزيق شمل الوفـــديين إلا انه لم يتوان ، مع ذلك ،

(١) زار المارشال بالبو مصر في ايار ١٩٣٩ ، ودرس مـع الكونت مانزوليني وزير ايطاليا المفوض فيها مشروع عقد ميثاق عدم اعتداء بين مصر وايطاليا ، فكان لهذه الزيارة اسوأ وقع في اوساط لندن .

عن العنـاية بالشؤون الاقتصادية ، وبتعزيز القوى الحربية ، ولا سيما الطيران تأهباً للحرب .

ولما خلفه علي ماهر باشا نهج نهجه ، ولا سيما في تأييدسياسة البلاط الملكي ملتزماً لحياد ازاء الدول المتحاربة . وكذلك فعل حسين صبري باشا الذي خلفه في رياسة الوزارة من ٢٣ / ٦ / ١٩٤٠ الى ١٤ / ١١ / ١٩٤٠ .

والواقع أن الوزارات المصرية المتعاقبة خلال الحرب كان لا بد لها من الحيطة في تحديد مواقفها ازاء المتحاربين ، خصوصاً وان الخطر كان يمتد ، حيناً بعد حين ، الى ابواب وادي النيل . ولكن ما ان اصبح خطر المحور بعيداً عن مصر خلال وزارة حسين سري باشا (١٥ / ١١ / ١٩٤٠ الى ٢ / ٢ / ١٩٤٢) حتى خرج دولته عن الحياد ، والقى بياناً في مجلس النواب (١٨ / ٢ / ١٩٤١) جاء فيه : « أن مصر تعضد الديموقراطيات بكل اخلاص ، وهي عازمة عزماً اكيداً على مساعدتها ، ولا يخامرها ريب في ان النصر النهائي سيكون نصيب قضية الحرية والمدنية »

غير ان خطر المحور لم يلبث أن احاق بمصر مرة اخرى ، فشاء الجانب البريطاني إشراكها في الحرب مغتراً بالتساهل الذي يظهره رئيس الوزراء ، ولكن حسين سري باشا لم يجرؤ على اجابة طلب الانكليز ، ازاء المعارضة الشديدة التي كان يبديها الوفد المصري بشأن النزول الى ميدان القتال .

هذا الى ان رئيس الوفد النحاس باشا كان قد قدم سنة ١٩٤٠ مذكرة الى سفير بريطانيا العظمى ، بسط فيها مطاليب مصر والسودان ، وعلى رأسها جـلاء الانكليز عنهما .

وكأن لندن كانت غـير مطمئنة الى موقف البلاط منهـا فعادت الى مصافحة الوفـد ؛ فاذا بنا نقرأ ان النحاس باشا يتشرف بمقابلة جلالته ، ويعرب له عن استعداده للمساهمة في تأليف وزارة ائتلافية على اساس حياد مصر . وقد الف رفعته الوزارة (٦ - ٢ - ١٩٤٢) محتفظاً لنفسه بوزارتي الداخلية والخارجية ، كما اعلن الاحكام العرفية متخذاً لقب الحاكم العسكري . ولما جدد الانتخابات النيابيـة فاز حزبه بالكثرة المطلقة .

وفي السياسة الخارجية أعلن رفعته في الجلسة التي عقدها المجلس النيابي للاقتراع على الثقة ان سياسة مصر تقوم على المحافظة على معاهدة ١٩٣٦ ، وهي وان كانت ترتكز على اساس اجتناب مصر خوض الحرب فانها تعنى بحماية جهود الحليفة في وادي النيل

دون ان يكون لها تدخل فيه .

واما في السياسة الداخلية ، فان العلاقات بين وزارة النحاس باشا وبين رجال البلاط الملكي توترت الى حد انها صارت خصاماً ، وافضت الى ازمات ، ومنها تلك التي حدثت في نيسان ١٩٤٤ حيث لزم رئيس الوزارة منزله اسبوعين ، وانتهت ببقائه في منصة الحكم .

هذا وكانت الحرب سجالاً في ليبيا بين الحلفاء والمحور : وفي ١ تموز ١٩٤٢ بلغت جيوش المحور العلمين ، على بعد ماية كيلومتر من الاسكندرية . ومع ذلك فقد ظلت مصر على حيادها ، ولم تجنح الى مسايرة الالمان . فلما شرع رومل يتقهقر منذ ٣ – ١١ – ١٩٤٢ من حدود مصر بمثل السرعة التي تقدم بها ، قدر البريطانيون للوزارة موقفها الحازم .

هذا وكان في عداد مآتي الوزارة الوفدية استصدارها قانون اللغة العربية الذي يطبق على جميع الافراد والهيئات الحكومية ، واصدارها مشروع القرض الوطني لتحويل الدين الاجنبي الى دين مصري ، فضلاً عن سعيها لتعديل المعاهدة على اساس مذكرة الوفد المؤرخة في نيسان ١٩٤٠ .

واما في الناحية العربية فكان موقف هذه الوزارة مرموقاً ومشكوراً : فعدا انها قامت بمشاورات الوحدة العربية التي انتهت بقيام الجامعة العربية ، فانها بذلت المساعدة الطيبة لتحرير البلاد العربية . وان سوريا ولبنان لا ينسيان حدب مصر عليهما وقتئذ اثناء نضالهما في سبيل الاستقلال ، كما ان فلسطين لا تفتأ ذاكرة عطفها ومعونتها .

على ان الاحزاب الاخرى كانت تؤاخذ هذه الوزارة من اجل احتفاظها بالاحكام العرفية ، ولا سيما لموقفها من كل من علي ماهر باشا ، ومن مكرم عبيد باشا واعتقالها ، زاعمة انها تتحدى البلاط . وكان ذلك حافزاً لهذه الاحزاب على جمع شملها ، وتأليف جبهة معارضة قوية استطاعت زحزحة الوزارة الوفدية عن منصة الحكم . وقد الف الوزارة في ٨ – ١٠ – ١٩٤٤ الدكتور احمد ماهر باشا متمتعاً بلقب حاكم عسكري عام .

ولدى اجراء الانتخابات للمجلس النيابي الجديد لم يشترك الوفد فيها ، فألف الوزارة ثانية ، الدكتور احمد ماهر باشا ، واعلن في ٢٤ شباط ١٩٤٥ الحرب على المانيا واليابان ، بينما كان الوفد المصري يختار البقاء على الحياد .

ولما غادر دولة رئيس الوزراء المجلس النيابي عقب اعلانه الحرب ، وسلك

سبيله الى مجلس الشيوخ انقض عليه شاب مصري وأرداه رمياً بالرصاص . وقد ألف الوزارة بعده محمود فهمي النقراشي باشا مع ممارسته سلطة حاكم عسكري ، فافرج عما تبقى من المعتقلين السياسيين ، وشرع يفاوض لتعديل لمعاهدة .

بعد الحرب العالمية الثانية : خلال قصف القذائف الحربية تعالت وعود الحلفاء مبشرة بعصر جديد يتلو الظفر . وهذه الوعود المعسولة كانت تثير في الشعوب المغلوب على امرها شهوة التمتع بالانصاف والاستقلال .

لذلك فما ان اتيح للنحاس باشا ان يتولى الوزارة حتى دخل مع البريطانيين ، منذ حزيران ١٩٤٢ ، في مفاوضة لاجل تمثيل مصر في المباحثات لتقرير شؤون السلام العالمي . وتلقت وزارة رفعته جواباً من السير لمبسون سفير لندن في القاهرة يتضمن وعد بريطانيا بان تبذل معاونتها لتشترك مصر في جميع مفاوضات الصلح التي تمس مصالحها مباشرة .

وعلى اثر تراجع المحور عن حدود مصر اخذت هذه الوزارة تدرس ثلاثة مشاريع : (١) تعديل المعاهدة الانكليزية المصرية (٢) اعادة النظر في اتفاقية السودان (٣) تحديد التخوم الغربية .

واما قضية السودان ، التي كانت الوزارة الوفدية لا تفتأ تثيرها ، فقد كانت تقابل من البريطانيين بالاعراض حتى ان اللورد كيلرن ، السفير البريطاني ، قدم الى مصر بلاغاً في صيف ١٩٤٤ انذرها فيه بان اية محاولة لاثارة الرأي العام في هذا الشأن ستضطر الحكومة البريطانية الى اعلان فصل السودان عن مصر . ولكن لما انتهت الحرب دخلت المفاوضات في شكل حازم : فقدمت حكومة دولة النقراشي باشا (ايلول ١٩٤٥) مذكرة الى الحكومة البريطانية تطلب فيها فتح المفاوضات على اساس الجلاء ، وتعديل اتفاق السودان . كما ان الوفد المصري استمر وهو خارج الحكم ، على المطالبة بما كان يطالب به لندن اثناء وجوده في دست الحكم .

هذا وكان المصريون يعقدون كثيرا من الآمال على حزب العمال في لندن ، ولكن الآمال المعقودة عليه خابت مذ استأثر بالسلطة حتى ان اسماعيل صدقي باشا ، رئيس الوزارة المصرية ، لم يسعه الا ان يشير الى هذه الخيبة في بيانه بمجلس الشيوخ ليلة ٢٨ ايار ١٩٤٦ حيث استعرض اسباب وقف المفاوضات التي كانت تجري لتعديل المعاهدة . ولكنه ، مع ذلك ، اشار الى رغبة مصر في الجلاء دون انتظار

ما يقوم حول التنفيذ من جدل .

وكان العالم العربي ، الذي اسلفته مصر عطفها خصوصاً عهد الوزارات الوفدية ، يعرب ، في كل مناسبة ، عن تأييده مطاليبها ؛ وقد برهن على هذا التأييد ليس بلسان الجامعة العربية فحسب ، بل باجتماعاته الدولية ، ومقررات مجالسه النيابية : ففي مؤتمر ملوك العرب وأمرائهم الذي عقد في زهراء انشاص بمصر (٢٨ أيار ١٩٤٦) ، وكذلك في الجلسة الاستثنائية التي عقدها مجلس الجامعة العربية في بلودان (حزيران ١٩٤٦) كان تأييد قضية مصر على رأس المقررات . وكما ان المجلس النيابي في لبنان اعلن تأييدها ايضاً في جلسة ١٩٤٧/١٢/٢٣ مستنكراً قطع المفاوضات فان سائر المجالس العليا الرسمية في العالم العربي أعربت عن مثل هذا التأييد تشاركها الصحف والجمعيات .

على ان مصر اظهرت ، خلال ذلك ، ثباتاً طيباً في صعيد المطالبة بالسودان وتعديل المعاهدة . وقد منح مجلس نوابها ثقته للوزارة في مطلع عام ١٩٤٧ للمضي في عزمها على تقديم الدعوى الى مجلس الامن الدولي .

ثم استأنفت وزارة النقراشي باشا ، مذ تبوأت مقاعد الحكم ، المفاوضات مع لندن لأجل تعديل المعاهدة ، ولكن قضية السودان كانت تقف العقبة الكأداء في سبيل الاتفاق .

وعلى انتظار الفرصة الثانية لتذليل هذه العقبات انصرفت وزارة النقراشي باشا ، مع الدول العربية الأخرى ، كل الانصراف ، لانقاذ فلسطين ؛ ثم كان ما كان ، فبقي الجيش المصري وحده يصد حملتين متتابعتين حملها الصهيونيون على الجبهة المصرية .

ولا أدري اذا كان من الصدف ، او كان أمراً مفتعلاً ذلك الطغيان الشعبي الذي نبذ في مصر ابان الخلاف على قضية السودان ، وأثناء النضال في وجه الصهيونيين . وأعني به زج الطلبة في الشؤون السياسية حتى لم يكن ينقضي يوم على غير مظاهرة . يوم لأجل فلسطين ، ويوم لاجل اندونوسيا ، ويوم لتصريح سياسي ، ويوم للسودان ، فضلا عن مظاهرات لتأييد أو لاسقاط هذا وذاك .

واعني به ايضاً قيام جماعة اخرى بالقاء القذائف المتفجرة ، وبارسال التهديد والوعيد ، ثم لا يقتصرون على هذا الحد بل يعمدون الى الفتك بموظف كبير ، والتعدي على سياسي خطير . وكان النقراشي باشا في جملة ضحايا هذه الفوضى (٢٨/ ١٢/ ١٩٤٨) . وقد اتهم الاخوان المسلمون بقتل دولته من جراء وقوفه الحازم

ضدهم وحل مؤسستهم ؛ وحجتهم في ذلك انه كان يجاري الانكليز،وتقع عليه تبعة حمل الدول العربية على الرضاء بالهدنة الاولى التي اضاعت فلسطين .

والواقع انه رغم اشتغال وزارة النقراشي باشا بقضية السودان والمعاهدة وفلسطين ؛ ورغم اهتمامها باستئصال عناصر الخلل التي تسلطت على الطلبة وبعض الجماعات ؛ فانها لم تنس واجبها الحكومي فعنيت بوضع أساس سياسة تمصير المرافق الثقافية والاقتصادية،وانشأت اواخر عام ١٩٤٧ ، وذلك بعد صدور قانون الشركات الذي ينظم العلاقات بينها وبين الحكومة ، هيئة مراقبة تتولى الاشراف على تنفيذ احكام هذا القانون .

وقد درجت وزارة ابراهيم عبد الهادي باشا على سنة الشهيد النقراشي باشا ، فاهتمت بشؤون هذا التمصير . ولما كان اجل معاهدة مونتريه التي عقدت سنة ١٩٣٧ ينتهي في ١٤ تشرين الاول ١٩٤٩ ، وتنتهي معه ايضاً مخلفات نظام الامتيازات الاجنبية والمحاكم المختلطة فقد اقترحت هذه الوزارة على الدول عقد معاهدات اقامة لرعاياها في وادي النيل ، وسلمت مشروعات لهذه المعاهدات المقترحة الى السفارات والمفوضيات في القاهرة . هذا فضلًا عن قيام هذه الوزارة بمهمة استئصال الفوضى الشعبية وقمع فتنها بيد حديدية .

وخلال هذه المشاغل والمشاكل الداخلية والخارجية كانت بريطانيا العظمى تعد العدة للقيام بأمر حاسم في قضية السودان ؛ فاذا بها تدعو الى انتخاب مجلس تشريعي لحكومة سودانية توطئة لانفصال تام عن القاهرة ، واذا بهذا المجلس يُنتخب في آخر عام ١٩٤٨ . واما احتجاجات مصر ، واحتجاجات السودانيين خصوم الانفصال فقد كانت تذهب هباء منثوراً .

هذا ولما دنا موعد انتخابات المجلس النيابي بمصر اتجهت الافكار صيف ١٩٤٩ لتأليف وزارة ائتلافية يشترك فيها الوفد المصري ، وتقوم مقام وزارة الهيئة السعدية قصد الاشراف على الانتخابات . وقد شكل هذه الوزارة دولة حسين سري باشا فشرعت تعدّ العدة للانتخابات .

ورحبت صحف بريطانيا العظمى بهذه الوزارة، واظهر بعضها الآمال بأن توفق لاستئناف اطيب العلاقات مع لندن . وصرح المستر بيفن لمراسلي الصحف المصرية في واشنطن (٢٢ ايلول ١٩٤٩) بقوله : « ان بريطانيا العظمى ترحب بمفاوضات

جديدة لاعادة العلاقات بين البلدين الى سابق مجراها ، واعتقد بان على القاهرة ان تخطو الخطوة الأولى في هذا السبيل . »

ولكن الأحداث الداخلية في كل من انكلترا ومصر لم تفسح المجال للاتفاق على المعاهدة . هذا وقد جرت الانتخابات النيابية في مطلع عام ١٩٥٠ ففاز حزب الوفد بكثرة ساحقة ، والف رفعة مصطفى النحاس باشا ، زعيم الوفد ، الوزارة في كانون الثاني سنة ١٩٥٠ . وكما اتجهت الى رفعته انظار المصريين لتعديل المعاهدة ، فان الامـــة العربية ، ومن ورائها العالم الاسلامي ، عقدت على الوزارة الوفدية كبار الآمال في صعيد استرداد كرامة الامة العربية ، تلك الكرامة التي ضاعت في كارثة فلسطين ؛ وشرعت تترقب ان تعمل هذه الوزارة على جمع شتات الكلمة التي فرقتها الاهواء . ولا بدع فقد كانت لرفعته الايادي البيضاء على قضية فلسطين ، كما فصلنا ذلك في كتابنا « فلسطين اندلس الشرق » ، وكان له الفضل ايضاً في « المشـــاورات » التي دعا اليها ، وافضت الى قيام « الجامعة العربية » وهي رمز اتحاد العروبة .

مملكة الهاشميين في الحجاز

لما استفحل شأن مبدأ القوميات في القرن التاسع عشر ، واصاب تركيا شراً كثيراً من جراء الثورات العنصرية التي قامت ضدها في شرقي اوروبا تسرب الخوف الى افئدة رجال الباب العالي من دخول هذا المبدإ الى الحجاز ؛ وفي الحجاز مقدسات المسلمين ، واليه محجهم كل عام ، فعملوا على ان يعيش ولي عهد شريف مكة في كنف السلطان باستامبول قصد :

١ - اتقاء الثورات التي كانت كثيراً ما تنشب في الحجاز بين شريف مكة والمرشح للامارة بعده .

٢ - اتخاذ هذا المرشح عدة لهم يلوحون باسمه عند الحاجة تخويفاً للقائم على الامارة . وجرياً على هذه السنة كان الشريف حسين ، المرشح لمنصب شريف مكة ، ينزل عاصمة تركيا حينما حدث الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ ، فأتيح له بذلك ان يشهد بنفسه المظاهرات الحادة للحرية ، وأن يشرف على تصادم القوميات العثمانية منذ اعـلان الدستور ، وان يتأثر بالحركة العربية التي تمركزت في اندية العاصمة ، واقتحمت منبر مجلس الأمة .

ولما قدر له ان يتبوأ امارة مكة سنة ١٩٠٩ حمل معه فكرة القومية ، وظل

يصغى الى تطور الوعي القومي ويراقبه . ومع ذلك فان سيرته الاولى كانت تشير الى اخلاصه لمقام الخلافة إذ كان حرباً على كل من راودته نفسه في الخروج على سلطة العثمانيين؛ ولم يوفر الادريسي ،ولا الامام يحيي . ثم لم يستثن آل سعودزعماء الوهابيين : فقد ساق على هؤلاء الجند ، وكان يتولى بنفسه بعض الحملات ، او يولي عليها ابناءه .

وهذا الاخلاص للسلطنة قد عزز قوته الى حد انه اصبح ، عهد العثمانيين ، يتمتع بنفوذ لا مثيل له بين عواهل العرب ؛ ولعله كان يريد بذلك توحيد الجزيرة تحت سلطته استعداداً للعمل على استقلالها .

وربما كان الشريف حسين يرى ان الوقت قد حان لبلوغ الاستقلال حينما شاع في الاندية السياسية ان الرجل المريض (تركيا) اشرف على الموت ، خصوصاً عقب فشل تركيا في حرب ايطاليا ١٩١١،وخسارتها لطرابلس الغرب ؛ ثم على اثر انكسارها في حرب البلقان . ولا جرم فان العناصر العثمانية من غير الترك ، وفي عدادها العرب ، كانت قد اخذت تفكر حينئذ في المصير .

واذا بالحرب العامة تنفجر (١٩١٤) فيحاول الشريف ، بادىء ذي بدء ، اقناع الباب العالي بان يعلن استقلال الحجاز على ان يستمر هذا القطر تحت سيادة السلطنة . ولكن الاتحاديين يأبون عليه ذلك ، ولا يقتصرون على مقاومة هذه الفكرة ،بل يتحولون الى الظهور بمظهر العداء لها وللعرب ايضاً. وبالفعل فقد اخرج والي « المدينة » الشريف شحاذاً بما يشبه الطرد ، وهو المعتمد الاول فيها للشريف حسين . ودبروا اغتيال الشريف حسين نفسه . ثم علقوا في سورية ولبنان جمهرة من خيرة رجال القوميين على المشانق غير حافلين بشفاعة الامير فيصل بن الحسين المقيم بدمشق ؛ كما ساقوا آخرين الى النفي للاناضول .

وكانت بريطانيا العظمى تعلق اهمية كبرى على انضمام العرب الى الحلفاء ، وتعقد الآمال على اشتراكهم معها في الحرب في جبهة الشرق الادنى ، فطفقت تغري شريف مكة بالثورة على تركيا ؛ وهو يتردد ، حتى اذا مثل جمال باشا قائد الجيش الرابع برجالات سورية وشردهم تهيأت افكار الشريف للاصغاء الى المفاوضين البريطانيين ، فاعلن الثورة العربية بمكة يوم ١٠ حزيران ١٩١٦ ، واستولى على جدة والطائف . وفي يوم ٦ تشرين الثاني من السنة نفسها بويع ملكاً على العرب . وقد قاد اولاده الكرام الجيوش العربية في ميادين الحرب الى جانب الحلفاء .

ولما وضعت الحرب اوزارها صمد الملك حسين صموداً فولاذياً في مطالبة حلفائه بالعهود التي قطعوها للعرب من قبل ، وبلغ من صلابته انه اعلن انسحابه من عصبة الامم احتجاجاً على دخول فرنسا سورية عنوة في تموز ١٩٢٠ ، ثم انه رفض، بكل نبل، التعاهد مع لندن على اساس الاعتراف بالوطن القومي اليهودي في فلسطين غير مبال بالعواقب .

وكأن انكلترا أرادت ان تستلين عريكة جلالته ، فاتجهت الى عواهل الجزيرة الآخرين ، الذين كانوا جميعاً يغبطونه على المقام الدولي الذي بلغه ، وينكرون عليه ملكيته على العرب . وكان يقوم في نجد امير طامح حازم ، رضي ، خلال الحرب الكبرى الاولى ، ان ينضوي كجيرانه تحت حماية بريطانيا العظمى بمقتضى معاهدة وقعها معها . فلما آنس من بريطانيا غض الطرف عن الملك حسين اطلق لنفسه العنان فكانت خلافات بين الامير عبدالعزيز آل سعود وبين الملك حسين اثارتها قضية الحدود ، وانتهت بنشوب الحرب سنة ١٩١٩ بين العاهلين .

ومن الخطأ الذي ارتكبه جلالة الملك حسين انه ظل ، حتى بعد الحرب ، يثق بحماية انكلترا لملكه ، ويقنع بثقة العرب الذين اطلقوا عليه بحق لقب « المنقذ » . ولذلك لم يبذل العناية الكافية بتجهيز جيش منظم، وانما اكتفى بان يكون عماده على الحق الذي يحسبه صريحاً بجانبه . وهكذا فما أن اصطدم الجيشان الشريفي والسعودي إلا وترجحت كفة الامام السعودي وقومه فتقدموا منتصرين . حتى اذا كانت الغلبة لهم في قرابة ، ما وراء الطائف ، ترجحت كفتهم ، واصبح الحجاز في متناول يدهم .

وتدخلت انكلترا عندئذ ، فاوقفت السعوديين عن التمادي في التقدم ، ثم حاولت ان تسوي مسألة الحدود بينهما .

واما الملك حسين فلم يزدد الا صلابة : فقد رفض الاشتراك في مؤتمر المحمرة (١٩٢٢) الذي دعت اليه بريطانيا نجداً والعراق والحجاز وشرق الاردن لتعيين الحدود بينها. وابى ان يصادق على مشروع معاهدة عرضته عليه لندن (١٩٢٣) لان هذا المشروع ، فضلاً عن كونه يختلف في مضمونه عن الاتفاق الذي جرى بينه وبينها اثناء الحرب ويلغيه بما فيه من عهود للعرب ، فانه يستدرج عاهل العرب الى الاعتراف بوعد بلفور .

وكانت صلابته اظهر مـا تكون في مؤتمر الكويت الذي دعت اليه انكلترا

زاعمة انها تريد رفع الخصام الواقع بين الحجاز ونجد . وعلى رواية المؤرخ الفرنسي كييّت Guillet فان موقف الملك في هذا المؤتمر كان يدور حول ازالة امارة نجد من الوجود ، واقناع الذين نشطوا هذه الامارة بوجوب المساهمة معه في هذا الرأي ؛ فضلا عن انه كان يكرر المطالبة بالوعود المقطوعة للعرب على الرغم من ان ولده فيصلا ملك العراق كان يتوسل اليه ان يبدل هذه اللهجة .

واراد الملك بعد فشل مؤتمر الكويت ان يستعين بقوة اسلامية يتمتع بمناعتها، فقصد عمان حيث كانت تنتظره وفود كثيرة جاءت من البلاد العربية ، التي تجلّ اخلاصه وتقدر خدماته ؛ وبويع بالخلافة يوم ٥ آذار ١٩٢٤ . وكان من اخلاصه للعروبة انه شاء ان يعرف في عمان شيئاً عن السر بصدد وقوف نجله الامير عبد الله دون مهاجمة سورية إيثاراً لاخيه فيصل ، واستجابة لرجالات سورية وفلسطين . ولكن هذه الحيطة التي لجأ اليها جلالته باعلان الخلافة كانت قد اهابت بانكلترا لان تقابله باستدراك من نوعها قبل ان تتأصل خلافته في النفوس ؛ ولا غرو فان انكلترا التي عملت على تهديم الخلافة في بني عثمان حرصاً على نفوذها في العالم الاسلامي ، كان يرعبها تقمص هذه الخلافة في شخص رجل عربي يزداد اجلالا عند المسلمين لاتصال نسبه برسولهم الأعظم ، فرفعت عنه « الحصانة » ؛ فاذا بحملتين سعوديتين تخرجان من نجد ، وجهة احداهما شرق الاردن حيث تقوم امارة الامير عبد الله ابن الحسين ، ووجهة الثانية الحجاز . وقد اوقف الانكليز الأولى عند ابواب عمان . ولو شاءوا لاوقفوا الثانية . ولكن حملة السعوديين على الحجاز ظلت تتابع المسير حتى احتلت الطائف في اليوم العاشر من ايلول ١٩٢٤ ، وتقدمت شطر مكة .

وكأن الاسرة الهاشمية المالكة قدرت ان مثيري الحملة انما كانوا يستهدفون شخص الملك . فسرعان ما تنازل جلالته عن الملك الى ابنه الامير علي المعروف بدماثة اخلاقه ومرونته ؛ ولكن هذا التدبير جاء بعد فوات الوقت ، إذ كانت جيوش الامام عبد العزيز قد واصلت تقدمها ، واحتلت مكة (١٥ تشرين الاول ١٩٢٤) ثم جدة (١٧ كانون الاول) مما جعل الملك علياً يضطر للانسحاب الى بغداد حيث قضى فيها بقية ايامه مكرماً .

واما الملك حسين فقد أقلته بارجة انكليزية الى جزيرة قبرص حيث عاش فيها عيشة متواضعة . وقد أتيح لي شرف زيارته في نيكوزيا عاصمة الجزيرة تأدية للواجب ، فشملني جلالته بعطفه الوارف ؛ وشاء ان يحدثني عن المفاوضات

التي جرت بينه وبين انكلترا بشأن القضية العربيـة ، فاذا هي على منتهى الأهمية والخطورة . وقد أسفت ان تظل هذه الوثائق العظيمة مكدسة في كيس عنده ، فعرضت على جلالته ان اتولى تنسيقها تحت اشرافه ، واخراجها على شكل مذكرات خدمة للقضية العربية ، فأجابني « اتركها على بركات الله » .

وقد لاحظت ، اثناء حديثي مع جلالته ، انه أصبح في تلك الجزيرة غريباً عن تطورات السياسة . ولعل انجاله الكرام كانوا ايضاً يكتمون عنه اخبارهم السياسية . اذ بينما كان جلالته يعرب لي عن رأيه في الوسائل التي بها تستقيم احوال الجزيرة ، ويتمنى ، لهذا الغرض ، اعادة امارة آل الرشيد بحائل ، كان ابنه جلالة الملك فيصل قد سبق له ان تصافح قبل شهر من هذا الحديث (أي في ٢٢ شباط ١٩٣٠) مع جلالة الملك عبد العزيز بن سعود ، وتصافى على ظهر الدارعة « لوبن » الانكليزية ، متفاهمين على شؤون الجزيرة وحدودها . والملك حسين لا يعلم شيئاً عن ذلك ؛ بل كان لا يزال يفكر في الثار من آل سعود ، ويتمنى عودة خصومهم .

هذا وكان الناس يبالغون في تقدير ثروته ويتحدثون عن الكنوز العظيمة التي نقلها معه بالصفائح الى قبرص . والواقع ، فان جلالته كان يعيش خلال عزلته هذه عيشة اقتصاد وتقتير ، حتى انه اضطر لترك القصر الذي استؤجر له حين هبط نيكوزيا ، واكترى ارخص منه اجرة . ولم يكن يفعل ذلك قصد الاقتصاد ، وانما مراعاة لحالته المالية المتواضعة .

على ان انكلترا لم تسمح بفك أسر نسر العرب ، الا حين اشرف على الموت . وبعد أشهر قضاها في عمان بجوار ابنه سمو الامير عبدالله امير شرق الاردن جاءه الاجل ، فتوفي مأسوفاً عليه في حزيران ١٩٣١ .

ولقد مات الشريف حسين ولكن ذكراه ما تزال ماثلة امام كل قومي عربي ، ألم يجعل جلالته من القضية العربية قضية عالميـة عالجها مؤتمر السلام ، وكان له في هذا المؤتمر مندوبان ؟

ثم ألم تظفر العروبة بفضل جهوده بحق التمثيل في عصبة الامم ، ومارست هذا الحق في شخص مندوبه مدةً من الزمن ؟

بلى! ولكن الحظ لم يخدم العرب حتى النهاية . فلو قدر لجلالته ان يتصف بمرونة ولده جلالة فيصل الاول لبلغ بالعروبة ما بلغه ابو غازي بالعراق واكثر .

المملكة العربية السعودية في نجد والحجاز

نشأتها وتكوينها : اشرنا ، عند الكلام على الدولة السعودية الثالثة ، الى ان الامام عبد العزيز آل سعود ، امير نجد ، قد التزم الحياد في بداية الحرب العالمية الأولى . ولكن بريطانيا العظمى ظلت تستدرجه وتؤمله حتى اقنعته اخيراً بالتوقيع على معاهدة القطيف (١٩١٥)، وهي كسائر المعاهدات التي فرضتها لندن على امراء خليج فارس،تجعل امارة نجد داخلة في حمايتها وخاضعة لسياسة بريطانيا الخارجية . ولما انتهت الحرب المذكورة بانتصار بريطانيا حليفة آل سعود على تركيا حليفة آل الرشيد،اصبحت نجد في نظر العاهل السعودي لا تتسع لامارتين متناظرتين فانقض على حائل والجوف ، والحقهما بأمارته سنة ١٩٢١ .

ولما توترت العلاقات بين الملك حسين وبين انكلترا ، كما اشرنا سابقاً ؛ سمت همة امير نجد الى المطالبة بتعديل الحدود بينه وبين الحجاز ؛ وقد اشفع طلبه بحملات على اطراف الحجاز ؛ ولما لم يستطع التفاهم مع الملك حسين حمل عليه واحتل مكة (١٩٢٤). ومن ثم بويع ملكا على الحجاز (١٣٤٣ ﻫ ١٩٢٥م) . وبذلك نرى ان ما عجز مؤتمر الكويت عن حل معضلاته تولى مؤتمرا حدّاء وبحرة (١٩٢٥) تسويته النهائية بعد ان تم لجلالة ابن سعود الانتصار النهائي .

ولما اسعفت الظروف الامام السعودي ، ودخلت عسير ، بمقتضى معاهدة ١١ آب ١٩٢٦ ، في حوزته ، وبسط حمايته على تهامة ، أصبحت مملكته تمتد من خليج فارس الى البحر الاحمر ، ومن حدود شرق الاردن الى اليمن .

واتجه جلالته في سياسته الخارجية الى السعي لتعديل معاهدة القطيف فانتهت المفاوضات بينه وبين انكلترا الى عقد معاهدة جدة (١٩٢٥) ، التي اعترفت فيها حليفته باستقلاله الكامل . وبهذه المناسبة يقول عبد الله فيلبي « لقد كان ابن سعود حكيماً في جميع خطواته لانه لم يثر أية خصومة مع الدول الكبرى ، ورغم ما ابداه شعبه من مظاهر القلق والتبرم المتعددة فقد احترم انظمة الانتداب في فلسطين وشرق الاردن وسورية والعراق ، والوضع الخاص بامارات الخليج الفارسي . ولم يقف عند هذا الحد ، بل انه قد استخدم فعلاً في احدى المناسبات (١٩٢٩ — ١٩٣٠) القوة المسلحة لقمع ثورة قام بها رعاياه ضد سياسته الرامية الى تفادي تصادم غير مجدٍ مع الدول الكبرى . »

على ان هذا الموقف الذي وقفه العاهل السعودي كان مدعاة لتوثيق العلاقات بينه وبين العالم الغربي، ولا سيما مع لندن، ولايفاد معتمديه لزيارة عواصم اوروبا. وما ان اعترفت انكلترا وفرنسا وهولندا بملكه حتى بادر لايفاد ابنه الامير فيصل الى عواصمها لتقديم الشكر؛ كما انه نصب ممثلين سياسيين له في لندن وباريس، وكذلك في انقرة ومصر وبغداد ودمشق وغيرها. وهو في ذلك لايتردد في الاعتماد على ابناء العروبة من اي قطر كانوا. وفي سنة ١٩٣٨ قصد الامير سعود ولي العهد واخوه محمد الى لنـــدن للمفاوضة في بعض الشؤون السياسية . ثم زارا بعد ذلك اميركا. وكانت هاتين الزيارتين باكورة زيارات كثيرة غيرها شرع يقوم بها اصحاب السمو انجال جلالته لاوروبا واميركا ، ولا سيا بعد الاتفـاق السعودي الأميركي على البترول .

واما في السياسة الاسلامية والعربية فقد اصطدم جلالة الملك، بادىء ذي بدء، بعقبات حاول تذليلها بالسياسة فلم يفلح . ثم رأيناه يذللها بسهولة عندما لجأ للحزم والعمل: من ذلك ان المسلمين كانوا يخشون تعدي الوهابيين على مقدساتهم في مكة والمدينة وما حولها قياساً على حملات لهم سابقة، ويشفقون على تقاليدهم، التي لا تتفق مع المذهب الوهابي، ان يتعرض لها الوهابيون . وكان العرب ، ما عـدا المشهورين بنزعتهم التركية، يقدسون الملك حسيناً لجهاده في سبيل قضيتهم القومية، ويعتبرون انه كان ضحية وفائه لهذه القضية ولفلسطين . لذلك رأينا المسلمين ، والعرب منهم خاصة ، غير مرتاحين ، اول الامر ، لتغلب الوهابيين على الحجـاز . وكان جلالته يدرك كل ذلك، فأراد ان يزيل الشك من النفوس ليبعث فيها الرضى والاطمئنان. فدعا في ١٣ حزيران ١٩٢٦ العالم الأسلامي الى مؤتمر يعقد في مكة، على ان يكون مؤتمراً دائماً يشرف على الشؤون الاسلامية في الحجاز ، ويعالج القضايا الاسلامية عامة . ولما لم يقدر النجاح لهذا المؤتمر اعلن رئيسه وقف اعماله يوم ٢٦ ايار ١٩٢٧، ومضى الملك في سبيله ينفذ برنامجاً اسلامياً عربياً مدنياً من نتاج افكاره الناضجة . وما هي الا سنوات قلائل حتى كانت النفوس المضطربة تطمئن ؛ والنفوس المطمئنة تزداد اعجاباً واخلاصاً لجلالته .

والى سنة ١٩٢٨ كان جلالة ملك الحجاز الجديد لا يزال يحمل لقب امام نجد . ومنذ ذلك التاريخ اصبح يدعى ملك نجد والحجـــاز ، وصار يتنقل بين الرياض

ومكة حسب الحاجة والمواسم. وقد أعلن في ٢٢ ايلول ١٩٣٢ توحيد الممالك الخاضعة له باسم « المملكة العربية السعودية » . واذ ظهر بمظهر القوي المؤثر تهافتت الدول الاسلامية والعربية على توثيق روابطها معه : فوقعت العراق بينها وبينه معاهدة اخوة عربية وتحالف سنة ١٩٣٦ ، وانضمت اليهما اليمن في العام التالي .

ويتحدث المتحدثون عن الأمن الذي انتشر في هذه المملكة الشاسعة بفضل حزمه وهيبته . على ان الامن وان كان يعتبر الشرط الاساسي الاول للعمران فان عناية جلالة الملك لم تقتصر عليه وحده، بل تعدته الى سائر الشؤون العامة على قدر ما كانت تسمح به خزينة المملكة ، وتقاليد البلاد . وفضلاً عما بذل سنة ١٩٣٨ من الاهتمام بانشاء خطوط النقل فقد نقلت الينا انباء القاهرة بتاريخ ٢٠ نيسان ١٩٣٩ ان صاحب السمو الامير فيصل آل سعود وقع مع وزير خارجية مصر على مشروع اصلاح طرقات الحجاز الرئيسية ذلك المشروع الذي قدرت نفقاته بـ ٢٤٠ الفاً من الجنيهات، وتقرر ان تدفع وزارة الاوقاف المصرية من هذا المبلغ مئة الف جنيه ، اما البقية فتدفعها الحكومة السعودية على سبعة اقساط سنوية .

قال الشيخ حافظ وهبه (الهلال عدد ممتاز – العرب والاسلام) « وقد يكون من حق التاريخ علينا ان نذكر ان النهضة العلمية والاصلاح الديني والنهضة الصحية الحديثة في البلاد العربية السعودية تدين لحضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود . فهو الذي انشأها في بعض النواحي ، ونماها ورعاها في بعض النواحي الاخرى كالحجاز . نعم لقد كانت هناك بضع مدارس أو مستشفيات عسكرية او مدنية ايام الاتراك ، ولكن ما عدا المؤسسات العسكرية ، او ما له صلة بالجيش ، لم يكن هنالك شيء يصح ان يطلق عليه مدرسة او مستشفى بالمعنى الصحيح . اما اليوم فالمدارس في الحواضر والقرى الحجازية والنجدية والبعثات ترسل الى مصر وسواها من الممالك العربية للتزود من مناهل العلم والنور بين جميع الطبقات . ولولا ان موارد الدولة محدودة لسارت النهضة العلمية بخطوات اوسع ، ولسدت الرغبة العامة والحاجة التي يشعر بها المثقفون . »

وفي الواقع فان عام ١٩٣٨ قد سجل نشاطاً محسوساً في المملكة العربية السعودية من حيث العمران والاصلاح . وزيادة على ما اشرنا اليه من الاهتمام بخطوط النقل ، فقد انصرفت الجهود لجعل جدة مرفأ عصرياً ، ولتعمير مكة وتجديدها ، وللعناية بالشؤون الصحية فيها : اذ بوشر بتدمير منازلها القديمة ، وعني

بتجميلها وتوسيع طرقها ، ومكافحة البرغش فيها ، وانشىء فيها ميتماً كبيراً . وعلاوة على ذلك فقد اهتمت الحكومة السعودية بتجهيز المملكة بالأجهزة التلفونية ، وتجديد ما بلي منها ، وحفر الآبار الارتوازية في الرياض وغيرها ؛ كما عنيت بمكافحة العادات القديمة في حفلات الزواج والمآتم .

هذا ويذكر لجلالة الملك فاروق الاول عاهل مصر انه امر بانشاء صيدلية ومستشفى فيها لمعالجة الفقراء مجاناً . ونشط بنك مصر الى انشاء فندق كبير للحجاج في مكة والى القيام بمشاريع اخرى .

اضف الى ذلك ان جلالة الملك عبدالعزيز قد وجه عناية خاصة ، منذ تبوأ عرش الحجاز ، الى اعداد الجيش وتجهيزه بالمعدات . وقد بلغت قوات هــذا الجيش سنة ١٩٣٨ عشرين الف جندي وخمسين الف احتياطي من الاخوان مجهزين بشيء من المعدات الحديثة ، بينها بعض الطائرات والدبابات . ومع ذلك فقد تقرر في المؤتمر ، الذي عقده خلال السنة المذكورة في الرياض ، انشاء مجلس اعلى لدرس الشؤون الوطنية واصلاح الجيش .

المملكة العربية السعودية منذ الحرب العالمية الثانية : اوردنا في القسم الاول من هذا البحث كلمة السيد « عبد الله فيلبي » التي نوه فيها بحكمة جلالة الملك ابن سعود في موقفه الدبلوماسي حيال الدول الكبري ، وجاءت الحرب العالمية الثانية مؤيدة ما اراد ان يشير اليه المستر فيلبي من حيث صمود جلالته على الوفاء بالعهود المقطوعة لحكومات جلالة ملك بريطانيا العظمى المتعاقبــة . فان تطورات الحرب ، وما استهلت بــه من انتصارات للمحور لم تزحزح جلالته عن صداقته للحلفاء ، وخصوصاً لبريطانيا العظمى .

وقد كانت المانيــا عينت قبل الحرب الدكتور كروبا ، وزيرها المفوض في بغداد ، وزيراً مفوضاً لها في جدة ، فاشرف الدكتور المذكور ، خلال الحرب ، على الدعاية التي كان يقوم بهــا المحور في سورية والعراق ، ولما دخل المملكة العربية السعودية ، بوصفه وزيراً مفوضاً لدولته ، رفض جلالة الملك ابن سعود السماح له بالبقاء فيها ، وأمره ، في صيف ١٩٤١ ، ان يغادرها حالاً . كما انه امر باعتقال الجنود الايطاليين الذين لجأوا الى بلاده من البحر الاحمر على اثر اغراق سفنهم في شرق افريقيا .

هذا الى ان لندن قد توفقت في مطلع ١٩٤٢ الى اقناع جلالة الملك عبد العزيز بان يقطع علاقاته السياسية بالمحور ؛ ويعني هـذا عملياً قطع العلاقات السياسية مع

ايطاليا وحدها : ذلك لانها كانت هي الدولة الوحيدة من دول المحور التي ظلت تمثل تمثيلاً سياسياً في جدة. ثم أقفلت المفوضية السعودية في فيشي في ربيع السنة التالية.

ومنذ أول آذار ١٩٤٥ أصبحت المملكة العربية السعودية في حالة حرب مع دولتي المانيـــا واليابان باستثناء الاماكن المقدسة في جزيرة العرب التي بقيت على حيادها . واما ايطاليـا فلم تشهر الدولة السعودية عليها الحرب لأنها كانت محتلة من قبل الحلفاء . على ان العلاقات بين المملكة العربية السعودية وبين الولايات المتحدة قـد اخذت تتوثق يوماً بعد يوم لما قام بين الدولتين من صلة اقتصادية عظيمة مدارهـا البترول . وانحسر من جراء ذلك النفوذ البريطاني عن الجزيرة على قـدر امتداد العلاقات الاميركية فيهـا . وفي اواخر كانون الاول ١٩٤٣ هبط جدة الجنرال رويس القائد الاعلى للقوات الاميركية في الشرق الاوسط مع هيئة من اركان حربه ، فاستقبلهم جلالة الملك احسن استقبال . وعلى اثر ذلك اذيع ان الحكومة السعودية تسلمت سبعة ملايين ونصف المليون من الجنيهات الفضية من الحكومة الاميركية ؛ وذلك بعد اتفاق الحكومتين عـــلى مشروع استغلال الاميركان لبعض الاراضي الحجازية .

وكتب الرئيس روزفلت في نيسان ١٩٤٣ الى السيد ستاتينوس مدير مصلحة الاعارة والتأجير يقول : « ان حق الاستفادة من هذه المؤسسة الاميركية قـــد منح الآن الى المملكة السعودية العربية ، وأن الدفاع عنهـا اصبح حيوياً بالنسبة للدفاع عن الولايات المتحدة » .

وكان من مظاهر العلاقات الطيبة بين الدولتين ، تلك الدعوات التي صارت توجه ، حيناً بعد حين ، من واشنطن الى حكومة مكة والرياض ، والحفاوات البالغة التي ظل يلقاها هناك ممثلو الحكومة العربية السعودية، وخصوصاً ابناء جلالة المليك العربي المعظم ، كلما زاروا امريكا ، فضلاً عن الهدايا المتبادلة بين الدولتين الصديقتين ، واوسمة التقدير .

والواقع فان وجود البترول على هذه الكثرة في المملكة العربية السعودية ، والاعتقاد بوجوده على مدى اوسع في المناطق الداخلة ضمن نطاق الشركة الاميركية التي نالت الامتياز سنة١٩٣٣ ، كان اعظم حدث وقع في جزيرة العرب في العصر الحاضر. ذلك أن هذا الكنز الدفين فضلا عن انه جعل الجزيرة وما حولها عامة ، والمملكة العربية السعودية خاصة ،موضع أهتمام الدول ، ولا سيما امريكا التي اخذت تمد انابيب البترول الى البحر المتوسط ، وتعنى عناية خاصة بجدة بحيث تجعلهـــا

مستودعاً للمصنوعات الأميركية ، فانه سيؤدي حتماً الى تطور خطير في حياة تلك البلاد بفعل الثروة التي ستدفق على حكومة الرياض .

والآن وآبار البترول لا تزال شبه مغلقة فان دخل جلالته منها يقدر بقرابة اثنين وستين الف دولار كل يوم . وهي ثروة من شأنها ان تؤمن اهدافه الاصلاحية .

وما من شك في ان حكومة جلالته باشرت بعض الاصلاحات الداخلية التي تتفق مع الموارد الطارئة ، واهمها ذلك الخط الحديدي الذي سيصل مدينة الرياض بخليج العجم ، واعداد العدد لجيش قوي ؛ ومشروع الطريق ما بين مكة والمدينة ؛ ولكنّ ما تنوي الحكومة تحقيقه ، على وجه اكمل ، لم يبرز حتى الآن الى حيز العيان .

ومن مدعاة السرور ان عناية جلالة ابن سعود شملت ايضاً الناحية الزراعية ، لتجعل من تلك الاراضي ، التي يحسبها الناس قاحلة ، جنات خضراء تسر الناظرين ، وتدر الخيرات على العاملين : فقد استخدم منذ ثلاث سنين المستر كنيث ادور الأميركي ورفقاء له خمسة اخصائيين في الشؤون الزراعية . وقد عاد في الآونة الاخيرة المستر كنيث الى اميركا لحضور احد المؤتمرات ، وصرح هناك بان السنوات الأولى اتت بنتائج مثمرة مما حمل جلالة المليك على تفويضه باستقدام خمسة عشر فنياً آخرين من اميركا ، واعداد برنامج أوسع للتحسين الزراعي . وقد امتدح المشار اليه رغبة صاحب الجلالة في رفع مستوى المعيشة ، وتقدم الزراعة ؛ كما نوه بالمساعدات القيمة التي قدمها له كل من صاحب السمو الملكي الأمير سعود ولي العهد ، وصاحب المعالي الشيخ عبدالله بن سليمان وزير المال ؛ ولا سيما في ناحية انشاء وزارة للزراعة خاصة .

دولة اليمن

كانت اليمن احرص البلاد العربية على الاستقلال ؛ وقد سبق لنا ان ألممنا ، في الجزء الاول ، بجهودها في هذا السبيل . ويعتبر جلالة الملك الامام يحيى حميدالدين محرر اليمن في التاريخ الحديث ؛ فهو رحمه الله مذ خلف اباه في الحكم سنة ١٣٢٢هـ = ١٩٠٤ م اعلن الثورة على الترك ، واستمر يناضلهم بين كرّ وفرّ الى ان استطاع ان ينتزع منهم سنة ١٣٢٩ هـ ١٩١١م معاهدة تنص على استقلال بلاده . وبمقتضى هذه العهدة كانت حكومة السلطان تؤدي له جعلاً شهريا يناهز الالفي والخمسمائة

جنيه من الذهب الانكليزي على ان يعترف لها بالسيـادة . وظل الأمر كذلك حتى دارت الدائرة على الترك في الحرب العالمية الاولى ، فاعترفت معاهدة لوزان ، التي عقدت بينهم وبين الحلفاء عام ١٩٢٣، باستقلال اليمن .

وقد كان الامام وفياً بعهده للعثمانيين ، رغم كل اغواء واغراء بذلتهما بريطانيا في سبيل كسب اليمن اسوة ببقية الحكومات العربية ،ولا سيما في الحرب العالمية الاولى . وبالرغم من مساعي ايطاليا فقد التزم جلالته الحيـاد خلال الحروب التي اشتبكت فيها السلطنة العثمانية تباعاً مع ايطاليا ،فالدول البلقانية ،فالحلفاء ،في الحرب العامة .

وكان جلالته ، الى ذلك ،يطمح الى اعادة كيان اليمن لحدوده الطبيعية ، ويتألم لاحتلال بريطانيا بعض اطرافه في الجنوب . ولم يتردد عن احتلال منطقتين من هذه المناطق المحمية : الدهالي والكتيبي .

ثم لمـا حاولت بريطانيا تسوية الخلاف حبياً بينها وبين اليمن ، وعاد الوفدان ، وفد يعقوب ١٩٢٣ ووفد كليتن ١٩٢٥ اللذان ارسلتهما الى صنعاء ، دون جدوى لجأت الى التهديد ؛ ولكن القذائف ، التي القتها على معسكر الامام ، والتي قصفت بها القبائل الموالية له ، لم تجدها نفعاً .

ثم توترت العلاقات بين اليمن ونجد على اثر انضمام مقاطعة عسير الى حكومة نجد (١٣٣٨ — ١٣٤٠هـ = ١٩٢١ – ١٩٢٢ م) .وازداد التوتر بعدعقداتفاق مكة بين جلالة الملك عبدالعزيز بن سعود وبين السيد الحسن الادريسي (١٣٤٥هـ =١٩٢٦م) . وكان سبب ذلك ان هذا الاتفاق أدخل القسم الذي كان يحكمه الأدارسة في تهامة اليمن بحماية آل سعود ، في حين ان جلالة الامام يرى في هذه البلاد جزءاً متمماً لليمن .

ولما لم يستطع الفريقان حل الخلاف ، عن طريق تبادل الوفود ، حكّما السيف بينهما ، وكانت تهامة ميدان القتـــال ، فترجحت فيها كفة الجيش السعودي (١٣٥٢ هـ – ١٩٣٣م) .ولكنه وقف عندها محجماً عن متابعة التقدم في الجبال . وذلك لان جلالة الامام يتمتع فيها بمناعة لم تستطع الامبرطورية العثمانية ان تذللها .

وما اشد ما كان لهذه الحرب بين الدولتين من وقع على انصار القومية الذين يجاهدون في سبيل الوحدة العربيـــة . فبادر بعض الزعماء منهم للاتصال شخصيا بالعاهلين . وقد وفقوا لوقف القتال على ان يبقى جزء من تهامة في حوزة حكومة الحجاز ونجد .

وكان جلالة الملك فيصل الاول ملك العراق يتوخى في سياسته تحقيق الوحدة

العربية مبتدئاً بتوثيق عرى الاتحاد بـين عواهـــل العرب . فاوفد السيد نوري السعيد ، وهو ساعده الايمن في هذه السياسة ، الى الحكومات العربية للتوقيع على معاهدات صداقة وتعاون. فغادر الوفد بغداد يوم ٢٨ آذار ١٩٣١ .وبعد التوقيع في عمان ومكة على المعاهدتين امّ دولته صنعاء فوقع على معاهـــدة صداقة بين العراق وجلالة الامام يحيي يوم ٢٣ ذي الحجة ١٣٤٩هـ ١١ أيار ١٩٣١ م .

ثم اذيع في بغداد والحجاز (٢ نيسان ١٩٣٦) بلاغ يتضمن توقيـع معاهدة اخوة عربية وتحالف بين العراق والمملكة السعودية ؛ وبذلت الحكومتان الجهد لانضمام اليمن اليها ، فوصل الى بغـــداد يوم ٦ حزيران ١٩٣٦ السيد محمد زباره مندوباً عن اليمن للمذاكرة في امر هذا الانضمام ؛ وقد تمّ ذلك بتوقيع الامام على هذه المعاهدة يوم ٢٧ صفر ١٣٥٦ هـ = ٢٩ نيسان ١٩٣٧ م .

على ان الحرب التي وقعت بين جلالتي الامام يحي والملك ابن السعود لم تمرّ دون ان تترك اثراً فعالاً في نفس عاهل صنعاء : فقد كانت له فيها عبرة حملته على ان يقدر ما في تنظيم الجيش على النمط الحديث من فوائد ؛ فجنح الى الاصلاح العسكري والاستعداد الحربي ؛ وازداد تمسكاً بذلك عنـد استفحال خطر ايطاليا في البحر الاحمر ؛ ولا سيما بعـــد ان بسطت استعمارها على الحبشة . فاستخدم بعض القادة السوريين ، ثم استعان بالعراق ؛ فارسلت اليه (١ اذار ١٩٤٠) بعثة عراقيـة عسكرية عملت على ادخال نظم التعليم والتدريب العراقية الى الجيش اليماني على قسميه الدفاعي والمظفر؛ كما عملت على ابتياع المعدات الحربية ، وفي جملتها المدفعية الميكانيكية الثقيلة .

واقتضى الاهتمام بالجيش اهتماماً بالفروع الاخرى التي تعتبر اساساً للاصلاح العسكري . هـــذا فضلا عن توجيه جلالة الامام اهتمامه للمعارف وبعض الصنائع والعمران واصلاح شؤون الادارة ، وارساله بعثات الطلبـة الى كل مـــن مصر والعراق وايطاليا . وهو في كل ذلك انما يلزم جانب الشريعة الاسلامية ، ويبتعد عن الشبهات .ولا ادل على ذلك من كتاب تلطف وارسله اليّ مؤرخاً في ٦ ربيع الاول ١٣٥٠ يعلمني فيه بوصول مؤلفين كنت قد رفعتهما لجلالته ، وينصحني فيه قائلًا: « وليت انكم تكلمتم واشرتم الى الآداب الشرعية الـــتي بهـــا خير الدارين وعزهما . »

هذا الى ان جلالته لم يهمل جانب العلاقات الدوليـــة ، ولا سيما في النواحي

الاقتصادية : فقد عقد بينه وبين بريطانيا العظمى (١٩٤٣) معاهدة صداقة وتجارة لمدة اربعين عاماً. ومثلها مع كل من فرنسا وايطاليا وبلجكا وهولندا؛ كما وقع اتفاقاً بينه وبين روسيا السوفيتية لمدة عشر سنين، جدد بعد انقضاء مدته . وقبيل حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥ بذلت حكومة صنعاء جهوداً كبيرة في سبيل توسيع نطاق علاقاتها الاقتصادية مع سائر الدول الاوروبية ؛ فعقدت في النصف الاول من عام ١٩٣٩ عدة اتفاقات تجارية مع بلجكا وسويسرا وغيرهما .

هذ الى ان جلالة الامام يحيى شاء الاتصال مباشرة بالعالم : وفضلاً عن الوفود التي كان يوجهها جلالته الى الدول العربية قبل الحرب؛ اوفد نجله سمو الامير سيف الاسلام محمد الى ايطاليا بزيارة رسمية ؛ ثم ارسل ولده سمو الامير سيف الاسلام الحسين الى لندن لحضور حفلة التتويج ؛ كما انتدبه ، من بعد ، لحضور حفلة افتتاح المسجد في طوكيو ١٩٣٨، ولتمثيل دولة اليمن في مؤتمر المائدة المستديرة في لندن ١٩٣٨ لبحث قضية فلسطين .

هذا ولما نشبت الحرب العالمية الثانية ، كانت اليمن الدولة العربية الوحيدة التي احتفظت بحيادها دون ان يتسنى للحلفاء حملها على اعلان العداء ضد المحور .

ثم لما تألفت الجامعة العربية عهد جلالته الى ولده سمو الامير سيف الاسلام عبدالله بان يمثل بلاده في مجلسها؛ وفي عام ١٩٤٦ مثلها امام لجنة التحقيق الانكليزية الاميركية في القاهرة ، وقدم اليها بياناً استعرض فيه وجهة نظر الدول العربية في قضية فلسطين أقره عليه ممثلو هذه الدول . وكان لي الحظ بأن اكون واحداً من موقعي هذا البيان بوصفي ممثلا للجمهورية اللبنانية امام هذه اللجنة .

وتقديراً لما كان لسمو الامير عبدالله من المواقف الحميدة في كل المجالس ، فقد استمر جلالة والده على انتدابه للمؤتمرات الدولية : فاشترك في دورتي مؤتمر لندن (١٩٤٧) الذي عقد لحل مشكلة فلسطين؛ ثم لما قبلت اليمن، بمساعي سموه الموفقة، في عضوية هيئة الامم المتحدة ، وذلك في صيف ١٩٤٨ ، كان سموه يرئس وفود اليمن الى اجتماعاتها طيلة حياة والده المعظم .

هذا الى ان جلالة الامام يحيى ما ان اطمأن الى زوال الخطر الايطالي منذ الحرب العالمية الثانية، ورأى في وجود الجامعة العربية واتحاد الامة العربية حارساً لبلاده من المطامع الاجنبية، حتى شرع يتطلع الى العالم الخارجي، ويسعى لتوثيق العلاقات الدولية ، بالاضافة الى شروعه في الاخذ ببعض الاصلاحات الداخلية ،

ولا سيما في النواحي الثقافية والصحية. فأنشأ المدارس واستعان بالحكومة المصرية على تأمين بعض المدرسين ؛ كما اني ساهمت في ارسال بعض الاطباء والاساتذة ورجال الفن من سوريا ولبنان الى اليمن. وآخر ما وصلنا من انباء اليمن جعل التعليم الابتدائي اجبارياً في المدن ، وفي القرى ، التي تنشأ فيها مدارس ابتدائية .

وفوق ذلك فقد أوفد جلالته بعثات من الطلبة لمدارس مصر ، كما استقبل لبنان بعثة مؤلفة من اربعين طالباً ، كان لي حظ الاشراف عليهم مدة دراستهم في هذا البلد.

ولكن جلالته ظل يتردد في تبادل التمثيل السياسي ، حتى ما كان منه بينه وبين الدول العربية . ويرجع ذلك الى ان المعاهدة المعقودة بين اليمن وبريطانيا العظمى ١٩٤٢ تضمنت نصاً صريحاً يعطي هذه الاسبقية عندما تقرر اليمن تبادل التمثيل السياسي بينها وبين الدول الاخرى . ورغم وجود اتفاقات تجارية عقدت بين اليمن والولايات المتحدة سنة ١٩٤٦ ، ومحاولة اميركا انتداب ممثل لها في صنعاء ، فان السفير المذكور ظل يقيم في جده ، وظلت صنعاء تحجم عن تعيين سفير لها في واشنطن .

. . . . .

استطاعت اليمن بفضل الحيطة التي كان يتخذها جلالة الامام يحيى ان تحتفظ باستقلالها السياسي ، وان تقف وقفة الحياد بين الحلفاء والمحور ؛ ولكن من المؤسف انها لم تستطع الاحتفاظ باستقلالها الاقتصادي ، بل دخلت ، في هذه الناحية ، ضمن نطاق النفوذ البريطاني . ذلك ان اليمن التي لا غنى لها عن التعامل مع سائر العالم اسرة بكل قطر آخر ، لم تعدّ لها مرفأ واحداً ، كالمرافىء العصرية ، صالحاً لاستقبال البواخر الكبرى ولتحميلها وتفريغها ؛ كما انها لم تسمح بقيام مصارف تأخذ على عاتقها تحويل الريال المتداول في اليمن الى نقد اجنبي ، واعطاء الحوالات . هذا فضلاً عن انها لم تضع عملة خاصة بها سوى ريالات من الفضة سكت بصنعاء. فكان عليها من جراء هذا النقص ، الذي منيت به في المرافق التجارية ، ان تلجأ ، في صادراتها ووارداتها ، الى عدن ، في حين ان بريطانيا العظمى اعدت هذا الثغر ليكون مرفأ لليمن ، وذلك باعفاء البضائع التي تمر به من الرسوم الجمركية ، وباقامة المصارف المالية ، وبايجاد فروع لشركاتها التجارية الكبرى على نسق الفروع المنتشرة في مستعمراتها . وقد اصبحت اليمن بذلك مضطرة للاعتماد على عدن فحسب في اعمالها التجارية ، والمالية ، وفي تحويل قدر كبير من ريالاتها الى روبيات هندية ، لاسيما ان نحو

٦٠ في المائة من وارداتها تجلب من الهند .

على ان بريطانيا العظمى لم تكن ، مع ذلك ، لتقنع بهذه السيطرة على اقتصاديات اليمن ، بل كانت تمد ابصارها الى خيرات تلك البلاد المدفونة تحت الثرى ، وتواصل الطلب من اجل التنقيب عن البترول وغيره . غير ان حذر جلالة الامام يحيى كان يحمله على الوقوف في وجه هذه المطامع ؛ كما ان حرصه على استرداد الاجزاء اليمنية التي كانت قد دخلت في حوزة عدن كان يقض مضجعه . لذلك كان سمو الأمير سيف الاسلام عبد الله لا ينفك في رواحه الى واشنطن ولندن ، وعودته منهما خلال سنتي ١٩٤٧ و ١٩٤٨ ، يطالب بالجلاء عن المحميات على اعتبارها جزءا لا يتجزأ من اليمن .

هذا وكانت القوات البريطانية قد احتلت اثناء الحرب العالمية الثانية ، منطقة تقع غربي عدن تطل على البوغاز الذي يتصل عنده البحر الاحمر بالمحيط الهندي ، وذلك لمواجهة الخطر الايطالي عبر البحر الأحمر ولما وضعت الحرب اوزارها شرع جلالة الامام يطالب ايضاً لندن بالجلاء عن هذه المنطقة ؛ ولكنها لم تفعل ، وانتهت المفاوضات الى الاتفاق بين الفريقين على جعلها منطقة حرام .

وربما ان هذا الحزم الذي اظهره جلالته في وجه المطامع الاجنبية ، ولاسيما بصدد المطالبة في الجلاء عن المحميات كوّن في لندن فكرة التخلص منه ، قصد قيام هيئة حاكمة في صنعاء تكون صنيعتها وتتحرك بمشيئتها . فأخذ الميجر سيجر في عدن يضع الخطط منذ نحو اربعة اعوام ؛ فاذا به يرحب باللاجئين الى عدن من الشباب اليمني المتحمس الناقم ، واذا بجمعية تحريرية تتألف هناك تلقى التشجيع منهم والتنشيط ؛ واذا بسيف الاسلام ابراهيم يخرج على جلالة ابيه ويقيم بعدن ويتزعم هذه الجمعية . وهكذا فقد دبرت بعدن الحركة الانقلابية التي عرفت بحركة ابن الوزير ؛ ومنها استمدت كل المساعدات .

وفي يوم الثلاثاء سابع شهر ربيع الثاني ١٣٦٧ = ١٩٤٨ اوقف المتآمرون سيارة جلالة الامام يحيى خلال عودته من احدى مزارعه ، ووجهوا الى جلالته ، والى من بمعيته رصاص الرشاش ، فقتلوهم جميعاً ؛ وكان بينهم رئيس الوزراء القاضي عبدالله العمري . ولما خف سيوف الاسلام في صنعاء الى دار المملكة اعترضهم الرئيس جمال جميل ، الضابط العراقي الموظف في اليمن ، وقتل سيفي الاسلام الحسين والمحسن عند باب الدار .

وخلال ذلك اسرع السيد عبدالله بن احمد الوزير الى قصر غمدان ، وقبض على من بقي حياً من اولاد الامام بصنعاء ، وكاتب بعض القبائل اليمنية واستمالهم .



في الحفلة التي اقامتها الجالية اليمنية في القاهرة بنادي الشبان المسلمين بمناسبة اربعين الشهيد الامام يحيى حميد الدين . ويبدو في الرسم صاحب السمو الملكي سيف الاسلام عبد الله يتكلم مع سعادة الدكتور حسين بك حسني موفد جلالة الملك فاروق الى الحفلة ، والى جانبه سعادة محمد صالح حرب باشا، والى شمال صاحب السمو مؤلف هذا الكتاب

وفي اليوم التالي بايعه الناس باسم الامام الهادي ، فابرق الى امين الجامعة العربية وبعض رؤساء الحكومات العربية معلناً هذا الانقلاب . واذا به يتلقى من حاكم عدن تهنئته الخالصة اشعاراً للعالم باعتراف بريطانيا بالأمر الواقع .

وكان سمو الأمير سيف الاسلام أحمد اكبر انجال الامام الراحل ، وولي عهده موجوداً في مقاطعة تعز؛ولما بلغه الخبر اخذيجدّ السير الى معقل حجة في الشمال الغربي من صنعاء ، وكاتب من هنالك القبائل الشمالية وغيرها ، فهرعوا اليه ، ولم تمض ايام قلائل الاّ وهم على ابواب صنعاء .

اما بريطانيا العظمى فانها لم تقف مكتوفة اليدين ازاء هذا النضال الداخلي ، بل ما ان اقتربت قوات سيف الاسلام احمد من صنعاء الا وكانت بوارجها ترسو امام الحديدة ، الثغر اليمني ، معلنة تأييدها لابن الوزير الثائر .

على ان الحصار المضروب على صنعاء لم يطل أمده ، لان سكان العاصمة انفسهم انقلبوا على ابن الوزير ، وتخلص ابناء جلالة الامام يحيى من السجن ، فتولوا قيادة الحركة . وسرعان ما ألقوا القبض عليه ، وعلى رجال حكومته وانصاره ، واودعوهم السجن . وفتحوا الابواب لسيف الاسلام احمد ،واظهر دعوته ، وتلقب بالامام الناصر احمد بن المتوكل . وبايعه الناس ، واعترفت به الجامعة العربية ، والدول العربية . كما ان بريطانيا العظمى لم تتخلف عن غيرها ، مذ استتب لجلالته الحكم ، فخفت للاعتراف به ، والتظاهر بتأييده .. ! ولكن قلق لندن كان غير قليل حينما شاهدت واشنطن تمد اصابعها الى صنعاء ، بغية استثمار خيراتها الدفينة . فاذا بحاكم عدن السير ريجينالد سامبيون يقصد الى اليمن في خريف ١٩٤٨ ، على رأس بعثة لوضع اسس التفاهم . وقد حاولت هذه البعثة اخذ موافقة جلالة الاملام على تعديل معاهدة سنة ١٩٤٣ ، على اساس جعل اليمن تقتصر في وارداتها على اسواق بريطانيا العظمى ، وان تدخل في نطاق الجنيه الاسترليني ؛ كما حاولت البعثة اخذ امتياز بالتنقيب على البترول وغيره ؛ واقناع جلالته بقبول مساعدة حكومة لندن في ميدان الاصلاحات الداخلية ، ولا سيما العسكرية .

غير ان البعثة لم تلبث ان وجدت عند جلالة الامام الجديد حذراً من دول لاستعمار لا يقل عن حذر المرحوم والده ؛ ورأت ان اليمن ، في نهضتها الحاضرة ، انما تريد ان تستعين بالدول العربية فحسب ، وبأهل الاختصاص وبالرأسماليين من ابنائها .

ولما يئست لندن من تحقيق برنامجها الأشعبي ، ومن اقناع جلالته في تبادل التمثيل السياسي عادت لسياستها القديمة من حيث الضغط على حكومة اليمن بسلسلة من المناورات السياسية . وفضلاً عن الاشاعات التي كانت تصدر عن عدن وغيرها ، ومآلها وجود اضطرابات في اليمن ؛ واختلافات بين الاسرة المالكة ، فان السلطة البريطانية في عدن رفضت صيف ١٩٤٩ ان تبدل لليمن نحو مليون ريال الى روبيات هندية الا بقيود ...

ولكن جلالة الامام لم يثنه هذا الضغط عن مثله الأعلى ؛ واعني به تحرير وطنه اقتصادياً ، كما حرره سياسياً : فسمح لبنك افرنسي ، كان في الهند الصينية ، بانشاء

فرع له بالحديدة يعمل دون ربا ، ويتمّ بواسطته تحويل الريالات الى عملات اجنبية ، لقاء افساح المجال لهذا البنك بان يصدر ما يقابل قيمتها بضائع يمنية . وفضلاً عن ذلك فقد اتصل جلالته ببنك مصر لايجاد فرع له في اليمن ، ولانشاء عملة يمنية مربوطة بالجنيه المصري ، كما دخل في مفاوضات مالية مع حكومة الهند لموازنة التجارة بين البلدين كل ذلك بالاضافة الى القيام باصلاحات غير قليلة .

وهذا الموقف الحازم، تقفه اليمن، كان له اسوأ تأثير على الدوننج ستريت؛ فاذا بخصام يقع في التخوم بين قبائل حريب اليمنية وبين محمية بيحان ، واذا بالسلطات البريطانية تنذر جلالة الامام بوجوب الجلاء عن القلعة التي شيدتها القوى المسلحة اليمنية على بعد ميل من نجد مرقد اي في الناحية الغربية من عدن ؛ وحجتها في ذلك ان القلعة بنيت في اراض عدنية ، معلنة انه اذا لم ينسحب منها الجيش اليمني حتى الثاني من ايلول ١٩٤٩ فان سلاح الطيران الملكي سيدمر القلعة .

ولما ابى جلالته الاذعان لهذا الانذار على اعتبار ان مكان القلعة هو ضمن الحدود اليمنية اغارت ١٤ طائرة حربية بريطانية على منطقة حريب ودمرت القلعة ؛ وبعد ان أتمت اعتداءها هناك على البلاد والقرى الآمنة قامت بمظاهرة حربية فوق كل من صنعاء وتعز ، حيث حلقت عدة مرات على شكل استعراض جوي ، ثم عادت الى قواعدها في عدن .

امارة عسير

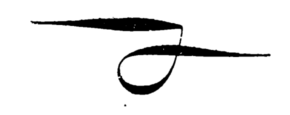
عند نشوب الحرب العالمية الاولى (١٩١٤) كانت منطقة عسير تقسم سياسياً الى قسمين : قسم لآل عايض اتباع الشريف حسين ؛ وآخر للأدارسة . وآل عايض دخلوا في حكم آل سعود منذ سنة ١٩٢٠ ؛ واما الأدارسة فقد خرجوا على آل عثمان ، وقاوموا معتمدهم في الحجاز الشريف حسيناً ، وظلوا يناضلون عن استقلالهم . وذلك ما يحملنا على ايراد تاريخهم ملخصاً في هذا الفصل . فقد أشرنا من قبل ، خلال الكلام على البلاد العربية عهد آل عثمان ، الى تمكن السيد محمد علي الادريسي ، في اوائل هذا القرن ، من بلوغ الاستقلال في عسير . وقد رأت بريطانيا العظمى استثمار خصومته لتركيا فعقدت معه معاهدة سنة ١٩١٤ . فاذا به ينضوي تحت لوائها في تلك الحرب الطاحنة ، ويجلي الترك عن عسير ، ويستولي

على ثغر القنفدة، غير ان السيد الادريسي لم يلبث ان تخلى، في العام التالي، عن هذا الثغر لجلالة الملك حسين على اثر ان أصبح كل منهما حليفاً لانكلترا . وقد جددت انكلترا المعاهدة مع الادريسي في كانون الثاني ١٩١٧ ، وتخلت له بمقتضاها عن ثغر الحديدة الذي دخل في حوزتها اثناء الحرب .

وكان لكل من عاهل الحجاز وعاهل صنعاء مطامع قديمة في بلاد الادريسي . فما ان انتهت الحرب حتى وجد الادريسي نفسه بين نارين . فاضطر ، ازاء ذلك ، ان يلجأ الى خصم ثالث كان قد ظهر حديثاً في الميدان، خصم كان يعز عليه ان يسبقه الملك حسين أو الامام يحيى الى بسط سلطته على عسير ، ذلك هو الملك عبد العزيز آل سعود . فعقد السيد الادريسي مع جلالته (١٥ تشرين الاول ١٩٢٠) معاهدة ضمنت له سلامة بلاده . وبعد وفاته خلفه على الامارة ابنه علي (١٣٤١ هـ = ١٩٢٣ م) ، وكان صغير السن لا يتجاوز عمره الثامنة عشرة ، فاستخف به الطامعون بالامارة ، وخلع بعد عام ، ثم استطاع ان يستعيد امارته . فكانت فوضى رافقت تلك الأحداث مهدت السبيل للامام يحيى لان يحمل على الحديدة ويحتلها ويواصل الزحف شمالاً حتى ميدي. وقد حمل هذا الأمر الادارسة على خلع السيد علي ثانية ليولوا عليهم عمه السيد حسناً .

وكان الملك عبدالعزيز آل سعود قد احتل الحجاز، فسارع السيد احمد الشريف السنوسي الكبير، المقيم بطرابلس الغرب، الى التوسط بين هذا العاهل وبين نسيبه السيد حسن الادريسي لعقد معاهدة من شأنها انقاذ البقية الباقية من امارته. وكان من عقبى هذا التوسط ان بعث السيد الادريسي مندوبا الى مكة لتوقيع معاهدة تحالف سنة ١٣٤٥ هـ = ١٩٢٦ م مع مملكة الحجاز ونجد .

غير ان ضغط المطامع عليه اضطره في النهاية لان يطلب سنة ١٩٣٠ ضم بلاده الى مملكة حليفه جلالة ابن سعود . وبذلك طويت صفحة الادارسة ، كما طويت من قبل صفحة جيرانهم الامراء آل عايض .



الفصل الثامن

عصر الجامعة العربية والتعاون

الدور الاول : قبل الحرب العالمية الثانية

فلسطين تجمع الكلمة : رافق البعث القومي عند العرب اتجاه عام نحو العمل لوحدة شاملة، والأمل لاستعادة مجد سابق. وبينما كانت الامة العربية تشرئب الى يوم تقوم فيه امبراطورية عربية تحتل مكانتها الى جانب امبراطوريات العالم الكبرى ، كانت تعطف، في نفس الوقت ، على كل ثورة يقوم بها عربي ، سواء اكان هذا العربي ابن سعود او الامام يحيى في جزيرة العرب ، او الامير عبد الكريم الخطابي في الريف المراكشي. وكانت تشترك في الحزن على كل شهيد يذهب في سبيل الاستقلال العربي.

وكان الخاصة من العرب ، يتناقشون ، في المشرق وفي المغرب ، في اختيار الطريقة المثلى لجمع الكلمة، سواء اجاء ذلك عن طريق الوحدة او الاتحاد .

ولما ظهرت مشكلة فلسطين ، ظهر على اثرها اول تعاون اجماعي عملي بين العرب في العهد الحديث . فتسابقوا الى العمل متحدين لانقاذ قطر عزيز من اقطارهم . واستطاعوا بهذا الاتحاد المكين ان ينتزعوا من الدولة البريطانية اعترافاً رسمياً بوحدة قضيتهم في الناحية السياسية ؛ وذلك بالدعوات التي وُجهت لكل دولة من دولهم لمؤتمر المائدة المستديرة الذي عقد بلندن سنة ١٩٣٩ لبحث قضية فلسطين . هذا الى ان مشكلة فلسطين لم تقدم الدليل على وحدة اهداف العرب فحسب ، بل برهنت على ترابط قلوبهم ، وتوافق شعورهم : فما ان نكثت بريطانيا العظمى العهد الذي قطعته لهم بواسطة شريف مكة ، الملك حسين ، وتآمرت على فلسطين مع الصهيونيين ، حتى امتلأت قلوبهم حقداً عليها ، لا فرق بين ان يكونوا في ساحل المحيط الهندي ، او على شاطىء الاوقيانوس الاطلنطيكي .

وحاولت حكومة جلالة الملك ، قبل الحرب العالمية الثانية ، استدراك الأمر ، والحدّ من نقمة العالم العربي عليها ، خصوصاً وان الهر هتلر كان لا يفتأ ينفخ في

كبير هذه النقمة ، وهي لا تريد ان تستقبل الحرب على عداوة من شأنها ان تضاعف مشاكلها . ولكنها لم تكن تستطيع الى ذلك سبيلاً حيال نفوذ اليهود ، وازاء ما تتوخاه من الحصول على مساعداتهم ابان الحرب . ولما انفجر بركان الحرب، ونشط المحور الى دعايات شديدة كان يذيعها في العالم العربي ، والى وعود معسولة كان ينثرها بسخاء ، شاهدت بريطانيا ، بأم عينها ، كيف ان موقفها من العرب في قضية فلسطين ،لم يضع صداقتهم التقليدية القديمة فحسب ،بل جرّ عليها شديد النقمة ، الى حد ان العرب،وان كانوا لا يرون من مصلحتهم فوز المحور،الا انهم، معذلك، صاروا يتمنونه انتقاماً من بريطانيا. على ان حكومة لندن كانت،في صدر الحرب، لا تبالي الا بانقاذ نفسها ، ثم لما بسم لها الحظ تطلعت الى المصير فرأته لا يزال عابساً في وجهها: ذلك انها اشرفت على الدب الابيض فالفته مكشر الانياب يتوثب لاقتناص العالم . فشرعت تفكر بالمصير، وانتهى بها التفكير ، الى مشروع يضع المعاقل في وجه الشيوعية ؛ ويحول دون تقدمها .

رأت العالم العربي، الذي يكاد يحيط باوروبا احاطة السوار بالمعصم ، هو المعقل الاول الذي يجب ان يقوم في وجه موسكو بالشرق ؛ بل رأت ان الخطر الاشد هو في سويداء هذا العالم الذي اصبح على حال بحيث يتقبل معها كل مساعدة نكاية بها، ولو كانت هذه المساعدة ستفضي الى القائه اخيراً في احضان البلشفية ؛ فتحولت اليه باسمة.

تحول سياسة لندن : وهنا مجال للتنويه بمرونة حكومات صاحب الجلالة ، ذلك ان بريطانيا درجت على درس اسباب كل ثورة تقوم ضدها، وذلك بعد القضاء عليها؛ والعمل على معالجتها ، خلافاً للحكومات اللاتينية التي لا توحي اليها الثورة في في المستعمرات الا النقمة والثأر دون شفقة ، ثم لا تأخذ منها اية عبرة .

فعلت انكلترا ذلك بعد ثورة العراق الكبرى سنة ١٩٢١ فألغت الانتداب . وهمت ان تفعل ذلك ايضا اثر الاصطدام مع حكومة رشيد عالي الكيلاني سنة ١٩٤١ ، حيث لمست، لمس اليد ، تعاطف الامة العربية بعضها على البعض ؛ حتى كأنها كانت ترى في استقلال العراق تأميناً لاستقلال العرب كافة . وفضلاً عن المساعدات المالية ، فقد كان العرب يتمنون لو يتأتى لهم ان يطيروا جميعاً ليناضلوا مع اخوانهم ، سواء اكان رشيد عاليّ بك وصحبه على صواب في هذه الحرب التي شنوها ام لا . ومع ذلك فقد خف منهم من خف ، وشاء عزيز علي باشا المصري ، الذي كان رئيساً لاركان حرب الحكومة المصرية ، ان يستقل طائرة الى العراق ،

ليساهم في الواجب اسوة بزميله اللبناني القائد فوزي بك القاوقجي ، غير انه اعتقل وهو يهم بمغادرة المطار .

رأت بريطانيا كل ذلك ، فكان عليها ان تتساءل

١ – بأي شيء يمكن رفع نقمة العرب ؟

٢ – وكيف يمكن استجلاب قلوبهم ؟

الجواب على ذلك كان يدور على ألسنة خطباء العرب وصحفهم . انهم يريدون الوحدة العربية ويعملون لاجلها . وهـذا مصطفى النحاس باشا ، رئيس وزارة مصر، وهي اكبر دولة عربية ، كان منذ عام ١٩٤١ ، لا يزال ينوه بمصالح العرب ، ويدافع عن الدول العربية ، راجياً أن تتمثل جميعها في مؤتمر السلام ، وآملاً ان تبلغ بالتعاون هدفها الاسمى .

واذا بالانباء تنقل الينا تصريحاً للسيد أنطوني ايدن وزير خارجية بريطانيا العظمى في ٢٩ آذار ١٩٤١ يقول فيه :

« ان كثيرين من مفكري العرب يرغبون في ان تتمتع الشعوب العربية بنصيب من الوحدة اكبر من النصيب الذي تتمتع به الآن . وهم يأملون منا المعاضدة في بلوغ هذه الوحدة . ولا يجوز لنا ان نغفل اي نداء يوجهه الينا اصدقاؤنا بهذا الصدد . ويبدو لي ان من الطبيعي ومن الحق ان تتوثق الروابط الثقافية والاقتصادية ، والروابط السياسية ايضاً ، بين الاقطار العربية . وستعاضد حكومة جلالته معاضدة تامة ، اي مشروع ينال الموافقة العامة . »

ولكن هذا التصريح وان لقي ارتياحاً شديداً في الاوساط العربية الا انه ، مع ذلك ، لم يوح بالاطمئنان الكافي بالنظر لقلة ثقة العرب ببريطانيا العظمى . واذا بنبإٍ آخر ينقل الينا في غرة تشرين الاول ١٩٤١ هذا نصه :

« ان الكابتن ليتلتون وزير الدولة البريطانية في الشرقين الادنى والاوسط عاد من لندن الى مصر ، وذلك بعد ان حادث اعضاء الوزارة البريطانية في شأن القضية العربية على ضوء الدراسات التي قام بها شخصياً خلال تنقلاته ما بين القاهرة والقدس ودمشق . »

والى ذلك فقد اشتد نشاط الاذاعات الانكليزية باللغة العربية ، وخصوصاً في لندن وفلسطين حول مشروع الاتحاد العربي . بينما كان العرب انفسهم يتناقشون ، جبهة واحدة ، في الصحف والمجالس حول خير الطرق للمباشرة في هذا المشروع .

وكانت بلاد الشام قد اصبحت ، بعد اجلاء حكومة فيشي ، تتمتع بجو اكثر طلاقة مستوحى من الروح البريطانية التي كانت تشع ، من وراء حجاب ، رغم بقاء الاحتلال الفرنسي . فتعالت فيها اصوات العروبة ، وتجاوبت اصداؤها في بغداد

والقاهرة . وكانت مصر تتأهب لقيادة الحركة العربية ، فيؤلف بعض الاعيان فيها سنة ١٩٤٢ « نادي الاتحاد العربي » . كما يؤلف طلاب الحقوق بجامعة فؤاد الاول جمعية « رابطة العروبة » .

هذا فضلًا عن ان الشعور العربي كان قد اصبح شاملًا . وقد وصفه سمو الشيخ عبد الله سالم آل الصباح ، رئيس مجلس الشورى في الكويت ، في تصريح له بدمشق، صيف ١٩٤١، بقوله :

« ان العالم العربي اشبه شيء بجسم واحد يشعر كل عضو فيه شعور الآخرين . »

ولكن العرب على وجه عام كانوا ، من جراء تجزئتهم سياسياً، وارتباط كل قطر من اقطارهم ، ارتباطاً منفرداً، بدولة من الدول الاجنبية ، حيارى في امرهم لا يستطيعون البت في اختيار اصلح السبل لتنفيذ الوحدة المرجوة. فاذا بالسيد ايدن المشار اليه يفتح امامهم باب العمل، ويعدهم بالمساعدة وذلك بتصريح ثان ادلى به في مجلس العموم يوم ٢٤ شباط ١٩٤٣ . قال :

« ان الحكومة البريطانيـة تنظر بعين العطف الى كل حركة بين العرب لتعزيز الوحـدة الاقتصادية ، او الثقافيـة ، او السياسية بينهم . ولكن من الجلي ان الخطوة الاولى لتحقيق اي مشروع من هذا النوع يجب ان تأتي من جانب العرب انفسهم . »

الخطوة الاولى لتحقيق الوحدة : لقد بحث الباحثون في كيف يجب ان تكون الخطوة الاولى : ولما عقـد مجلس الشيوخ المصري جلسته في ٣١ مايس ١٩٤٣ ، استوضح بعض الشيوخ الحكومة عما اعتزمت القيام به في هذا الموضوع ، فوقف صبري ابو العلم باشا، وزير العدلية يومئذ، وادلى ببيان ، نيابة عن مصطفى النحاس باشا رئيس الوزارة ، جاء فيه :

« ومنذ اعلن المستر ايدن تصريحه فكرت فيه طويلا . ولقد رأيت ان الطريقة المثلى،التي يمكن ان توصل الى غاية مرضية، هي ان تتناول هذا الموضوع الحكومات العربية الرسمية . وانتهيت من دراستي الى انه يحسن بالحكومة المصرية ان تبادر باتخاذ خطوات رسمية في هـذا السبيل ، فتبدأ باستطلاع آراء الحكومات العربية المختلفة فيما ترمي اليه من آمال كل على حدتها. ثم تبذل جهودها للتوفيق والتقريب بين آرائها ما استطاعت الى ذلك سبيلا. ثم تدعوهم بعد ذلك الى مصر في اجتماع ودي لهذا الغرض حتى يبدأ المسعى للوحدة العربية لوجهة متحدة بالفعل . فاذا تم التفاهم ، او كاد ، وجب ان يعقد في مصر مؤتمر برئاسة رئيس الحكومة المصرية لإكمال بحث الموضوع واتخاذ ما يراه من المقررات محققاً للاغراض التي تنشدها الامم العربية . »

المشاورات للوحدة العربية : رأى النحـاس باشا ان يبدأ بنوري باشا السعيد رئيس وزارة العراق ، وذلك لوضع الأسس التمهيدية للوحدة العربية ، فوجه الى فخامته ، في ٣٠ نيسان ١٩٤٣ ، الدعوة للحضور الى القاهرة .

وبدأت المشاورات معه يوم ٣١ تموز ، في جلسات خرج منها الفريقان على أتم اتفاق . وعلى اثر ذلك وجه رفعة النحاس باشا برقياً الدعوة، تلو الدعوة، الى سائر الحكومات : العربية السعودية ، اليمن ، شرق الاردن ، سورية ، لبنان . فلبت الدعوة واحدة بعد واحدة ، وتمت المشاورات مع كل منها في قصر انطونيادیس بالاسكندرية .

وكانت هذه المشاورات تفتتح ، كما تختتم ، ببيان رسمي موقع من الفريقين المتشاورين . وقد انهى النحاس باشا المشاورات في اوائل شهر شباط ١٩٤٤ ..

ولم توجه الدعوة الى حكومات بلاد افريقية الشمالية، ولا الى امارات الجزيرة العربية ، وذلك مراعاة لوضعها السياسي الخاص ؛ كما ان فلسطين لم توفق للاشتراك في هذه المشاورات لانها لم تتفق على اختيار ممثليها خلال غياب زعيمها الحاج امين الحسيني. بيد ان النحاس باشا اعلن في خطاب القاه في مجلس الشيوخ يوم ٢٩ شباط ١٩٤٤ ، بصدد المشاورات ، ما يلي :

« ان حكومته تحرص كل الحرص على ان تجيء ثمار الوحدة العربية المنشودة في مصلحة جميع البلاد العربية دون استثناء . »

ولقد اطلق على هذه الاجتماعات « مشاورات الوحدة العربية » . وكان هذا الاسم يتكرر في البيانات الرسمية، وفي الصحف . ولكنها انتهت بما لا يتفق وهذا الاسم . ويرجع ذلك الى ان المتشاورين ، وعلى رأسهم النحاس باشا ، اطلقوا على هذه المشاورات الاسم الذي يتفق مع امانيهم ومع مُثُل امتهم الاعلى ، ولكن عندما جاء دور العمل وجدوا انفسهم حيال اوضاع سياسية لا تسمح ، في باديء الامر ، بالحصول على اكثر من جامعة دول عربية تعمل بالاتفاق فيما بينها لتبادل التعاون في الشؤون السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربي : وكان النحاس باشا قد اتفق ، اثناء هذه المشاورات ، مع زملائه ممثلي الدول العربية على ان يدعوهم لتأليف لجنة تحضيرية تهيء لعقد مؤتمر عربي دولي . وعملاً بهذا الاتفاق وجه رفعته الدعوات للحكومات التي اشتركت في المؤتمر ؛ واجتمعت اللجنة بالاسكندرية ، منذ ٢٥ ايلول ١٩٤٤ الى ٧ تشرين الاول ، وقررت قبول السيد موسى العلمي مندوب الاحزاب الفلسطينية عضواً فيها ؛ واصدرت صكاً عرف ببروتوكول الاسكندرية . وهو يتلخص بما يلي :

١ ــ تأليف جامعة الدول العربية ــ يعقد مجلسها الدائم اجتماعات دورية لتوثيق الصلات بينها وتنسيق خططها السياسية .
٢ ــ التعاون في الشؤون الاقتصادية والثقافية والاجتماعية .
٣ ــ تدعيم الروابط العربية ، خصوصاً اذا اسفرت الاوضاع العالمية ، بعد الحرب القائمة ، عن نظم تربط الدول بروابط امتن واوثق بعضها مع البعض الآخر .
٤ ــ قرار خاص بتأييد استقلال لبنان وسيادته بحدوده الحاضرة .
٥ ــ قرار خاص بفلسطين على اساس تأييد المطالب العربية المعروفة .

وقد قابل الرأي العام العربي بروتوكول الاسكندرية بحماس واغتباط، ولكن الألم ساور كثيراً من القلوب ، مع ذلك،لان مضمون هذا البروتوكول جاء دون ما تصبو اليه النفوس. وقد ادلى كل من ممثلي الدول المشتركة في اللجنة معاذيره. من ذلك ما صرح به المرحوم سعد الله بك الجابري ، رئيس وزارة سورية وقتئذ ، ورئيس الوفد السوري في اللجنة ، إذ قال :

« ان الوحدة في معناها الصحيح لا يمكن ان تتحقق دفعة واحدة ، انما تتطلب عدة مراحل . وقد خطونا خطوات عدة في الماضي تسمح لنا القول باننا فتحنا الباب الى تحقيق الوحدة المنشودة. »

اللجنة الفرعية السياسية : كانت اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربي قررت تأليف لجنة فرعية سياسية مهمتها وضع نظام لجامعة الدول العربية . وقد اجتمعت هذه اللجنة الفرعية من ١٤ شباط ١٩٤٥ حتى ٣ آذار . ووضعت مشروع دستور الجامعة . وكانت مؤلفة من وزراء خارجيات الدول الموقعة على بروتوكول الاسكندرية .

المؤتمر الدولي العربي : وفي ١٧ آذار ١٩٤٥ اجتمعت ثانية اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربي في القاهرة ، ودرست ، في عدة جلسات ، مشروع الدستور الذي وضعته اللجنة الفرعية ، واقرت صيغته النهائية .

ثم في ٢٢ آذار استحالت اللجنة التحضيرية هذه الى مؤتمر دولي عربي وافق نهائياً على ميثاق الجامعة العربية . وقد الحقت بهذا الميثاق ثلاثة ملاحق : احدها لفلسطين ، وثانيها للبلاد العربية غير المشتركة في مجلس الجامعة ، وثالثها يقضي بتعيين عبد الرحمن عزام باشا اميناً لجامعة الدول العربية .

هذا ولم يأت منتصف نيسان الا وكانت الندوات البرلمانية في العراق وسورية ومصر ولبنان قد ابرمت الميثاق بالاجماع ؛ كما ان سمو الامير عبدالله،وجلالة الملك عبد العزيز بن سعود ، وجلالة الملك الامام يحيى ، قد وافقوا عليه .

وبين تهليل صحف العالم العربي لهذا الدستور،وانتقاد بعضها له ،كان انصار الوحدة

العربية يشعرون بخيبة امل ؛ لا لان الوحدة لم تتحقق، وهم يعلمون حق العلم بان تحقيق ذلك انما يتوقف على الزمن وفرصه ، بل لان ميثاق الجامعة جاء دون بروتوكول الاسكندرية في ناحية العلاقات السياسية ، وخلا من بعض فقرات وردت في البروتوكول . وهو في جملته لا يؤمن وحدة ، ولا يحقق اتحاداً ؛ بل يقتصر على وضع اسس للتعاون بين الدول المشتركة في الجامعة ، ومساعدة سائر العالم العربي على التحرر والاتحاد .

والى هذا فان الميثاق ترك الباب مفتوحاً امام كل دولة من الدول المشتركة في الجامعة لان تكون غير مقيدة في القرارات التي تتخذها الجامعة ، ولا تحظى بموافقة ممثليها . اللهم الا في القرارات المتخذة للفصل في ما يقع من خلاف بين دولة ودولة من الدول العربية .

ولكن المعتدلين من العرب قد ارتاحوا للميثاق ، وعدوه خطوة مباركة في سبيل الهدف الاسمى . خصوصاً بعد ان قامت امانة الجامعة العربية في اعمالها ، وعلى رأسها رجل وطني يتحلى بالمرونة ، ووثقت الروابط الداخلية بين العرب ، واخذت على عاتقها الدفاع عن مصالح كل قطر من اقطارهم . هذا فضلاً عن انها اجتذبت قلوبهم الى نقطة واحدة هي القاهرة التي اصبحت مدار حركة العروبة ، ورمز امانيها .

مركز الجامعة العربية من الوجهة الدولية : قرر مجلس الجامعة العربية اثناء انعقاده في بلودان (سورية)، منذ ١٢ حزيران ١٩٤٦، توصية الحكومات المشتركة في الجامعة ان تطالب انكلترا بالاعتراف بالجامعة ، واعتبار ما يصدر عن الامانة العامة ، في حدود ميثاقها ، صادراً عنها .

وقد تلقت الحكومة المصرية رداً على ذلك من لدن الحكومة البريطانية يتضمن انها ، بناء على ما وصلها من دول الجامعة، ستعتبر ما يرد اليها من مكاتبات سياسية من الأمين العام كأنه صادر من اعضاء الجامعة ، ما دام ذلك في حدود نصوص ميثاقها . وفي مثل هذه الحالة ترسل الحكومة البريطانية صورة عما تبعث به للامانة العامة الى كل حكومة من حكومات دول الجامعة بالطريق الديبلوماسي . ويضيف رد الحكومة البريطانية الى ذلك ما يلي :

« ان وزير الخارجية البريطانية لا يعتزم في هذه المرحلة المبادأة بالتخاطب مع جامعة الدول العربية في المسائل السياسية ؛ ولكنه اذا اقتضى الحال ان توجه حكومة صاحب الجلالة البريطانية

مذكرة مشتركة في مسألة سياسية الى جميع حكومات الدول العربيـة المشتركة فان الوزير سيرسل حينئذ نسخة عنها طبق الاصل الى الامين العام ليحيط علماً بها . »

تقدم العالم العربي في الناحية الدولية : تقرر في مؤتمر يالطا دعوة الدول الحليفة الى اجتماع يعقد في سان فرنسيسكو لتنظيم العالم القادم على اساس مقترحات مؤتمر « دمبترن اكس». وقد جرى افتتاح هذا المؤتمر في ٢٥ نيسان ١٩٤٥؛ وكان اشتراك الدول العربية فيه خطوة واسعة ، بالنسبة لهم ، في ناحية المساواة الدولية. ثم بدرت فرصة ثانية جاءت مؤيدة مكانتهم الدولية بشكل بارز : ذلك انه لما عقد في لندن مؤتمر هيئة الامم المتحدة منذ ١٧ / ١ /١٩٤٦ ، وكان للعرب فيه خمسة مقاعد من أصل ٥٣ اصبح لهم عشر الاصوات في تنظيم شؤون العالم . وقد لوحظ انه كان لهم نصيب كبير في ترجيح كفة مناقشات هذا المؤتمر .

هذا الى انهم مثلوا في كل لجنة من لجانه ؛ وفضلا عن ذلك فقـــد انتخب عبد الحميد بدوي باشا رئيس وفد مصر ، عضواً في جملة الاعضاء الستة غير الدائمين في مجلس الامن الدولي ، وعضواً في محكمة العدل الدولية . كما ان الاستاذ فارس الخوري ، رئيس الوفـد السوري ، انتخب رئيساً للجنة الادارية ، واصبح بالتالي، كسائر رؤساء اللجان ، عضواً في مكتب هيئة الجمعية العمومية للامم المتحدة ؛ وهي الهيئة التي ترشد الجمعية في مباحثاتها . كما ان دولته انتخب ايضاً عضوا في مجلس الامن ؛ ورئس احدى دوراته . ثم ُوفق بعض ممثلي الدول العربية ، في دورات تالية لهيئة الامم المتحدة ولمجلس الامن ولجانها، بانتخابهم في اللجان المختلفة ، وبرياسة بعضهـــا احيانا . فانتخب الاستاذ شارل مالك ، وزير لبنان المفوض في واشنطن وممثله في هيئة الامم المتحدة ، عضوا في المجلس الاقتصادي والاجتماعي، ثم رئيسا لهذا المجلس (شباط ١٩٤٨) في دورته الثالثة؛ كما انتخب ممثل العراق عضواً في مجلس الوصاية . ولما اراد مجلس الامن انتخاب خلف لسوريا فيه ، على اعتباراته لا يجوز ان يعاد انتخاب الدولة نفسها للمنصب ذاته ، فاز رئيس وفد مصر بدوي باشا فاز بعضوية المجلس المذكور (تشرين الاول ١٩٤٨) .

يضاف الى ذلك ان الدول العربيـة اصبحت تتلقى الدعوات لكل المؤتمرات الدولية والعامة فتساهم مساهمة فعلية ، ليس في تنظيم العالم فحسب ، بل في خدمة الانسانية ، رافعة الرأس بكثير من ممثليها الأكفاء في هذه الاجتماعات .

هذا في الناحية الدولية ، واما في الناحية الشعبية الكونية فان العالم الغربي قد اصلح

فكرته، بعض الشيء ، بصدد مستوى الشرق العربي في الناحية الاجتماعية ،وذلك حينما تأتى للغرب الاختلاط بممثلي الدول العربية في المنظمات والمؤتمرات ، واتيح له التعامل مع رجاله في السلك السياسي . ولكن كان لا يزال يعلق في اذهان هؤلاء الغربيين الاعتقاد بأن هؤلاء الممثلين العرب والمندوبين هم طبقة خاصة،وان الشعوب العربية هي ، في الواقع ، دون هؤلاء الممثلين ولا تزال في انحطاطها ،على ما يصفه بعض السياح ، وعلى ما ينقلونه اليهم من الرسوم المزرية ؛ ولا سيما الصهاينة . غير ان الجمهورية اللبنانية كان لها اياد بيضاء في تبديد هذه الاوهام ، وفي اظهار وجه العالم العربي المتمدن .

فقد دعت مؤتمر الاونسكو لعقد دورته الثالثة في بيروت (١٧ - ١١ - ٤٨) فألفى مندوبو العالم صرحاً عظيماً أعدّ لاستقبالهم ، وخبرة حكومة ، وحسن سلوك في معاملتهم وتأمين رفاهيتهم ؛ ووجدوا شعباً فتح قصوره لاستقبالهم . فاذا بهذه القصور واهل القصور ، على غير ما كانوا يتصورون .

وزاروا ،بهذه المناسبة ، سوريابدعوة من حكومتها،وكان لي الحظ ان اكون مع زوجتي في جملة المدعوين ، وان تتاح لي مرافقتهم . ان الثلوج اوقفت القافلة ، بعض الوقت ، عند ظهر البيدر ، ولكنها كانت وقفة اتاحت لهؤلاء الضيوف الاشراف ، من عل ، على لبنان ، فاظهروا اعجابهم ليس بمناظره الخلابة فحسب ، بل بهذه القرى الكثيرة العامرة المنتشرة في ارجائه .

هذا وقد رحبت حكومة دمشق بهم في الجامعة السورية،واطلعتهم على اقسامها، ثم طافت بهم على المصانع والمعامل الحديثة الكثيرة ، فعادوا منها معجبين بنهضة تقوم بسرعة على اكتاف بنيها . ثم كان المؤتمرون، يزورون ،في جيئتهم وايبتهم ، بعض البلاد العربية الاخرى ، ولا سيما مصر ، والقاهرة مفخرة العرب ، فيأخذون عنها فكرة جديدة غير تلك التي كان يختلقها المغرضون .

حقاً ان التعارف بين الغرب والشرق ، اصبح موفوراً بعد الحرب العالمية الثانية من جراء سهولة الانتقال والسرعة ؛ ولكن من الانصاف التنويه بما كان للبنان ، بهذا الصدد من اياد بيضاء . فقد فتح قصر الاونسكو من بعد الى مؤتمرات كثيرة عالمية وعربية ، فظل بذلك يخدم الشرق العربي باعطاء فكرة حسنة عن هذا الشرق للمؤتمرين الأباعد والاقارب .

الدور الثاني : خلال الحرب في فلسطين

فلسطين تفرق الكلمة : كانت فلسطين ، خلال المدة التي توسطت الحربين العالميتين ، العنصر الأهم الذي جمع شتات الدول العربية ، على شكل من التضامن ، حمل لندن على دعوة هذه الدول رسمياً الى اجتماعات متوالية لحل هذه القضية .

وظل الاتحاد العربي يبدو مكيناً ، ولا سيما بعد قيام الجامعة العربية ، حتى وقعت الواقعة في فلسطين . ومنذ ذلك اخذت تبدو مواضع الضعف في هذا الاتحاد ، خصوصاً من جراء ارتباط بعض الدول العربية ، على مراتب ، بمعاهدات وبروتوكولات مع بريطانيا العظمى .

وما إن رضخت هذه لدولة لمشيئة اليهود المطلقة تحت ضغط واشنطن ، ومضت في سبيل منح الفرص لهؤلاء لتأمين قسمة فلسطين عملياً ، والطغيان عليها ، حتى اخذت تستعين ، على تحقيق هذه الأمنية ، بتفريق صفوف العرب ، تارة بالوعد ، وطوراً بالوعيد . وإذ تمّ لها ما ارادت أمست فلسطين من ثم مدعاة للتفرقة ، كما كانت من قبل وسيلة للجمع والاتحاد .

لقد استعرضنا ، في الفصل السابق ، انواع الهوان الذي اصاب الدول العربية عقب تبدل نياتهم ؛ فحاربوا بعد الهدنة الأولى متفرقين ، وذهبوا فرادى لعقد الهدنة الدائمة الى رودس مهزومين . وبيّنا كيف أنهم حملوا معهم الى المؤتمرات الدولية اختلافاتهم ، حتى أنهم لم يتفقوا فيها على قضية انسانية ، وهي قضية اخوانهم اللاجئين ؛ كما أنهم لم يقولوا قولاً واحداً في مصير القدس وهي أولى القبلتين . وقد حملت البرقيات في ٤ تشرين الاول ١٩٤٩ تصريحاً للاستاذ شارل مالك لوكالة الانباء العربية في ليك ساكسس تناول فيه المصاعب الناشئة لدى الحكومات العربية من جراء افتقارها الى سياسة عربية موحدة تجاه القضايا الدولية ، وذلك في اجتماع هيئة الامم المتحدة الأخير ، وقال :

« كيف يمكن ان تتحد الوفود العربية في المؤتمرات ما دامت حكوماتها على غير اتحاد ؟ — ان المندوبين العرب يتعاونون على اساس شخصي محض ؛ بينما انهم يتلقون بين وقت وآخر ، من حكوماتهم معلومات متضاربة لا تمكنهم من توحيد سياستهم » وضرب الاستاذ مالك مثلاً على ذلك انتخابات مجلس الوصاية الدولية . وقال « لا تزال ثلاث دول عربية ترشح كل منها لعضويته مندوباً عنها . » وختم تصريحه بقوله : « ولو انعقد مجلس الجامعة العربية قبل التئام الجمعية العمومية لأمكن اجتناب هذا التضارب . »

أن ضرر هـذا الاختلاف لم يقف عند هـذا الحد ، بل جاء بالاضافة الى فشل الدول السبع تجاه « العصابات الصهيونية » ضغثاً على ابالة ، فاسقط منزلة الامة العربية في انظار العالم ، وحط ، في نفس الوقت ، من مكانة مندوبيهم في المؤتمرات الدولية . ولا ادل على ذلك مـن الفشل الذي مني به هؤلاء في انتخابات وظائف هيئة الامم المتحدة وفروعها في الدورة الرابعة بليكسكسس منذ ايلول ١٩٤٩ . فلما رشح الاستاذ شارل مالك مندوب لبنان نفسه لرئاسة هذه الدورة فازعليه ممثل الفيليبين . ولما تقدم ايضاً الاستاذ كامل عبد الرحيم مندوب مصر لترشيح نفسه الى رياسة اللجنة الخاصة تغلب عليه مندوب الباكستان . ثم لم ينتخب احـد من ممثلي الدول العربية في رياسة لجنة من لجان هيئة الامم المتحدة في دورتها الاخيرة، فكان ذلك سبباً لخسرانهم مقعدهم في اللجنة التوجيهية التي تتألف من رؤساء اللجان.

والى هذا فان الجامعة العربية، التي هي رمز الوحدة ، والتي ناضل العرب عشرات السنين في سبيلها اصابها، قسط كبير من عاقبة الاختلاف كاد يهدّ أركانها .

كتبت جريدة نيويورك تايمس ، والحبور يشع من اقوالها ، ما يلي :

« في الدقيقة التي تهاجم فيها قوات اسرائيل الجيش المصري دون ان تتدخل قوات عربيـة اخرى ؛ في هذه الدقيقة احتضرت جامعة الدول العربية . »

وفي الواقع فان دولة النقراشي باشا رئيس الوزارة المصرية رفض ، اول الامر ، الاشتراك في اجتماع مجلس الجامعة بالقاهرة (تشرين الثاني ١٩٤٨) بتأثير الالم من جراء جمود الجيشين الاردني والعراقي في مكانيهما حينما كانت اسرائيل تقتحم الجيش المصري في النقب .

هذا الى ان عمان كان قد كبر عليها ان تكون الجامعة اداة تأييد لغير الجانب الهاشمي ، وخصوصاً في ناحيـة الحاق القسم العربي من فلسطين لشرق الاردن ، وعز عليها سماح الجامعة بقيام حكومة فلسطين العربية في غزة ، فحملت عمان على الجامعة حملات شديدة . وشاركتها بغداد في هـذه الحملات من جراء معارضة الجامعة مشروع الهلال الخصيب قائلة « ان الجامعة خرقت ميثاقهـا حين لم تأذن لبعض الدول العربية ان توثق علاقاتها فيما بينها ، كما تنص المادة ٩ من ميثاقها . »

وانتقل النقاش من الدوائر الرسمية الى الصحف ؛ وكان مداره ، اول الامر ، انتقاداً موجهاً لامين الجامعة العام ، ثم تطرق اليهـا مباشرة . وكان نقاشاً قاسياً ذلك الذي جرى بين كل من الدكتور فاضل الجمالي وزير خارجية العراق والاستاذ

عبد الرحمن عزام باشا ؛ بتهمة ان امين الجامعة خول نفسه سلطات واسعة خرجت عن نطاق مقررات اللجنة السياسية .

وقد اصدر العراق كتاباً أخضر في هذا الشأن ؛ كما انه قدم الى الدول العربية (٨ آب ١٩٤٨) مشروع نظام داخلي للامانة العامة لجامعة الدول العربية وللجنة الدائمة طلب بحثه في اجتماع اللجنة السياسية المقبل . على ان هذا الجدل البيزنطي كان يجري خلال ما كانت اسرائيل تتوسع في فلسطين ، وتهدد ما وراء فلسطين ؛ بل كان يجري بينما كانت اوروبا نفسها تسعى لتحقيق مشروع دول اوروبا المتحدة ، وتستعد لعقد البرلمان الاوروبي في ستراسبورغ .

وظل هذا الجفاء قائماً حتى عودة السيد نوري السعيد من لندن ، (آب ١٩٤٩). فعاد مزوداً بنصائح المستر بيفن بصدد رفع الخلاف ما بين العراق ومصر ، وتقوية اركان الجامعة تجاه الخطر الشيوعي المقبل ؛ كما ان جلالة الملك عبد الله رجع الى عمان من لندن ، بعيد ذلك ، على غير موقفه الاول من الجامعة : فأعلن تأييده لها ؛ ولكنه ، مع ذلك ، لم يستطع الاحجام عن التنديد بها فقال : « عذرها انها مؤلفة من شعوب وطوائف لا تعرف ما ينبغي عليها ان تفعله »

هذا وكان الواجب يقضي ان يتم اجتماع مجلس الجامعة في آخر آب ١٩٤٩ بغية الاتفاق على خطة موحدة قبل سفر مندوبي الدول العربية الى ليكسكس ؛ ولكن الخلاف القائم بين هذه الدول كان يؤول الى تأجيل مواعيد الاجتماع ، من وقت إلى آخر مما يجعل مندوبي الدول العربية في اجتماع منظمة الامم المتحدة ، يظهرون في مظهر التفسخ ، على غير عادتهم . وأخيراً حينما اتفق الرأي على تعيين يوم ١٧ تشرين الاول ١٩٤٩ موعدا لاجتماع مجلس الجامعة العربية في الاسكندرية ، قدمت بغداد بعض الملحوظات على مذكرة الامانة العامة بصدد جدول الاعمال ، وايدتها حكومة شرق الاردن . ثم لما اذن الله باجتماع المجلس قضى هذا الوقت يبحث مشاريع مختلفة تقدمت بها اعضاؤه ، وذلك في موضوع الضمان الجماعي ، ثم انفض ، في اواخر تشرين الثاني ١٩٤٩ ، على غير اتفاق ابان ما كانت اسرائيل تخطو خطوة جديدة الى الامام ؛ وتنقل عاصمتها لبيت المقدس ! ! !

الدور الثالث : بعد حرب فلسطين

حققت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى المهمة التي اخذتاها على عاتقهما بصدد افساح المجال لقيام دولة اسرائيل ؛ وكان من نتيجة ذلك تفسخ رابطة الدول العربية ، وتزعزع اركان جامعتها ، وفقاً لما بسطناه من قبل .

ولكن مصلحة هاتين الدولتين لا تتفق مع هذا التفسخ ، خصوصاً وان نذير الحرب مع دولة الاتحاد السوفياتي ما زال يثير المخاوف ، ويحمل العالم على التأهب. وقد دعت وزارة الخارجية البريطانية في صيف ١٩٤٩ رجالها المنتسبين للسلك السياسي ، من الموظفين في الشرق الاوسط ، لاجتماع عقد في لندن ؛ فاذا بالمستر بيفن وزير الخارجية يتحول من بعد ، الى رتق الفتق ، وذلك بالتمشي في السياسة العربية على خطة مستر انتوني ايدن ، زميله بالأمس في حكومة المحافظين ، من حيث جمع شتات الدول العربية ، وتأييد اتحادهم حول الجامعة العربية . فضلا عن إعدادهم اعداداً عسكرياً لمجابهة الحرب المقبلة .

وكانت باكورة هذه السياسة الجديدة ذلك التقرير الذي رفعه الى مجلس الامن الدكتور رالف بانش القائم باعمال الوسيط الدولي لحل مشكلة فلسطين (٢ – ٨ – ١٩٤٩) . وقد طلب فيه رفع الحظر عن ارسال الاسلحة الى دول الشرق الاوسط ؛ فوافق المجلس فوراً على هذا الاقتراح ، رغم الاحتجاجات الشديدة التي امت بها جماعة اسرائيل .

على ان بريطانيا العظمى رأت ، في نفس الوقت ، ان تستثمر الموقف فتجعل من هذا الاتحاد العربي وسيلة لتوسيع منطقة نفوذها في جبهة الشرق الاوسط ، وذلك بخلق اتحاد بين سوريا وجيرانها .

انها تعرف جيداً (العنعنات) الموجودة في لبنان ؛ وتعرف ايضاً ، الدعايات الشديدة التي جعلت السوريين بعيدين عن جلالة الملك عبدالله من جراء الانصياع لسياستها . اذن فلتكن الخطوة الاولى للاتحاد فيما بين سوريا والعراق . ولنعد السوريين ، بالطرق المعلومة ، بتعديل المعاهدة مع بغداد على اساس يرفع من افئدتهم كل خوف على استقلالهم . وعلى نسق تصريح المستر انطوني ايدن سنة ١٩٤٥ ، ذلك التصريح الذي قامت على اثره الجامعة العربية ، نقلت الانباء ، في المدة الاخيرة ، تصريحات معزوّة لوزارة الخارجية البريطانية مؤداها :

« ترحب باية محاولة ترمي الى تحقيق هذه الوحدة ، وهي اذ لا تريد ان تقوم بأي دور فعلي في تحقيقها ، تفضل ان تكون على مبادىء اتحاد فدرالي شبيه بالاتحاد الذي يربط بلجيكا وهولندة ولوكسمبورج المعروف باسم « اتحاد دول البنيلوكس . »

ولكن هذه المحاولة لا تخلو من عواقب : فهي من جهة لا تتمتع بارتياح واشنطن التي شرعت تنافس لندن في صعيد النفوذ على الشرق العربي ، ومن جهة اخرى تبدو غير متفقة مع خطة لندن نفسها : الخطة الجديدة القائمة على استئناف المسعى لتدعيم الاتحاد العربي على وجه عام ، ذلك لان قسماً من الدول العربية يعارض بقوة مشروع الاتحاد ما بين سوريا والعراق ؛ وهي معارضة تؤدي بالتالي الى التفسخ .

لا بأس ، فعند الدوننج ستريت قدرة على الجمع بين النقيضين ؛ وصبر على معالجتهما حتى تستخرج من هذا المزيج المتعارض مصلحتها . واذا بنا نسمع تصريحات تصدر عن الناطقين بلسان وزارة الخارجية بلندن مؤداها :

« في الوقت الذي تحبذ فيه الوزارة اي اتجاه يؤدي الى احياء روح التعاون ، والى بعث نشاط جديد في كيان الدول العربية ، فانها تصر على ان اية خطة تهدف الى توثيق اواصر العلاقات الاقتصادية او العسكرية بين الدول العربية ينبغي ان تجيء عن طريق الجامعة العربية . »

واذا بصاحب السمو الوصي على عرش العراق ،الأمير عبد الأله يطير الى لندن (صيف ١٩٤٩) ، مصرحاً بان الغرض من هذه الزيارة قضاء اجازته ؛ ويتبعه السيد نوري السعيد . واذا بجلالة الملك عبدالله يهبط لندن ايضاً،ويبقى في بريطانيا العظمى حتى آخر ايلول .

وان هذه الزيارات للندن التي جاءت عقب اجتماع رجال السلك السياسي المذكورين لم تكن ، في الواقع ، صدفة غير مرتقبة ؛ فكان على الدوننج ستريت أن تذيع ما يبررها ؛ فوافتنا الأنباء تقول :

« ويتضح من المعلومات التي امكن الحصول عليها ،على اثر المحادثات التي دارت بين السيد بيفن ومعاونيه من جانب ، وبين ممثلي الاسرة الهاشمية في العراق وشرق الاردن من جانب آخر ،ان وزارة الخارجية استمعت للمشروعات التي بسطها الملك عبدالله ؛ ولكنها ابدت نصحها لجلالته بضرورة السعي الى ايجاد حل لمشاكلهم السياسية عن طريق الجامعة العربية . »

ولعل فخامة نوري السعيد الذي تلقى كلمة السر بلندن قبل شهر من ذلك ، انما قصد الى القاهرة فوراً،في عودته ، لتهيئة جوّ من العلاقات الطيبة بين الحكومات العربية لمجابهة المستقبل المظلم ؛ هذا فضلاً عن دسّ النبض في مصر بشأن مشروع الاتحاد العراقي السوري .

ورغم ما كان بين القاهرة وبغداد من توتر فقد جرت المفاوضات بين حسين سري باشا رئيس الوزارة المصرية وبين السعيد باشا رئيس الوزارة العراقية على اساس التغاضي عن اخطاء الماضي ، والعمل للمستقبل . وقبل ان يغادر السعيد القاهرة اذاع بياناً نفى فيه مشروعي الهلال الخصيب وسوريا الكبرى معرباً عن تعلق العراق بالجامعة العربية ، وعن امله بان تعدل ميثاقها على ضوء التجارب السود التي مرت بها ؛ ولكنه لم يغفل ، مع ذلك ، عن الاشارة الى المادة التاسعة من هذ الميثاق « التي تشجع كل واحدة من الدول العربية لعقد معاهدات ثنائية بينها ، واكثر من من ثنائية دون اكراه ولا ضغط . » كما ان جلالة الملك عبدالله ؛ ما ان عاد من لندن حتى شعرنا بان لهجته الحادة في المطالبة بسوريا الكبرى اصابها شيء كثير من التطور ؛ ولعل طغيان فكرة الاتحاد بين سوريا والعراق على مشروع سوريا الكبرى اخذ يحمل جلالته على الرجوع الى الشعب السوري ، ويجعل أمر البت في مصيره يعود اليه وحده . فقد ادلى الى مراسل « بيروت » (١ - ١٠ - ١٩٤٩) بالتصريح التالي :

« انني اتمنى لسوريا العزيزة كل خير وفلاح ويهمني ان يقرر ابناؤهـا مصيرهم بأنفسهم ويضعوا الدستور الذي يلائمهم ، ويختاروا نظام الحكم الذي يتفق ومصالحهم . فلا داعي للبحث بعد الآن في اي مشروع كان يتعلق بسوريا اكان هذا المشروع سوريا الكبرى ، او الهلال الخصيب ، الا برأي السوريين انفسهم . فهم اصحاب العلاقة الاولى في الموضوع . » الى ان قال :

« ولن اتغاضى عن اي جهد قد تبذله اية جهة من الجهات للتدخل في شؤون هذه البلاد . الخ »

الهلال الخصيب : الاتحاد بين سوريا والعراق مشروع قديم يرجع الى سنة ١٩٣١ يوم اجتمع بعض احرار سوريا في باريس بالملك فيصل الاول ملك العراق. وقد اتفقوا مع جلالته على الجمع بين القطرين الشقيقين ؛ وتناول بعضهم قسطاً غير قليل من المال لاجل الدعاية للمشروع . ولكن فريقاً آخر من زعماء سوريا ، وعلى رأسهم فخامة شكري بك القوتلي ، وقفوا في وجهه موقف المعارضة على اعتبار انه يفقد سوريا بعض خصائصها وسيادتها . ولم تكن « الكه دورسه » غريبة عن هذه المعارضة ؛ بدليل ان المفوضية الفرنسية سرعان ما منعت اجتماعاً في بيروت كان قد أعدّ لاستماع محاضرة لي موضوعها « الاتحاد بين سوريا والعراق » ؛ ولكن المحاضرة لم تلبث ان ظهرت في اليوم التالي بجريدة النداء (١٤ - ١١ - ١٩٣١) وغيرها من الصحف ؛ واقبل الجمهور ، اي اقبال ، على تلاوتها ، لان المنع كان دعاية لها .

على ان هذا المشروع وإن لم يقدر له الخروج ، في ذلك الحين ، من حيز الفكر الى حيز التحقيق ، ولكنه ظل ، مع ذلك ، حياً يكمن وراء طموح العرب للوحدة ؛ وظل السيد نوري السعيد يهيء الاسباب لادراكه (١) فأخـــذ بالدعوة الى الوحدة الاقتصادية ، كخطوة اولى للاتحاد السياسي . غير ان السعيد لم يجـــد في وزارة المرحوم سعدالله بك الجابري أي مجـــال لقبول هذا المبدأ . ثم أتى على ذلك حين من الزمن . حتى اذا امسى الخطر الصهيوني جاثماً على الابواب ، وتعدى ذلك الى القاء الطائرات الصهيونية القنابل على دمشق تطلع السوريون ، من جديد ، الى اتحـاد يقيهم الخطر الاسرائيلي المداهم . وقد رفع حزب الشعب (٢٣ تشرين الثاني ١٩٤٨) مذكرة الى السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية تتضمن المطالبة بالاسراع في تحقيق اتحاد مع دولة عربية تتوفر فيها شرائط الحرية والاستقلال . ولم يعين الحزب الدولة التي يعنيها . وأعان الحزب في هذه المذكرة صراحـة ان لا حول لأية حكومة سورية ، ولا قوة الا بهذا الاتحاد لدفع الخطر المداهم .

بيد ان هذا المشروع ، الذي كان غير مرضي عنه عهد فخامة القوتلي ، صار بعيد الاحتمال عهد الزعيم حسني الزعيم ، صاحب الانقلاب الأول بدمشق الذي وقف موقف العداء والخصومة لكل من بغداد وعمان .

ولكن ما ان تم الانقلاب الثاني في سوريا ، وكانت للعراق اصابع في تحقيقه ، وما ان تألفت الوزارة الاتاسية « الانتقالية » وبينها شخصان من ابرز شخصيات حزب الشعب ، وهما رئيسه السيد رشدي الكيخيا ، وزير الداخلية ، والدكتور ناظم القدسي وزير الخارجية ؛ ما ان تم ذلك حتى خرج مشروع الاتحاد من حيز التمني الى حيز الدرس الجدّي . خصوصاً وان تهديدات اسرائيل واستعداداتها لم تكن تقف عند حد ؛ وان الاوساط التجارية ، التي تعاني أزمة اقتصادية حادة ، ما كانت تجد منفذاً لها من الضيق الا باتحاد يفسح المجال الواسع لصادراتها ووارداتها .

التفت السوريون الى عمان فألفوها مكبلة بمعاهدة وبروتوكولات ، تجعلها في مصاف المستعمرات ؛ والتفتوا الى بغداد ، فوجدوها احسن حالاً ، ولكنها ، مع ذلك ، لا تزال مرتبطـــة بمعاهدة تقضي عليها بالمشاورات في الأمور السياسية ،

---

(١) قامت المذكرة التي قدمها نوري باشا السعيد الى مستر كايسي ، وزير الدولة البريطانية بمصر اثناء الحرب العالمية الثانية ، على اساس مشروع الهلال الخصيب بما فيه سوريا الكبرى .

وباستخدام الاخصائيين من البريطانيين دون غيرهم ، وبالسماح لقوات مسلحة بريطانية ان تبقى زمن السلم في العراق ، ولها قاعدتان جويتان . هذا فضلاً عن وجود بعض القيود في التمثيل السياسي . فتردد السوريون في تحقيق ما تطمح اليه نفوسهم ، وتساءلوا عما اذا كانت لندن ، وهي الحريصة مثلهم على تحقيق هذا الاتحاد ، ستبدد مخاوفهم هذه ، وذلك بتبديل المعاهدة العراقية عاجلاً على اساس يشعر فيه السوريون بانهم لم يضيعوا الاستقلال الذي اشتروه بدمائهم .

وقد تبنى الحزب الوطني ، وهو خارج الحكم ، رأي حزب الشعب حينما كان معارضاً ، فاذا به وقد اصبح قريباً ، من موعد الانتخابات النيابية (٥ ت ٢ ١٩٤٩) يعلن رأيه محبذاً مشروع الاتحاد بين سوريا والعراق على اساس الوحدة في رئاسة الدولة والشؤون العسكرية والخارجية والأمور الاقتصادية على اعتبار « ان سورية ليس بمقدورها ان تقف وحدها في وجه الزعازع التي تتهددها . »

وقرر ايضاً الحزب في مؤتمره المعقود يوم ٢٨ ايلول ١٩٤٨ تعديل الفقرة الاخيرة من المادة السابعة من نظام الحزب التي كانت تنص على ان الشكل الجمهوري هو النظام الذي يلائم روح الشعب ؛ فعدلها بالعبارة التالية :« ويرى الحزب ان شكل الحكم يُترك لاختيار الأمة . »

على ان أمر البت بهذا المشروع ،وان ترك لرأي ممثلي سوريا بعد انتخاب المجلس التأسيسي ، الا ان الجانب العربي الآخر لم يتغاض عنه؛ فكانت مفاوضات بين كل من القاهرة ، والرياض ، وعمان من جهة ، وبين دمشق من جهة اخرى ، قام بها ممثلو هذه الدول احياناً ؛ وبعض الرسل أحياناً ، بغية ارجاء تحقيق هذا المشروع . وهم كذلك واذا بفخامة السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية السابق يغادر سويسرا ، ويهبط مصر ، حاملاً علم المعارضة لمشروع الاتحاد السوري العراقي ،رغم ان الحزب الوطني الذي كان يرئسه اصبح صاحب الدعوة لهذا الاتحاد.

ولما عقد مجلس الجامعة اجتماعه في تشرين الثاني ١٩٤٩ تقدمت مصر اليه بمشروع « الضمان الجماعي» ؛ فقيل ان القصد من ذلك تحويل الاتجاه الفكري عن الاتحاد السوري العراقي؛بينما ان العراق وسوريا اعلنتا،في ذلك الاجتماع ، رغبتهما في اجتناب المجلس التعرض لموضوع هذا الاتحاد على اعتبار انه من القضايا الداخلية بالنسبة اليهما .

ثم جرت انتخابات الجمعية التأسيسية في سوريا ؛ وعلى انتظار مصادقة الجمعية على الدستور الجديد انتخب السيد هاشم الاتاسي رئيسا للدولة، ووضعت صيغة اليمين

الذي يترتب على فخامته ان يقسمها أمـام المجلس في ١٩/١٢/١٩٤٩، وهي تنتهي بالعبارة التالية : « واعمل في تحقيق وحدة الاقطار العربية . »

وكانت هذه الجملة في نظر الناس بمثابـة توطئة لتحقيق الوحدة بين القطرين ؛ فاذا بخصوم هذه الوحدة يقومون في اليوم السابق لموعد القسم بانقلاب عسكري ثالث ، اقتصر على اسقاط اللواء سامي الحناوي بطل الانقلاب الثاني وانصاره ، وقيام غيرهم من رجال الجيش ؛ مما افضى الى وقف المشروع .

وقد عزي الانقلاب الثالث الى مصر والمملكة السعودية، ومن ورائهما اميركا وفرنسا ، كما عزي الانقلاب الثاني الى العراق ومن خلفها بريطانيا العظمى . ومما اكد هذا ان القاهرة ومكة سرعان ما برزتا للميدان ، حينما شاع ، عـلى اثر الانقلاب الاخير ، ان العراق تنوي التدخل في سوريا . وقالتا بلسان واحد : « اذا وقع عدوان على احد الاقطار العربية فان حكومتنا لن تقف مكتوفة الايدي . »

وهذا ان دل على شيء يدل على ان التناحر بين الدول العربية قام مقام عهد التعاون ؛ وانها إذ تتنابذ وتهدد بعضها بعضاً ، فانما هي تراعي بذلك المصالح الذاتية المحضة ؛ بينما ان يهود العالم تضافروا حول دولة اسرائيل، وشرعوا ، خلال فرحهم المستطير وآمالهم الجبـارة ، ينشطونها للتقدم فيما وراء القدس ، وما بعد فلسطين . ويحدوهم الى التمادي في طغيانهم هذا نجاحهم المستمر في صعيد جعل الدول تجاه « الأمر الواقع » ، واستمرار هيئة الامم المتحدة على التغاضي عن امتهان مقرراتها .

وبعد فلقد تنبأنا قبل سنين ثلاث ، استناداً الى تأهب اليهود وتواكل العرب ، بأن فلسطين توشك ان تكون « اندلس الشرق » . ومن المؤسف والمؤلم ان لا تكون حالة الدول العربية ، بعد الكارثة ، خيراً من قبل ، مما يحملنا على التشاؤم اكثر من أي وقت آخر ، وعلى الاعتقاد بأن قومنا اذا ظلوا عـلى ما هم عليه ، فالمصاب المداهم سيكون اشد من نكبة الاندلس . ذلك لان العرب جلوا ، بالأمس البعيد ، عن اسبانيا ، وهي بلاد استعمروها ، اما الآن فهم مهددون بالجلاء عن مواطنهم ، ومواطن اجدادهم . أو يعيشون اذلاء عبيداً في ديارهم .

الله الله . أما من يازجي آخر يصرخ في وجوهنا قائلاً :

« تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب » .

الفصل التاسع

الدولة العربية المتحدة في طريق التحقيق

كلمة الختـام

لقد كان اغتباطي عظيما بالوثبة العربية المعاصرة ، ولا سيما اثر تأليف الجامعة العربية ، وما رافقها ، اول الامر ، من اجتماع شمل الامة العربية ، واتجاهها شطر الاتحاد الاقتصادي والتعـــاون السياسي . وكان سروري شديداً لتلك العواطف الملتهبة التي كانت تشع عن الدول العربية كافة في سبيل انقاذ فلسطين .

وكنت ، وانا مغمور بالفرح ، اسائل نفسي : « كيف تمت لقومي هذه الوثبة الجبارة ؟ وكيف اتيح لهم هذا الاتحاد المكين ، في مثل هذه السرعة ، حتى كانت لهم الكلمة النافذة في مؤتمر سان فرنسيسكو الدولي ، والكفة الراجحة في الدورة الاولى لاجتماع منظمة هيئة الامم المتحدة في ليكسكسس ؟ » اما اسباب التساؤل فلأن قومي قضوا اجيـالاً تحت الحكم الأجنبي ، ثم لم يمض على ذلك وقت كاف لزوال مخلفات ذلك الحكم وسيئاته ؛ ولاكتسابهم مهنة السياسة والرياسة .

كنت اسائل نفسي هذا ؛ وأتولى الجواب قائـلاً تحت تأثير العواطف : « ولكل حالة استثناءات » . ثم رحت ، والسرور يشع من بين اسطري ، استهل الجزء الاول من هذا الكتاب بقولي :

« تضفي الوقائع على العالم العربي مسحة محبوبة من الاتحاد القومي تكاد تداني درجة الوحدة ، وهي لم تقتصر على الاهداف العليا فحسب ، بل تعدتها الى السياسة العامة . وقـد توثقت عرى هذا الاتحاد في قضية الساعة : قضية فلسطين ، حتى بلغت مستوى الوحدة ، سواء في القيـادة العسكرية ، او في مباحثات مجلس الامن ، وهيئة الأمم المتحدة . »

ولكن ما كاد الكتاب يصدر ويصبح بين ايدي الناس حتى تبدل حال العرب : فأمسى اتحادهم تفسخاً ، واتفاقهم تخاذلاً ، سواء أكان ذلك في ساحات القتـال ، ام في المؤتمرات الدولية . لذلك صرت أخجل من تلاوة الناس ما استهللت به

كتابي ، فيقرأون ما لا يطابق الواقع ، ولا يتفق مع الحقيقة .

والواقع ان الطفرة من المستحيلات ، وان أمتي ، وقد مضى عليها اجيال كانت ترزح فيها تحت حكم الاستعباد ، تحتاج الى مرحلة أخرى ليصير لها ضمانة في اخلاقها على التزام الاتحاد في سبيل بلوغ المثل الاعلى .

. . . . .

وقعت الواقعة ، وانتصرت ، ما كانوا يسمونها استخفافاً « العصابات اليهودية » انتصرت على الدول السبع ، فكانت مصيبة مُني بها العالم العربي ، لم تقتصر على ضياع فلسطين فحسب ، بل اودت ايضاً بسمعتهم وكرامتهم .

كانت مصيبة جعلت العالم يتساءل حائراً مدهوشاً مشدوهاً : كيف وقع هذا الفشل؟ وكيف حدث ذلك الانكسار؟. وجعلت العرب ، في تساؤلهم ، يصوبون نيران حقدهم ونقمتهم على الجامعة العربية التي لم تجمع ، وعلى رجالات الحكم الذين لم يكونوا رجالاً .

وقد قدر المسؤولون منا فداحة التبعة فراح كل منهم يحاول ان يبرر ساحته ، ويرد الفشل الى قصور غيره ؛ وهم في ذلك قد هبطوا ، من علٍ ، الى مستوى الناقمين ، وتساءلوا مع المتسائلين .

ففي شتاء ١٩٤٩ وقف السيد نوري السعيد في مجلس الامة العراقي ، للتعليق على اقتراح العين السيد عبدالمهدي ورفاقه ، وطفق ينتقد طرق الدفاع عن فلسطين ، ويهاجم ذلك الاهمال الذي جرى ، من قبل العرب ، في عدم توحيدهم القيادة ، وتسليح المجاهدين الفلسطينيين ، وتحصين المدن والقرى بالاسمنت المسلح ، كما فعل اليهود.

فياليت شعري لمن كان يوجه السعيد هذا الانتقاد ؟

أليس فخامته من اركان العرب الذين تلحقهم تبعة هذا القصور ؟

أليس هو صاحب الصوت الاعلى في البلاط العراقي ودواوين حكومة العراق؟

ألم يكن كل من امير اللواء السيد اسماعيل صفوة رئيس اللجنة العسكرية لفلسطين ، والجنرال طه الهاشمي ، مفتشها العام ، عراقيين ؟

بلى وحق العروبة ، وعلاوة على ذلك كان السعيد قد عقد العزم مع جلالة الملك عبدالله على انقاذ فلسطين بقوى العراق وشرقي الاردن وحدها ؛ وكان ذلك عندما بسط فخامته لجلالته في عمان ما لاحظه من ميوعة بعض الدول العربية اثناء اجتماع الجامعة بالقاهرة شهر كانون الاول ١٩٤٧ ، وتهربهم من المسؤولية .

فما جد من بعد حتى « قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم » ؟

وما عدا مما بدا حتى جمد الجيشان : الاردني والعراقي ؛ ثم انسحب الجيش العراقي الباسل دامع الاعين من جراء منعه عن القتال؟ انسحب على مرأى من بعض مراقبي الهدنة بفلسطين الذين ادهشتهم استعداداته، واعجبتهم كثرتـه ، وقالوا : « ماذا كان يصنع هذا الجيش هنا ؟ » وقالوا : « لماذا يعود ويترك فلسطين لليهود؟ »

ولعل السيد رياض الصلح رئيس مجلس الوزراء في لبنان ، ورئيس الوفـــد اللبناني في اجتماع منظمة الامم المتحدة بباريس ، لعـله كان يقصد الى ذلك حينما وضع علامة الاستفهام في خطاب القاه امام الصحفيين في اوتيل بريستول بباريس شهر تشرين الثاني ١٩٤٨ حيث قال :

« ومما يدهشني ان هذه الجيوش على الرغم من انها لا تزال سليمة ، كما تركناها ، لم تشترك في الدفاع عن فلسطين حين خرق اليهود الهدنة ، وحين هيأ اليهود ، بخرقهم الهدنة ، للعرب العمل واستئناف القتال . ولست ادري السبب في هذا . أقلة السلاح ، أم عدم التضامن ام لتفريط في احترام الهدنة ؟ »

وهذا تساؤل العارف لان دولته وهو من قادة المعركة ، لا يجهل اسباب الفشل . اما التنويه بموقف لبنان ، في البيان الذي القاه باسم حكومته الجديدة في المجلس النيابي ، يوم ١٥ تشرين الاول ١٩٤٩ ، وذلك لنيل الثقـــة ، والذي قال فيه : « يطيب لي ان اعلن من على هذا المنبر ان تاريخ الكفاح في سبيل فلسطين سيفرد للبنان صفحة مشرفة» اما هذا التنويه فقد رد عليه فوراً النائب الاستاذ كميل شمعون بقوله : « اني اعتبر الحكومة تحمل قسماً من مسؤولية تأليف الدولة الصهيونية .»

بلى ، وان التاريخ قد سجل على العرب كافة هذا القصور ، وألحق بكل واحد من زعمائهم تبعة وزره على قدر تقصيره ؛ بل ألحق بقومنا عاراً، ليس كمثله عار، حينما اتهم بعض وزرائهم بالخيانة العظمى ؛ ومنهم من تناوله القضاء ، ومنهم من تناولته الصحف .

. . . . .

اما الآن وقد وقعت الواقعة ، فلم يعد الرجوع الى الماضي بمجدٍ ، اللهم إلا في ناحية الادكار والاعتبار؛ خصوصاً وان المعركة دخلت في المرحلة الثانية ، والعدو لا يزال يتأهب ليس للمحافظة على الغنم فحسب ، وانما لتحقيق امان له واسعة . وهو في ذلك قد بلغ منه الكبر حد الصراحة ، ولم يعد يداهن ويصانع في ظهار هذه المطامع ؛ بل هو يعلنها جهاراً غير حاسب حساب احد . دعوا الصحف اليهودية

وما تقول ، وأنصتوا الى بن غوريون رئيس الوزارة الاسرائيلية ؛ انه يصرح علناً في جلسة البرلمان ، (ايلول ١٩٤٩) ،عند بحث مشروع التجنيد الاجباري، تصريحات رسمية لا يتورع عن القول فيها :

« اننا سنتبع سياسة من شأنها اللحاق بالمعتدين حتى داخل حدودهم راجياً من المجلس الموافقة على مقترحاتي هذه بانشاء جيش قوي كامل العدة ليستطيع القيام بمثل هذه المهمة على الوجه الأكمل. »

« هذا كلام فارغ » قد يقول بعضنا حينما يسمع تصريحات بن غوريون؛ ويهزأ بوعيده؛ خصوصاً وقد صمّت آذان الناس من سماع مثل هذه التهديدات قبل نحو عام فقط يدلي بها رجالات العرب ، وكانت ، في الواقع ، كلاماً فارغاً .

اما أنا فلا اتورع عن القول « لا قياس مع الفارق » . نحن قلنا ولم نعمل ، وهم عملوا ولم يقولوا؛ ولا يزالون يعملون لتحقيق اهدافهم التي نوه بها بن غوريون.

ان دولة اسرائيل ما ان اتيح لها ان تبرز للوجود حتى أخذت تجدّ في سبيل توطيد اركان الدولة، وتأمين مثلها العليا. وقد فرضت ، في هذا السبيل، الجندية على كل فتى وفتاة ، وارصدت خمسين مليون جنيـه ، عام ١٩٤٩ ،لتسليح الجيش ، ووضعت نواة الاسطول، وعززت الطيران . وهي الى ذلك قد نقلت عاصمتها الى القدس ، ولها في هذا الانتقال مآرب عسكرية وروحية. (١) وان اسرائيل تعتمد، في كل ذلك ، على غـيرة ابنائها وبناتها في اقطار العالم ، فضلاً عن اعتمادها على عطف الولايات الاميركـية المتحدة التي تسعى ، بعد الكارثة ، لربط العالم العربي بمعاهدات صداقة . وعـــلى رواية سكرتير المؤتمر الدولي البرلماني الذي عـــقد في آب ١٩٤٩ باستوكهلم ، فقد وضع البنك الاميركي للصادرات والواردات رهن تصرف اسرائيـل ما لا يقل عن مئة مليون دولار .

هذا الى أن اسرائيل ما برحت تتعهد قومها بمـــا يثير فيهم الحماس والنشاط لتحقيق الاهداف العليا بحيث تصغر في عيونهم الكبائر : فعيّدوا ، عنـد انقضاء سنة على تأسيس دولتهم، عيداً ليس كالاعياد كان يوماً مشهوداً في تل ابيب يقصر القلم عن وصف « جنونهم » فيـه . ثم عيّـدوا في ٢٢ ايار ١٩٤٩ عيد اسطولهم البحري ؛ ومشى فيه ثلاثة آلاف فتى وفتاة يعدّونهم بحارة للاسطول ؛ مشوا بين هتافات تكاد تبلغ السماء . وسلمت بمناسبة هذا العيد راية الاسطول لثلاثة بحارة كانوا اشتركوا في الاستيلاء على ثغر يقع الى جانب العقبة حيث كان الصليبيون ، من قبلهم ، اقاموا هناك، عند البحر الاحمر ،نقطة انطلاق شطر مكة والمدينة.

---

(١) [illegible] أسير عربي : « ان الجميع يعملون للحرب ولا شيء غـير الحرب حتى أصبحت فلسطين [illegible] ترسانة جبارة صارت فيها صناعة الرشاشات والبنادق الاوتوماتيكية والهاونات صناعة محلية.

اما نحن فكأنا غرباء عما يجري على مقربة أميال منا ، غرباء عما يقع في قلب العالم العربي ، غرباء حتى كأنا نعتقد ان هذه الاستعدادات النارية مصوبة الى افئدة سوانا . وليس ذلك فقط ، بل الحالة أدهى وأمر ، إذ أمست خلافاتنا الداخلية مشغلة لنا عن كل خطر خارجي ؛ كما انتقل الخلاف بين اولياء الامر منا من نطاق وجهات النظر ، الى حيّز الخصام . وكالنعامة تطوي عنقها تحت جناحها اخفاء لرأسها على أمل أن لا يراها الصياد إذا لم تره، فقد أشحنا بوجوهنا عن فلسطين ، وما يجري فيها ، منصرفين إلى حاضرنا عن مستقبلنا : مصر بالسودان والمعاهدة ؛ والعراق بالمعاهدة والقرض ، وسوريا بالانقلابات والهلال الخصيب ، ولبنان بالوزارات ومجلس النواب ، والسعودية بالذهبين : الاسود المائع والاصفر الرنان ، واليمن بتأمين العهد وتصحيح الحدود ، وشرقي الأردن بتوسيع التخوم . ويا ليت الامر وقف عند هذا الحد .

ألم تسؤ الحالة بين الزعيم حسني الزعيم وبين شرقي الاردن والعراق حتى بلغ الخلاف درجة حشد الجيوش على التخوم ؟

ألم تحجب مصر والمملكة العربية السعودية، مدة من الزمن، عن الحكومة السورية اعترافهما بها حينما وجه الانقلاب الثاني سوريا شطر العراق ؟

ألم يفض الخلاف بين الكتلتين العربيتين الى التردد في تعيين موعد اجتماع الجامعة العربية قبل اجتماع منظمة الامم المتحدة في ليكسكسس (١٥ ايلول ١٩٤٩) مع الحاجة الماسة لتوحيد وجهات النظر قبل السفر ؟

ألم تفشل اجتماعات الجامعة العربية من جراء الاختلاف على مشروع الضمان الجماعي ، ذلك الاختلاف الذي يقوم على المصالح الذاتية ؟

بلى وحق العروبة وقع كل ذلك واكثر ، ابان ما كانت اسرائيل ، التي تستعد للمستقبل ، لا تزال تتجاوز حدود الهدنة الدائمة ؛ ولا تستثني في هذا التعدي شرقي الاردن . وقد كان جلالة الملك عبدالله لا يزال في لندن يتوخى الاعتراف منها بضم فلسطين العربية لشرق الاردن حينما رفع وزير خارجيته الاحتجاج الصارخ الى منظمة الامم المتحدة في ليكسكسس من جراء اقتحام اسرائيل بعض القرى العربية ، وآخرها « وادي فوقين » .

. . . . .

ان دولة بن غوريون تهدد (المعتدين) باللحاق بهم حتى داخل حدودهم ، وما

ذلك حباً باشباع النفس من لذة النصر والتغلب ؛ بل هي مضطرة للقيام بهـــذه الحملة ، في اقرب وقت ممكن ، خصوصاً وان الازمـــة الاقتصادية المستفحلة في بلادها ستظل موجودة إذا بقيت تخومها محصورة ضمن نطاق فلسطين .

١ - لقد انهالت عليهم الاموال في سبيل تحقيق حلمهم القديم، ولا سيما خـلال الحرب ، حتى اصبح الحلم حقيقة راهنة . ولكن ما ان احتلوا فلسطين وتربعوا في اورشليم حتى بدأ الفتور جلياً في اوساط المساعدين (١) ، ووقعت بالتالي اسرائيل بازمة مالية حادة ؛ وهي لا موارد لها تقوم بأود كيانها ، ولا معين في فلسطين يؤمن لها الدفاع عن هذا الكيان ، فضلاً عن تحقيق المطامع البعيدة .

اذن لا مخرج لهم من هذه الأزمة الدائة الا بخلق اسباب من شأنها ان تثير حماس قومهم ، كرة اخرى ، وتستجلب حدب انصارهم فيما وراء البحار ؛ وذلك بغزو مناطق جديدة ، وضمها لفلسطين كيما تمدهم بالمحاصيل الزراعية ، وتستنفد منهم انتاجات مصانعهم ؛ وتجعلهم بالتالي في غنى عن استمداد الاعانات الخارجية .

٢ - انهم في ازمتهم الخانقة يتوجسون خيفة من حرب اقتصادية تثيرها عليهم الدول العربية ، ويحسبون الف حساب للمقاطعة المنظمة التي تهددهم بها هـــذه الدول .

لذلك كله يرون أنفسهم مضطرين للتوسع فيما وراء فلسطين . ويشجعهم عـلى ذلك نجاح مطرد اصابته خطة المبادرة التي لجؤوا اليها في الحرب ضد العرب ، وما بعد الهدنة ؛ وجعلهم العالم امام الأمر الواقع ، وآخر مثال على ذلك احتلالهم القدس ، ونقل عاصمتهم اليها . هذا وان ما يبدو من تذمرهم من جراء ارتباط شرقي الأردن ببريطانيا العظمى ، واحتجاجاتهم على مشروع اتحـــاد العراق وسوريا ان هما الا نتيجة لما يجول في افكارهم من المطامع ضد هذه الاقطار المجاورة .

وربما ان بعض الأوساط الاميركية ترتاح لمغامرة جديدة تقوم فيها اسرائيل بسوريا ولبنان ، ذلك لانها تعتبر اليهود عمالاً لهـا في الشرق الاوسط ؛ كما تعتبر توسعهم توسعاً لمنطقة نفوذها في تلك الاوساط ؛ هذا فضلا عن ان واشنطن تحرص على ان لا يكون بترول الجزيرة في سوريا من نصيب لندن الـــتي تقف موقف المنافس لها في هذا الشرق .

وبعد فهل تكون الخطوة الأولى شطر دمشق للالتفاف حول لبنان؟ أم تكون

(١) يبلغ ما جمع في الثمانية شهور الاخيرة من عام ١٩٤٩ في الولايات المتحدة مساعدة لليهود ٨٤،١٨٩،٦٩٨ دولاراً ، يقابلها ١٢٢ مليون دولار في المدة نفسها من العام الذي قبله .

موجهة مباشرة لبيروت لوضع الحصار على الشرق الأوسط قبل ان تباشر الدول العربية تحقيق مشروع المقاطعة ؟

. . . . .

« فلسطين اندلس الشرق » عنوان كتاب اصدرتُه سنة ١٩٤٦ وانذرت فيه قومي من سوء المصير، فكان ما توقعته ؛ ولكنه وقع في وقت اقرب مما قدرت. ويؤلمني ان أضطر مرة اخرى للاعراب عن خوفي الشديد من ان تمسي بلاد الشام كافة « اندلس الشرق » ايضاً، وذلك ان ظل قومي على هذا الحال من التخاذل والتواكل ، واستمروا على اللامبالاة بالمصير .

لقد ارسل الاستاذ شارل مالك وزير لبنان المفوض بواشنطن الى وزارة الخارجية اللبنانية برقياً نص الخطاب الذي القاه المستر عمانوئيل سلر رئيس اللجنة القضائية في مجلس النواب الاميركي ، وجاء فيه :

« ان رفع الحجز عن ارسال الأسلحة للشرق ينذر بالشر اذ انه يهيء السبيل لعشرات الألوف من العرب ان يصبحوا عصابات بدو . وربما تضطر اسرائيل لاعطاء العرب درساً آخر فتقطع مرة ثانية بقواتها العرب كما تقطع السكين الزبدة المجمدة .

« وليكن معلوماً هذه المرة ان كلمة « اعملي معروف » التي تقولها الأمم المتحدة لا تؤخر الاسرائيليين عن عزمهم . وهم سيفتحون طريقهم الى بيروت وعمان والاسكندرية بواسطة الرصاص ! »

وهذا تصريح يدلي به صهيوني كبير ، وسياسي أميركي خطير ؛ فماذا اعددنا نحن العرب لصون زمار اوطاننا قبل ان يضطر جماعة الرئيس سلر لاعطائنا هذا الدرس القاسي ؟ ولا نقول : «ماذا اعددنا للحاق بابن غوريون وتخليص البلد « الذي باركنا حوله » ؟

هل هو مجرد تجديد العهد للجامعة العربية بعد ان حمل بعضنا المعاول لتهديمها ؟

هل هو اتفاق الرأي، بعد حين ، على تعيين موعد اجتماع مجلسها ؛ ثم ما أن عقد المجلس حتى تلهينا بالجدل حول « الضمان الجماعي » ، وعدنا على غير اتفاق ، ثم لانزال غير متفقين على تعيين موعد آخر للاجتماع ؟

لقد بُلي بهذا قبلنا البيزنطيون : وبينما كان السلطان محمد العثماني يحاصر عاصمتهم ، ويهددهم، مثلما يهددنا سلر وبن غوريون ، كانوا هم منصرفين الى النقاش في موضوع ماهية السيد المسيح ومشيئته ، فدخلها السلطان فاتحاً ، واصبح الحكم بينهم فيما كانوا يختلفون .

فهل نحن سنظل نتلهى بالاجتماعات ؛ ونستمر على تهديد بعضنا بعضاً كلما آنسنا

اختلالاً في التوازن بيننا حتى يكون مصيرنا مصير البيزنطيين ؟

لقد دعونا قومنا الى المحافظة على الجامعة العربية والالتفاف حولها ، ولا زلنا ندعوهم الى ذلك بكل قوانا ، خصوصا ونحن نحيا في عصر التكتل ، ونرى بأم أعيننا الدول الاوروبية تمشي باقدام ثابتة نحو الاتحاد الدولي . ونقرأ انباء المجلس الدولي الاستشاري الذي عقد في مدينة استراسبورغ في ايلول ١٩٤٩ ، وهي تقول :

« خطا اليوم المجلس خطوة كبرى نحو تحويله الى برلمان للولايات المتحدة الاوروبية ، وذلك عندما قررت اللجنتان السياسية والاقتصادية متابعة اعمالها بعد انفضاض المجلس في الشهر القادم ».

ولكن الذي استنتجناه من مأساة فلسطين حملنا على الاعتقاد ان الوقت لم يحن للاستفادة من الجامعة العربية في نطاق التعاون العسكري ، مهما وضع فيه « من ! ضمانات » . بل جعلنا نؤمن بأن الساعة لم تأت للاعتماد على اتحاد عربي مكين شامل نحن لا نزعم أن الامة العربية ليست تواقة الى الوحدة القومية التي تؤمن لها العز والكرامة . ولكن الذي نقوله : ان كل خطوة تمشيها دولهم في هذا السبيل تعترضها عقبات محلية تجعل ارادة الامة تتعثر عندها .

عودة الى الماضي القريب ، والماضي مصباح المستقبل : فقد ذهب ممثلو الدول العربية سنة ١٩٤٣ الى مصر لاجتماعات اطلقوا عليها رسمياً «مشاورات الوحدة العربية». ولكنهم ما ان التفوا حول مائدة قصر انطونيادس بالاسكندرية حتى اخذ كل منهم يجنح للتحفظ. فكانت النتيجة ان بروتوكول الاسكندرية برز الى العالم العربي على غير هوى الأمة . وعلاوة على ذلك فان هذا البروتوكول لم يستطع الوقوف على رجليه الى النهاية ؛ بل ما ان شرع ممثلو الدول يضعون ميثاق الجامعة العربية حتى تبخر البروتوكول بتأثير التحفظات المختلفة ؛ وصدر الميثاق وليس فيه أي اثر للوحدة ؛ وانما هو يقتصر على وضع أسس للتعاون فحسب . على ان التعاون هذا كان حبراً على ورق ايضاً ، خصوصاً حينما حك الركاب بالركاب وبرزت قضية فلسطين !

لذلك فالى ان يحين الحين ، وتصبح الأمة العربية أمة ، والجامعة جامعة ، ويصير اتحادنا اتحاداً يطيب لي ان أوجه الدعوة الى كل واحدة من الدول العربية كيما تعتبر ان تهديدات اسرائيل العلنية المتواصلة انما هي مصوبة اليها مباشرة ، فتعمد، من ثم، الى الاتكال على نفسها، وعلى نفسها فحسب، في دفع هذا الخطر ورد هذه الاهانات . ثم اذا جاءتها النجدة من لدن اخواتها فتلك نافلة ؛ ولا تغني

النافلة شيئاً عن الواجب العيني. وأخص بالذكر مصر ، اعظم دول العرب واغناها، فهي مسؤولة ، استناداً الى مواردها ووفرة عدد شعبها ، قبل كل دولة اخرى عربية ، ليس عن المحافظة على تخومها فحسب ، وانما هي مسؤولة عن الكرامة التي امتهنت بضياع فلسطين،وعن العار الذي شملنا بسبب الطرق المشينة التي ادت الى ضياع فلسطين .

. . . .

لقد اعربنا ، في هذا ، عن الشك الذي يخامرنا بصدد استطاعة قومنا تحقيق الاتحاد العسكري فيما بينهم ، الاتحاد الذي يظل قائماً اثناء الشدة ؛ وذلك لما هم عليه من التمسك بالنزعات الشعوبية ، والارتباطات الخاصة الدولية ؛ ووجهنا الدعوة الى دولنا كيما تعتمد كل منها على نفسها فقط في دفع الاخطار ، واسترداد الكرامة ...

واذا كنا نعتقد بأن مصر تستطيع منفردة الدفاع عن كيانها ، بما لديها من وفرة في عدد الأنفس ، وغزارة في المال ، فهل ترى يمكننا الاعتماد ، كذلك ، على كل واحدة من الدول الاخرى المتاخمة لاسرائيل ؟

لا أدري . واذا كان الجواب « لا . » فما الذي يمنع تكتل بعضها تكتلاً وثيقاً يدفع الخطر عنها ، مع بقائها في الجامعة العربية ؟

ما الذي يؤخر سوريا،وشرق الاردن،ولبنان عن ان تقيم فيما بينها وبين العراق اتحاداً « فيديرالياً (١) يجمع بينها عسكرياً واقتصادياً ، وفي السياسة الخارجية ؟

ولعل هذا الاتحاد يكون نواة للولايات العربية المتحدة بانضمام الدول الشقيقة الاخرى اليه تدريجياً، مثلما ان اوروبا الغربية تؤمل ان يكون مجلسها الاستشاري البرلماني نواة للولايات الاوروبية المتحدة .

وكأنني ببعض مواطنيّ يأخذهم الذعر لزجّي لبنان في هذا الاتحاد ! فمهلاً يا قومي انما هو اقتراح ما اردت فيه الا الخير لوطني والسلامة .

امامنا امران لا ثالث لهما :

١ – اما ان نمسي ، بين ليلة وضحاها ، عبيداً لاسرائيل ؟

٢ – واما ان نعيش في بلادنا احراراً مستقلين ضمن كتلة قوية مع اخواننا المجاورين ؟

(١) الفيديراسيون Fédération معناها اتحاد دولي على اساس احتفاظ كل دولة باستقلالها مع خضوعها لبعض الشرائع العامة التي يضعها الاتحاد بالاتفاق بين اعضائه لمصلحة المجموع ، وتوحيد التمثيل الخارجي .

اجل . ويؤسفني ان اعلن ان لبنان معرض لخطر اسرائيل قبل سواه . وقد اطلعنا على خرائط شبه رسمية وضعها الصهيونيون ، اعتبروا فيها جبل عامل حتى تخوم بيروت ، جزءاً لا يتجزأ من فلسطين . ولذلك فهم قد تأهبوا ، منذ بضع سنين مضت ، لاحتلال هذه الاراضي في يوم معلوم استناداً الى مزاعمهم التاريخيـــة ، وبقوة صكوك الشراء التي اصبحت في حوزتهم باسماء مستعارة ، سواء أكان ذلك في بلاد عاملة ام في غيرها .

وهم الى ذلك انما يطمعون بلبنان قبل غيره قصد الاستيلاء على السواحـــل استيلاء كاملاً يمكنهم من تضييق الخناق على كل من سوريا وشرق الاردن والعراق ، وجعلها ترزح تحت نفوذهم الاقتصادي . ولا ادل على ذلك بما ورد في هـذا الجزء (الصفحة ١٢٦) «ان الدكتور ويزمن تقدم من انكلترا ، حينما اصبح العالم على وشك الحرب العالمية الثانية ، وعرض عليها مساعدة الرأسماليين اليهود اذا هي قطعت لهم عهداً بالتخلي عن فلسطين بالاضافة الى قسم من جنوبي لبنان . »

هذا ويذهب فريق منا إلى ان المودة بين بعض اللبنانيـين وبين اسرائيل يمكن ان تتحول الى معاهدة صداقـــة ، من شأنها ان تكون ضماناً للبنان على استقلاله . والواقـع ان لا تأثير للصـداقات ، في معجم السياسة ، وخصوصاً في معجم اسرائيل ؛ كما تشهد على ذلك التوراة .

ويذهب آخرون إلى ان لبنان يستطيع ان يطمئن على مصيره بالالتجاء الى دولة غربية تحميه . وانا اقول لهؤلاء ان عصر العواطف مضى وانقضى ، كما مضى عصر « العنعنات » الدينية . ونحن الآن في عهد أبرز ما فيه المصالح الذاتية . وان الدول التي خضعت ركعاً سجداً امام الذهب الوهاج الذي يكنزه اليهود ، وفي طليعتها الولايات المتحدة ؛ واستسلمت لرغباتهم حتى انهـــا تآمرت معهم على اخراج اهل فلسطين من ديارهم ، وديار آبائهم الاولين ، ان هذه الدول ، ولا نستثني منهـــا فرنسا الكاثوليكية ، والاتحاد السوفياتي الشيوعي ، لا تتورع ، في يوم آتٍ ، عن تسليم لبنان ايضاً ، وغير لبنان لاسرائيل اذا رجحت عندها كفة الميزان .

اجل وان فرنسا التي مشت مع انكلترا في الامس ، ابان حرب القرم ، الى جانب تركيا المسلمة ضد روسيا المسيحية ، وذلك من جراء اختلافهما على حق كنس احدى نوافذ كنيسة القيامة بالقدس ، ان فرنسا هذه حاميـــة الكثلكة لم تعد موجودة ؛ وانما نحن نعاصر فرنسا التي لا همّ لها الا المحافظة على كيانها المهدد ؛ ولو

ادى ذلك لانتقالها من احضان الولايات المتحدة الى احضان اسرائيل .

هذا الى ان واشنطن القيّمة على باريس وغير باريس في الوقت الحاضر ، واشنطن التي يستوي على عروشها اليهود فوق كل دار بيضاء او سوداء ، واشنطن التي ما زالت تعالج لندن، خلال السنين الاخيرة وابان فتنة فلسطين، حتى ذللتها لارادتها ، وحملتها على التسليم بكل طغيان ارتكبته اسرائيل ، ان هذه العاصمة لن تجد، من بعد، في باريس ما اصطدمت به في لندن من المناعة اذا شاءت يوماً ما مجاراة اسرائيل بصدد التوسع في لبنان .

أضف الى كل ذلك ان الخطر الأشد على وطننا العزيز انما يرجع الى بعض ابنائه انفسهم (١) ، وبينهم زعماء روحيون ، وبينهم زعماء اقطاعيون . لقد باع بعض هؤلاء بالامس نفوسهم لاسرائيل . وان من يبع نفسه بالمال سهلٌ عليه ان يبيع وطنه . ومثلما وجد هؤلاء حججاً للقول باعطاء فلسطين للصهيونيين ، فلن يعجزهم خلق حجج أخرى للدعوة الى تسليم لبنان كله او بعضه لاسرائيل (٢) . فلا تعجب ولا تستكثر، فها نحن قبل ان نرفع القلم عن القرطاس نقرأ في الصحف خبراً، وان كنا لا نريد ان نصدقه في الظروف الحاضرة، الا انه يأتي مصداقاً لما نتوقعه في المستقبل من آخرين . روت الصحف (٣١/١٢/١٩٤٩) ان نائباً لبنانياً سابقاً يدعو الى ضم قطعة من الوطن اللبناني الى اسرائيل، مؤكداً ان بين يديه مذكرة في هذا الطلب تحمل خمسة آلاف توقيع » !!!

أجل فلا تعجب لما نتوقع، ولا تستكثر ما ينقل اليك ، وانت تعلم مقدار تفسخ الاخلاق عند بعض الزعماء ، وتعرف مبلغ الجهل المتفشي بين اتباعهم حتى يكون من السهولة الى حد بعيد جعل التواقيع آلافاً مؤلفة في ليلة وضحاها . ولكن بحقك قل لي بصراحة ولا تتردد : «هل انت مطمئن البال، بعد ذلك كله، على وطنك العزيز ان بقي يلزم العزلة ويؤثر الانفراد ؟

---

(١) نحيل القارىء الكريم الى ما جاء في هذا الموضوع في الصفحة ١٠٨ من هذا الجزء .

(٢) اصدرت وزارة الانباء اللبنانية كتابا بررت فيه موقف الحكومة من الحزب القومي الاجتماعي . ورد فيه تقرير صادر عن منفذية عكا (وثيقة ١٧٣) جاء فيه : «ان منظمة الفالانج اللبنانية والمطران اغناطيوس مبارك على اتصال ومفاوضة مع اسرائيل لقلب الحكم وانشاء الوطن المسيحي واضطهاد الفئات والطوائف الاخرى. وقد اطلعت مع مواطنين على كتب توصية من المطران مبارك لاسرائيل الخ » . فمن الواجب ونحن نتهم ان نبرىء الكتائب اللبنانية مما نسب اليهم ، نبرئهم عن خبرة . اذ كانوا في « اتحاد الاحزاب اللبنانية لمكافحة الصهيونية » التي كافحت سنين طويلة ، وكان لي شرف رياستها، مثال الغيرة على فلسطين .

اما والجواب ـ لا ـ كان الأجدى لنا ، نحن اهل لبنان ، ان نشفع حرصنا على سلامة وطننا واعتمادنا على أنفسنا بالاتحاد مع جيراننا الذين تجمعنا بهم المصيبة المشتركة،وتضمنا الى صفوفهم الأماني والآلام. خصوصاً لما للبنان في هذا الاتحاد مع الجيران من فوائد إيجابية من شأنها وحدهاأن تحملنا على اختيارهذاالاتحاد : ان لبنان الرابض عند سيف البحر على طول شاطىء الهلال الخصيب ، حيث تتمتع عاصمته وبعض ثغوره بمواهب تجارية ورؤس اموال كافية ، ومنشآت اقتصادية لا مثيل لها في هذا الساحل،سوف يحظى بحصة الاسدضمن هذاالاتحاد الفديرالي فهو ، ولا ريب ، سيقبض على ناصية تجارته ، صادرة كانت او واردة هذا فضلاً عما سيؤمنه هذا الاتحاد لأبناء لبنان وبناته ، ولا سيما المتعلمين منهم والاخصائيين ، من مجالات فسيحة في الأعمال الحرة والوظائف في ارجائه .

. . . . .

بقيت كلمة نود ان نرفعها، باخلاص تام ، الى الدول العربية العزيزة التي كانت تقف موقف المعارضة في وجه اتحاد الهلال الخصيب ، وذلك خشية اختلال التوازن الدولي بين العرب .

الآن وقد تسرب الداء الى سويداء الفؤاد، وذلك بقيام دولة اسرائيل في قلب العالم العربي ، وشرعت هذه الدولة تتأهب ، في البر والبحر والفضاء ، لتحقيق برنامج واسع المدى لا تتورع عن التصريح به ، وذلك اعتمادا على نفسها ، واستهتارا بالعرب .

الآن ، وقد اصبحنا نواجه قاطبة خطرا شديدا مداهما لا فرق بان نكون متاخمين لفلسطين او بعيدين عنها ؛ ذلك لان اسرائيل ما ان بلغت البحر الأحمر حيال العقبة حتى تطلعت ايضاً لاحتلال جزيرة العرب،واعتزمت بسط سيادتها على مكة والمدينة قصد تذليل المسلمين ، والوثوب من هاتين المدينتين المقدستين الى منابع البترول ، كما بينا ذلك في هذا الجزء (صفحة ١٩٠)

الآن والحالة هذه، ونحن نعاصر القنبلة الذرية،ونطأطىء الرؤوس للسابحات في الاجواء ، كان علينا جميعاً ، أن نشعر ، على السواء ، وحيث كنا ، بالخطر المداهم ؛ وأن نرى ، من ثم ، أوجب الواجبات تشجيع كل تكتل يقوم بيننا ، سواء أكان شاملاً أم جزئياً ، وذلك ضمن نطاق الجامعة العربية .

اما « العنعنات » الماضية القائمة على ذكريات الثارات القديمة ، أو على تخيلات التوسع في العصر الحاضر ؛ فهذه قد جعلها الخطر الصهيوني هباء منثوراً ، كما جعل انقسام الدول العربية ، امراً غير طبيعي يتنافى مع الحكمة .

هـذا ولعلّ من الخير لمصر وللمملكة العربية السعودية قيام كتلة عربية قوية لى جانب كل منهما، كتلة اذا انفردت في الدفاع عن نفسها كفتهما مؤونة القتال ؛ وان تعاونت معهما في الحرب كانت لهما عوناعلى تحقيق الامال .

اما اذا بقيت سوريا الطبيعية مجزأة الاطراف على ما اراد المستعمرون ، وعلى ما تشاء اسرائيل ، وظل اتحادنا العربي رمزياً ، كما هو اليوم ، فمايدرينا ان تكون هذه الاجزاء لقمات سائغات تلتهمها اسرائيل واحدة بعد واحدة ؛ وكلما التهمت جزءاً منها اكتسبت منه قوة جديدة لابتلاع البقية الباقية حتى تأتي على الجميع ؛ ثم لاتوفر غيرها ؟

ان هذا لخطر جسيم على مصر،وعلى المملكة العربية السعودية ايضاً ، وذلك على اعتبار ان كل قوة جديدة يكسبها الخصوم هي ضعف طارىء يصيب سائر اجزاء الوطن العربي . انه لخطر شديد واجه، من قبل، اجدادنا في اسبانيا فلم يحفلوا به، فاودى بهم الى الجلاء والفنـــاء . وهل نحن احفادهم الذين نلعن الأولين سنرتكب نفس خطيئاتهم فتلعننا الذرية ؟ أم نعتبر بالتـــاريخ ونسترشد به لحفظ كيان العرب، وكرامة العرب . ؟

وبعد ، بقي علينا ان نعالج عقبة كبيرة تقف سداً منيعاً في وجه هذا الاتحاد . وأعني بها تلك المعاهدات التي يرتبط بها كل من شرقي الاردن والعراق بدولة اجنبية . ان هذه المعاهدات، وما يتبعها من بروتوكولات تجعل السوري واللبناني المعافين، والمستقلين استقلالاً تاما ، يترددان في قبول هذا الاتحاد الذي يحمل النير ، وذلك خوفاً على استقلالهما .

هذا حق لا ريب فيه ، خصوصاً اذا ضربنا صفحاً عن المقابلة بين مساويء هذا الاتحاد من حيث وجود الارتباطات مع بريطانيا العظمى ، وبين مساويء التجزئة والانفراد على ما فيهما من الخطر الاسرائيلي .

ولكن هناك طرفاً آخر هي انكلترا بوسعها رفع هـــذه العقبة الكأداء ، وانتشال طلاب الاتحاد من حالة التردد ؛ خصوصاً ، وانها تتوخى من هذا الاتحاد قيام كتلة قوية في وجه الشيوعيين ، على أمل ان تكون نواة لتكتل أعم .

وانها لفرصة سانحة لعمان وبغداد للسعي الى تعديل معاهدتيهما على ضوء هذا المشروع .

على اني وان كنت أعلم ان دون تحقيق اتحاد بلاد الهلال الخصيب مصاعب أخرى، ولا سيما ما كان منها من تضارب مصالح الزعماء الشخصية ؛ ولكن المصاعب كالثلوج ، وان تراكمت ، فلا بد من ذوبانها،ولا بد من تركها المجال الى الحقائق.

فهرست الاقطار العربية في جزئي الكتاب بمقتضى العناوين

●



فهرست الاعلام للجزء الثاني (١)

●

(١) جرينا في ترتيب الاسماء على حسب ما وردت في الكتاب دون التقيد بتقديم الاسم او الكنية . ونحن، في هذا الترتيب، لا نعتبر كلمتي ابن واب ان وردتا قبل الاسم. هذا وان المؤرخين والعلماء ، الذين ورد ذكرهم في هذا الفهرست، هم في جملة من اعتمدنا عليهم في مصادر الكتاب .

ـ غ ـ

- ن -

انتهى الجزء الثاني

وصدر في سنة ١٣٦٩ هـ = ١٩٥٠ م



فهرست الكتاب

●

